مواهب الرحمن
في تفسير القرآن
تأليف
عبد الكريم محمد المدرس
عُني بنشره
محمد علي القره داغي
المجلد السادس
الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

<3>

الجزء الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون، مكية، وهي مائة وثماني عشرة آية

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)﴾

قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ من هنا إلى تمام الآيات العشر آيات مَدَحَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه، والضياء في المختارة وغيرهم عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي نسمع عند وجهه كدوِيّ النحل، فأنزل عليه يوما، فمكثنا ساعة فسرى عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال: ((اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثِرْنا ولا تُؤثِر علينا، وَارضَ عنا وَأرضِنا)) ثم قال: ((لقد أنزلت عَلَيَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة)) ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر.

وأفلح لازم بمعنى دخل في الفلاح أي في الفوز بالمرام، وقد يجيء متعدياً، وعليه قراءة أفلح بالبناء للمفعول، والمراد بالمؤمنين، أما المتصفون بأصل الإيمان بما علم مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم به بالضرورة من أركان الإيمان الستة، والإسلام الخمسة، فتكون الصفات الآتية بعدها مُخصّصة. وأما المؤمنون الجامعون بين الاعتقاد والأعمال فعلاً وتركاً فتكون صفاتٍ مادحةً وموضحةً ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ أي أذلاء خائفون ساكنو الجوارح، عليهم كساء الحياء والوقار، متفكرون في عظمة الملك الجبار، لا يلتفتون يميناً وشمالاً، ولا ينظرون إلى السماء خبالاً، ولا يتحركون حركات توجب بطلان صلاتهم أو سوء الأدب في مناجاتهم، فإن الصلاة صلة رابطة بين العبد وربه، وهي معراج لقربه من دربه، وخلاصة الخشوع: ترك مبطلات الصلاة ومكروهاتها، وملازمة الحضور مع الله تعالى. وهذه هي الصلاة الرافعة للطاعة إلى سماء القبول ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ واللغو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال. والشائع استعماله في كلام لا يصدر عن رؤية وفكر فيجري مجرى اللغاء وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور. والمقصود استمرار الإعراض عن ذلك حتى يكون الأدب ملكة نفسية له ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي فاعلون لأدائها وإخراجها وتسليمها للمستحقين عند حولان الحول أو وجوب الأداء في الأقوات وما شاكلها من الركاز والكنوز المستخرجة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ هذه الآية الكريمة آتية ببيان صفة من الصفات الجلية للإنسان التي من

اتصف بها فاز بالسعادة، وهي العفة وصيانة النفس عما هي راغبة فيه من قضاء الشهوة الفرجية التي تورث الخير على الوجه المشروع، وتورث الشر على غيره. فكم من فتنة دينية ودنيوية، وفوات مال، وضياع حال، واختلال صحة بدن نشأت منها؟ ولما كانت الشهوة المذكورة لازمة لطبع الإنسان ويصعب الانفكاك عن مقتضاها استثنى عن المذكور وقال: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ في اصطلاح الشرع ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ بشرط أن يكون المالك رجلاً فإن التسري للنساء لا يجوز بالإجماع، ومستنده واضح من الكتاب والسنة، فالرجال هم المجاهدون الآخذون للغنائم، وهم القوامون على النساء المنفقون عليهن، وهم الأوساط طبعاً والأحقاء بأن تكون إدارة النساء بأيديهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل للاستثناء أي فإنهم غير ملومين على ترك حفظها منهن قضاء لدغدغة الماء المعهود، وإبقاء للنسل في الوجود على مر العهود، واستيناساً بالمألوف على الوجه المعروف.

وعدم اللوم في هذا الباب مقيد بشروط في السنة والكتاب من خلوها عن الموانع كالإحرام، والحيض، والنفاس، ومدة عدة الشبهة، وتوقف الردة، والصغر، والمرض المانع كما هو معلوم.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي فمن ابتغى ما عدا ذلك المذكور من الأزواج الصاعدة إلى الأربع والإماء كيف شاء ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي المتجاوزون عن الأمر المشروع، الكاملون في التعدي والاعتداء على حدود الله. ويدخل في ذلك إفراغ المني بطريق الخيال، أو النظر في ذات الجمال، أو الملامسة، أو الزنا، أو اللوط، أو مواقعة البهائم، أو السحاق..... وغير ذلك كالاستمناء ما لم يكن هناك خوف الوقوع في الأفسد.

واستدل بهذه الآية الجليلة على بطلان نكاح المتعة وهو النكاح إلى أجل مسمى معلوم في مقابل أجرة معلومة بلا احتياج إلى شهور ولا إعلان بين الناس، ولا إلى الطلاق، لأن انتهاء المدة لها طلاق، وبعد فراغ المدة فعدتها تكون لمن تحيض بحيضتين، ولمن سواها بخمسة وأربعين يوماً، ولا يجب فيها غير الأجرة شيء من النفقة وما شاكلها، ولا توارث بينهما إذا مات أحدهما في المدة المذكورة. هذا أصلها وقد تفرع عليه أمور كثيرة يطول ذكرها. ودلالتها على بطلانه لأن المنكوحة بذلك النكاح ليست بزوجة لما ذكرنا، وليست مملوكة ملك اليمين، ومن لم تكن من إحدى هاتين فنكاحها باطل.
فإن قيل: إن هذه الآية الكريمة ونظيرها في سورة المعارج من السور المكية فكيف تكون دليلاً على حرمة ما كانت مباحة بعد الهجرة؟ أجيب بأن في استعمال المكي والمدني وجوهاً ثلاثة:
الأول: إن المكي ما نزل قبل الهجرة؟ والمدني ما نزل بعدها.
والثاني: إن المكي ما نزل في مكة ولو كان نزولها بعد الهجرة كالآيات التي نزلت عام الفتح في مكة، أو في حجة الوداع، والمدني ما نزلت بالمدينة المنورة.
والثالث: إن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة في أي محل كان، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة كذلك. فهذه الآية ونظيرها في سورة المعارج يحتمل نزولهما في مكة في عام الفتح، أو في حجة الوداع، فتكونان مكيتين على الوجه الثاني. والتحريم يكون في أواخر أيام حياته صلى الله عليه وسلم.
ولئن تنازلنا وقلنا: إنهما مكيتان على الوجه الأول فنقول: تقرر عند الأصوليين أنه يجوز نسخ الكتاب بالسنة فلا مانع من نزولهما قبل

الهجرة لتشريع حرمة نكاح المتعة الشبيهة بالسفاح الدائر سابقاً، ولكنه لما اضطر الناس في الغزوات إلى ذلك ولم تكن مندوحة عنه أباحه الرسول صلى الله عليه وسلم مدةً لاقتضاء الضرورة ويظهر ذلك مما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنهم كانوا إذا غزوا اشتدت عليهم العزوبة فـأذن لهم في الاستمتاع. حيث إنّ الإسلام ينكر الفوضى وسُوءَ المعاشرة مع الناس، وفسادَ الأخلاق، وجوز للمضطرين التوافق مع بعض النساء وأوليائهن على نكاح مؤقت كذلك في مقابل أجرة معلومة، ولكنه كان مقيداً بمقدار الضرورة. فقد روي أنه أبيح بعد الهجرة في بعض الغزوات قبل فتح خيبر ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإعلان تحريمه في خيبر، وبعد مدة أخرى أبيح أيضاً في عام فتح مكة الذي حدث فيه حرب أوطاس للضرورة عينها، ثم حرم وأعلن التحريم بعد غزوة أوطاس، وكرر إعلان التحريم عام حجة الوداع كما نص عليه الشيخ ابن حجر العسقلاني في شرح البخاري في باب نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة حيث ذكر أقوالاً كثيرة فقال ما نصه. وقال النووي: والحق الصواب أن تحريمها أو إباحتها وقعا مرتين فكانت مباحة قبل خيبر، ثم حرمت فيها ثم أبيحت عام الفتح وهو عام أوطاس، ثم حرمت تحريماً مؤبداً، ولما كان نسخ الإباحة وإعلان التحريم لم يسمعه بعض المسلمين أجازوه حتى أن انتشر في البلاد بين العباد واطلع الناس عليه.

وخلاصة المقام بعد تسليم أن الآيتين نزلتا بمكة قبل الهجرة نقول إن المتعة كانت دائرة في الجاهلية لاسيما للمسافرين من ذوي الحاجات النفسية. ولما كان منشأ لترتب كثير من المفاسد والمشاكل الاجتماعية والأخلاقية نزلت الآيتان في مكة لرفع تلك العادات الفاسدة عادات الجاهلية وحصر النكاح في النكاح المشروع والمزاوجة المشروعة، ومعاشرة المملوكات ملك

اليمين حسب الأصول. ولكنه لما كانت تلك العادة عريقة في الناس وصعبت إزالتها مرة واحدة واحتاج إليها بعض الغزاة في الحروب حاجة ملحة أبيحت بعد الهجرة مدة من الزمن ثم حرمت في خيبر، ثم أبيحت، ثم حرمت تحريماً مؤبداً إلى آخر الزمان.

وليس في القرآن الكريم آية يستدل بها على إباحة المتعة، وما استدل به بعض المخالفين من قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ حيث حملوا الاستمتاع على التمتع المعهود بالنساء في النكاح المعهود، والأجور على أجرة المرأة.. لا دلالة فيه على مقصودهم كما سنذكره. والقرآن الكريم خال عن إجازة ذلك. ومادة المتعة نزلت في آيات كثيرة لمعان عديدة ترجع إلى أصل واحد.

الأول: متعة التسريح بإحسان كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وقوله تعالى ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ والمتعة بهذا المعنى واجبة على الرجال لا تسقط بحال.

الثاني: متعة الحج يسميها الفقهاء المتعة، وقد ذكرها القرآن الكريم بالتمتع وهو الاعتمار زمن الأمن في أشهر الحج كما في آية: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾. وقيمة الهدي على ما ذكره القرآن الكريم طعام عشرة أيام قياماً للناس رزقاً لأهل الحرم.

والمعنى الثالث للتمتع هو الانتفاع بطيبات الرزق ولذائذ الحياة.

وقد نزل في آيات كثيرة باسم المتاع، ومن باب التفعل وباب التفعيل والاستفعال. قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾. وقال: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾. وقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾.

أما متعة النكاح ونكاح المتعة فلم ينزل القرآن بها أبداً. وإذا علمت ذلك علمت أن دعوى المخالفين بكون قوله تعالى ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ نازلاً في نكاح المتعة دعوى بلا دليل، وليس مستنداً إلى حجة من العلم والدين، ومخالف لظواهر الآيات الكريمة النازلة في باب النكاح.

وكيف تحمل تلك الجملة الجليلة على تلك الصورة الرذيلة؟ واكتنفها صدرها والآية التي تليها وهما مخالفان لجواز نكاح المتعة، وصدرها ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي وحرمت عليكم ذوات الأزواج الحرائر من النساء ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي فلا تحرم عليكم ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي كتب كتاباً من الله عليكم. ثم يقول ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ أي وأحل لكم نكاح ما وراء ذلك المذكور من أصناف المحرمات من الأمهات وغيرهن ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ أي أن تطلبوا الزواج بأموالكم المصروفة في المهور ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ حال من فاعل الفعل السابق أي حالكونكم محصنين غير مسافحين أي متعففين من الزنا غير صابين ماءكم في ما لا يحل لكم ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أي باشرتموهن ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مُهُورهن، فإن المهر مذكور في القرآن بعنوان الأجور في آيات، وأما تاليتها فهي قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾.... الآية فإنها تنادي بأعلى صوتها:

إن المؤمن إذا لم يمكنه الزواج من المحصنات فلا مجال له إلا الاستفادة من الإماء التي ملكتها الأيمان، وهن من المؤمنات، وأنه ممنوع من السفاح واتخاذ الأخدان، فلو جاز نكاح المتعة لقال: فمن ما ملكت أيمانكم أو ما نكحتم بأجور إلى أجل. فهذا النوع من النكاح لا محل له في كتاب الله ولا جواز له لمن يدين بدين الله، ولا يجوز نسبة القول بجوازه إلى أئمة أهل البيت. فقد روى الإمام الشافعي عن ابن عيينة عن الزهري عن الحسن عن أبيه الباقر محمد بن علي زين العابدين عن أبيه عن علي ابن أبي طالب أن منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ((نادى يوم خيبر إلا إن الله ورسول الله ينهيانكم عن المتعة)) وروى صاحب الكافي وهو من أوثق الكتب عندهم ذلك. فقد روى عن محمد بن أحمد بن يحيى عن أبي جعفر عن أبي الجوزاء عن الحسين ابن علوان عن عمرو بن خالد عن زيد بن علي عن آبائه عن علي ابن أبي طالب أنه قال: حرم النبي يوم خيبر لحوم الحمر الأهلية ونكاح المتعة.

وبالجملة فنكاح المتعة عقد محرم لا مساغ له بأدلة:

الأول إجماع الأمة على تحريمه بعد تقرر نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عنه وثبوت النسخ في شورى الصحابة في عهد عمر رضي الله عنه وكان علي كرم الله وجهه حاضراً بالمجلس. وثبت إجماع المسلمين أهل السنة وغيرهم برواية زيد ابن زين العابدين عليّ، ورواية محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم على تحريم المتعة تحريماً مؤبداً والرواية ثابتة قطعاً. ودعوى التقية ساقطة؛ لأن التقية من حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم مستحيلة؛ فإن الشارع واجبه التشريع، ومن الإمام علي كرم الله وجهه غير سائغ؛ لأنه مبلغ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وواجبه الوفاء بأداء الأمانة.

الثاني: إن كل آية فيها حل النكاح أو حرمته يدل على تحريم المتعة فإن النكاح إذا أطلق لا يشمل نكاح المتعة لا لغة ولا شرعاً، إذ لا يطلق على المتعة ولا على التمتع اسم النكاح كما لا يطلق على ماء الورد اسم الماء إلا بالإضافة، ولا يطلق اسم الأزواج واسم امرأة الرجل واسم نساء المؤمنين ونساؤكم على المتمتع بهنّ. وهذه بينة لغوية وإنكارها مكابرة، فإذا كان الأمر كذلك فليست المتمتع بها زوجة كما أنها ليست مملوكة فابتغاؤها عدوان وتجاوز على الحدود الشرعية.
الثالث: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ الأحزاب آية 49. يدل دلالة قطعية على أن عقد النكاح المشروع لا ينقطع إلا بطلاق أو ما في معناه كالفسخ من أحد الزوجين أو الحاكم. فالتمتع لا يكون عقداً حلالاً، لأنه ينقطع وينتهي بغير الطلاق. ويدل أيضاً على أن عقد النكاح الحلال يوجب متاع التسريح، ونكاح المتعة لا يوجب متاع التسريح فلا يكون عقداً حلالاً، ويدل واضحاً على أن عقد النكاح لا يوجب العدة إلا على الأزواج لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فكل نكاح لا يوجب القرآن الكريم عليه العدة يكون باطلاً بالضرورة، ولا آية فيه توجب العدة في المتعة.
الرابع: كل آية من آيات الطلاق والصداق والعدة والمواريث والحقوق مثل: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ تدل دلالة ظاهرة على أن العقد الحلال إنما هو النكاح الذي تثبت به كل هذه الحقوق، فكل عقد لا يترتب عليه طلاق أو لا يترتب عليه إرث، أو كل عقد لا يكون لها عليه مثل الذي عليهن لا يكون حلالاً مشروعاً.

الخامس: قوله ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾يحرم بنصه نكاح المتعة لأن من لم يستطع طولاً أن ينكح المحصنات لو كان يحل له التمتع بأجرة وإلى أجل مسمى لذكره القرآن الكريم حتى لا يكون قاصراً في بيان شرعه وحصره للنكاح المشروع في القرآن الكريم.

السادس: الكتاب الكريم يقول في نكاح النساء: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾. ويقول في نكاح الرجال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ ونكاح المتعة لا إحصان به، والمتعة فيها سفاح ماءٍ في غير حرث، والمتعة هي اتخاذ خدن في كلا الطرفين فالمتعة إذاً حرامٌ بنص القرآن.

السابع: قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فإن هذه الآية الكريمة وحدها من بين سائر الآيات تكفي تمام الكفاية في إظهار أن المتعة كانت محرمة في صدر الإسلام، ولو حلت المتعة لما كان لهذه الآية الجليلة وجه وتعالت عن ذلك. ويظهر للمنصف أن الآية لما حرمتها على الإماء كانت حرمتها على الحرائر أولى.

الثامن: إن المتعة بأجرة إلى أجل إجارة، وإجارة المنفعة بيع وتجارة، ولم يحل دين من الأديان تجارة المرأة بشرفها وعرضها، ولو جاز لامرأة بذل شرفها مقابل أجرة في مقابل هواها وجب القول بجواز كل عمل فاسد يجري في المحلات المعينة للبغاء بالأجور، إذ لا تزيد المتعة التي لا يعتبر فيها

الشهود ولا الإعلان على البغاء، بل يزيد البغاء عليها في يومنا هذا بوجود أطباء اختصاصيين لمكافحة الأمراض المعدية.
ويظهر من تلك الأدلة أن المراد بالاستمتاع في قوله تعالى ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ هو الاستمتاع اللغوي العربي، ويراد به المباشرة، وإنها توجب تقرر كامل مهرها. وتسمية المهور أجورا واردة في كثير من الآيات. وأما دعوى زيادة ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ في بعض القراءات فلا اعتماد عليها لأن القرآن لا يثبت بخبر الآحاد، وروايتها كخبر مروي لا قيمة لها في معارضة تلك الأدلة الكثيرة الواضحة. هذا ونسأل الله الوصول إلى خير مأمول إنه معطي كل حاصل ومحصول.
﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ وهذه الأمانات تشمل كل ما يؤتمن المكلف عليه من أمانات الحق كشرائعه وتكاليفه أو الخلق مما أوُدِعوا أو جُعلوا حُراساً أو أمناء عليه. والعهد مصدر وأريد به ما عوهد عليه، فإن كان من الشرائع فذكره تأكيد للأمانات، وإن كان مما جرى بين الناس على موافقة الحق وإصلاح ما فسد من الأمور فذكره تأسيس. وأصل الرعي حفظ الحيوان والمراد به هنا الرعاية والمحافظة على ما قرره الله من كافة النواحي ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي الذين هم يحافظون باستمرار على رعاية الصلوات من حيث أداؤها في أوائل الأوقات مع الجماعة وفي المساجد والجوامع. صدر الباري تعالى أوصاف المؤمنين وختمها بأمر الصلاة اهتماما بها. والصدر للخشوع فيها والختم لباقي الأمور المرعية إشارة إلى أن روح الصلاة عبارة عن الخشوع فيها الموجب لمزيد الحضور ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ أي أولئك المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات الحميدة هم الذين ينالون الفردوس،

وهو أعلى الجنة و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً. والجملة حال مقدرة من فاعل ﴿يَرِثُونَ﴾ ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ السلالة الخلاصة التي سلت وأخذت من مجموعة مُكدرة بعد تصفيتها. والإنسان إن أريد به سيدنا آدم أبو البشر فالمعنى واضح، وإن أريد به الجنس، أي نوع الإنسان، فوجه الكلام أنهم خلقوا من سلالات جعلت نطفاً بعد أدوارٍ جرت عليها. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي جعلنا نسله ﴿نُطْفَةً﴾ أي خلقناه من نطفة ثابتة ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ أي مستقرٍّ حصين ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي جعلنا النطفة قطعة دمٍ منجمدة حمراء ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي جعلنا تلك القطعة من الدم قطعة من لحم ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ أي صلبناها وجعلناها عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أي فجعلنا العظامَ مكسوة باللحم. وهذا على أحد وجهين فإما جعل بعضاً من المضغة عظاماً وجعَل بعضاً آخر منها لحماً لِكسوة العظام وهذا هو الظاهر أو جعل المضغة قطعة عظم، وجاء بلحم مخلوق في الرحم كساء لها. ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ﴾ يعني أنشأناه حالكونه مخلوقاً آخر غير ما كان سابقاً وهو الإنسان الكامل الأجزاء الذي خلق فيه الروح وصار مدركاً للكليات والجزئيات بحسب ما قدر له من

الهيآت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي فتعظم وتقدس الله الذي هو
أحسن الخالقين أي أحسن من كل خالق يزعمه الشركاء خالقاً. وتمييز
أفعل التفضيل محذوف أي أحسن الخالقين خلقاً. أو أن الخالقين من
الخلق بمعنى التقدير والتصوير العلمي أي أحسن من كل ذات يعتبر
مقدراً ومصوراً لأمور الكائنات.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد ذلك الخلق والدخول في عالم الحياة
الإنسانية والعيش المقرر ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ أي لمتصفون بالموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي تبعثون وتعادون إلى عالم الحساب والثواب
والعقاب وذلك بخلق جديد وإعادة للإنسان السابق من أجزائه الأصلية
التي دفنت أو سُترت في الماء، أو جُعلتْ غباراً وذرت في الهواء كما
يظهر من قوله تعالى ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ
يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أو من مثل تلك الأجزاء كما يظهر من
قوله الكريم ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17)
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ
لَقَادِرُونَ (18) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ
وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (20) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ
(22)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى تأثيره في تكوين العباد على تلك الدرجات الدقيقة الحقيقة بالتفكير العميق فيها، وذكر أنهم بعد أن استقروا على الأرض وقضوا أعمارهم في استيفاء لذاتهم ومقتضى شهواتهم، وما نالهم من تبعاتهم يموتون، وبعد ذلك الموت المؤسف المحزن المبكي يبقون في البرزخ بحيث ينساهم ذووهم، ثم إذا جاء وقت الحساب والميزان يبعثهم من القبور لميدان العرض والحساب وأخذ ما يستحقونه من الثواب والعقاب... وجهَ عباده إلى ما وراءه من جهاته، وما يحتاج إليه في حياته من السماوات والأرض وما فيهما من آثار قدرته التي يعجز عن إحصائها العقول فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ أي في الجهة التي لا يتبدل اسمها بالنسبة وهي جهة الفوق مع مقابلها من التحت ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي سبع سماوات هي طرائق للملائكة في الصعود والنزول، أو طرائق للكواكب السيارة على دوام المسير في الإشراق والغروب، أو سبع سماوات هي طرائق أي مبسوطات من طرقت الحديد إذا بسطته، أو سبعة أنواع لأن لكل سماءٍ أحوالاً وأموراً من وجوه تصرف الباري كجعل السماء الدنيا مزينة بزينة الكواكب، وتخصيص كل سماء بجاذبة تقتضي أن تكون فوق الأخرى أو تحتها بدرجة أو درجات، أو على صفات خاصة مغايرة لصفات البواقي ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ وما كنا غافلين عن تقدير الخلق والإيجاد، أي أنا أزلي وعلمي بالمخلوقات وأحوالها أزلي. أو ماكنا عن المخلوق غافلين ومهملين شئونهم، فكل مخلوق له أمد في البقاء وأجل للفناء، وحاجة خاصة بينهما، وأنا عالم بذلك.

وفي الحقيقة إذا نظر الإنسان نظر العاقل في شئون السماوات وكواكبها، واختلاف حركاتها جهة وسرعة وأثراً، ودورانها على محورها على كيفية خاصة من الجاذبة، ورعاية موازينها بحيث لا يختل شيء منها أبداً.... آمن

بأن لها رباً قادراً خبيراً، ولا يؤدُهُ حفظ أي كبير أو صغير مادام تعلقت به إرادته. ولو تحققت الغفلة عنها ثانية من الثواني بل آناً من الأوان لتحطم العالم. فسبحان من رب مهيمن. وهذا الوضع البديع المتقن المنظم على أحسن نظام بعيد حتى في شعور أي إنسان أن ينسب إلى مبدأٍ بلا شعور.
﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من نفسه أو جانبه وجهته، أو السحاب الثابت في حركته ﴿مَاءً﴾ هو المطر ذائباً، والحالوب منعقداً، والثلج متفشياً، والصقيع واقعاً على البسيط، والندى على النباتات وأوراق الأشجار لاسيما في البيع بالأسحار، متلبساً ﴿بِقَدَرٍ﴾ على مقدار ما تقتضيه حكمتي في صنعتي، سواء وافق مصلحة الناس أو لا ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فجعلناه ثابتاً قاراً فيها، ومن ذلك مياه العيون ولا يقدح في قدرة الباري المتعالي تكون الماء من انقلاب البخار أو اعتبار أي عاملٍ اعتيادي فإن أمور الكائنات في الأرض والسماوات كلها على أسباب ومسببات. وقال تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ وهل يقدح في قدرته نبت النبات من البذور، وعمل العامل من الشعور، وضوء البيت من النور؟ لكن العاقل إذا تفكر قليلاً علم أن تلك الأسباب عاطلة إذا لم تكن هناك إرادة عاجلة، فإنَّ البحار موجودة، والأبخرة لا محدودة، وقد لا ينزل من السماء مطر كاف للنبات، والإنسان إنسان والنطفة نطفة و﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.
والحاصل إنا لا ننكر الأسباب ولكن التأثير وخلق المقصود متعلق بإرادة المعبود كما قال تعالى ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي وإنا لقادرون بلا ريب على الذهاب بالماء عن المائية أي إخراج الماء بتحجيره، أو تغويره في الأرض، أو بنحو ذلك. وفي هذه الجملة بلاغات ذكرها المفسرون، ولم يلتفت الباري سبحانه إلى تعداد النعم الناتجة من الماء النازلة من السماء

لكثرتها بحيث لا يعلمها إلا الله، ولكن ذكر بعض المنافع الخاصة فقال: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ أي بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قدمهما لكونهما من الأقواتِ والفواكه، وفيها أنواع الطعوم من الحموضة والحلاوة والتوسط ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في تلك الجنات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ من أنواع الحوامض والحلويات ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي ترزقون أي تبيعون منها وتأخذون بدلها ما تعيشون به من المساكن والملابس وسائر الأقوات واللحوم والحاجيات، ويجوز أن تعطف هذه الجملة على جملة أخرى مقدرة مستفادة من سياق النعم وهي منها تبيعون. أي منها تبيعون ومنها تأكلون. وإنما أظهر المعطوف لأن غالب البساتين للأكل لا للبيع، ولكن هذا يكون عند المتمولين.

ذكر الراغب في الفاكهة قولين: الأول أنها الثمار كلها. والثاني أنها ماعدا العنب والرمان. وصاحب المختار اختار الأول وقال: قولُ مخرج التمرِ والرمانِ منها مُستدلاً بقوله تعالى ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ قولٌ باطلٌ. ولا خلاف في أن اليابس منها كالزبيب والتمر وحَبَّ الرمان ليس بفاكهة.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أي أنشأنا لكم شجرة تخرج من طور سيناء، وهو جبل موسى عليه السلام الذي ناجى ربه عليه، وهو بين مصر وأيلة. ويقال لها اليوم (العقبة). وقيل بفلسطين من أرض الشام، ويقال له طور سينين. وجمهور العرب على فتح سين سيناء، وهو اسم للبقعة والطور اسم للجبل المخصوص، أو لكل جبل وهو مضاف إلى سيناء كما أجمعوا عليه ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي تنبت ملابسة بالدهن وهو عصارة كل ما فيه دسم والمراد ملابسة ثمرها له. وقيل الباء للتعدية أي تنْبِت الدهن. ولا يخفى بعده لأن ربط الإنبات بالدهن لا دهنَ فيه للذهن.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ بيان للنعم الواصلة إليهم من جهة الحيوان بعد بيان النعم الواصلة من الأمطار والنبات، ثم فصل ما فيها من مواقع العبرة. فقال ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي مما في أجوافها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أصوافها وأشعارها وأوبارها وغير ذلك... ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ عند ذبحها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ أي السفن ﴿تُحْمَلُونَ﴾ في البر والبحر بأنفسكم وأحمالكم. وضمير عليها راجع للأنعام باعتبار بعض منها أي الإبل والبقر الأول بالوفرة والثاني بالندرة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾. أقول صنع الله الذي أتقن كل شيء كل سورة وكل آية وكل جملة في القرآن الكريم لها علاقة مع أطرافها، ومناسبة لائقة بحكمة الباري في تنزيل الكتاب العزيز. ذكر الفلك المناسب لسيدنا نوح، وذكرنا بما جرى معه من قومه الطغاة، وقهر الباري عليهم بالطوفان لعبِرةِ القراء والسامعين. فأكد وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي والله لقد أرسلنا ﴿نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ المخصوص الذين أرسل إليهم ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحده ولا تشركوا به ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فإن المعبود يجب أن يكون مختصاً بالخلق والرزق ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ ﴾ عذابه بعد حسابه مما تشركون ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي بعضهم لبعض مستنكفين من الخطاب معه عليه السلام: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ نوعاً وصنعاً ووصفاً لا يتميز بالرسالة والعناية ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم أنتم فلا تخلوه وشأنه ولا تهملوا أمره حتى يستفحل خطبه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إرسال الرسول ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي رسلا منهم. وقوله تعالى حكاية عنهما: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي بإرسال الرسول من البشر إلى البشر ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يدل على فرط جهلهم بأحوال الأمم الماضية، فإن إرسال الرسل من البشر كان مشهورا معهودا معلوما، وعلى قوة عنادهم بحيث أعماهم وجعلهم يعارضون ما علموا بوجوده ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ وانتظروا واصبروا وتحملوا كلامه ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ لعله يفيق عن هذا المرض فيعقل ما نعقله أو يموت فيزول ما نتحمله ولما سمع نوحٌ كلامهم ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ عليهم بإضعافهم ليطيعوا أو بإبادتهم حتى ينقطعوا وذلك ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ي أي بسبب تكذيبهم لي. ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عقب ذلك ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ أي اصنع الفلك ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي متلبساً بمزيد حفظنا ورعايتنا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي أمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي وحينا ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ بيان وتفسير لمجيء الأمر. وكان سيدنا نوح عليه السلام في ذلك الوقت بالجزيرة قرب الموصل. وقيل في (عين وردة) بالشام. وقيل في مسجد الكوفة. والله أعلم ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ﴾ أي أدخل فيها من كل أمة ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي فردين متزاوجين ولذلك بينه بقوله ﴿اثْنَيْنِ﴾ فإنه ظاهر في الفردين. يعني إن زوجين تثنية زوج بمعنى الفرد المزاوج لا بمعنى الشفع من النوع، وإلا لزم حمل أربعة أشخاص من كل نوع ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي واسلك أهلك، والمراد بهم من تبعه من المؤمنين والمؤمنات ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ استثناء من الأهل إستثناء منقطعا، لأنهم لم يدخلوا في الأهل بالمعنى المذكور والمراد بهم زوجته وابنه الذي لم يؤمن، وكان مع سائر الكافرين. ولو حمل الأهل على المعنى المشهور وإرادة امرأته وبنيه منه، كما في سورة هود، كان الاستثناء متصلا ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي﴾ بالشفاعة للإنجاء ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا بالله ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ لظلمهم وإشراكهم. ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ على نعمة إنجائنا وإهلاكهم ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا﴾ أي أنزلني من الفُلك إنزالا أو مَسْكَناً ومنزلاً يكون سبَباً للبركة او الرحمة بأمنه مِن الحَشَرات والسباع والأعداء الأرضية وصيانته من البلايا السماوية، والاستفادة من البركة المادية في المحل باشتماله على المياه والمزارع وسائر ما يعيش به الناس والأنعام، والمعنوية بأن يكون معمورا بالذكر والطاعة ووجوه الخيرات ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي خير من ينزل أتباعه في المحل المبروك. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من أحوال نوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ لمن يعتبر بها ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ وإنا كنا مختبرين له ولقومه ومن نجح ربح.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (34) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (39) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي أنشأنا من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان أهل قرن آخرين. قالوا: هم قومُ عادٍ أو ثمود،

والمشهور أن قوم عاد هم الذين جاءوا من بعد قوم نوح. ويشكل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ لأن إهلاك قوم عاد كان بالريح العاتية. وأجيب عنه بأن جبريل عليه السلام صاح بهم من الريح كما روى في بعض الأحاديث. وأما إذا فسرنا القرن بقوم ثمود فلا اشكال لأن هلاكهم كان بالصيحة ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هو هود أو صالح عليهما السلام. ولا يشكل على الثاني قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾

لأنهم كانوا بعدهم، ولو توسط بينهما قوم عاد. ﴿أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ﴾ كلمة أن مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ ﴾ عذاب الآخرة على اتخاذ غير الله إلهاً ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي أنعمنا عليهم إنعاماً زائداً فوقعوا في ترف من حيث المعيشة واللذة الدنيوية:
﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للماثلة، وادعاء أن المماثل في الأكل والشرب لا يكون رسولا من الله تعالى، ولا تصح إطاعته، ولذا قالوا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ أي في تصرفات العقلية، مغبونون في آرائكم.
ثم استأنفوا لتقرير الزجر السابق بقولهم ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ ذلك البشر المماثل لكم ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ؟ ﴾ من القبور للحشر والحساب والميزان والنشور. ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ هيهات اسم لفعل ماض وهو بعدَ كحسن، وهيهات الثاني تأكيده، والغالب في هذه الكلمة استعمالها مكررة. وفاعله راجع إلى الموضوع المذكور في الآيات السابقة، وقوله لما توعدون بيان له، فهو متعلق بمقدر كما في سُقياً لك، أي البُعدُ المذكورُ كائن لما توعدون.
وقيل: إن اللام زائدة، وما توعدون فاعل لاسم الفعل، أي هيهات ما توعدون ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، ثم وضع الضمير موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها، فالضمير عائد على متأخر وعوده على متأخر مفسرٍ له جائزٌ إذا كان خبراً عنه. وكلمة إن نافية أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، وإذا متنا فليست لنا حياة أخرى ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت جيل ويولد جيل آخر فيحيا بعد الجيل الأول ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد موتنا لحياة ثانية نثاب فيها أو نعاقب ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ بدعوى أنه أرسله

إلينا وما نحن ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين له فيما يدعيه ويقوله ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ أي قال رسولهم بعد أن يئس من إيمانهم ﴿رَبِّ انْصُرْنِي﴾ عليهم بإبادتهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب أنهم كذبوني، وتكذيبهم لي تكذيب لك وأنت المنتقم المقتدر على الظالمين ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي قال الله تعالى إجابة لذلك الرسول الجليل ﴿لَيُصْبِحُنَّ﴾ أي أولئك القوم المكذبون لك عن زمانٍ قليل نادمين عما قالوا وفعلوا لحلول العذاب عليهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي فأخذت ذلك القوم الظالم صيحة جبريل عليه السلام بالأمر الوارد من الله وهذا ظاهر ان كان القوم قوم صالح واما ان كانوا قوم عاد فالامر مشكل واجابوا عنه بان جبريل صاح بهم من الريح. قلت: ويجوز أن يراد بالصيحة صيحة الريح العاتية لأنه قد تكون فيها صيحات هائلة تقطع القلوب ولاسيما اذا امرت من الله باهلاك قوم كعادٍ العادين ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ كغثاء السيل وهو ما يحمله من الأوراق والعيدان البالية والأعشاب ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إما اخبار اي بعدوا بعداً ثابتا للقوم الظالمين، أو إنشاء ودعاء عليهم بذلك والدعاء على النسق المعتاد، والا فلا حاجة الى الدعاء بالهلاك بعد الاهلاك الا اذا اريد البعد من رحمة ملك الملوك ومالك الأملاك.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آَخَرِينَ (42) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ
فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44) ثُمَّ
أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ
وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ
آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آَيَةً
وَآَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ
الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ
أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ
بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ
أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا
يَشْعُرُونَ (56)﴾

قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آَخَرِينَ﴾ هم عند أكثر المفسرين قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وغير ذلك ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ ما نافية، وكلمة من زائدة لتأكيد النفي، والأجل بمعنى مدة البقاء كلها، أو آخر الوقت المقرر لها، أي ما تتقدم أية أمة صالحة أو طالحة على الوقت الذي قدر لبقائها، بل تنتهي عنده فإن كانت صالحة فإلى حسن المصير، وإن كانت طالحة فإلى سوء المصير ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي وما يقتدرون وما يستطيعون تأخير ذلك الوقت دقيقة، وكل شيء عنده بمقدار ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ والتاء الأولى بدل من الواو كما في تراث وتجاه يدل على ذلك الاشتقاق من الوتر والوراثة والوجه وأصله وترى وتترى مصدر. وقرئ بالتنوين وعدمه[1]. والمواترة المتابعة بين

---

[1] أي قرئ تترى منوناً وغير منون؛ فمن نون قال: أن ألفه للإلحاق بجعفر كعلقى، فلما نون ذهب ألفه لالتقاء الساكنين. ومن لم ينون قال: إن ألفه للتأنيث كدعوى.

الأشياء بشرط أن يكون بينها فترة زمنية وإلا فهي مُداركَةٌ وملاحقةٌ ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ وكلما ظرف لتكرار ما بعدها، وناصبها جوابها ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ في الإهلاك والدمار ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع أُحْدُوثة وهي ما يتحدث به تعجباً وتَلَهِيا، أي لم يبق منهم شيء إلا حكايات يسمر بها ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالحق إلى مسافات طويلة من رحمة الباري وفيضه الساري إلى العباد.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا﴾ البينات أي المعجزات كالعصا واليد البيضاء أو البلايا المزعجات كالحشرات والضفادع والدم آيات مفصلات ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ إحدى الآيات الكبريات أو ثنتان، أعني العصا واليد البيضاء، خص بعد دخوله في العموم للاهتمام. أو المراد بالسلطان المدد الغيبي الكامل والروح المعنوي بحيث لم يهابا ذلك الظالم وأتباعه الظالمين المذكورين في قوله ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسلناه إلى فرعون رئيس الأقباط لا إليه وحده بل إليه وإلى ملأه وليست الدعوة إلى الحق مختصة، بل عمتهم وغيرهم لكنهم كانوا رؤساء الأمة. والملأ أشراف يسمون بالملأ لأنهم هم الذين يملأون مجالس الاستشارة أو مواقع الاهتمام بالأمور ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي فرعون وملأه استكبروا عن قبول دعوته ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ على الأمة بالقوة والعزة فاستغنوا وبغوا وطغوا ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ في القامة والقيافة والصورة والعادات البشرية ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ أي والحال إن قومهما أذلاء عندنا نستسخرهم ونستخدمهم في الأعمال بشوكتنا وقوتنا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فاستمروا على تكذيبهما ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في اليم ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾أي التوراة بعد عبوره مع قومه النيل وإهلاك فرعون وقومه المشايعين له

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق طاعة رب العالمين بعد خلاصهم من فرعون وملأه المستكبرين.
﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿وَأُمَّهُ﴾ العذراء ﴿آَيَةً﴾ وحيدة لم يكن لها نظير في عالم الوجود قبلهما، والآية ولادة ابن من أم بدون أب ﴿وَآَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ أي جعلناهما يأويان إلى محل مرتفع مادة ومعنى وهو بيت المقدس ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي ذات أرض واسعة تليق باستقرار أهل الشرف والكرامة والطاعة والعبادة ذوات ماء جار لا ينقطع ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي وقلنا لكل رسول منهم: كُلْ من طيبات الأطعمة معنىً لكونها حلالاً، ومادةً لكونها لذيذة خفيفة على المعدة ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي وقلنا لكل منهم: اعمل عملا صالحا موافقا للشريعة التي أنزلت إليك ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ كلاً وبعضاً ﴿عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم جزاءً لائقاً بالرب الرحيم ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي وإن هذه الشريعة المنزلة إليكم شريعة واحدة لا تفاوت في معتقداتها مقدار شعرة، ولا اختلاف في موافقة فروعها للمصلحة في عقل أهل الخبرة. فالعقيدة واحدة بالشخص، والأعمال واحدة بالنوع، والمجموع واحدة وحدة عقلية جلية، وعنوانها شريعة الله تعالى في عباده المؤمنين.
هذا إذا كانت الأمة بمعنى الملة والدين. وأما إذا كانت بمعنى الجماعة من المكلفين أصحاب العمل بالشرائع فالمعنى قلنا للرسل: إن هذه أمتكم التي أرسلتم إليها حالكونها أمة واحدة مضبوطة لا اختلاف فيها قبل إرسال الرسل لأنهم على الفترة والأهواء الغريزية التي ليس بينها شريعة ﴿فَاتَّقُونِ﴾ في قبول الأحكام لأني أنا ربكم الذي خلقكم وأوصلكم إلى درجة التكليف بالنظام الإلهي. وحاصل المعنى: إنا أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتب ليتحدوا تحت راية النظام الحق، ولكنهم خالفوا واختلفوا

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي قطعوا أمر دينهم وجعلوه أديانا مختلفة وبدل أن يعبدوا ربا واحدا عبدوا أربابا متفرقة، وبدل أن يوحدوا الله أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وجعلوا الدين زبرا مختلفة وقطعاً غير مؤتلفة، وصاروا أحزابا متفرقة ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي وكل جماعة من الجماعات المختلفة بما لديهم من الذي اختاروه فرحون مستبشرون، وكلما كان أمرهم أقرب إلى الهوى اعتنقوه والتزموه أشد وأزيد ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي اتركهم ودعهم حيارى في شئونهم المشئومة ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ وهو حين مجيء الوقت لمعاقبتهم أو محاسبتهم، وليس لهم مستمد سليم يستندون إليه ويستمدون منه إلا الأموال والبنين.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي أيظنون أن الذي نعطيهم إياه ونجعله مددا لهم من الأموال والأولاد نسارع به لهم فيما فيه خيرهم ﴿بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾ عطف على مقدر أي كلا لا نفعل ذلك بل لا يشعرون، أي ليس من شأنهم الشعور.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي إن الذين
آمنوا بربهم إيمانا ثابتا في قلوبهم جعلهم بحيث يخافون من عذاب
ربهم في الدنيا والآخرة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي كما آمنوا
بوجوده سبحانه وتعالى يؤمنون بآياته المنزلة على رسله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ
بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ يعني آمنوا بالله إيمانا محفوظا عن ضلال الإشراك
فلم يشركوا به أحدا ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى
رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي والعباد المكلفون الذين يعطون الناس المستحقين
من الصدقات، والحال إن قلوبهم وجلة وخائفة من أن لا تقبل منهم
الصدقات، لأنهم يؤمنون بأنهم إلى ربهم راجعون، فيحاسبهم على
أعمالهم ونفقاتهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة
﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي هم الذين يسارعون في نيل الخيرات
دون أولئك الكفرة الموصوفين بأضداد تلك الصفات ﴿وَهُمْ لَهَا
سَابِقُونَ﴾ أي وهم لأجل تلك الخيرات يسعون في السبق ويظفرون
بها، أو هم لأجل نيلها يعتبرون من الجمع السابقين.
﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ أي أية نفس من الأعمال الصالحة الخيرة ﴿إِلَّا
وُسْعَهَا﴾ أي إلا ما كان في وسعها وطاقتها ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾
أي ولدينا كتاب مستوعب لصحائف أعمالهم ينطق ببيان ما عملوه
بالوجه الحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بمنع جزاء الأعمال الصالحة منهم ﴿بَلْ
قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ إضراب عن بيان أحوال المؤمنين ورجوع
إلى بيان أحوال الكافرين، أي بل قلوب الكفرة في غفلة وجهالة من
هذا التفصيل الناطق بأن المؤمنين

العاملين للصالحات جزاؤهم عند ربهم، وعلى غرار ذلك جزاؤهم أيضا مقدر ومقرر ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي ولهم أعمال سيئة كثيرة من دون غفلتهم، أي ليست سيئتهم منحصرة في الغفلة بل لهم وراء ذلك سيئات ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي لتلك السيئات عاملون ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي استمروا في العمل السيئ ومكابرة الرسل ومعاندة الحق حتى إذا أخذنا كبراءهم المترفين الذين أغروا سائرَ الناسِ بالكفر والعناد بالعذاب الشديد الذي يستحقونه ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي يصيحون بالويل والثبور ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ أي فقلنا لهم: لا تجئروا اليوم بلا فائدة ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ أي لا تنالكم نصرة مِنا ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ استئناف لبيان علة عدم نيلهم النصرة، أي لأنه قد كانت آياتي البينات المنزلة على الرسول المؤتمن تتلى عليكم من جانبه فكنتم عند سماعها ترجعون على أعقابكم، ورجوع الشخص على أعقابه رجوعه في طريقه الأولى ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي بالبيت الحرام الذي جعلتموه نصب العين للاستكبار والافتخار فحسب ﴿سَامِرًا﴾ أي ذاكراً للبيت، أو للقرآن المعلوم من المقام، او للرسول التالي للآيات ﴿تَهْجُرُونَ﴾ الرسول وتتركون الكلام معه، أو تهجرون الحق غير مبالين به.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77)﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ الهمزة للإنكار واستقباح عدم تدبرهم، أي أفعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا القرآن ليعلموا ما فيه من الحقائق ووجوه الإعجاز التي تُرشد المتفكر إلى الإيمان بأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل مطلقاً ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آَبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ؟ ﴾ أي بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأتِ آباءهم السابقين حتى استبعدوه فوقعوا في الكفر والضلال ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ إضراب من توبيخ إلى توبيخ آخر، أي بل ألم يعرفوا رسولهم الذي أرسل إليهم بالأمانة والصدق والأخلاق العالية، ولذلك استنكروه ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أي من جهة عدم معرفته وعدم الإطلاع على أحواله ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ؟ ﴾ إضراب وانتقال إلى توبيخ آخر، أي بل أيقولون به خلل وفي شخصه جنون واختلال عقل ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ إضراب عما يدل عليه الكلام السابق، أي ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول، بل جاءهم بالكلام الحق الثابت المطابق للواقع وذاته الجائي به شخص مبارك منزه عن سوء الأخلاق والأحوال، وليس مجهولاً من حيث الذات والصفات، وليس في عقله خلل وملل، وإنما هو إنسان كامل في الصفات العالية، فالإله الذي يدعو المكلفين إليه حق، والكلام

الذي نزل عليه حق مطابق للواقع، وشخصيته قدسية أمينة عالية ذاتاً وصفة فهو حق ومعه الحق ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي ولكن لما في الحق من مخالفة النفس وهواها جبلةً ولا تنمحي آثار تلك الجبلة إلا برياضة ومرونة وأقلهم ليسوا كارهين له فمنهم من أسلم، ومنهم من بقي على كفره خوفاً من تعبير قومه.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ الحق هو التوحيد ومقتضى الأهواء التعدد والإشراك فلو تبدل التوحيد ووحدة الإله بالإشراك وتعدد الآلهة لفسدت السماوات والأرض على وزان ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أو الحق عبارة عن رعاية العدالة في العالم والأهواء عبارة عن الفوضى والاختلال، فلو مال الحق وزال وجاءت الأهواء والفوضى لم يبق عيش من كثرة الطيش، ولم تبق راحة من تعدي أهل الإباحة، ففساد السماوات والأرض ومن فيهن كناية عن كثرة الاختلال بحيث لا يبقى للصلاح مجال، أو الحق عبارة عن سلامة الاعتقاد والاعمال، والأهواء عن سقم الإعتقاد وسوء الأعمال فلو كان الأمر كذلك لغضب الله تعالى على الكائنات وغيرها أو دمرها، والمآل للاعتبارات واحد ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ إضراب وانتقال من تشنيعهم بكراهة الحق إلى تشنيعهم بالإعراض عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما فيه خير كالقرآن الذي فيه ذكرهم لله وفي ذلك السعادة الأبدية، وذكرهم في حياتهم ومماتهم بأنهم قوم نبع فيهم ينبوع الحكمة ونزلت عليهم آيات الرحمة ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ﴾ لله تعالى أو عن فخرهم وشرفهم ﴿مُعْرِضُونَ. أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ إنتقال الى توبيخ آخر على زعم أنك تسألهم على تبليغ الدين خرجاً ماديا وجعلاً ماليا يصعب عليهم أداؤه، وليس كذلك لأنك لم تطلب ذلك قط، ولن تطلبه عوضُ. ومهما كان الأمر ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي فرزقه المحول منه إلى

عبده خير من كل ما يسعى له الناس من غير جهته ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ في التصور، فهو الذي هيأ للناس، بل لكل حيوان بل لكل فرد من أفراد الثقلين رزقاً ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تشهد عقول المنصفين باتصافه بالإستقامة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ﴾ مثل كفار قريش ﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾ المستقيم الذي تدعوهم إليه ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ لمنحرفون إلى الجانب ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ من سوء الحال سواء كان من الفقر أو المرض ﴿لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ لتمادوا وتطاولوا في طغيانهم وإفراطهم في العتوِّ والاستكبار حالكونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي عامهين متحيرين مترددين في بحر من الضلال.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي كفار قريش ﴿بِالْعَذَابِ﴾ من القحط والمجاعة ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي فما خضعوا لربهم وما استسلموا، فإن الجاهل الجاحد والغافل الجامد لا يسند البلايا إلى الله، ولا يجعلها ناتجة من كفره بالله ووحدته، وإنكاره لعطائه ونعمته. وإنما يجعلها من الصدقات، أو ناتجة من أسباب عادية ولا يدرك أن مرجع الأسباب الى إرادة الباري جل شأنه العظيم ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ في الحال أو في المستقبل لأنه لما كانت قلوبهم مطبوعة على ما هم عليه سد باب الإنتباه والتضرع إليه فيبقون كما كانوا إلى يوم القيامة ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيرون.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)﴾

قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يعني قل لهم يا رسولي: هو الذي أنشأ لكم أي خلق لكم هذه الحواس الظاهرة النافعة، وأهمها: السمع، والبصر، وخلق لكم الأفئدة أي القلوب المتفكرة لتستفيدوا بها العلم بالمجهولات وتميز المنافع من المضار لكسب الخير والسعادة في المعاش والمعاد وانتم ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون الخالق شكرا قليلا ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أي خلقكم وبثكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فتناسلتم واكتسبتم ما تعلقت به إرادتكم في حياتكم الدنيوية ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم البعث والحساب وجزاء الأعمال ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يخلق الحياة في مواد مستعدة للحياة بإرادته ويخلق الموت عند انقضاء الآجال ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي ويختص التأثير في الكرة الأرضية به حتى تتحرك ويحصل من حركتها الليل والنهار ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي فلا تتصورون هذه الأمور وتنسبون هذه الآثار إلى الله تعالى.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي آباؤهم السابقون المنكرون للبعث والنشور ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ يعني تمزقنا وصارت أجسادنا ترابا يابسا ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ونحيا حياة ثانية ونحاسب على أعمالنا في حياتنا الأولى ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ﴾ في أيامنا ﴿وَ﴾ وعد ﴿آبَاؤُنَا هَذَا﴾ الأمر الموعود وهو البعث بعد الموت ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من أزمنة قبل هذا الزمان ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا الوعد ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا أكاذيبهم التي سطروها وتناقلت بينهم إلى يومنا، ولم يتفكروا في أن هذا الموعود

وارد من رسول مؤيد بالمعجزات الباهرة القاهرة مبلغ من الله العلي العظيم الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهما وما عليهما. ومن كان قادرا على خلق الأشياء من العدم فهو قادر على إعادتها كما كان وهو العليم القدير.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أراد بهذا الأمر والخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل المنكرين للبعث أسئلة ليظهر في جوابها أنهم ملزمون حسب الأجوبة بالإعتراف به فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لأولئك المنكرين للبعث: ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي الأرض ومن فيها من العقلاء ملك لأي مِالكٍ وملكٌ لأي مَلِكٍ؟ ومن الفاعل القادر الذي خلقهما؟ ولا شك أنك إذا سألتهم ﴿سَيَقُولُونَ﴾ في الجواب: إنهما ﴿لِلَّهِ قُلْ﴾ عند اعترافهم بذلك تبكينا لهم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أتقولون ذلك فلا تتذكرون فتعلمون أن من خلق الأرض ومن فيها ابتداء

قادر على إعادة المكلفين ثانيا فإن الإعادة أهون من البدء ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ وفي قراءة بدون اللام، وهذا على الظاهر والأول على المعنى، وكلاهما جائز، فإذا سألت من صاحب هذه الدار فقيل زيد كان جوابا على ظاهر اللفظ، واذا قيل لزيد فهو جائز أيضا بحسب المعنى ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أتعلمون ذلك ولا تتقون عقابه ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي من الذي بيده وفي قبضة قدرته التصرف والملك والاستيلاء والسيطرة على كل شيء، وهو يمنع من يشاء لمن يشاء ولا يمنع أحدا منه أحدٌ تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي إنكم إذا علمتم ذلك فمن أين تخدعون وتنحرفون عن الرشد ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ إضراب عن قولهم إن هذا إلا أساطير الأولين. أي أعرضوا عن ذلك فإنا أتيناهم بالحق، أي بالأمر المطابق للواقع وهو الوعد بالبعث المحقق ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم إن هذا الا أساطير الأولين ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لأي غاية ومرام ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لاستند بالذي خلقه واستقل بالتصرف فيه ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لوقع التنازع بينهم حسب العادة، ولزم من ذلك انحصار الألوهية في العالي وانتفاؤها في المستعلى عليه. وهذا بناء على ملاحظة العادة من وجود التنازع بين مالكين.

والحق إن هذه الآية إشارة إلى برهان قاطع على الوحدة للإله.

وتقريره: ولو كان معه من إله لأمكن بينهما تخالف الإرادة بأن يريد أحدهما حركة زيد والآخر سكونه، ولو أمكن التخالف بينهما لزم انتفاء الألوهية لهما، أو لواحد منهما. أما الأول فعلى تقدير عدم تحقق مراد شيء منهما

لأنهما حينئذ يكونان عاجزين. وأما الثاني فعلى تقدير تحقق مراد واحد منهما دون الآخر.
وبوجه آخر نقول: لو كان هناك إلهان لزم أن لا يكون شيء منهما إلها، إذ لو وجدا لأمكن التخالف بينهما في الإرادة، ولو أمكن التخالف لزم إمكان غلبة كل على الآخر بمقتضى الألوهية، لكن التالي باطل لاستحالة عجز الإله ومغلوبيته لأي شيء.
﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي تنزيها بليغا كاملا لله تعالى ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن اتخاذ كل ولد أو شريك يصفه المشركون به ابنه أو شريكه، أو عن وصفهم وذكرهم الولد والشريك له ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بدل عن الاسم الجليل، أو صفة له لأنه أريد به الثبوت والاستمرار فتكون صفة مشبهة، والإضافة معنوية مفيدة للتعريف ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعاليا كبيرا.
﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)﴾
قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ روي عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيه عليه السلام أن

له في أمته نقمة ولم يُطلعه على وقتها، فأمر بهذا الدعاء. ودعاؤه صلى الله عليه وسلم امتثالا لأمر الله تعالى وسر الأمر به مع أنه صلى الله عليه وسلم معصوم هو المحافظة على دوام المخافة من الله وإرشاد الناس إلى ذلك المسلك والاهتمام بطلب شمول الرحمة من الله تعالى، كي يصان من شمول شؤم المعصية. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَة لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّة﴾ فلما نزلت الآية الكريمة دعا بها وقال: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾.... الآية أي يا رب إن كنت أردت أن تريني ما يوعدون ويأتيهم العذاب في حياتي ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ المعذبين ولا تعذبني بعذابهم، ثم قال تعالى ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ ولكنا لا نفعل ذلك بل نؤخره عنهم لعلمنا بأن منهم من يتوبُ ومنهم من سيؤمن أعقابه ويدخلون في الإسلام ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ أي ادفع بالحسنة التي هي أحسن الخصال الخصلة السيئة منهم، أي قابل السيئة من أعمالهم وأقوالهم بالحسنة من أعمالك وأقوالك، وإذا أدركت عملا سيئا منهم فقابله بعمل حسن منك، لكن بحيث لا يوجبُ وهناً في قواعد الدين. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما يصفونك به من الصفات الذميمة وأنت بريء من كلها.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أي من الدسائس التي يلقونها إلى القلب ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي من حضورهم حولي أو في قلبي ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أي جاء أحد الكفار المشركين الموت ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ إلى الدنيا وحياتها وإلى القوة ونشاطها ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ﴾ عملا ﴿صَالِحا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من الإيمان وما يتفرع عنه من الأحكام. فإذا كان مني كفرٌ بالله ورسوله بدلته بالإيمان بهما، وإذا كان عندي قصور في أداء الواجبات أبدلها بعملها على وجه الكمال ﴿كَلَّا﴾ ردع

عن طلب الرجعة واستبعاد لها ﴿إِنَّهَا﴾ أي جملة رب ارجعون ﴿كَلِمَةٌ هُوَ
قَائِلُهَا﴾ أي جملة يستمر على قولها ولا تفيده أبدا ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ
إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي وأمامهم حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا التي
يريدون الرجوع إليها وهذا الحاجز يخرجهم إلى يوم البعث والنشور،
وفي ذلك اليوم يدخلون في عالم الآخرة إلى الأبد. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي
الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ
(104) أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا
غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا
فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ
مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (
109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (
110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111) قَالَ كَمْ
لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ
الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114)
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ
الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (
117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيـام السـاعة وهي النفخـة الثانيـة التي تقع عند البعث والنشور ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ والمـراد أنهـا لا تنفعهم شيئا، فهي منزلة منزلة العدم لاشتغال كل شـخص بنفسـه. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامـة جمـع اللـه تعـالى الأولين والآخرين ثم ينادي مناد ألا إن هذا فلان ابن فلان، فمن كـان لـه حق قِبله فليأت إلى حقه فيفرح ويحب المـرءُ أن يكـون لـه الحـق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا.

والمراد بهذه الآية الشريفة تهويل شأن ذلك الوقت ببيان أنه يذهل فيـه كل أحد عمن بينه وبينه نسب، ولا يلتفت إليه ولا يخطر هو ببالـه، فضـلا عن أنه ينفعه أولا ينفعه. وهذا لا يدل على عدم نفع كل نسب فضلا عن عدم نفع نسبه صـلى اللـه عليـه وسـلم. فـإذا تقـرر أن الآيـة واردة في شأن وقت النفخ في الصـور للبعث والنشـور لا يبقى مجـال شـبهة في أنها لا تنافي وجود النفع في السبب والنسب يوم القيامة عند الحســاب والميزان أو قبلهما أو بعدهما فإن الشفاعة الكبرى ثابتة للرسول صـلى الله عليه وسلم بالأدلة القاطعة والبراهين السـاطعة الـتي لا ينكرهـا إلا من حرم من الشفاعة، ويدل على ذلك قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: ((كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي)) فقد

روي ذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويقول سـمعتُ رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقولهُ.

﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي ولا يسأل بعضهم بعضا عن حاله، وممن هـو، ونحـو ذلك لاشتغال كـل إنسـان بنفسـه. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُـهُ﴾ أي موزونـات حسناته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بكل مطلـوب، والنـاجون من كـل كـرب ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ﴾ أي مـوازين أعمالـه الحسـنة ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي ضـيعوها بتضـييع زمـان اسـتكمالها بالأعمـال الصـالحة وصـرف العمـر في الأعمـال الطالحـة ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ خبر ثان لأولئك، أو خبر مبتدأ محذوف، أي هم خالـدون ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ واللفح مسُّ لهب النارِ للشيء، والمراد تحـرق وجـوههم النار ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ أي متقلصو الشفاه عن الأسنان من أثر ذلـك اللفحِ ﴿أَلَمْ تَكُنْ آَيَـاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي فيقـال لهم من اللـه سـبحانه توبيخا وتعنيفا ﴿أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَـا تُكَـذِّبُونَ﴾ حينـذاك ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ التي اقتضاها سـوء اختيارنـا للشـهوات بحيث لم يبق لنا مجال الخلاص منها ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي وكنا بسبب ذلـك قومـا تـائهين في مسـافة الحيـاة ضـالين مضـيعين فـرص التوبـة والإنابة ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـالِمُونَ﴾ أي أخرجنـا من هـذه النار اللفاحة وارجعنا إلى الدنيا للعمل فـإن عـدنا إلى مـا كنـا عليـه من الأعمـال الفاسـدة والعقائـد الكاسـدة فإنـا ظـالمون لأنفسـنا إذ ذاك ونستحق كل عقاب.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جوابهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أي ذلوا وانزجروا انزجار الهوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُـونِ﴾ أي ولا تتكلمـوا معي ولا تسـألوني إخـراجكم من النار وإرجاعكم إلى الدنيا لأنكم كنتم فُساقاً مستهترين ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيـقٌ مِنْ عِبَادِي﴾ وهم المؤمنون ﴿يَقُولُـونَ﴾ في الـدنيا ﴿رَبَّنَـا آَمَنَّا فَـاغْفِرْ لَنَـا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾

أي هـزءًا على وجـه المبالغـة لأنهم مـا كـانوا هـزءً لهم بـل كـانوا محـل هزئهم، وسخريا قرئ بكسر السين وضـمها وهمـا مصـدرا سـخَر زيـدت فيهما ياء النسبة للمبالغة. واختلف أهل اللغة هـل همـا بمعـنى واحـد أو بينهما فـرق؟ فاختـار بعض الإتحـاد في المعـنى. وقـال بعض: إن أصـله التسخير وهو الإحضار قهرا، فإن كان للهزء بـه فهـو السـخرية بالكسـر ومنه المسخرة. وإن كان للعمل والاستخدام من غير أجرة فهو بالضـم، وقيل غـير ذلـك. ﴿حَتَّى أَنْسَـوْكُمْ ذِكْـرِي﴾ أي حـتى أنسـوكم بتشـاغلكم بالاسـتهزاء بهم ذكـري، أي خـوف عقـابي فلم تخـافوني في أحبـائي ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وذلك غاية الاستهزاء ﴿إِنِّي جَـزَيْتُهُمُ الْيَـوْمَ بِمَـا صَـبَرُوا﴾ أي بسـبب صـبرهم على الأذى الـذي لقيهم منكم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ إما في موضع المفعـول الثـاني لقولـه جـزيتهم، لأنـه يتعـدى بنفسه وبالباء، وإما في موضع الجـر بلام التعليـل المقـدرة أي لفـوزهم بالتوحيد المؤدي إلى كل سعادةٍ وأمان.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى او الملك المـأمور بـذلك لهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في الدنيا التي تطلبـون الرجـوع إليهـا ﴿عَـدَدَ سِـنِينَ﴾ ظـرف زمـان لقوله لبثتم ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَـوْمٍ﴾ استقصـارا واسـتقلالا لمـدة لبثهم فيها ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أي المتمكنين من التعداد فإنـا لم يبـق لنـا مجال لـه ﴿قَـالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي مـا لبثتم إلا زمانـا قليلا ﴿لَـوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم أهل العلم والمعرفة ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ الفـاء للعطـف على مقـدر، أي ألم تعلمـوا الحقيقـة فحسـبتم أنـا خلقناكم للعبث والأمـر الخـالي عن الفائـدة ﴿وَ﴾ حسـبتم ﴿أَنَّكُمْ إِلَيْنَـا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ولا تحاسبون على أعمالكم ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الـذي لا عبث في أفعاله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وماعداه من الآلهة المزعومة عبيد له ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ وهو جرم

عظيم فوق عالم الأجسام والأجرام لا يحيط بعلمه إلا الله، والكريم إمـا بمعنى المبروك، أو المراد الكريم ربه وصاحبه.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ﴾ إفراداً أو إشراكاً، موصوفا بأنـه ﴿لَا بُرْهَـانَ لَهُ بِهِ﴾ أي بوجوده وصفا لازمـا فـإن من لـوازم كـل محـال أن لا يكـون برهان على وجوده لاستحالة البرهان على وجود المحال. وقوله ﴿فَإِنَّمَـا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ جزاء الشرط، ومعناه لا يعرف مقدار جزائه وعقابه إلا ربـه ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَـافِرُونَ﴾ أي لا يفلح أبـدا، ومن لا يفلح أبـدا لا يعلم حسابه إلا ربه ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ أي اغفـر لي ولأمـتي وارحمـني ومن تبعني، ولذا حذف المفعول ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

سورة النور، مدنية، وهي اربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آَيَـاتٍ بَيِّنَـاتٍ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ (1) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَـةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَـةُ لَا يَنْكِحُهَـا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)﴾

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ خبر مبتـدأ مقـدر، أي هـذه سـورة أو هي مبتدأ وما بعدها خبر، وسـوغ الإبتـداء بهـا وهي نكـرة مـا فيهـا من إرادة العظمة والإعتناء لأنها مشتملة على أحكام مهمة كثيرة. والمعنى سورة كبـيرة مهمـة أنزلناهـا وفرضـناها، أي فرضـنا على الأمـة أحكامهـا ﴿وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضـحات الدلالـة على معانيهـا ﴿لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ﴾ أي لعلكم تتـذكرون مـا سـمعتم من شـريعة أبيكم إبـراهيم وحفـظ الكرامـة الإنسـانية فيهـا وتمشـون على شـريعتكم الموافقة لشريعته في العقائد ومهمات الدين. أو أريد من التذكر لازمـه أي لعلكم تتقون المحارم وتبتغون المكارم.

وقـرىء تـذكرون بـالتخفيف أي لعلكم تـذكرون ربكم وتشـكرونه على إنزال هذه السورة وأمثالها.

ثم شـرع في تفصـيل الأحكـام، وقـدم بيـان الحـد على هتـك الأعـراض فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ مرفوعان على الابتداء، وجملة ﴿فَاجْلِـدُوا كُـلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ خبر، والفاء الداخلة عليها لتضمن المبتدأ معـنى الشرط، أو هما مبتدآن بحذف المضاف، والخبر مقدر ومقـدم، أي ممـا يتلى عليكم حكم الزانية والزاني، والفـاء سـيف خطيب. وقـدم الزانيـة على الزاني لأن القوة الشـهوية فيهـا أكـثر، أو لأنـه لا يمكن عـادة ذلـك العمل إلا بمطاوعتهـا، وإلا فـإذا عصـت وصـاحت اجتمـع الأهـل أو أهـل الغيرة أو النظام لدفع الرجل ومنعه وتعذيبه.

والجلد ضرب الجلـد وقـد اطـرد صـوغ فَعَـلَ المفتـوح العين الثلاثي من اسماء الاعيان فيقال: رأسهُ وظَهره، وبطنهُ... إذا ضرب رأسـه وظهـره وبطنه. وجوز الراغب أن يكون معنى جلده ضربهُ بالجلد، نحو عصاه أي ضربه بالعَصا. والمراد هنا المعنى الأول، فـإن الاخبـار قـد دلت على أن الزانية والزاني يضربان بسوط لا عقدة عليـه، ولا فـرع لـه. ثم الظـاهر من ضرب الجلد أعم من أن يكون بلا واسطة أو بواسطة. وقال الإمـام مالك رضي الله عنه: أنه ينزع عن الزاني عند الجلد ثيابه إلا الإزار فإنـه لا ينزع لستر عورته به. وعن الإمام أحمد والإمام الشافعي رضـي اللـه عنهما أنه يترك عليه قميص أو قميصان. وفي بعض الأخبار ما يدل على أن الرجل والمرأة سـواء في عـدم نـزع الثيـاب إلا الفـرو. وكـان من لا يقول بـنزع الثيـاب يقـول إن الجلـد في العـرف الضـرب مطلقـا وليس خاصا بضرب الجلـد. والحـق أنـه إذا كـان من وجب عليـه الحـد ضـعيف الخلقة بحيث يخاف عليه الهلاك بنزع الثياب لا ينزع منه وإلا فينزع منـه ماعدا ساتر

العورة إلى درجة يسبب الضرب إيلامه إيلاما يطاق ويناسب للتأديب الشرعي، بشرط اتقاء الأعضاء اللطيفة كالعيون والخدود وأمثالهما مما يضر المحدود ضررا غير مشروع.

والزنا في اللغة والشرع وطء الرجل المرأة في القبل بإدخال الذكر أو قدر الحشفة في فرجها. وأما زنا المرأة فتمكينها له من هذا العمل الفاحش والحكم عام فيمن زنى وهو محصن أي متزوج وفي غيره، لكن نسخ في حكم المحصن قطعا فإن الحكم في حقه الرجم.

فالشافعية يقولون: إن الناسخ هو الحكم الوارد في الآية المنسوخة التلاوة، يعني قوله تعالى (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: خشيت أن يَطولَ بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله تعالى عز وجل، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجلّ. ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الإعتراف. وروى أبو داود أنه خطب وقال: إن الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه كتابا فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، يعني بها قوله تعالى (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم).

فقرأنا وعيناها إلى أن قال: وإني خشيت أن يطول بالناس زمان فيقول قائل لا نجد الرجم. الحديث بطرقه وقال: لولا أن يقال إن عمر زاد في الكتاب لكتبتها على حاشية المصحف الشريف وهذا الحكم أيدته السنة النبوية المتواترة حيث أمر صلى الله عليه وسلم برجم ماعز ورجم المرأة الغامدية (بالمعجمة نسبة الى غامد من جهينة) وبقوله صلى الله عليه وسلم لأنيس: ((اغد على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها)).

وقال العلامة ابن الهمام من الحنفية: إن كون الناسخ السنة القطعية أولى من كون الناسخ ما ذكر من الآية، لعدم القطع بثبوتها قرآنا ثم نسخ تلاوتها، وإن ذكرها عمر رضي الله عنه، وسكت الناس فإن كون الإجماع السكوتي حجة مختلف فيه، وبتقدير حجيته لا نقطع بأن جميع المجتهدين من الصحابة رضي الله عنهم كانوا اذ ذاك حضورا، ثم لا شك في أن الطريق في ذلك إلى عمر رضي الله عنه ظني. ولهذا والله تعالى أعلم قال علي كرم الله وجهه حين جلد شرحة ثم رجمها: جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله. ولم يعلل الرجم بالقرآن المنسوخ التلاوة. ويعلم من قوله المذكور كرم الله تعالى وجهه أنه قائل بعدم نسخ عموم الآية (أي آية الجلد) فيكون رأيه أن الرجم حكم زائد في حق المحصن ثبت بالسنة، وبذلك قال أهل الظاهر وهو رواية عن احمد.

وزادت الشافعية على جلد الزاني الغير المحصن تغريب عام إستنادا إلى حديث عبادة بن الصامت: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». إلا أنهم تركوا الجلد مع الرجم لأنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر به في حد ماعز والغامدية. وخلاصة البيان أن الحكم في الزانيين كان بالأول إيذاء وبعده حبسا للنساء حتى يتوفين، وبالأخير مائة جلدة لغير المحصنين مع تغريب سنة على خلاف، والرجم للمحصنين.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي ولا تستول عليكم رأفة وعاطفة نفسية في طاعة الله وإقامة الحد الذي شرعه في الدين، فإن الحدود سدود. وكلما طبق الحد استحكم السد، فيبقى الناس في أمان على النفس والعرض والمال، وكلما وقع الخلل في إقامتها شاعت الخيانة وضاعت الأمانة، وتزلزل إيمان المؤمنين، ولذلك عقب ذلك بقوله الكريم

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليحضروا عند إقامة الحد زيادة في التنكيل بزيادة التخجيل. والأمر للندب، والطائفة اثنان فصاعدا عند مالك. وقال قتادة والزهري ثلاثة فصاعدا. وعند الشافعي وزيدٍ أربعة. وهو رواية عن مالك.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ قالوا: إن الآية الكريمة نزلت في فقراء المهاجرين عندما هموا أن يتزوجوا الزواني لفقرهم وعدم اقتدارهم على صداق العفائف، ولرغبتهم في الاستفادة من أموالهن.. فحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم، لأنه تشبه بالفساق، وتعرض للتهمة، وتسبب لسوء مقالة الناس فيهم، وتشويه لسمعة الإسلام والمسلمين. والحكم مخصوص بالأناس الذين نزلت الآية فيهم، أو عام لهم ولغيرهم، ولكنه نسخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ فإنه يتناول المسافحات والصالحات، ويؤيد ذلك أنه لما سئل صلى الله عليه وسلم عنه قال: ((أوله سفاح وآخره نكاح)) والحرام لا يحرم الحلال، فإن ظاهره أنه كان يعتبر سابقا من السفاح فنسخ وصار نكاحا شرعيا معتبرا.

ونقل في روح المعاني عن النيسابوري أن قوله ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾... الآية حكم مؤسس على الغالب المعتاد جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا. وذلك أن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب غالبا في نكاح الصوالح من النساء اللاتي على خلاف صفته، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله أو في مشركة. والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة والمشركين. ونظيرُ هذا الكلام: لا يفعل الخير إلا تقيٌّ فانه جارٍ مجرى الغالب ومعنى التحريم

على المؤمنين على هذا قيل: التنزيه وعبر به عنه للتغليظ. ووجـه ذلـك أن نكاح الزواني متضمن للتشبه بالفساق والتعـرض للتهمـة، والتسـبب لسـوء المقالـة، والطعن في النسـب إلى كثـير من المفاسـد. وقيـل: التحريم على ظاهره وذلك الفعـل يتضـمن محرمـات، والحرمـة ليسـت راجعة الى نفس العقد ليكون العقد باطلا. وعلى القولين الآية محكمـة. إنتهى.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَـانِينَ جَلْـدَةً وَلَا تَقْبَلُـوا لَهُمْ شَـهَادَةً أَبَـدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُـونَ الْمُحْصَـنَاتِ﴾شـروعٌ في بيـانِ حكم منْ نسبَ الزنا إلى غيره بعد بيان حكم من فعلـه، والإحصـان هنـا بالحريـة، والبلوغ، والعقل والاسلام، والعفة عن الزنـا، والموصـول مـع صـلته في محل الرفع مبتدأ، وقوله ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَـةِ شُـهَدَاءَ﴾ معطـوف عليهـا وقوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ خبره، والفـاء لتضـمن المبتـدأ معـنى الشرط، وتخصيص المحصـنات لأن قـذف النسـاء أغلب وأشـنع وإلا فلا فرق في القذف بين النساء والرجال، فاذا قذف إنسان، رجل أو امرأة، وهمـا بالغـان عـاقلان رجلا عفيفـا أو امـرأة عفيفـة، ولم يـأت على مـا أسـنده الى المقـذوف بأربعـة شـهداء يشـهدون عليـه وجب عليـه حـد القذف، ولا يسقط هـذا الحـد بعـد ثبوتـه عنـد الإمـام أبي حنيفـة، الا أن يقول المقذوف: لم يقـذفني، أو كـذب شـهودي. وعنـد الشـافعي يصـح العفو. وعن أبي يوسف مثله، وكان المراد أنه إذا عفا سقط الحدّ.

ولا يشترط اجماع الشهود عند الأداء، ولا تعتـبر شـهادة زوج المقذوفـة، خلافاً لأبي حنيفة.

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَـدًا﴾ أي مـدة حيـاتهم عنـد أبي حنيفـة، ومـا لم يتب عند الإمام الشافعي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ﴾ المحكـوم بفسـقهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي رجعوا عما قالوا وندموا على مـا تكلمـوا بـه، ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِـكَ﴾ القـذف ﴿وَأَصْـلَحُوا﴾ أي أصـلحوا أعمـالهم بالاسـتحلال عمن رموه إن بقي حيا، وإلا فبالإستغفار لمن رمـاه، واسـتغفاره لنفسـه عن ذلك القذف. وهذا الإستثناء راجع إلى قوله وأولئـك هم الفاسـقون عنـد أبي حنيفة، وإلى أصل الحكم عند الشافعي وهـو اقتضـاء الـرمي الغـير المقترن بشهادة الشهود الأربعة للجلـد، وعـدم قبـول الشـهادة وتحقـق الفسق. فإذا استسـلم وجُلِـدَ وقـد تـاب من القـذف تقبـل شـهادته، ولا يحكم بفسقه، فلا يتحقـق الجمـع المـذكور. وإذا اسـتحل من المقـذوف وتاب لا يتحقق واحد منها، لأن طلب المقـذوف شـرط للجلـد، ولا يلـزم سـقوط الحـد بـه كمـا قيـل، لأن من تمـام التوبـة الاستسـلام لـه أو الاستحلال. وقوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ علة للإستثناء.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُـونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُـهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُـهُمْ فَشَـهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَـعُ شَـهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَـةُ أَنَّ لَعْنَـةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَـدْرَأُ عَنْهَـا الْعَـذَابَ أَنْ تَشْـهَدَ أَرْبَـعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَـبَ اللَّهِ عَلَيْهَـا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَـوَّابٌ حَكِيمٌ (10)﴾

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ بيان لحكم الرامين لأزواجهم خاصة، وهو ناسخ لعموم المحصنات، وكانوا قبل نزول هذه الآية يفهمون من آية ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾... الآية أن حكم من رمى الأجنبية وحكم من رمى زوجته واحِدٌ. فقد أخرج أبو داود وجماعة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟ قالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا، وما طلق امرأة فاجترأ رجلٌ مِنّا على أن يتزوجها من شدة غيرته. فقال سعد: يا رسول الله إني لأَعْلَمُ أنها حق وأنها من عند الله تعالى، ولكني تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أُهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء! فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته. قال: فما لبثوا يسيرا حتى جاء هلالُ بن أُميَّةَ، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلا، فرأيت بعيني وسمعت بأذني. فكره رسول الله ما جاء به، واشتد عليه، واجتمعت الأنصار فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يضرب رسول الله عليه الصلاة والسلام هلال بن أمية، وتبطل شهادته في المسلمين. فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله تعالى لي منها مخرجا.

فقال: يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئتُ به، والله تعالى يعلم أني لصادق، فوالله إن رسول الله يريد أن يأمر بضربه إذ نزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوحي عرفوا ذلك في تربد جلده، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي. فنزلت ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾...

الآية فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أبشْر يـا هلال قد كنت أرجو ذلك من ربي. وقال عليه الصـلاة والسـلام: أرسـلوا إليهـا فجاءت، فتلاها رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم عليهمـا، وذكرهمـا، وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا. فقـال هلال: واللـه يـا رسولَ الله لقد صدقت عليها: فقالت: كـذب. فقـال رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم لاعنوا بينهما... الحـديث وكـذا من روايـة أخـرى ذكرهـا البخاري في صـحيحه والترمـذي وابن ماجـه يعلم أن قصـة هلال سـبب نزول الآية.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني ولم يكن لهم شهداء أربعة كما مرت ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ أي فشـهادة كـل واحـد من أولئك الرامين أزواجهم أربع شـهادات متلبسـة بـذكر اسـم اللـه تعـالى ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فيما رماها بـه من الزنـا. فيقـول أربـع مـرات: أشهد بالله إني لصادق فيمـا رميت بـه زوجـتي من الزنـا ﴿وَالْخَامِسَـةُ﴾ بالرفع على الابتداء أي والشهادة الخامسة للأربع المتقدمة أي الجاعلـة لها خمسا ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماهـا بـه من الزنا. فقوله تعالى والخامسة مبتدأ وخبره أن المفتوحـة مـع مـا بعـدها، وهذا الخبر يدفع عنه الحـدّ، وينفي الولـدَ إن كـان، ويـوجب الحـد عليهـا ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي العذاب الدنيوي وهو الحبس عند الحنفية، وحد الزنا عند الشافعية ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي الـزوج الـرامي لهـا بمـا ذكـر من الكـاذبين فيمـا رماهـا بـه من الزنـا ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماهـا بـه وقرىء لفظ الخامسة هنا بالرفع على الابتداء وما بعده خبره. وبالنصب على ربطه بقوله تشهد أي وأن تشهد الشهادة الخامسة فيكون الجملـة بعدها بدلا.

وحكمة تخصيص الرجل باللعنة والمرأة بالغضب أن اللعن معناه الطـرد والبعـد عن رحمـة اللـه، وفي لعانـه إبعـاد الزوجـة والولـد، وفي لعانهـا إغضاب الرب والـزوج والأهـل إن كـانت كاذبـة. وبلعانهـا يتأبـد تحريمهـا ويدفع الحد عنها.

﴿وَلَوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالسـتر في ذلـك ﴿وَرَحْمَتُـهُ﴾ بكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ والجواب محذوف، أي لوجب حد القـذف على الـزوج مـع أن الظاهر صدقه. أو لولا فضل الله عليكم بتشريع هذا الحكم لحصـلت فتن عميـاء حـارت فيهـا الأذكيـاء وحـذف جـواب لـولا شـائع في كلام الفصحاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَـرًّا لَكُمْ بَـلْ هُـوَ خَيْـرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَـا اكْتَسَـبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَـوَلَّى كِبْـرَهُ مِنْهُمْ لَـهُ عَـذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَـوْلَا إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْـدَ اللَّهِ هُمُ الْكَـاذِبُونَ (13) وَلَـوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُـوَ عِنْـدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَـوْلَا إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَـا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَـانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُـودُوا لِمِثْلِـهِ أَبَـدًا إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَـاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِـيعَ الْفَاحِشَـةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُـوا لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ فِي الـدُّنْيَا وَالْآَخِـرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُـونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (20)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الإفك بكسر الهمـزة الكذب مطلقا، وكثيرا ما يفسر بالافتراء والاختلاق. وقيل: هو البهتـان لا تشعر بـه حـتى يفجـأك، وأصـله من الافـك بفتح الهمـزة بمعـنى القلب والصرف لأن الكذب مصروف ومقلوب عن الحق. والقصـة مـا أخرجـه البخاري وغـيره عن عـروة عن عائشـة رضـي اللـه تعـالى عنهـا قـالت: «كـان رسـول اللـه إذا أراد أن يخـرج أقـرع بين أزواجـه فـأيتهُنّ خـرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت عائشة: فأقرع بيننـا في غـزوة (وهي غـزوة بـني المصـطلق، وكـانت في سـنة سـتٍّ) فخرج سهمي فخرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما نزلَ الحجاب فَأنا أحملُ في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رســول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وقفلَ ودنَونا من المدينـة قـافلين... آذنَ ليلة بالرحيل، فمشيت حـتى جـاوزت الجيش. فلمـا قضـيت شـأني أقبلت إلى رَحْلي فإذا عَقـدٌ لي من جـزعِ ظفـارٍ قـد انقطـع، فالتمسـت عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الـذي كنت ركبت وهم يحسـبون أني فيـه، وكـان النسـاء إذ ذاك خفافـا لم يثقلهن اللحم، إنمـا نأكـل العلقـة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمـل وسـاروا، فوجـدت عقـدي بعـدما اسـتمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأممت مـنزلي الـذي كنت بـه وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي فبينا أنا جالسة في

مـنزلي غلبتـني عيـني فنمتُ. وكـان صـفوان بن معطـل السـلمي ثم الـذكواني من وراء الجيش، فـأدلج فاصـبح عنـد مـنزلي، فـرأى سـواد إنسان نائم فأتـاني فَعَرَفـني، وكـان يـراني قبـل الحجـاب، فاسـتيقظت باسترجاعهِ حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمـة ولا سمعت منه كلمة غير اسـترجاعه حـتى أنـاخ راحلتـه، فـوطىء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلـة حـتى أتينـا الجيش بعـدما نزلـوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك.

وكـان الـذي تـولى الإفـك عبداللـه بن أبي بن سـلول، فقـدمنا المدينـة، فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أنّي لا أعـرف من رسـول الله صلى الله عليه وسـلم اللطـف الـذي كنت أرى منـه حين أشـتكي، إنما يدخل عَليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذاك الـذي يريبـني، ولا أشـعر بالشـر حـتى خـرجت بعـدما نَقِهت، فخرجت معي أم مسـطح قبـلَ المناصـع، وهـو متبرزنـا، وكنـا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرنـا أمر العرب الأول في التبرز قبلَ الغائط، فكنا نتأذى بـالكنف أن نتخـذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبـد المنـاف وأمها بنت صخر بن عامرٍ خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة، فـأقبلت أنـا وأمّ مسـطح قبـل بيـتي قـد فرغنـا من شـأننا، فعـثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح ! فقلت لهـا: بئس مـا قلت ! أتسـبين رجلا شـهد بـدرا؟ ! قـالت: أي هنتـاه أو لم تسـمعي مـا قـال؟ قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فـازددت مرضـا على مرضي.

فلما رجعتُ إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي اَنْ آتِي أبويّ؟ قالت: وأنا

حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما. قالت: فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبَويّ فقلت لأمي (وهي أم رومان زينب بنت دهمان): يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنيةُ هوّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ! قالت فقلت: سبحان الله ! ولقد تحدث الناس بهذا؟ ! قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقألي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيرا. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثيرة، وإن تسأل الجاريةَ تَصْدُقْكَ.

قالت: فدعا رسول الله بريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبكِ؟ قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول. قالت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا. ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا. وما كان يدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه: إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية، فقال

لسعد: كـذبت لعمـر اللـه لا تقتلـه ولا تقـدر على قتلـه. فقـام أُسَـيْد بن حُضَـير وهـو ابن عم سـعد، فقـال لسـعد بن عبـادة: كـذبت لعمـر اللـه لنقتلنـه، فإنـك منـافق، تجـادل عن المنـافقين. فثـار الحيـان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قـائم على المنبر، فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت فمكثت يومي ذلك لا يَرقألي دمعٌ ولا اكتحل بنوم. قـالت: فأصـبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلـتين ويومـا لا اكتحـل بنـوم ولا يرقـأ لي دمـع يظنان أن البكاء فالقُ كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاسـتأذنت عليّ امـرأة من الأنصـار فـأذنت لهـا، فجلسـت تبكي معي. قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيـل في مـا قيـل قبلهـا. وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأني. قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة قـد بلغـني عنـك كـذا وكـذا، فـإن كنت بريئـة فسـيبرئك اللـه، وإن كنت ألممت بـذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تـاب إلى اللـه تاب الله عليه.

قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم. قـالت: مـا أدري مـا أقـول لرسول اللـه. قـالت فقلت وأنـا جاريـة حديثـة السـن لا أقـرأ كثـيرا من القرآن: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلتُ لكم أني بريئة، واللـه يعلم أني بريئـة، لا تصـدقوني، ولئن اعـترفت لكم بـأمر، واللـه يعلم أني بريئـة منـه، لتصدقني.

والله لا أجد لي ولكم مثلا إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئني ببرائتي. ولكن ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى.

ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاخرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى أنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي ينزل عليه. قالت: فلما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سرى عنه وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها: يا عائشة أما اللهُ فقد برأكِ. فقالت أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم ولا أحمدُ إلا اللهَ وأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ العشر الآيات كلها.

وقوله تعالى ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ خبرُ إنّ، والعصبة جماعة من العشرة إلى الأربعين. وكذلك العِصابة. وقيل إن العصبة والعصابة العشرة فصاعدا لتعصبهم في المهمات، فلها هنا موقع حسن، وكونهم إلى الأربعين يرده ما في مصحف حفصة رضي الله عنها (عصبة أربعة). وقيل: العصبة لغة فرقة متعصبة مطلقا، وهي هنا واردة على حقيقتها الوضعية. والمراد بها عبدالله بن أبي بن سلول، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم... ومن الناس من برّأ حسان بن ثابت وهو خلاف ما في صحيح البخاري. وقوله: ﴿مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعائشة، وصفوان رضي الله تعالى عنهم. والهاء راجع إلى الإفك.

ويجوز أن يكون خطابا عاما للمسلمين لأن الشـر والخـير العائـدين إلى الرسول وأهله عائدان إلى أمته المسلمة.

﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فلأن هـذه العـوارض نصائح وزواجر ومنبهات للأمة ولاسيما القادة والسادة حتى يكونـوا على يقظة وانتباه في رعاية الشئون، وعدم إفسـاح المجـال للاعـداء بإلقـاء التهم والإشاعات المغرضـة. وهي أيضـا توقـظ الإنسـان وتخـبره بمـدى صداقة من يـدعي الصـداقة، والمخلص وغـير المخلص، والعاقـل وغـير العاقل، ودرجاتهم وأموالهم، فإن الصديق الحقيق بالإعتناء والإعتبار هـو الذي لا يتزلزل كيان صداقته باستماع أمثال هذه الأمور، ويتبين بها أيضا إمتيـاز الأنبيـاء والمرسـلين وسـائر القـادة عن سـائر النـاس من حيث الـتريث والإصـطبار والأخـذ بالأعصـاب وانتظـار الفـرج من اللـه العلي العظيم. وأما في الآخرة فلأن كل ساعة تمضي على الإنسـان في هـذه المحن والمشاكل لها درجات ينالها أصحاب العزيمة يـوم الجـزاء. وأمـا في الدنيا والآخرة فلأن الله سـبحانه وتعـالى أظهـر كرامـة أهـل الـبيت بإنزال الآيات في براءتهم وعفتهم، وتعظيم شأنهم، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيهم، وبيان سوء العاقبة لمن دخل في هذا الأمر، وإشاعة السـوء فيهم بقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي بقدر ما خـاض فيه ولاسيما رأس الفتنة ورئيسها وهو عبداللـه بن أبي بن سـلول الـذي بين الله سوء مآله بقوله: ﴿وَالَّذِي تَـوَلَّى كِبْـرَهُ مِنْهُمْ لَـهُ عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي والمفسـد الأثيم الـذي تـولّى معظمَ الإفـك وبـدأ يشـيعه ويحـرك سلسلته، ويشـعل نـاره عنـد خمولهـا وهـو رئيس المنـافقين لـه عـذاب عظيم في الدنيا بالخزي وسوء الحال وفي الآخرة بحرّ نـار جهنم وبئس المصير وأما من عداه فإنهم عذبوا في الدنيا بتطبيق حد القذف عليهم، وأما في الآخرة فهم مغفورون لقبـول تـوبتهم، بـإجراء الحـد المشـروع عليهم، والأمر إلى الله رب العالمين.

وقوله ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ التفات إلى خطاب المـؤمن من أهـل الإفـك أي غير عبدالله بن أبي بن سلول وقولـه ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ﴾ المراد بهم من هـو أهـل الإيمـان من أهـل الإفـك، وغـير الأسـلوب إلى الغيبة، وجاء في التعبير بصفة الإيمـان لمزيـد التـوبيخ معنـاه أن الإتيـان بالإفك من أهل الإيمان بعيد كُـلَّ البعـد. وقولـه ﴿بِأَنْفُسِـهِمْ﴾ المـراد بهـا المتهم من أهـل الإيمـان يعـني أم المؤمـنين وصـفوان، وعـبر بـالأنفس لاعتبار إتحاد المسلك والمبدأ كاتحاد الذوات. وحاصل المعنى: لـولا ظن أهلُ الإفك وهم من المؤمنين والمؤمنات بالمتهمين الذين كأنفسهم في الإيمان خيرا وبراءة من ذلك الأمر الذي امَرّ من كُلّ مُرٍّ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ من الأفـاك المعلـول عبداللـه بن أبي بن سـلول. ولـولا قـالوا في رده ورفضه ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ ظـاهر مكشـوف من صـنيع الشـيطان اللعين، قبـل أن يـنزل اللـه حكم بـراءة المتهم بـالنص المـوجب لليقين، فكـان الواجبُ على أولئك الأفاكين أن ينظروا بعين البصيرة إلى نزاهــة أخلاق تلك السيدة الناشـئة في بيت الصـديق، والواصـلة على نعومـة الأظفـار إلى المربي الحاذق الوثيق، وإلى سلامة أحوالها وأعمالها طيلة السـنين في روضة الرسول الأمين، فكيف يتجاسر مؤمن عاقل ذو بصر وبصيرة إلى اختلاق هذه البادرة الشريرة؟ فسبحان من لا مـرد لقضـائه ونـزول بلائه وابتلائه ولو على أكرم أنبيائه، إنه أحكم الحاكمين.

ثم جاء الباري عز اسمه بكلام مسـتأنف يقـرر بـه أن ذلـك القـول كـان إفكا والقائلون أفاكون فقال: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ من ذلـك الجيش الكثـير السـاتر للبيـداء ﴿فَـإِذْ لَمْ يَـأْتُوا بِالشُّـهَدَاءِ﴾ ولم يكن لهم سند لتلك التهمة السوداء ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الأفاكون ﴿عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَـاذِبُونَ﴾ في الإسناد، وهم الخاسرون بين العباد.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا﴾ بالإمهال للتوبة ﴿وَ﴾ في ﴿الْآَخِرَةِ﴾ بالعفو والمغفرة لتلك الحوبة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي بسبب ما خضتم فيه من تلك الأقاويل الباطلة والأوهام العاطلة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه الحد والعذاب الأليم.

وبيّن الباري سبحانه وتعالى زمان مس العذاب لهم بقوله ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي تتلقون ذلك الإفك الذي أفضتم فيه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي يسمع بعضكم ذلك الكلام الفاسد ويأخذه من بعضكم بألسنتكم أي بمحض الأخذ باللسان بدون تفكر في صحته وفساده بالدليل والبرهان ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ بدون تصديق من العقل ﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ مأخوذ من العيان أو مستفاد من الدليل والبرهان ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ أي وتحسبون التكلم به سهلا لا تبعة له ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره في جر العذاب يوم الميزان والحساب.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أيها المؤمنون من ذلك المفترى غير المأمون ﴿قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي ما يصح منا وما يجوز لنا ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ القول الذي لا أساس له ﴿سُبْحَانَكَ﴾ نتعجب ممن ينطق به ﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ يبهت ويحير سامعه ولو كان ذا عقل سليم ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ﴾ ويمنعكم ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ فإن الوعظ يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففيه معنى يمنع ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فاقبلوا وعظه تعالى ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ﴾ التي هي بينات على براءة أم المؤمنين من تهمة المنافق اللعين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ببراءتها و﴿حَكِيمٌ﴾ في ابتلائها حتى تكون رمزا للشرف إلى يوم الدين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي الخصلة القبيحة التي وصلت ذروة القباحة ﴿فِي﴾ مجالس ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ﴾ بسبب ذلك الحب الفاسد ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة وهذا منطبق على رئيس الأفاكين عبد الله بن

أبي ابن سلول فإنـه أصـيب بـالخزي والهـوان في الـدنيا وسـيعذب في الآخرة بأمر رب العالمين ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميع ما يـترتب عليـه الحسـاب والعذاب ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُـونَ﴾ ذلـك. ﴿وَلَـوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ﴾ أيهـا المؤمنـون المشـايعون للأفـاك الأثيم المعلـول عبدالله بن أبي بن سلول ﴿وَ﴾ لولا ﴿أَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لجرى فوق ما جـرى عليكم من العذاب الأليم.

﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا لَا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِـعْ خُطُـوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَـوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ﴾ ولا تسـلكوا مسـالكه في الافـــتراء والاختلاق ﴿وَمَنْ يَتَّبِـــعْ خُطُـــوَاتِ الشَّـــيْطَانِ فَإِنَّهُ يَـــأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ وهو ما افرط قبحـه ﴿وَالْمُنْكَـرِ﴾ وهـو مـا ينكـره الشـرع أي ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأنـه يـأمر بهمـا فمـا بعـد الفـاء علـة للجـزاء المقـدر. ﴿وَلَـوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ﴾ ومن جملتهمـا إنـزال هـذه الآيـات البينـات والتوفيـق للتوبـة الماحية للسيئات ﴿مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَـدًا﴾ لأنكم ارتكبتم مـا يـوجب هلاككم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَـاءُ﴾ أي ولكن اللـه يطهـر من أوسـاخ الذنوب من يشاء تزكيته ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ للأقـوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بكـل الأشـياء. وفي هذه الآيات البينات زجر وتوبيخ للأفاكين بتسعة زواجـر: الأول لـولا إذ سمعتموه. والثاني: لولا جـاءوا عليـه بأربعـة شـهداء. والثـالث: ولـولا فضل الله عليكم ورحمته. والرابع: إذ تلقونه بألسنتكم. الخامس: ولــولا إذ سمعتموه. السادس: يعظكم

الله. السابع: إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة. والثـامن ولـولا فضـل الله عليكم. التاسع: يا أيها الذين آمنوا إلى سميع عليم.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُـرْبَى وَالْمَسَـاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُـوا وَلْيَصْـفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِـرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُــورٌ رَحِيمٌ (22) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُــونَ الْمُحْصَــنَاتِ الْغَــافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَـوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُـوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَـقَّ وَيَعْلَمُــونَ أَنَّ اللَّهَ هُــوَ الْحَــقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثَـاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُـونَ لِلْخَبِيثَـاتِ وَالطَّيِّبَـاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُـونَ لِلطَّيِّبَـاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ سبب نزوله أن أبا بكـر رضـي الله عنه لما رأى بـراءة بنتـه رضـي اللـه عنهـا حلـف أن لا ينفـق على مسطح شـيئا أبـدا، وكـان من فقـراء المهـاجرين الأولين الـذين شـهدوا بدرا، وكان ابن خالته. وذلك لأنه كان في جماعة الإفك. فنزلت ولا يأتل أي ولا يحلف افتعال من الالية أي ولا يحلف أولـو الفضـل والزيـادة في الدين والسعة في المال على أن لا يؤتوا أو كراهـة أن يؤتـوا أي يعطـوا ﴿أُولِي الْقُــرْبَى وَالْمَسَــاكِينَ وَالْمُهَــاجِرِينَ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ﴾ أمــوالهم ليعيشوا عليها ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ عما فـرط منهم ﴿وَلْيَصْـفَحُوا﴾ بالإغضـاء عنـه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ أيها المثرون المنفقون

﴿أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ مبالغ في المغفرة ﴿رَحِيمٌ﴾ مبالغ في الرحمة، ولاسيما لمن كانه مبالغا فيهما.

ونزلت هذه الآية بعد أن أقبل مسطح إلى أبي بكر معتذرا فقال: جعلني الله فداك والله الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ما قذفتها وما تكلمت بشيء مما قيل لها أي خالي. فقال أبو بكر: ولكن قد ضحكت وأعجبك الذي قيل فيها. فقال مسطح: لعله قد كان بعض ذلك. وفي الآية من الحث على مكارم الأخلاق ما فيها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ عما نسب إليهن ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون والملائكة في الدارين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هائل لا يعلم مقداره ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وذلك بإنطاق الله الذي أنطق كل شيء سواء كان النطق كما هو المعتاد الآن أو بنوع آخر. ويحتمل أن تكون الشهادة بما ذكر مجازا بظهور آثاره على هاتيك الأعضاء بحيث يعلم من يشاهدهم كل ما عملوه، وذلك على الله يسير ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم الشهادة المذكورة ﴿يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ﴾ ويكمل لهم ﴿دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ جزاءهم الثابت في دفتر الأعمال ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ أي أولئك المجزيون ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي أن الله هو الموجود الكامل الثابت مع الإستغناء عما سواه، والظاهر وجوده وكماله على أهل البصيرة من العالمين.

وقوله الكريم ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ الآية بيان وإعلان لحكمة الباري في خلقه ووضعه كل شيء في محله المناسب وجعله الإجتماع والإزدواج غالبا على رعاية التكافؤ والتناسب، فلما ميز الأنبياء والرسل الكرام بصفات

عالية ميزهم باختيار أزواج عفـائف مؤمنـات باللـه حافظـات لكـرامتهن كما قـال: ﴿الْخَبِيثَـاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُـونَ لِلْخَبِيثَـاتِ وَالطَّيِّبَـاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ﴾ الطيبات والطيبون ﴿مُبَـرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُـونَ﴾ أي المتقولــون في حقهم ﴿لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ﴾ من اللــه لهفــواتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ مناسب لدرجاتهم يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَـلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَـدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَـاحٌ أَنْ تَـدْخُلُوا بُيُوتًـا غَيْـرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ سبب نزولـه أنه جاءت امرأة إلى رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم فقـالت: إني أكـون في بيـتي فيـأتيني آتٍ فيـدخل عليّ فكيـف أصـنع؟ فـنزلت الآيـة الكريمـة. يعـني يـا أيهـا الـذين آمنـوا لا تـدخلوا بيوتـا هي غـير بيـوتكم المســكونة لكم ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُــوا﴾ أي تســتأذنوا من يملــك الإذن من أصحابها المالكين إن كـانت تحت أيـديهم، أو المـالكين لمنفعـة سـكناها بالأجرة كالمستأجرين أو بالهبة كالمستعيرين ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ أي السـاكنين فيهـا. وظـاهر الآيــة الكريمــة أن الإسـتئذان قبــل التســليم ﴿ذَلِكُمْ﴾ الـدخول بالإسـتئذان والتسـليم ﴿خَيْـرٌ لَكُمْ﴾ من الـدخول بغتـة والــدخول على تحيــة الجاهليــة، وأرشــدتكم إلى هــذا الأدب ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بمقتضاه

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ بـأن كـانت خاليـة من الأهـل ﴿فَلَا تَـدْخُلُوهَا﴾ واصـبروا ﴿حَتَّى يُـؤْذَنَ لَكُمْ﴾ من جهـة من يملـك الإذن ﴿وَإِنْ قِيـلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ أي إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الآمر من يملك الإذن ﴿فَارْجِعُوا﴾ ولا تلحوا فإن ذلـك صـادر من جهـة تطـاع ﴿هُـوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي فالرجوع أزكى وأطهر لكم من اللجاج والعناد والوقـوف على أبـواب العبـاد ﴿وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ عَلِيمٌ﴾ فيجـازيكم على مقـدار أدبكم ونياتكم وقبولكم لأحكام الإسلام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَـاحٌ أَنْ تَـدْخُلُوا بُيُوتًـا غَيْـرَ مَسْـكُونَةٍ﴾ أي غـير مقـررة لسكنى جماعة خاصة كالخانـات والربـاط والفنـادق العامـة لمن يحتـاج الـنزول فيهـا بقـدر الحاجـة. وقولـه ﴿فِيهَـا مَتَـاعٌ لَكُمْ﴾ صـفة للـبيوت وللاحتراز عما إذا لم يكن لـه فيهـا متـاع ولا حاجـة ملحـة، فـإن دخولهـا حينئذ موجب للتهمة والريبة. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُـونَ﴾ وعيـد لمن يريد أن يدخل تلك الـبيوت بالنية الفاسـدة كيـف كـانت، ان اللـه لا يحب المفسدين.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُـوا فُـرُوجَهُمْ ذَلِـكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَـاتِ يَغْضُضْـنَ مِنْ أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُـرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَـاءِ بُعُـولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْـوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْـوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَـوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَـةِ مِنَ الرِّجَـالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَـا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُـوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًـا أَيُّهَـا الْمُؤْمِنُـونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُـؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِنْ أَبْصَـارِهِمْ﴾... الآيـة شـروع في بيان أحكام كلية شـاملة للمؤمـنين كافـة ينـدرج فيهـا حكم المسـتأذنين وغيرهم. ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مهبط الوحي ومظهر الشريعة خاطبه الله تعالى بقوله ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِنْ أَبْصَـارِهِمْ﴾ والمفعول مقدر أي من النظر إلى ما لا يحل النظر إليه. وجـزم يغضـوا لوقوعه بعد الشرط المضمون من الكلام، أي قل لهم مـا يُهـذبهم، وان تقـل لهم غُضـوا أبصـاركم يغضـوا. وكلمـة من تبعيضـية. والمـراد غض البصر عن بعض المنظور وهو الممنوع شـرعا من الأجنبيـات وزينتهن لا كل المنظور، فإن النظر إلى الزوجة والمحارم حلال على مـا تقـرر في الـدين فجعـل الغض عن بعض المبصـر غض بعض البصـر، وفيـه كنايـة حَسنة.

وقد يستفاد من هذه الكلمة العفو عن بعض النظـر الى الاجنبيـات ممـا يقع بلا تعمد من الناظر، قال صـلى اللـه عليـه وسـلم ((لا تتبـع النظـرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة)). فـإن قلت: إذا كـان هـذا النظـر بلا قصد ولا تكليف فما معنى العفو؟ قلت: لأنه قلما يخلو ذلـك عن مقـدار الواقع فجـأةً. وبـدأ اللـه سـبحانه وتعـالى بغض البصـر لأن البصـر بريـد الخطر والمفاسد تنشأ من الأبصار ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي عما لا يحل من الزنا والسـحاق وإتيـان النسـاء في أوقـات الحيض والنفـاس أو في أدبارهن، وعن استعمالها في الذكور. ولم يأت بكلمـة التبعيض هنـا كمـا هناك لأن خطر

الفرج أشد من خطر البصر، وذلك واضح ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ وأطهـرُ من أوساخ الحرام وتطرق الأوهام وأبعد عن مظان الفتن الواقعة في الأيام فـإنّ أكثرهـا من النسـاء ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَـا يَصْـنَعُونَ﴾ فيمـا يـأتون ويمتنعون فليكونوا على حذر عندما يخلون ويجتمعون.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحـل لهن من عورات الرجال والنسـاء. وقـال ابن حجـر المكى: كمـا يحـرم نظـر الرجل للمرأة يحرم نظرهـا إليـه، ولـو بلا شـهوة وخـوف فتنـة. نعم إن كانت بينهما محرمية نسب أو رضاع أو مصاهرة نظر كل إلى ماعدا مـا بين سرة الآخر وركبته إنتهى. ويستدل على مـا قالـه بمـا روى الـبيهقي في سننه عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبلَ ابن أم مكتوم فدخل عليه صـلى الله عليه وسلم. فقال صلى الله عليه وسلم: « احتجبا منـه. فقلت: يـا رسول الله هو أعمى لا يبصر. قال صلى اللـه عليـه وسـلم: أَفَعَميـاوان أنتما؟ أَلَستُما تُبصرانِهِ؟ » واستدل به من قال بحرمة نظـر المـرأة إلى شيىء من الرجـل الأجنـبي ﴿وَيَحْفَظْنَ فُـرُوجَهُنَّ﴾ عمـا لا يحـل لهن من الزنا والسحاق. ثم زاد سـبحانه وتعـالى في أحكـام النسـاء فقـال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي ولا يظهرن للرجال مـا يـتزين بـه من الحلى ونحوها من المفتنات إلا ما ظهر منها وجرت العادة والجبلة على ظهورها كالخاتم والكحل والخضاب، لا ما خفي منها كالسوار والخلخـال والقرط والقلادة وأمثالها من حليهن. هذا من جهة الزينة. وأما من جهـة الأعضاء فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ والخمر جمـع خمـار، والجيوب جمع جيب، وهو فتح في أعلى القميص يبدو منـه بعض البـدن من الترقوة

والصدر وصفحة الرقبة، أي وليجعلن خمرهن على جيوبهن ليسترن ما أقبل من رقابهن ونحورهن وصدورهن.

ولما نزلت هذه الآية سارعت النساء المهاجرات إلى الامتثال فشققن مروطهن فاختمرن بها وسترنَ تلك الأعضاء تصديقا وتطبيقا لما أنزله الله تعالى ثم كرر الله تعالى النهي لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه باعتبار الناظر بعدما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي أزواجهن، فيجوز لهم النظر إلى كل الزينة والبدن إلا المحل المعهود على خلاف فيه ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ المختصات بهن بالخدمة أو الصحبة من حرائر المؤمنات، فإن الكوافر ممنوعات عنها إذ لا مانع لهن عن وصفها للكافرين، ولا فرق في ذلك بين الذميات وغيرهنّ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء، ولو كوافر، وأما العبيد فهم كالأجانب، وهذا مذهب أبي حنيفة وأحد قولي الشافعي رضي الله عنهما ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي الرجال الذين يتبعون الناس ليصيبوا من فضل الطعام غير أصحاب الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الطاعنون في السن الذين فنيت شهواتهم، والممسوحون الذين قطعت ذكورهم وخصاهم بحيث لا يمكنهم ما يمكن لغيرهم، ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي الأطفال الذين لم يعرفوا ما العورة وما الشهوة. ثم بالغ في النهي عن إظهارهن لزينتهن فقال ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي ليعلم الناس أنهن ذوات خلاخل.

ثم أمر الباري تعالى عامة المكلفين بالرجوع والإنابة إليه فقال ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تنجون من العذاب وتفوزون بالسعادة يوم اللقاء.

وخلاصة المقام أنه ظهر من الآية الكريمة حرمة نظر الرجـال الأجـانب إلى النساء مطلقا والعكس كذلك، إلا في المواد المستثناة وتأيدت الآية الكريمة ومدلولها بأحاديث شـريفة تقـرر ماذكرنـا من حرمـة نظـر كـل صنف الى الآخـر. نعم فسـر بعض النـاس الزينـة في قولـه تعـالى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: بمواقع الزينة. وفسر قولـه تعـالى ﴿إِلَّا مَـا ظَهَـرَ مِنْهَـا﴾ بالوجه والكفين، وأباح النظر إليهمـا على ذلـك التفسـير. ولكن لا دلالـة لها على ذلك، فإن الآية الكريمـة كمـا دلت على جـواز كشـفهن للوجـه والكفين بنـاء على ذلـك التفسـير فقـد دل صـدرها على وجـوب غض الأبصار من كل صنف وحرمة نظر كل صنف إلى الآخر في غـير المـواد المستثناة، ويلزم من وجوب الغض حرمـة النظـر لكن لا يلـزم من حـل الكشـف حـل النظـر، فحكم النظـر هـو الحرمـة إلا في حـال الضـرورة لتعليم أو تداو أو شهادة تحملا أو أداء وأمثالها. نعم نقـل الإمـام النـووي عن القاضي عياض الإجماع على أنه لا يلزمها في طريقهـا سـتر وجههـا وإنما هو سنة، وعلى الرجال غض البصـر عنهن للآيـة الكريمـة كمـا في تحفة الشيخ ابن حجر الهيتمي في أوائل النكـاح، ولكن لا يسـتلزم ذلـك جواز نظر الرجـال لهن، بـل يجب سـتر الوجـوه عليهن إذا تحقـق نظـر الأجنبي إليها، وعليه ما نقل من اتفـاق المسـلمين على منـع النسـاء أن يخرجن سافرات الوجوه لأن جميع بدنها عورة في النظـر سـواء الوجـه والكفان وغيرهمـا وإن لم يكونـا من العـورة في الصـلاة. وأمـا صـوتهن فالمذكور في معتبرات كتب الشافعية أنه ليس بعورة فلا يحرم سماعه إلا إن خشي منه فتنة، وكذا إن التذ به كما بحثـه الزركشـي. وأمـا عنـد الحنفية فقـال الإمـام ابن الهمـام: صـرح في النـوازل أن نغمـة المـرأة عـورة، ولـذا قـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم: ((التكبـير للرجـال، والتصفيق للنساء)).

﴿وَأَنْكِحُـوا الْأَيَـامَى مِنْكُمْ وَالصَّـالِحِينَ مِنْ عِبَـادِكُمْ وَإِمَـائِكُمْ إِنْ يَكُونُـوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلْيَسْـتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِـدُونَ نِكَاحًـا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُـونَ الْكِتَـابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ فَكَـاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْـرًا وَآتُـوهُمْ مِنْ مَـالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (34)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ أتى اللـه سـبحانه وتعـالى بكلامـه الوافي شفاء لداء عضال يبتلى به الناس ويقعون به مواقع السوء وذلك الشـفاء هـو الـزواج المشـروع الـذي يـوجب الأنس والراحـة للنفس، والنسل المطيع لجانب القدس المانع من الوقوع في مهالـك الشـهوات فقال ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾: وأيـامى مقلوب أيايم جمع أيم، لأن فيعـل لا يجمـع على فعـالى، فقـدمت الميم وفتحت للتخفيف، فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها. وذهب ابن مالك ومن تبعه الى أنه جمع شاذ لا قلب فيه، ووزنه فعالى. والأيم كـل أنثى لا ذكر معها وكل ذكرٍ لا أنثى معه. ويقـال: آم وآمت إذا لم يتزوجـا بكرين أو ثيبين. وقد كـثر اسـتعمال هـذه الكلمـة في الرجـل إذا مـاتت امرأته، وفي المرأة إذا مات زوجها. وعن محمد بن الحسن

أنها الثيب، واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم: ((الأيم أحق بنفسها من وليها والبكر يستأمرها أبوها)).

يعني وزوجوا مولياتكم ومماليككم عند الحاجة إلى الزواج حتى لا يقع الناس في الزنا، وتحصل العفة في الدين. وتخصيص الصالحين بالذكر إما للاهتمام بشأنهم أو المراد من يصلح للنكاح والقيام بحقوقه. وقوله تعالى ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعد من الله عز وجل بالإغناء وعدا مقيدا بالمشيئة كما في قوله تعالى: فإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء، وحثٌّ وترغيب للسادة في تزويج العبيد والإماء، وعدم مبالاتهم بجانب فقر المال وأنهم لا يقدرون على اكتساب ما يعيشون به ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي غني ذو سعة لا ينقصه إغناء الخلائق ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة الربانية.

ثم أرشد التائقين العاجزين عن مؤن النكاح بقوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي فليجتهد في العفة وصون النفس الرجال الذين لا يجدون أهبته حتى يغنيهم الله من فضله. وهذا وعد كريم من الله الكريم بالتفضل عليهم بالمال وسعةِ ذاتِ اليد في المستقبل إن شاءَ.

واستدل بهذه الآية من قال ندب ترك النكاح لمن لا يملك أهبته مع التوقان. وكثير من الناس ذهب إلى استحبابه له لقوله تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾... الآية نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح، سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا امتثالا لقوله تعالى وآتوهم من مال الله الذي آتاكم.

والموضوع يناسبه تفصيل هو أنه كـان عـادة من قـديم الأزمـان أن كـل قومين تحاربا وَوَقع بينهما حرب واستولى جانب على الآخر، وأسر منهم الرجال والنساء والذراري أضافوا رؤوس أولئـك إلى الأمـوال المنهوبـة، وأخذوها وقسموها، فكـل من وقـع في سـهمه رجـل اسـترقه أو امـرأة استرقها وتصرف فيها على حسب المعتاد بين الناس. ولما جاء الإسلام وبــدأت الحــرب بين المســلمين وبين المشــركين اســتمرت العــادة المذكورة، ولم يمكن للرسول صلى الله عليه وسلم إبطال هذه العـادة العريقة مرة واحـدة حـتى ولم يمكن للعبيـد إطلاق سـراحهم ليكتسـبوا ويعيشوا، وما كان من المصلحة إرسالهم وإعادتهم إلى قومهم ليحاربوا المسـلمين مـرات اخـرى. بـل كـانوا يبقـون تحت أمـر المـالكين بعـد القسمة، أو تحت أمر الرسول قبلها فقد كان يعفـو عمن يناسـبه العفـو مجانـا، أو يؤخـذ منـه فـداءٌ، أو يجعـل فـداءً لأسـيرنا عنـد الأعـداء، أو يستعبدون. ومن أراد صيانة بعض النسـاء لنفسـه كـان ذلـك جـائزاً لـه، وكـان يعتـبر الملـك كعقـد النكـاح على تفاصـيل مقـررة في محلهـا. وسماحة الإسلام ورأفة صاحبه كانت تقتضـي دومـاً الإفـراج عن العبيـد والإماء بشتى الطرق والوسائل حتى قررت شريعة الإسلام بنـوداً فـوق الثلاثين بنـداً لإطلاق سـراح العبيـد والجـواري مـذكورة في محلهـا من الكتب المعتمدة. ومن جملتها: الكتابة مـع أمـةٍ أو عبـد يريـد اسـتخلاص نفسه في مقابل المال يقدمه إلى سيده أقساطا، وإذا سـلمها لـه صـار عتيقا. وكان واجبا على سيده إعادة بعض من ذلك المال إليـه مسـاعدة له في الخلاص كما في الآية الشريفة فيقـول البـاري سـبحانه وتعـالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي والعبيد الـذين يطلبـون منكم الكتاب المسطور فيه ما يجـري بينكم من القـرار على تسـليمهم مبلغا معينا من المـال لاستخلاصـهم من الـرق ﴿فَكَـاتِبُوهُمْ﴾ واعطـوهم ذلك الكتاب

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي علمتم أنهم لهم قابلية تحصيل ذلك المبلـغ. وإذا سلموه إليكم فأعطوهم من مال الله الذي أعطـاكم بأيـديهم حـتى يخلصوا من الرق وتنالون أنتم الجزاء الجميل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَـاءِ﴾ نـزلت في سـت جـوار عند عبدالله بن أبي بن سـلول وفيهن مسـلمات، وكـان يكـرههن على البغاء لأخذ المال منهن فنزلت وقوله ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي تعففا يعني لا تكرهوهن على البغاء ما دمن مُريداتٍ العفة. أي لا تكرهوهن بشــرط إرادتهن التعفف، وذلك لأن الإكراه لا يوجد إلا إذا وجد منهن الرغبـة في العفة والأمانة. أي إنهن مع كونهن جواري ضـعافا مـادام أردن التحصـن والعفة فكيـف يصـح لكم وأنتم رجـال وتـدعون الشـهامة أن تكرهـوهن على البغاء لاستفادة مال منهن؟ ! ويجوز تعلق الشرط بالنهي. وحاصل المعنى إني أنهاكم عن إكراههن على البغاء إذا أردن التحصـن، وأمـا إذا لم يردن التحصن فلا أنهاكم عن إكراههن؛ لأنهن إذا لم يردن التحصن لا يبقى مجال للإكراه حتى ينهى عنه. وقوله ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قيد الإكراه أي تكرهوهن ليبغين ويحصلن المـال فتبتغـوا بـذلك الإكـراه على الزنا مادة تنفعكم في الحياة الـدنيا. ﴿وَمَنْ يُكْـرِهْهُنَّ فَـإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ يغفـر لهن و﴿رَحِيمٌ﴾ بهن حيث وقعن في المعصـية إكراها لا بالإختيار.

﴿وَلَقَـدْ أَنْزَلْنَـا إِلَيْكُمْ آَيَـاتٍ مُبَيِّنَـاتٍ﴾ للأحكـام، ﴿وَ﴾ أنزلنـا إليكم ﴿مَثَلًا﴾ وقصصـا عجيبـة ﴿مِنَ الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَـةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الـذين يسعون في امتثال الأوامر والنواهي الواردة من رب العالمين.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)﴾

قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية... تكلم المفسرون في تفسير النور هنا بأوجه وجيهة عديدة. وفسروا الآية الكريمة بتفاسير حسنة سديدة. وفي الحقيقة إنها لمن الآيات الكبريات التي تليق بأن تفسر وتنور بها البصائر والأبصار. فمن جملة ما فسروا به النور أنه بمعنى المنور يعني الله منور السماوات والأرض فقد نور السماوات بالشمس والقمر والكواكب المضيئة، وكذلك نور الأرض بها كما نورها بنوع الإنسان وما يظهر منه من الطاعة والإحسان والعلوم والمعارف المتطورة التي تزداد يوماً على يوم.

ومنها أنه بمعنى الحق بمعنى أن الانقياد له هو الحق لأنه واجب الوجود وينبوع كل فيض وجود، وإضافته إلى السماوات والأرض بمعنى أنه هو المعبود الحق لأهل السماوات والأرض.

ومنها أنه بمعنى الموجد والخالق.

ومنها أنه بمعنى الظاهر بذاته المظهر لغيره على معنى أن الله سبحانه وتعالى مادام متصفا بوجوب الوجود وجمع الكمال والنزاهة عن النقص، وما عـداه من الممكنـات الخاصـة المحتاجـة الى الخـالق يسـتنير بذاتـه ويتصف بالوجود بصـنعه وتـأثيره، ويبقى تحت قوتـه وتـأثيره.. فهـو نـور السماوات والأرض أي ظاهر بنفسـه على أهـل السـماوات والأرض من أهـل العقـل والإدراك والإنصـاف والتسـليم السـليم. فـإن كـل ذرة من ذرات عالم الوجود عاليه وسافله محتاج إلى خالق مدبر مؤثر فيـه وفي صفاته لأنها من الممكنات المستوي لها الوجود والعدم، ولا يـترجح أحـد الجانبين إلا بإرادته وتعلق قدرتـه. فـالنور في أول الآيـة الكريمـة صـفة مشبهة بمعنى الظاهر بنفسه المظهر لغيره ليصح حمله على الله. وأما النور في قوله ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فهو على معنى المصدر أي الظهور، لكونـه مضافا إلى الله تعالى.

فخلاصة معنى الآيـة الكريمـة بيـان أن اللـه تعـالى ظـاهر على البصـائر كالنور على المنائر لا يخفى على المنصـف. ومثـل نـوره وظهـوره على أهل الإدراك كمثل نور المصـباح على أهـل الأبصـار. وحاصـله أن وجـود الباري تعالى لا يحتاج إلى استدلال وتكلف اعتبارات، فكل الكائنات من السـماوات والارض شـاهد على وجـوده، وكـل من فيهمـا من الجمـاد والنبات والحيوان مسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، وكل إنسان ذي عقل وإنصاف يؤمن ويعترف به لأنه يعرف أن حركـة الكـون قائمـة بالمتحرك والمتحـرك محتـاج إلى المحـرك والمحـرك بـدون الشـعور لا يكون له نظام ودستور، فخالق السماوات والأرض ومن فيهما وعليهمـا هو الله الذي لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله فتعالى العلي الكبير.

وقوله تعـالى ﴿مَثَـلُ نُـورِهِ﴾ أي مثـل ظهـوره في القـوة والوصـول إلى درجـة العيـان وقولـه: ﴿كَمِشْـكَاةٍ فِيهَـا مِصْـبَاحٌ الْمِصْـبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَـةٍ لَا شَـرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾

الآية... التشبيه الواقع فيه كالتشبيه الواقع في قوله تعالى مثـل الحيـاة الدنيا كماء أنزلنـاه من السـماء من حيث أن تـرتيب الكلام يسـتفاد من المقام. والمعنى مثل نوره وظهوره سبحانه وتعالى كمثـل نـور مصـباح في زجاجة كأنها كوكب دريّ، والمصباح يوقد ويشـتعل من زيت شـجرة مباركة زيتونة لا شـرقية فقـط، ولا غربيـة كـذلك، بـل نبتت من بسـتان معتدل المكان، يكاد زيتها يضيء ويشتعل بنفسه ولـو لم تمسسـه نـار. وهذا المصباح في مشكاة، وهي الكوة غير النافذة حتى لا ينتشـر ضـوء المصباح الموضوع فيها.

وقوله ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ ليس معناه أنه نور واحد فـوق نـور آخـر ليصـيرا نـورين، بـل معنـاه نـور عظيم كـائن على نـور عظيم، فإنـه تحقـق في المشبه به أنوار: نور الزيت الصـافي، ونـور من اشـتعاله في المصـباح، ونور من صفاء الزجاجة التي كأنها الكوكب الدري، ونور آخـر من وضـع المصباح في كوة غير نافذة لا ينفذ نور المصـباح فيهـا إلى الخـارج، بـل يـتراد بعضـه على بعض فيحصـل من تموجهـا ودخـول بعضـها في بعض قوة أخرى ونور آخر وظهور أزيد.

وتطبيق ذلـك في موضـوعنا أن الشـجرة المباركـة الزيتونـة عبـارة عن الإنسـان المـؤمن العاقـل المتفكـر، وزيتهـا عبـارة عن التفكـر الصـافي الناشـئ من خزانـة العقـل. وزجاجـة المصـباح هي قلـوب المؤمـنين. والمصـباح اشـتعال تلـك الفكـرة الصـافية بنـار الاقتبـاس من الآيـات القرآنية، والآيات الأنفسية، والآيات الآفاقيـة. والمشـكاة إمـا عبـارة عن هيكل الإنسان المتفكر او مادة السماوات والأرض التي هي طاقـة غـير نافذة، إذ ليس وراءها وراء.

ويجـوز أن تمثـل الشـجرة بالإنسـان المصـلي في المعبـد من الـبيوت المرفوعة بإذن الله تعالى، أو غيرها من أماكن الطاعات، وزينها بعبادته وطاعتــه وذكــره وشــكره، والزجاجــة بصــدور المؤمــنين المصــلين والمشغولين بأصـناف الطاعـات. والمصـباح بالاشـتغال بهـا، والمشـكاة بالبيوت المذكورة، والنور على النور بل الأنوار على الأنوار بأنوار أفـراد المصلين المتعاونين المصطفين في الجوامـع، ونـور الأئمـة الراشـدين، ونـور قـراءة القـرآن واستمرارهم على طاعـاتهم في كـل وقت مقـرر مبين.

ويدل على هذا التطبيق الأخير قوله تعالى ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُـورِهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مـع ملاحظـة تعلـق قوله تعالى ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ به.

والحاصـل: إن ظهـور البـاري تعـالى إنمـا يكـون على أولئـك النـاس المباركين.

﴿يَهْـدِي اللَّهُ لِنُـورِهِ﴾ أي يوصـل البـاري تعـالى إلى العلم بظهـوره ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عبـاده أين كـانوا ولكنـه جـرت سـنته السـنية بهدايـة عبـاده الملازمين لطاعته في المساجد غالبا، وذلك لتضافرهم وتظاهرهم على الطاعة واجتمـاعهم على الـدعوات ﴿وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ﴾ في تضاعيف إنزال الآيات البينـات للاعتبـار والاستبصـار ﴿وَاللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم من يهتـدي بـالحق ويقتـدي بأهلـه ويسـتعد لإدراك وجـوب وجوده وظهور ذاته وكمال صفاته.

وقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ استئناف لبيان من حصلت لهم الهداية لذلك النور الظاهر بنفسه المظهر لغيره المسـتور، فيكـون الجار متعلقا بقوله يسبح، وعلى هذا يجوز أن يكون متعلقا بمحذوف دل عليه هذا الفعـل، والتقـدير سـبحوا ربكم في بيـوت الآيـة... وعلى ذلـك فالوقف على عليم، ويجوز أن يكون الجار والمجـرور صـفة لمشـكاة أو لمصباح أو لزجاجة، أو متعلقا بتوقد.

والرأي عندي أن يتعلق بقوله ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ وإنما ترك ذلك الوجه أهل التفسير فيما نعلم لأن هداية الله الناس لنوره ليس مختصا بأهل تلك البيوت. ووجه اختياري لذلك الإعراب أن هدايته تعالى لعباده المشتغلين بالطاعة في تلك البيوت أكثر وأوفر لما ذكرنا من التظاهر والتضافر.

والمراد بالبيوت عامة المساجد والمعابد المؤسسة على التقوى. وقيل المساجد الأربعة: الكعبة، ومسجد المدينة المنورة، والمسجد الأقصى ومسجد قباء. لأنها أسست على التقوى من جانب الرسل الكرام إبراهيم وإسماعيل ومحمد وداود وسليمان عليهم الصلاة والسلام ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي أمر الله أن ترفع حسا بأن يستحكم أساسها وجدرانها وتعلى إلى مستوى الأبنية القريبة منها أو تعلي عليها لتظهر في أنظار أهل الطاعة. أو معنىً وقدرا بصيانتها عن دخول الجنب والحيض والنفساء، وعن وقوع الأقذار فيها لاسيما ما يخاف منها تلويثها. وعن دخول أصحاب الروائح الكريهة من الثوم والبصل والفجل وأمثالها. وعن إدخال الصبيان غير المميزين والمجانين والنعال المتوسخة بالأوساخ الرطبة أو اليابسة التي يخاف تنجيس المساجد وفروشها بها وعن إشغالها بالمعاملات والملاهي والكلمات البذيئة... إلى غير ذلك مما لا يناسب مقامها. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي أمر الله أن يذكر فيها اسمه والمراد بذكر اسمه تعالى ما يعم جميع وجوه ذكره المشروع بتلاوة الأسماء الحسنى والقرآن الكريم، وما يتعلق بطاعة الله كتدريس القرآن والأحاديث الشريفة والفقه وأصوله والعلوم التي لابد منها في فهمها كالنحو والصرف والبلاغة وغيرها... كما يشمل جميع الأدعية المأثورة وغيرها مما يدعى بها لجلب خير أو دفع شر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: المراد به توحيده عز وجل بقوله لا إله إلا الله كما يشمل أداء الصلوات المفروضة والمندوبة مؤكدة أو غيرها، وصلاة تحية

المسجد، وسنة الوضوء. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ﴾ استئناف لبيان أعمال من حصلت لهم الهداية. والتسبيح التنزيه والتقديس، والمراد بـه إما ظاهره كأن يقول القائل: سبحان الله وبحمده سبحان اللـه العظيم، أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أو إقامة الصـلوات لاشتمالها على التسبيحات في الركوع والسـجود. وعن ابن عبـاس كـل تسبيح في القرآن صلاة. والغدو جمع غداة كفتى وفتاة، أو مصدر أطلق على الوقت، والأصال جمع أصيل كأشـراف وشـريف. وقولـه ﴿رِجَـالٌ﴾ فاعل للفعل السابق وقوله ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ صفة له مؤكـدة لمـا في إفادة التنوين من التفخيم، فإن كمال الرجال بانقطاع قلوبهم عن الدنيا وتوجههم إلى الله سبحانه وتعالى والتجارة المعاوضات للاسـتربا ح ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ يشمل جميع البيوعات من بيع المعين والموصوف في الذمة ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي بالتحميـد والتسـبيح وغيرهمـا ﴿وَإِقَـامِ الصَّـلَاةِ﴾ أي أدائهـا لأوقاتها والمواظبة عليها ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي المـال المفـروض إخراجـه للمستحقين. وقوله ﴿يَخَافُونَ يَوْمًـا﴾ صـفة أخـرى للرجـال، أو حـال من مفعـول لا تلهيهم ﴿تَتَقَلَّبُ فِيـهِ الْقُلُـوبُ وَالْأَبْصَـارُ﴾ أي تضـطرب فيهـا القلوب من الهول والفزع، وتضعف الأبصار من إبصار الأشياء من شـدة الوجل والخجل.

وقوله تعالى ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُـوا﴾ متعلـق بقولـه يسـبح أي يفعلون ما يفعلون من التسبيح وإيتاء الزكاة وإقام الصلاة ليجزيهم اللـه تعالى على ميزان أحسن ما عملوه من الأعمال فيكون لهم ثـواب زائـد ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يتفضل عليهم بمثوبات ومكارم لم توعـد لهم بها وبمقدارها ولم يخطر ببالهم كمياتها وكيفياتها، كمـا في قولـه صـلى الله عليه وسلم حكاية عن الباري جل جلاله: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

وهذا وعد كـريم بأنـه تعـالى يعطيهم مـا لا يفي بـه الحسـاب ممـا وراء جزاء أعمالهم تفضلا عليهم وإحسانا إليهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَـالُهُمْ كَسَـرَابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْـآَنُ مَـاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَـابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَـوْجٌ مِنْ فَوْقِـهِ مَـوْجٌ مِنْ فَوْقِـهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْـرَجَ يَـدَهُ لَمْ يَكَـدْ يَرَاهَـا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَـهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُـلٌّ قَـدْ عَلِمَ صَـلَاتَهُ وَتَسْـبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِـيرُ (42)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية... عطف على ما قبله عطف القصـة على القصة. يقول الله سبحانه بعد بيان أجزيـة أعمـال المؤمـنين بكـل تقـدير واحـترام ﴿وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَعْمَـالُهُمْ كَسَـرَابٍ﴾أي أعمـالهم الـتي يعدونها من الحسنات بزعمهم ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ والسـراب: مـا ترقـرق من الهواء في الهجير في صحراء واسعة. وقيل: هو الشعاع الـذي يـرى في نصف النهار عند اشتداد الحر في الـبر يخيـل للنـاظر إليـه أنـه مـاء سارب ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآَنُ مَاءً﴾ صفة أخرى لسراب، أي يظنه مـاء فراتـا يرويه إذا شربه ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ أي وصل إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَـيْئًا﴾ أي لم يجد ما ظنه ماء شيئا أصلا، لأنها لم يكن أمرا ثابتا يلمس ويؤخـذ وينتفـع به ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ أي ووجد آثار قدرة الله بالنسـبة إليـه وهـو خلـق الأسى في قلبه واستمرار العطش في

كبده ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أي أعطاه وافيا ما ينتظره الإنسان من نظير ذلك العمل والركض وراء الأمل الفارغ الموجب للانفعال. ويحتمل أن يربط قوله تعالى ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ﴾ عنده بموضوع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي والذين كفروا أعمالهم حابطة لا تفيد وبالنتيجة يجدون الله عندما يئسوا من كل نفع فوفاهم جزاء أعمالهم وهو الخلود في النار ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على قوله كسراب أي أو أن أعمالهم التي يزعمونها حسنات كالظلمات في الدنيا من حيث خلوها عن نور الحق ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ أي في بحر عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ أي يغطي ذلك البحر ويستره موج هائج من الماء ﴿مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ آخر وليس المراد على الأثنينية بل على التراكم والتتابع أي يستره موج وراءه أمواج أخرى كثيرة عند هيجان البحر بالأمواج. وقوله ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ صفة لموج الثاني أي من فوق ذلك الموج سحاب ظلماتي ستر أضواء النجوم وحجب وقوعها على سطح البحر. وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي هذه ظلمات بعضها فوق بعض ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أي من ابتلي بها إذا أخرج يده من الكم وجعلها في مرأىً منه لم يكد يراها فضلاً عن أن يراها فعلا. وقوله ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ تذييل جيء به لتقرير ما قبله وإثبات أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره.

وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خطاب لحبيبه محمد خاتم الأنبياء والمرسلين. والفعل مشتق من الرؤية العلمية. والآية لتقرير أن الله نور السماوات والأرض. ويقول ألم تعلم يا حبيبي بالوحي أو بالإلهام أن الله سبحانه وتعالى يسبح له وينزهه عن العيوب وعن الشريك ﴿مَنْ﴾ أي كل عاقلٍ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة

على اختلاف أصنافها وكل عاقل في ﴿الْأَرْضِ﴾ من الأنبياء والرسل السابقين واللاحقين ومن آمن بهم من الصادقين. وقوله ﴿وَالطَّيْرُ﴾ معطوف على الموصول أي ويسبح له الطير في الجو حالكونها ﴿صَافَّاتٍ﴾ أجنحتها بحيث يتمكن بها من الوقوف في الجو والحركة فيه إلى أي جهة شاءت بإرشادها وإلهامها كيفية استعمالها بالقبض والبسط والتحريك. وقوله تعالى ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ جملة مستأنفة جيء بها لبيان رسوخ كل ما ذكر في شأنه بحيث يعلم كل من في السماوات والأرض ويعلم الطير ما يصدر عنه من الأفعال التي تكون بالنسبة إليها طاعة وإظهار عبودية للباري تعالى. أما صلاة العقلاء وتسبيحهم فمعلوم أن العاقل المباشر لها يعلم بها وبوجوبها أو استحبابها وكمياتها وكيفياتها. وأما الطير فالجمهور على أن تسبيحها حقيقي، ولا يلزم كون التسبيح الحقيقي بالألفاظ المعتادة لنا، لأن كل نوع من المخلوقات له نوع من المألوفات ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ والمستفاد من الآية الكريمة أن عقلاء عالم العلو والسفل والطيور لما آمنت بالله الذي هو نور السماوات والأرض فما قيمة الجهلاء فيهما إذا عاندوا الحق والحقيقة ولم يؤمنوا بالله الذي هو نورهما ولم يظهر على عيون رؤوسهم ونفوسهم هذا النور الظاهر بنفسه المظهر لغيره؟ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي رجوع الكل بعد الموت والبعث للمعاد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46)﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ جملة مستأنفة وفي المعنى مقررة ومؤكدة لما قبلها من سيطرة الباري على العالم وظهوره على العقلاء وإطاعتهم له فيقول ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بالعين ﴿أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي يسوقه سوقا برفق وتؤدة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي وبين سحاب آخر أو يؤلف بين أجزاء ذلك السحاب الأول المتفرق بعضه عن بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي متراكما بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي المطر شديدا كان أو ضعيفا ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي من فتوقه ومخارجه ومنافذه ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من السحاب العالي ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ أي قطع كبيرة من البرد المتكون هناك بإرادته سبحانه وتعالى بأسباب خاصة هيّأها تشبه الجبال في الحجم والارتفاع ﴿فِيهَا﴾ أي في السماء من بَرَدَ أي من الحالوب المعروف المسمى بالبرَد لأنه يكسو سطح الأرض كالبردِ الملبوس ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي بذلك البرد ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إصابته في نفسه أو مواشيه أو بساتينه أو مزارعه ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ صرفه وانحرافه عنه ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أي ويحصل من ذلك السحاب المتراكم الضاغط بعضه على بعض برْقا مشرقا مضيئا يكاد سنا برقه وضوئه الحديد الشديد يذهب بالأبصار من فرط الضوء وسرعة الورود وغلبته على أضواء العيون ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي يغير الله الليل والنهار كلا بالآخر بالحركات المتوالية الجارية على الكواكب السفلية

والعلوية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التصرف البديع البارع المدهش للعقول ﴿لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي دلالة واضحة على وجوده وقدرته وتصرفه في الكائنات يتصف بتلك العبرة أولو الأبصار للنظر في مظاهر العالم وأولو البصائر للنظر في الأنفس والدقائق.

ثم أظهر قدرته من جهة أخرى فقال ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ أي كل حيوان يدب على الارض ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ هو جزء من أجزاء مادته المخلوق هو منها ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالزحافات ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالآدميين والطيور ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كذوات القوائم، ومنهم غير ذلك مما لم يذكر ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ لا يعجزه شيء عن شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيتصرف في العالم كما يشاء ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آَيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ للمهمات مما يتعلق بالعقائد والأحكام وانتظام أمور الأنام ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فيسلكه ويصل بسلوكه الى النور الذي يطمئن به قلبه ويفهم به معاني الآيات.

﴿وَيَقُولُونَ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52)﴾

قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ الآيـة.. نـزلت في المغـيرة بن وائل كان بينه وبين علي كرم الله وجهه خصومة في أرض فتقاسـما فوقع لعليّ ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة، فقـال المغـيرة: بعـني أرضـك، فباعها إياه وتقابضا، فقيل للمغيرة: أخذت سبخة لا ينالهـا المـاء. فقـال لعلي كرم اللـه وجهـه: اقبض أرضـك، فإنمـا اشـتريتها إنْ رضـيتُها، ولم أرضها فإن الماء لا ينالها. فقـال علي: قـد اشـتريتها ورضـيتها وقبضـتها وأنت تعرف حالها، لا أقبلهـا منـك. ودعـاه إلى أن يخاصـمه إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما محمد فلسـت آتيـه فإنـه يبغضـني وأنا أخـاف أن يحيـف عليّ فـنزلت. يعـني إن أولئـك النـاس ﴿يَقُولُـونَ﴾ باللسان ﴿آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي أطعنا الله ورسـوله في كـل أمر ونهي ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ أي يعرض عن مقتضى هذا القـول ﴿فَرِيـقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الذي صدر منهم من ادعاء الإيمان بالله ورسوله والطاعة لهما ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ في الواقع حيث تـبين بتـوليهم وإعراضـهم عن رفع المحاكمة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لا يصـدقونه في مـا يصـدر منـه من الأحكـام كمـا قـال تعـالى ﴿وَإِذَا دُعُـوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي وبين خصومهم ﴿إِذَا فَرِيـقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُـونَ﴾ أي فاجَأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسـلم ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَـقُّ﴾ أي لا عليهم ﴿يَـأْتُوا إِلَيْـهِ مُـذْعِنِينَ﴾ منقـادين مطيعين له صلى الله عليه وسلم. ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي كفـر ثـابت جعلهم بحيث يقطعون أن الرسول ليس رسولا من الله وليست أحكامه صادرة عن الـوحي ﴿أَمِ ارْتَـابُوا﴾ أي أهم مـترددون في شـأن الرسـول وحائرون بين الكفر والإيمان فتارة يحكمون بأنه ليس رسولا فيحكم

بالباطل، وتارة يعودون فيقولون: إن أحكامه حق ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ يعني أم ليس الكفر سائدا على قلوبهم ولا الـتردد بـل هم مؤمنـون ضـعاف الإيمـان وضـعاف القلب، ويتصـورون أن اللـه ورسـوله قـد يرجحـان جـانب بعض المـراجعين على بعض لقرابـة أو اختصـاص أو سـبق في الإسـلام، ﴿بَـلْ﴾ أعـرض عن هـذه التقسـيمات، وإنمـا ﴿أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ﴾ المشـركون الكـافرون المصـرون على الكفر ولا يؤمنون بالله ورسوله وليس عنـدهم مـا يسـوقهم إلى الرضـا بالمحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم. وليسوا من المؤمنين قطعا.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُـوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ في شجار وخصام ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا﴾ الحكم ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ه ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الناس القائلون بـذلك ﴿هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ الفـائزون بـالخير في الـدارين. ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمرا به ونهيا عنه ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ على ما جـرى منـه من المعاصـي سـابقا ﴿وَيَتَّقْـهِ﴾ في ارتكابهـا لاحقـا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بسعادة الدارين. ولفظ مضارع المـذكر الغـائب المعلـوم من باب الافتعال معطوف على الشرط السابق ومجزوم بحذف لام الفعل، وفيه قراآت، والمعروف عنـدنا منهـا قـراءة حفص لهـا بسـكون القـاف وكسر الهاء غير مشبعة. والضمير المنصوب راجع الى الله تعالى.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَـةٌ مَعْرُوفَـةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ (53) قُـلْ أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَـا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَـا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُـوهُ تَهْتَـدُوا وَمَـا عَلَى الرَّسُـولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) وَعَـدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَـا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَـــى لَهُمْ وَلَيُبَــدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْـــدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَـيْئًا وَمَنْ كَفَـرَ بَعْـدَ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ (55) وَأَقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَآتُـوا الزَّكَـاةَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُــونَ (56) لَا تَحْسَــبَنَّ الَّذِينَ كَفَــرُوا مُعْجِــزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)﴾

قولـه تعـالى ﴿وَأَقْسَـمُوا بِاللَّهِ﴾ حكايـة لبعض أحـوال أخـرى من أحـوال الكفرة غير ما سبق، فيقول تعـالى ﴿وَأَقْسَـمُوا بِاللَّهِ جَهْـدَ أَيْمَـانِهِمْ﴾ أي حـالكونهم يجهـدون أيمـانهم جهـدا، أو جاهـدين أيمـانهم. ومعـنى جهـد اليمين بلوغها غايتها في التأكـد والاهتمـام بهـا ﴿لَئِنْ أَمَـرْتَهُمْ﴾ بـالخروج إلى الجهاد ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ بكمال الإطاعة والإقدام ﴿قُـلْ لَا تُقْسِـمُوا﴾ على ما تريدون الإقسام عليه من الطاعة، سلمنا أنكم تطيعون لكنها ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ منكم ليست محل الاشتباه لأنها طاعة لسانية فقـط ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُـونَ﴾ ومنـه مـا تظهرونـه من الأكـاذيب ﴿قُـلْ أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ﴾ حـق الإطاعـة وقولـه تعـالى ﴿فَـإِنْ تَوَلَّوْا﴾ خطـاب للمنافقين على وجه الإلتفات بتغيـير الأسـلوب، والفعـل مضـارع لجمـع المـذكر المخـاطب المحـذوف منـه إحـدى التـاءين، أي فـإن تتولـوا عن إطاعة الله وإطاعـة رسـوله أيهـا النـاس الفاسـدون ﴿فَإِنَّمَـا عَلَيْـهِ﴾ أي فعلى الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ، وقد شاهدتموه وسمعتم ما بلغـه إليكم ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي ما كلفتم به من الإطاعة

الخالصة الغير المشوبة بالنفاق فيما أمركم به صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق الذي لا شيء فوقه ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقد بلغ الرسول ما أوحى إليه من الله.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ أي ليجعلنهم خلفاء في الأرض متصرفين فيها تصرف الملوك ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهم بنو إسرائيل، إستخلفهم الله بعد إهلاك الجبابرة ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وهو دين الإسلام ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من أعدائهم ﴿أَمْنًا﴾ واسعا نافعا حالكونهم ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي ومن اتصف بالكفر واستمر عليه ولم يتأثر بهذه الآيات البينات والمواعظ من أولئك الكافرين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الكاملون في الفسق الخارجون عن دائرة الخير واستحقاقه أبد الآبدين.

واستدل كثير من العلماء بهذه الآية على صحة خلافة الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم لأن الله تعالى وعد فيها من في حضرة الرسالة من المؤمنين بالاستخلاف وتمكين الدين والأمن العظيم من الأعداء، ولا بد من وقوع ما وعد به ضرورة امتناع التخلف في وعده تعالى، ولم يقع ذلك المجموع إلا في عهدهم، فكان كل منهم خليفة حقا باستخلاف الله تعالى إياه حسبما وعد الباري جل جلاله. ولا يلزم عموم الاستخلاف لجميع الحاضرين المخاطبين، بل وقوعه فيهم مثل بنو فلان قتلوا فلانا فلا ينافي ذلك عموم الخطاب الجميع، وكون من بيانية، وكذا لا ينافيه ما وقع في خلافة عثمان رضي الله عنه، وكذا في خلافة علي رضي الله عنه من الفتن، لأن المراد من الأمنِ الأمنُ من أعداء الدين وهم الكفار.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذه الآية الشريفة معطوفة على قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ والفاصل بين

المتعاطفين ليس أجنبيا من كل وجه، فإنه وعد على المأمور به وبعضه من تتمته ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا تحسبنهم معجزين لله تعالى عن إدراكهم وإهلاكهم أينما كانوا من أقطار الأرض فلا شك أنه تعالى يدركهم ويهلكهم ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ نار جهنم. أعاذنا الله منها بمنه وكرمه آمين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ رجوع إلى بيان تتمة الأحكام السابقة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب إطاعة الله تعالى ورسوله فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ أي من أولادكم المميزين الذين لم يبلغوا وقت البلوغ والإحتلام ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي ثلاث أوقات في اليوم والليلة.

وقد اتفق الفقهاء على أنه إذا احتلم الصبي فقد بلغ، واختلفوا فيما إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم. فقال أبو حنيفة في المشهور: لا يكون بالغا حتى يتم له ثماني عشرة سنة، وكذا الجارية إذا لم تحتلم أو لم تحض أو لم تحبل لا تكون بالغة عنده حتى يتم لها سبع عشرة سنة. وقال صاحباه والشافعي وأحمد: إذا بلغ الغلام والجارية خمس عشرة سنة فقد بلغا. وهو رواية عن الإمام رضي الله عنه وعليه الفتوى.

وقد بين الله تعالى المراد بثلاث مرات فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين، والظهيرة الظهر ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت التجرد عن لباس اليقظة والالتحاف بثياب النوم، وكثيرا ما يتعاطى فيه مقدمات الجماع، وإن كان الأفضل تأخيره لمن لا يغتسل على الفور إلى آخر الليل ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ أي هن ثلاث عورات لكم. أي هي ثلاث أوقات يختل فيها التستر عادة ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي هم طوافون عليكم، وبعضكم طائف على بعض. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على ما فيه سعادتكم في الدارين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع المعلومات ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وتشريعاته.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ المذكورين في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ الآية... ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي العاجزات القاعدات في مساكنهن لعجزهن عن المشي ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي لا يطمعن فيه لكبرهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي الثياب الظاهرة التي لا يفضي وضعها إلى كشف

العورة كالجلباب، والرداء، والقناع الذي فـوق الخمـار. ﴿غَيْـرَ مُتَبَرِّجَـاتٍ بِزِينَةٍ﴾ التبرج التكلف في إظهار ما خفي، أي غـير مظهـرات زينـة ممـا أمـر باخفائـه في قولـه تعـالى ﴿وَلَا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ ﴿وَأَنْ يَسْـتَعْفِفْنَ﴾ بالتسـتر وتـرك وضـعهن ﴿خَيْـرٌ لَهُنَّ﴾ من الوضـع لبعـده عن التهمـة والغرض من ذلك أن هؤلاء استعفافهن عن وضع الثياب خـير لهن، فمـا ظنـك بـذوات الزينـة من الشـوابّ؟ ﴿وَاللَّهُ سَـمِيعٌ﴾ لمـا يجـري بينهن بصوت خفي ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقاصدهن.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَـرِيضِ حَـرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آَبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـامِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَخْـوَالِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ خَـالَاتِكُمْ أَوْ مَـا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَـهُ أَوْ صَـدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًـا أَوْ أَشْـتَاتًا فَـإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًـا فَسَـلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِـكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ مُبَارَكَـةً طَيِّبَـةً كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(61)﴾

قولـه تعـالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَـرَجٌ﴾ الآيـة... عن سـعيد بن جبـير والضحاك أنه كان العرجان والعميان يتحرجون عن مؤاكلة الأصـحاء لأن الناس يستقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم، وكان أهل المدينـة لا يخـالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقذرا، فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام، فـإذا لم يكن عنـده مـا يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهـاتهم أو إلى بعض من سـماهم الله تعالى في الآية الكريمة، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولـون: ذهب بنا إلى بيت غيرنا ولعل أهله كارهون لذلك. وكذلك كانوا يتحرجـون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو وخلفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتيحها، وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها مخافـة أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم. وكان غير هؤلاء أيضا يتحرجون من الأكـل في بيـوت غـيرهم؛ فعن عكرمـة كـانت الأنصـار في أنفسـها قزازة فكانت لا تأكل من البيوت التي ذكر الله تعالى.

وقـال السـدي: كـان الرجـل يـدخل بيت أبيـه أو أخيـه أو أختـه فتتحفـه المرأة بشيء من الطعام فيتحرج لأجل أنـه هنـاك رب الـبيت. والحـرج لغة كما قال الزجـاج الضـيق من الحرجـة وهـو الشـجر الملتـف بعضـه ببعض لضيق المسالك فيه. وقال الراغب: هو في الأصل مجتمع الشيء ثم أطلق على الضـيق وعلى الإثم، والمعـنى على الروايـة الأولى: ليس على هؤلاء حرج في أكلهم مع الأصحاء. ويقدر على سـائر الروايـات مـا يناسب ذلك مما لا يخفى. وكلمـة ﴿عَلَى﴾ باقيـة على معناهـا في جميـع ذلك. وروي عن ابن عباس رضي اللـه عنهمـا أنـه لمـا نـزل ﴿وَلَا تَـأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِـلِ﴾ تحـرج المسـلمون عن مؤاكلـة الأعمى لأنـه لا يبصر موضع الطعـام الطيب، والأعـرج لأنـه لا يسـتطيع المزاحمـة على الطعام، والمريض لأنه لا يستطيع اسـتيفاء الطعـام. فـأنزل اللـه تعـالى هذه الآية.

وقيل: كانت العرب ومن بالمدينة قبل البعث تجتنب الأكل مع أهل هـذه الأعذار لمكان حولان يد الأعمى، وانبساط جلسـة الأعـرج، وعـدم خلـو المريض من رائحة تؤذي، او جرْحٍ ينض، او أنفٍ يَذن. فنزلت

ومن ذهب الى هــذا جعــل كلمــة ﴿عَلَى﴾ بمعــنى (في) أي ليس في مؤاكلة الاعمى حرج وهكذا... وإلا لكان حق التركيب ليس عليكم حــرج أن تأكلوا مع الأعمى. وكذا يقال فيما بعد.

﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِـكُمْ﴾ حـرج ﴿أَنْ تَـأْكُلُوا﴾ أنتم وهم معكم ﴿مِنْ بُيُـوتِكُمْ﴾ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيهـا بيـوت الأولاد، ولأن بيت الولد كبيته لقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: ((أنت ومالـك لأبيـك)) وقوله عليه السلام ((إن أطيب ما يأكل المـؤمن من كسـبه، وإن ولـده من كسـبه)) ﴿أَوْ بُيُـوتِ آَبَـائِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أُمَّهَـاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ إِخْـوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَخْـوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ مما يكـون تحت أيـديكم وتصـرفكم من ضيعة أو ماشية وكالـة أو حفظـا ﴿أَوْ صَـدِيقِكُمْ﴾ أو بيـوت صـديقكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَـأْكُلُوا جَمِيعًـا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي مجتمعين أو متفرقين. نزلت في بـني ليث بن عمـرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده، وكان الرجـل منهم لا يأكـل ويمكث يومه حتى يجـد ضـيفا. وقيـل: وهـذا التحـرج سـنة موروثـة من الخليل عليه الصلاة والسلام. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ من الـبيوت المـذكورة ﴿فَسَـلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِـكُمْ﴾ أي على أهلهـا لأنهم منكم فكـأنكم. سـلمتم على أنفســكم ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ مُبَارَكَـةً طَيِّبَـةً﴾ تطيب بهــا نفس المسـتمع ﴿كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَـاتِ﴾أي آيـات الأحكـام الاجتماعيـة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في تضاعيفها من الشرائع والآداب الإسلامية.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ آية من الآيات البينات المهمة في التزام المؤمنين لإطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أوامره ونواهيه فيقول الله تعالى مصدرا بأداة الحصر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ أي ليس المؤمن بالمعنى الكامل إلا من آمن بالله ورسوله إيمانا صافيا عن شوب التردد والأوهام المخالفة ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أي مع الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ للناس مهم مهتم به أي أمرٍ كان. وقال بعض: المراد أمر مهم يجب اجتماعهم معه صلى الله عليه وسلم كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها من الأمور الداعية الى الاجتماع لغرض من الأغراض ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ عنه أي لم ينفكوا عنه صلى الله عليه وسلم ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ صلى الله عليه وسلم في الذهاب والانفكاك فيأذن لهم به فيذهبون. وذلك لأن الاستئذان منه صلى الله عليه وسلم وتوقف سير المؤمن على إذنه ملاك الأدب، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقد جعل المستأذنين هم المؤمنون كما جعل سابقا المؤمنين هم المستأذنون،

فيحصـل هنـا المسـاواة بين المؤمـنين والمسـتأذنين، حيث صـدق كـل مؤمن مستأذن وكل مستأذن مؤمن ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَـأْنِهِمْ﴾ أي لبعض أمر من أمورهم المهمة ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِـئْتَ مِنْهُمْ﴾ على اختيـارك فإن تلك الأمور أي الإذن لمن شـئت وعدمـه لمن شـئت مفـوض إليـك ﴿وَاسْـتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ فـإن الاسـتئذان لا يخلـو عن شـائبة فاسـدة هي تقـديم أمـر الـدنيا على أمـر الآخـرة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ﴾ كثـير المغفـرة لفرطات العباد ﴿رَحِيمٌ﴾ في إفاضة الكرم عليهم.

ثم قرر الله تعالى معنى الآية السابقة بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَـاءَ الرَّسُـولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي لا تقيسوا دعاءه صلى الله عليـه وسـلم إياكم لأمر من الأمور على دعاء بعضكم بعضا فـإن بين الفـرع والأصـل فوارق عديدة كثيرة ﴿قَـدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَـلَّلُونَ مِنْكُمْ لِـوَاذًا﴾ وعيـد لمن خـالف الحكم الماضـي، وكلمـة قـد للتحقيـق، أي لا شـك أن اللـه تعالى يعلم الذين يتسللون ويخرجون من الجماعة قليلا قليلا على خفية ملاوذة بأن يستتر بعضـهم ببعض حـتى يخـرج ﴿فَلْيَحْـذَرِ الَّذِينَ يُخَـالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي بلاء ومحنة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الجمادات والنبـات وأصـحاب الحيـاة من العقلاء وغـيرهم، فالكـل عائـد إلى اللـه تعالى خلقا وملكا وتصرفا إيجادا أو إعداما بـدءا أو إعـادة ﴿قَـدْ يَعْلَمُ مَـا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الصفات والأحوال إيمانا وكفرا موافقة ومخالفـة ﴿وَيَـوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلُـوا﴾ من الحسـنات والسـيئات لأنـه تـوزن أعمالهم ويحاسبون عليها ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية. وفيه بشارة للمؤمنين، ووعد لهم بنيل الجـزاء والثـواب، وإنـذار ووعيـد للكافرين وتهديـد لهم بمـا يلقونـه يـوم القيامـة. ونسـأل اللـه الـرءوف الرحيم السـلامة من موجبـات الندامـة، وإفاضـة العفـو والرحمـة علينـا بالإحسان والكرامة آمين.

سورة الفرقان، مكية، وهي سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)﴾

قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾

افتتح الباري سبحانه هذه السورة الجليلة بفعل لا يسند غالبا إلا إلى الله سبحانه، ولا يتصرف فيه بالمضارع والأمر والنهي في الأغلب، وهو بمعنى تعاظم وتعالى، وجاء بالموصول والصلة تنبيها على أن هذا التنزيل التدريجي المنجم على حسب اقتضاء الحكمة لا يمكن إلا منه. وعبر عن الكلام المنزل بالفرقان، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل إشارة إلى أن ذلك الكلام يفرق بين كل حق وباطل، وما قرره حقا فهو الحق، وما قرره باطلا فهو الباطل، وما أتاه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد نزله على إنسان ينبوع للخير والإحسان، مخصوص بصفة العبودية الخالصة لربه

الموصوف بصفة السيادة الخالصة، فالعبد هو العبد الذي نظر بكل مشاعره إلى مولاه، وقطع النظر عن جميع ما سواه، ولا يخفى ما في إضافة هذا العبد إلى نفسه من التشريف. وقوله ليكون للعالمين نذيرا لإفادة أن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح وأهل الفساد أكثر من أهل الرشاد. وفيه براعة الإستهلال لأن الآيات النازلة فيها تدق أعناق المعاندين ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دون غيره مطلقا، لا استقلالا ولا اشتراكا فله السلطان القاهر ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ من الذكور ولا من الإناث، لأن وجوب الوجود معناه الاستغناء المطلق عن كل موجود ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ والسلطنة والاستيلاء، وهو الذي إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي كل ما يدخل تحت الإرادة والمشيئة ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ فأعده لما خلق له وأراد به من الخصائص والاعمال وأكد ذلك بقوله ﴿تَقْدِيرًا﴾ أي تقديرا بديعا لا يقادر قدره ولا يبلغ قعره.

﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أي الكفار المشركون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله تعالى ﴿آلِهَةً﴾ تائهة لا حياة فيها ولا شعور ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فإنها هياكل منحوتة نصبت بأيد أثيمة اكتسبت من الجرائم ما اكتسبت ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي أولئك الآلهة ﴿لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ومعلوم أن الخالق هو الضار والنافع ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ والخالق يجب أن يكون قادرا على الموت والحياة والنشور.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6) وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (10)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ القائلون هم جمع من مشركي العرب منهم النضر بن الحرث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد. يعني إنهم قالوا: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ أي كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾ أي اخترعه من عند نفسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ﴾ أي على افترائه ﴿قَوْمٌ آَخَرُونَ﴾ غير العرب من اليهود بأن يلقوا إليه صلى الله عليه وسلم أخبار الأمم السابقة المستقاة من الأسفار الدائرة إذ ذاك أو من الحكايات المروية، ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي فقد جاءوا بتعد هائل وظلم وافر حيث جعلوا الآيات البينات البليغة المتضمنة للحكم الثمينة وللمواعظ المبينة وللاصول الرصينة الموجهة لأصحاب العقول الى الاعتدال في الدنيا والدين ﴿إِفْكاً﴾ مفترى مع أن الأكاذيب ألاعيب تافهة ﴿وَزُورًا﴾ أي كذبا عظيما وكل من هذين اللفظين منصوب بنزع الخافض أي فقد جاءوا بظلم عظيم وزور لئيم. ويجوز أن يكونا في تأويل اسم الفاعل حالين من الفاعل، أي ظالمين ومزورين أي جاءوا إلى مقام الدعوى كذلك.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ أي بعد أن قالوا لهذا القرآن المعجز

بأسلوبه ورصانة مبانيه ودقائق معانيه أنه إفك أعانه عليه آخـرون بينـوا كيفية الإعانة بأنـه أسـاطير الأولين اكتتبهـا وكتبهـا لنفسـه وينسـبها إلى جـانب قدسـه ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْـهِ بُكْـرَةً وَأَصِـيلًا﴾ أي تلقى عليـه تلـك الأساطير بعد اكتتابها صباحا ومساء ليحفظها من أفواه من يلقيها عليه.

﴿قُـلْ﴾ يـا حبيـبي رداً عليهم: ﴿أَنْزَلَـهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّـرَّ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لو كنتم من أهل العلم والعقل ما أتيتم بتلك الشبه الواهية التي يعلم بطلانها كل من يعلم بوجود أجلى البـديهيات، فـإن الأسـاطير أمور قديمة مكررة ليس فيها جديد، وهذا القرآن الكريم أصول معقولة وأحكام مقبولة مناسبة لعصر نزولـه، وليس فيـه أحكـام الأمم السـابقة الدارجة، بل أحكامها محكمـات مناسـبات لهـذا الزمـان، وأنتم أصـحاب الأبصار متى رأيتم أستاذا أو أساتذة في مكة المكرمة التي عـاش فيهـا صاحب هذا القرآن حتى يأخذ منهم هذه العبارات وهـذه الاعتبـارات في زمان مخصوص فضلا عن تكررها بكرة وأصـيلا؟ ومـتى وجـدتم محمـدا يكتب كتابا أو يصاحب كتّابا ليكتب هذا القرآن له؟ ثم من هو الذي يـأتي بأمثال عباراته في الفصاحة والبلاغة حتى يقال إنه أخذه منه؟ وبعد ذلك من هو الذي يستوعب هـذه المعـاني الجليلـة الجامعـة لمنـافع الـدارين والمتضمنة لدقائق الأسرار من البشر حتى تنسـب إليـه؟ فيتـبين ببعض الملاحظات واللمحات الفكرية من الإنسان العاقل أن هذا القـرآن ليس كلام البشـر بـل كلام اللـه العليم العلام وأنزلـه الـذي يعلم السـر في السماوات والأرض. وإلا فمن الذي يستوعب هذا القرآن المشتمل على أسرار مطوية بعيدة عن مستوى عقول البشـر؟ وأنتم أيهـا المشـركون المشاغبون مستحقون لإنزال العقوبـات الصـارمة من اللـه عليكم لكن اللـه أمهلكم إلى أجـل مسـمى ﴿إِنَّهُ كَـانَ غَفُـورًا رَحِيمًـا﴾ وإلا لعـذبكم بالعجل عذابا أليما.

﴿وَقَالُوا﴾ أي المشركون: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي ما الذي حدث لهذا الرجل الذي يدعي الرسالة من الله وهو إنسان من أمثالنا يأكل الطعام كما نأكله ويمشي في الأسواق لابتغاء الأرزاق كما نبتغيه وهو فقير محتاج إلى ذلك العمل ﴿الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ والناس يلبون إذ ذاك طلبه ويتبعون أدبه ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ حتى لا يحتاج إلى المشي في الأسواق ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ فيخلص من قلة المال وفقر الحال ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ أي الكفار المشركون: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ سحر فغلب على عقله. ﴿انْظُرْ﴾ يا حبيبي ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي كيف قالوا في حقك الأقاويل الباطلة العجيبة الخارجة عن العقول ﴿فَضَلُّوا﴾ وتاهوا عن طريق العقل والفهم الصحيح وبقوا متحيرين لا يجدون مخرجا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ للقدح في نبوتك ورسالتك بحيث يستقر عليه العقل، فإنهم قد سمعوا برسالة إبراهيم الخليل أبي إسماعيل باني البيت الجليل، وبرسالة موسى صاحب التوراة وعيسى صاحب الإنجيل. وكل أولئك الرسل الكرام كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ولم ينزل الله تعالى إلى أي واحد. منهم ملكا كريما يكون معه، ولا ألقى إليه كنزاً، ولا أعطي بستانا. وإنما هذه الكلمات تخرج من أفواههم بلا شعور وإدراك صحيح ولا عقل ولا نور.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ الذي اقترحوه في الدنيا وأبدل عنه قوله ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ في الفردوس ﴿وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ في عالم الآخرة يقصر عن نعتها ووصف كميتها وكيفيتها ألسنة المتكلمين.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن جمعا كثيرا من عظماء قريش اجتمعوا فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد صلى الله عليه

وسلم وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه. فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم عليه الصلاة والسلام، فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسودك وإن كنت تريد ملكا ملكناك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما بي مما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله تعالى بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوهُ عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله عز وجل بيني وبينكم)) قالوا يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك فسل لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله تعالى بعثني بشيرا ونذيرا)) فأنزل الله تعالى في قولهم ذلك ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ الآية..

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20)﴾

قوله تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ انتقال إلى حكاية نوع آخر من خصالهم المذمومة يعني أعرض عن هذه الأقوال التافهة التي يأتون بها إلى منشأ لها وهو تكذيبهم بالساعة وجزاء الأعمال، فإنهم استمروا على هذه العقيدة المعقدة المخالفة للواقع وكذبوا بالساعة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ فليقولوا ما يقولون وليفعلوا ما يفعلون. ثم ذكر بعض أوصافها وقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إذا رأت السعير أولئك الأفاكين المكذبين

بالساعة من مكان بعيد هو أقصى ما يمكن أن يرى منه ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي للسعير ﴿تَغَيُّظًا﴾ أي صوتا ناشيا عن الغضب والتغيظ ﴿وَزَفِيرًا﴾ وهو إخراج النَّفَس بعد مده. ونسبة هذه الاشياء اليها يجوز أن تكون على سبيل الحقيقة بناء على أنها من الممكنات ولها جهات شتى في الوجود والحدوث، ويجوز أن تكون على ضرب من التجوز كما لا يخفى. و﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ صفة مقيدة لزيادة كرب من يجعل فيه أي مكانا ضيقا من السعير حالكونهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالحبال الحديدية أو مقرنين مع قرنائهم من شياطين الإنس والجن ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي هلاكا، ويقولون: يا ثبوراه، أو تمنوا عند ذلك موتا يخلصهم من الحس والشعور لو كانوا يموتون، ولكن لا يموتون. فيقول لهم الملك المأمور بالأمر الجاري: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ والمقصود من هذا النهي أن عذابهم يستمر ولا ينتهي، وفي كل عذاب وعقاب ثبور، فالثبور يتكرر إلى الأبد.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لهم ﴿أَذَلِكَ﴾ الجزاء ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وجنة الخلد إما من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي جنة من دخلها كان خالدا، أو علم لجنة مخصوصة كجنة عدن ﴿كَانَتْ﴾ تلك الجنة في علم الله تعالى مقررة ﴿لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ أو كانت جزاء ومصيراً لهم ﴿فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي للمتقين في تلك الجنة ما يشاءون من اللذائذ الروحية والنفسية كان على ربك ﴿وَعْدًا﴾ أي موعودا ﴿مَسْئُولًا﴾ أي مسئولا واعده

بالوفاء به بمقتضى إحسانه ورحمته ﴿وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ وَمَـا يَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي واذكر لهم يوم يحشر الله الكافرين وما يعبدونه من دون الله من الأوثان وغيرها فيقول الباري تعـالى لأولئـك المعبـودين: ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك ﴿مَـا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ لأنك أحسنت إلينـا فجعلتنـا ملائكة أو أنبياء، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. هذا إذا كان المخاطبون منهم، أو ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أوليـاء لأنا كنا جامـدين خامـدين لا حس لنـا ولا شـعور فـاين الآمـر والمـأمور؟ وهذا إذا كانوا من الأوثان والأصـنام ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَـاءَهُمْ حَتَّى نَسُـوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ يعني إنك يا ربنا ابتليتهم فأنعمت عليهم فطغوا وبغـوا حـتى نسـوا الـذكر أي غفلـوا عن ذكـرك أو تـذكر نعمـك وآلائـك والتدبر في آياتك ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي بـائرين هـالكين في علمـك. أو صاروا قوما هالكين بسوء السلوك. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على عبدة الأوثان بطريق تلوين البيان. أي فقد كـذبكم ما اتخذتموهم من دون اللـه أوليـاء ﴿بِمَـا تَقُولُـونَ﴾ أي في مـا تقولـون أنهم آلهـة أضـلونا واسـتنكروا ذلـك وقـالوا مـا أضـللناهم قطعـا ﴿فَمَـا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ أي دفعا للعذاب الذي تستحقونه ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ وعونـا من جهة الآلهـة المفتعلـة ولا من جهـة أخـرى فقـد بينـا لكم صـورة مـا يجري يوم القيامة بيانا كافيا صافيا ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ أي يسـتمر على ظلمه وإشراكه بالله غيره ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يعلم قدره إلا الله.

وأما ما يقولونه طعنا في مقامكم بأكل الطعـام والمشـي في الأسـواق فليس بشيء ولا وزن لـه، فـإن ذلـك جـار على سـنتنا في الكـون فـإن الإنسان على

حسابه المـادي محتـاج إلى كسـب الأرزاق في الأسـواق وغيرهـا ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا قَبْلَـكَ مِنَ الْمُرْسَـلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَـأْكُلُونَ الطَّعَـامَ وَيَمْشُـونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَـكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَـةً﴾ أي وجعلنـا بعض النـاس أسـباب ابتلاء ومحنــة لبعض، فجعلنــا الأغنيــاء فتنــة للفقــراء والكــافرين فتنــة للمســلمين وللأنبيــاء والمرســلين. وإذا فتنــاكم بأولئــك المشــركين ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على تلـك الفتن والبلايـا حـتى نجـزيكم بالهبـات والعطايـا؟ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ﴾ ولم يزل ﴿بَصِيرًا﴾ بعباده عليما خبيرا.

الجزء التاسع عشر

<111>

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي وقال الذين لا يأملون الخير لكفرهم بيوم الحساب: ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فتخبرنا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فيتكلم معنا مشافهة ويأمرنا بتصديقه في الرسالة ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي فقد طغوا وبغوا وتجاوزوا حدودهم حتى اقترحوا ما لا يتحقق للأفراد من الأنبياء والمرسلين ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي وتجاوزوا عن الحد تجاوزا لا يقادر قدره. وكيف يرون الملائكة على اقتراحهم المبني على جسارة وتعنت وعناد؟! ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ لأنه يأتيهم العذاب من وجوههم وأدبارهم ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي ويقول الملئكة للمجرمين هذه الكلمة الشديدة الدالة على ردع المجرمين وطردهم من ساحة القبول ومنعهم من اللقاء والوصول، فيقال لهم حجرا محجورا عنكم الخير والرضا والرحمة من الله تعالى. ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي وعمدنا ونظرنا

إلى مـا عملـوا من عمـل وحسـبوه صـالحا نافعـا لهم ﴿فَجَعَلْنَـاهُ هَبَـاءً مَنْثُورًا﴾ أي غبارا متفرقا في الجو لا نفع فيه ولا ينتفع به أحد ﴿أَصْـحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ طرد المجرمون من الرحمة ويقـال لهم حجـراً محجـورا ﴿خَيْـرٌ مُسْـتَقَرًّا﴾ أي مكـان قـرار ﴿وَأَحْسَـنُ مَقِيلًا﴾ أي أحسـن مكانا يؤوى إليه للاستراحة والتفضـيل باعتبـار مـا كـان فيـه المجرمـون المترفون في الدنيا يعني أنهم وإن كان لهم مستقر لطيف جدا ومقيــل جميل الى درجة لكن مستقر أهل الجنة ومقيلهم خير من ذينـك بـل ولا مناسبة بينهما فإتياننا بصيغة التفضيل بين التجوز والتأويل.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَـةُ تَنْـزِيلًا (25) الْمُلْـكُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ لِلـرَّحْمَنِ وَكَـانَ يَوْمًـا عَلَى الْكَـافِرِينَ عَسِـيرًا (26) وَيَـوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْـهِ يَقُـولُ يَـا لَيْتَنِي اتَّخَـذْتُ مَـعَ الرَّسُـولِ سَـبِيلًا (27) يَـا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِـذْ فُلَانًـا خَلِيلًا (28) لَقَـدْ أَضَـلَّنِي عَنِ الـذِّكْرِ بَعْـدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَـانِ خَـذُولًا (29) وَقَـالَ الرَّسُـولُ يَـا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَـوْلَا نُـزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَـرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَـلٍ إِلَّا جِئْنَـاكَ بِـالْحَقِّ وَأَحْسَـنَ تَفْسِـيرًا (33) الَّذِينَ يُحْشَـرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)﴾

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ أي ويوم تشقق بسبب خروج الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ في ذلك ومعهم صحائف أعمال الثقلين ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ السلطنة والقهر والجبروت حق محصور في الباري سبحانه وتعالى لا شريك له، كما لم يكن له شريك حتى ولا إضافة لأدنى علاقة مجازية وقد كانت في الدنيا ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم ﴿يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ لأنه يوم القبض على المجرمين والجر والسحب إلى حساب المعتدين ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ المشرك ﴿عَلَى يَدَيْهِ﴾ من فرط الحسرة والأسى والتأسف والندم حيث لا ينفع ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ طريقا إلى الجنة إذا كان المراد بالرسول شخصه الكريم فالظالم هو من عانده في عصره كعقبة بن أبي معيط كان يكثر مجالسته صلى الله عليه وسلم وقد كفر به وعانده. وإن كان المراد أعم منه وممن ورثه الدعوة إلى الحق فالظالم كل معاند للدين ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ أي الذي جذبه إلى النار ﴿خَلِيلًا﴾ حتى لا أقع فيما وقعت فيه ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي﴾ ذلك المضل ﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي ذكر الله أو كتابه أو كلمتي الشهادة ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ ولم يكن هناك مانع يمنعني عن القبول ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ أي تاركا لنصرة صاحبه إذا أغواه. والخذول هو الذي يواليه حتى يسخره لبعض شئونه فإذا أشغله فيه وتم أمره تركه كأن لم يكن بينه وبين قرينه مودة، وهذا شأن الفاسدين في الصحبة ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ معطوف على قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ الذين أرسلتني إليهم وأنزلت عليّ الكتاب فيهم وبلسانهم ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ العظيم الحكيم المستوعب لسعادة الدارين ﴿مَهْجُورًا﴾ متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا إليه رءوسهم فضلا عن أن يتلوه ويعملوا به.

وقوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا﴾ تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ﷺ ودعوة له إلى تحمل الأذى والتصبر على أحوال الكفار كالأنبياء السابقين الأخيار، فيقول: هذا العداء بينهم وبينك ليس مختصا بعصرك بل أمر سابق استمر إلى أن وصل الى اللاحق حيث جعلنا ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين لا تهمهم إلا شهوات أنفسهم وميول طبائعهم ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ لك إلى الدوام والثبات على ما كنت عليه من الدعوة إلى الحق ﴿وَنَصِيرًا﴾ لك على كل من عاداك. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا بيان لحلقة أخرى من سلسلة كلماتهم الفارغة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ حتى نلمس الكتاب مرة واحدة فرد عليهم الباري سبحانه وتعالى بقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي نزلناه عليك كذلك، أي منجما ومفرقا على أقساط وجمل ومجموعات واقعة لتشريع الأحكام حسب استعداد أمة الإسلام ومناسبة الأجوبة للاسئلة الموجهة إلى سيد الأنام ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ كلما انزلنا عليك ما يوافق مرادك ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي وفرقناه آية بعد آية وجملة بعد جملة وسورة بعد سورة، مفرقا على المناسباتِ.

وفي إنزال الكتاب العظيم الإلهي منجما فوائد:

الأولى: التدريج والإمهال في تعليم الأمة أحكام دينها، فإن أفراد الأمة كالطالب للعلم لا يمكنه التعلم إلا تدرجا، وفي كل منزلة منها يستعد لفهم ما سينزل على الرسول ويبلغه إليهم.

الثانية: التسهيل في الأخذ والحفظ فإن الفقرات المختصرات لا يصعب حفظها، وإذا تكثرت وتراكمت صعب ذلك عليهم.

الثالثة: وقوع الجملة المنزلة موقعها، فإن الإنسان إذا احتاج الى جواب سؤال واشتاق إليه فإذا ورد عليه أخذه بلهف واشتياق وضبطه.

الرابعة: حصول التطور في الأذهان، فإن الإنسـان البسـيط ليس بقابـل لأخذ المعاني الواقعة في المستويات الرفيعة أول الأمر وأما إذا مـارس الأبحاث والأوضاع والاسئلة والأجوبة تـرقى ذهنـه بحسـب مـا ورد عليـه وحسب درجاته.

الخامسة: قوة الإيمان بأن ذلك الكتـاب كتـاب اللـه فإنـه إذا نـزل مـرة واحدة وبقي في الأمة تصـور النـاس أشـياء لا واقـع لهـا من أنـه كتـاب ألقي عليه من جانب معين وأريد به غايـة معينـة. وأمـا إذا نـزل حسـب المناسبات وأجوبة الأسئلة الواردة علم كل منصف أنه كلام أنزله الرب الحكيم لمعالجـة طـرف من القضـايا الـواردة بحيث تتشـبث بـه قلـوب الناس كلهم من الرسول وأصحابه الذين لهم إطلاع على الوقائع.

السادسة: مناسبة المنزل لتشريع الأحكـام فـإن تشـريعها مـرة واحـدة مما لا يكــاد يستســيغه الفكر الإنســاني، وأما إذا نــزل منجما فجــاء بالتخفيف أولا ثم التوسط ثم جاء بالتشديد قبله الإنسان المتطور.

السـابعة: مناسـبة الكلام للمخـاطبين فـإن الكلام مـع من يـدعوهم إلى الاسلام غير الكلام مع من يدعو المسلمين الى قبـول الأحكـام، والكلام مع البدوي غير الكلام مـع المـدني، والكلام مـع الاعـداء غـير الكلام مـع الاصدقاء إلى غير ذلك من الفوائد في التنجيم.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ من الأمثال التي اقترحوها عليك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِـالْحَقِّ﴾ أي بالجواب الحق المطابق للواقع المـدافع عنـك وعن دينـك ﴿وَأَحْسَـنَ تَفْسِـيرًا﴾ أي وجئنـاك بجـواب أحسـن من كلام النـاس تفسـيرا وبيانـا للموضــوع ﴿الَّذِينَ يُحْشَــرُونَ عَلَى وُجُــوهِهِمْ﴾ أي يحشــرون ماشــين ومكـبين على وجـوههم ﴿أُولَئِكَ شَـرٌّ مَكَانًـا وَأَضَـلُّ سَـبِيلًا﴾ من القـوم المقابل لهم يعني أنهم يقترحون

اقتراحـات غريبـة، ويـأتون بأسـئلة عجيبـة تعنتـا واسـتهزاء بالمسـلمين وتحقيرا لمقامهم وتـنزيلا لمكـانتهم، لكنهم أحقـر وأنـزل مكانـا ومقامـا وأضل طريقا قطعا.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَـهُ أَخَـاهُ هَـارُونَ وَزِيـرًا (35) فَقُلْنَـا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَـا فَـدَمَّرْنَاهُمْ تَـدْمِيرًا (36) وَقَـوْمَ نُـوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آَيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْـحَابَ الـرَّسِّ وَقُرُونًـا بَيْنَ ذَلِـكَ كَثِـيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَلَقَدْ أَتَـوْا عَلَى الْقَرْيَـةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُـوا يَرَوْنَهَـا بَـلْ كَـانُوا لَا يَرْجُـونَ نُشُـورًا (40)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ جملة مستأنفة لتسلية الرسـول صلى الله عليه وسلم ببيان نصر رسله على من عاداهم، ويقول: ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿وَجَعَلْنَـا مَعَـهُ أَخَـاهُ هَـارُونَ وَزِيـرًا﴾ أي نبيّاً وَوَزيراً. ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآَيَاتِنَـا﴾ أي إلى القـوم الطغاة الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودعة في الآفاق وفي أنفسهم، أو كذبوا تبعا لآبائهم الذين كذبوا بآياتنـا عنـد إرسـال يوسـف عليـه السـلام إليهم. وقوله ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾ ليس من جملة المقول بـالقول السـابق بـل معطوف على مقدر تقديره: فذهبا إليهم، وكذبوهما، فدمر ناهم تدميرا. وقوله ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب باذكر أو بمضمر يفسـره أغرقنـا بنـاء على أن لما ظرف زمـان. وأمـا إذا كـان حـرف وجـود لوجـود فلا، وذلـك لأن ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾

حينئذ يكون جوابا لها فلا يفسر ناصبا لاقتضائه قطعه عن الجــواب ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُـلَ﴾ أي نوحـا والرسـل المتقـدمين عليـه، أو لأن تكذيبـه في قوة تكذيب الكل ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي آية عظيمة من شـاهدها أو علم بهـا كـان حقـا عليـه أن يعتـبر بهـا ﴿وَأَعْتَـدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ منهم ومن غيرهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَعَادًا﴾ أي واذكر عادا ﴿وَثَمُودَ وَأَصْـحَابَ الـرَّسِّ﴾ وهم قـوم كـان لهم آبار ومواش وكانوا يعبدون الأصـنام أرسـل اللـه إليهم شـعيبا، والـرس: البئر.

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِـكَ كَثِـيرًا﴾ أي واذكـر أهـل قـرون واقعـة بين تلـك الأمم كثيرا ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَـالَ﴾ أي ذكرنـا لهم القصـص العجيبـة الماضية الكاشفة عن حلول العذاب عليهم لتكذيبهم الرسل ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَـا تَتْبِيرًا﴾ أي وتبرنا وكسرنا وفرقنا كلا من تلك الأمم الطغاة تتبيرا موافقا لأعمالهم.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ أي والله لقـد مـرت قريش وتجارهم، مـروا في متـاجرهم الى الشـام على القريـة الكبـيرة المشهورة بسدوم، وكـان قاضـيا جـائراً فيهـا يحكم بهـواه، وفي المثـل (أجْوَرُ من سـدوم) وهي القريـة الـتي أرسـل إليهـا لـوط عليـه السـلام أهلكها الله تعالى بالحجارة التي مَطَرتْ عليهم من السـماء. وروي أنهـا كانت خمسا أهلكها الله إلا قرية واحدة تسمى زغر لأن أهلها لم يرتكبوا الفـواحش الواقعـة في غيرهـا ﴿أَفَلَمْ يَكُونُـوا يَرَوْنَهَـا﴾ تـوبيخ على عـدم تذكرهم برؤيتها عند المرور عليها ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُـورًا﴾ إضـراب عما قبله من عـدم الرؤيـة أي أعـرض عن ذلـك فـإنهم رأوهـا ولكن لم يتذكروا برؤيتها لأنهم كانوا لا يرجون نشورا بعد الموت وبعثـا في عـالم الآخرة. ولذلك استمروا في الأعمال الفاحشة حتى أهلكهم الله تعالى.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِـذُونَكَ إِلَّا هُـزُوًا أَهَـذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُـولًا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آَلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَـبَرْنَا عَلَيْهَـا وَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ حِينَ يَـرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَـذَ إِلَهَـهُ هَـوَاهُ أَفَـأَنْتَ تَكُـونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَـبُ أَنَّ أَكْثَـرَهُمْ يَسْـمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُـونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ بيان لسوء خصال المشـركين وغايـة جهـالتهم فيقول ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ أي أولئك الضالون ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي مـا يتخـذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ أي شخصا مهزوءً به أي يعتبرونك كذلك قـائلين ﴿أَهَـذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي أهذا الرجل الذي لا زيـادة لـه جسـدا وقـوة ماديـة علينا اختاره الله وبعثه رسولا الى العالمين؟ ولم يعلمـوا أن هنـاك قـوة نفسية قدسية وروحـا عاليـة عالميـة وهي ينبـوع الحكمـة وعين النعمـة أنعم الله بها على عباده. ألم يروا الى الجبال المتعالية من الأحجار وإن منها لما يتفجر منه الأنهار ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آَلِهَتِنَا﴾ أي الأمر المعلـوم أنه قرب أن يبعدنا عن طريق عبادة آلهتنا ﴿لَوْلَا أَنْ صَـبَرْنَا عَلَيْهَـا﴾ فـان شئت اجعل لولا وما بعدها قيدا لمـا تقـدمها، أي إنـه كـاد أن يضـلنا عن آلهتنا بشرط عدم دوامنا على عبادتهـا. وإن شـئت اجعلهـا صـدراً لكلام محذوفا جوابها أي لولا أن صبرنا عليها لخسرناها. فيقول الباري تعـالى: ﴿وَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ حِينَ يَـرَوْنَ الْعَـذَابَ مَنْ أَضَـلُّ سَـبِيلًا﴾ يعـني أنهم يزعمون في حالهم الحاضر أنهم سالكون سبيل الحق ولا يعلمـون مـاذا جرى عليهم من سوء أفكارهم وقلة اعتبارهم

﴿وَسَوْفَ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ المقدر المقـرر لهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أهم أضل أم محمد وأصحابه الموحدون.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجيب للرسول صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم وبيان أن من ابتدع شـر الأمـور وسـد على نفسـه أبـواب الشعور كيف يختار سلوك سبيل الخير؟ ومتى يـرجى منـه الرجـوع الى الحق؟ فأخبرني يا حبيبي ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي من جعل معبوده ما تهواه نفسه أو جعل إلهه عين هواه كيف ترجو له رشده وهداه ﴿أَفَـأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ أي حفيظا وحافظا ومراقبا عليه فترشـده إلى طريـق الحق والاستقامة عليه؟ والجواب: لا وحاشـا وكلا، فلا يصـل إلى سـبيل الهدى إلا من ابتعد عن طريق الهوى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَـرَهُمْ يَسْـمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أم منقطعة للإضراب عن إنكار أحـوالهم الى إنكـار حسـبان الرسول وظنه وجود الخير فيهم فيقول: بل تحسب وتعتقـد أن أكـثرهم أي أكثر المشركين يسمعون أي المواعظ والإرشاد والدعوة الى الحــق أو يعقلون الحق في أنفسهم بأنفسهم؟ والمعطوف عليه للأدلة العيانية والمعطوف للأدلة الفكرية، أي إن أولئك الناس توغلوا في الضـلال فلم يبـق لهم قابليـة الاسـتفادة لا من الحـواس ولا من العقـل، فسـدّ اللـه عليهم السبيلين سـبيل العلم والعين، ثم بين حقيقـة حـالهم فقـال ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي ما هم إلا مثل الأنعام حيث يستفيدون من حواسهم أمورا تافهة مربوطة بمعيشتهم ولا يستفيدون غير ذلـك ﴿بَـلْ هُمْ أَضَـلُّ سَبِيلاً﴾ لأنها تنقاد لاصحابها وتعرف أعداءها وتميزها من أحبابها فتفر من الذئاب وتميل إلى الأصحاب، وهم بخلاف ذلك.

﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْـفَ مَـدَّ الظِّلَّ وَلَـوْ شَـاءَ لَجَعَلَـهُ سَـاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَـا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًـا يَسِـيرًا (46) وَهُـوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُـوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِـيَّ كَثِـيرًا (49) وَلَقَـدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) وَلَوْ شِـئْنَا لَبَعَثْنَـا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِـهِ جِهَـادًا كَبِـيرًا (52) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَـذَا عَـذْبٌ فُـرَاتٌ وَهَـذَا مِلْحٌ أُجَـاجٌ وَجَعَـلَ بَيْنَهُمَـا بَرْزَخًـا وَحِجْـرًا مَحْجُـورًا (53) وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ مِنَ الْمَـاءِ بَشَـرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ الآيات... توجيه لحبيبه المحبوب المكـرم بالرسالة وحسن الأخلاق الى أدلـة وجـوده وعلمـه وقدرتـه في الأنفس والآفاق بخلق الليل والنهـار والظـل والضـوء والقيـام والمنـام والمطـر المنبت لأرزاق الأناسـي والانعـام والـبراري والبحـار النافعـة للبشـر من جهات شتى، ومنها المسافرات على السفن الجارية فيها للتجار، ومنهـا البحر العـذب والمـالح المختص كـل منهمـا بآثـار خاصـة، وخلـق البشـر ذكورا وإناثا لبقـاء النـوع في العـالم إلى مـا شـاء اللـه القـادر المقتـدر الجبار. وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ تشريف للرسول صلى الله عليـه وسلم من جهتين:

الأولى: إسناد الرؤية الظاهرة في الرؤيـة البصـرية إليـه إشـارة إلى أن رؤيتك العلمية آلت إلى رؤيتك العيانية.

والثانية: أنه جعل الرب مبدأ للإستدلال حتى يجعل الخلاق دليلا على الآفاق لا الآفاق دليلا على الخلاق، كما أفاده المولوي بقوله:

مِمن بهِ لمن عليه يستدل   مسافةٌ لا تستظل لا تستزل

فيقول: ألم تنظر الى آثار قدرة ربك المقتدر ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ على نصف الكرة من بعد غروب الشمس الى شروقها اذا اعتبرت سواد الليل، أو من طلوع الفجر الى طلوع الشمس اذا اعتبرت وضوح الظل وإبصاره بالعيون المجردة ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ أن يبقى على حده ومده ثابتا في ما عليه، أو لو شاءه ساكنا غير متحرك بالتناقص والتزايد ﴿لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ لا يزول أو ساكنا لا يجول ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهوره وتميزه في الحس. إذ لو لم تطلع الشمس لم يكن ولم يحدث هناك ضوء. فلم يتميز الظل من غيره. ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي الظل ﴿إِلَيْنَا﴾ أي الى عالم غيبنا ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قليلا قليلا متدرجا بالمهلة في التناقص ثم نشرناه من مبدإ العدم إلى الوجود يسيرا يسيرا الى ان غربت الشمس فَعَمَّ الظل المكانَ الذي عليه الضوء. وبهذا الإبداء والإمحاء والزيادة والنقصان جعلنا الزمان لكم وسيلة لكسب المعيشة وأخذ الراحة، فجعلنا منه ليلا ونهارا.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي ساترا لكم كاللباس ﴿وَ﴾ جعل ﴿النَّوْمَ﴾ أي منامكم فيه ﴿سُبَاتًا﴾ أي راحة للأبدان عن عمل وللحواس عن الإحساس تسهيلا على الناس ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي وجعله محلا لنشور الناس وانتشارهم في الأرض والبحر والجو لابتغاء المعيشة وما يتوقف عليه سعادة الإنسان المعتدل. وفي جعل النهار النشور مبالغة لا تخفى وإشارة كافية وافية الى استحباب العمل واستكراه الكسل.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ المشهور أنها متى ذكرت مجموعة فهي للرحمة ومتى ذكرت مفردة فهي للعذاب. وفي الحديث إذا هبت الريح: ((اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا)) وقوله: ﴿بُشْرًا﴾ بضم الباء وسكون الشين تخفيف بشرا بضمتين جمع بشور بمعنى مبشر، أي أرسل الرياح مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي أمام المطر النازل النابت عنه النبات والنامي به الأشجار والمتفتح به الازهار ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ اي وانزلنا بما رتبنا بقدرتنا من ارسال الرياح من السحاب المتراكم في جهة العلو ﴿مَاءً طَهُورًا﴾ أي ماء وافر الطهارة فكما أنه طاهر في نفسه مطهر لغيره ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾ أي بما أنزلنا من السماء ﴿بَلْدَةً﴾ أي أرضا معمورة أو غيرها ﴿مَيْتًا﴾ ليس لها أثر خير من النبات فهي شبيهة بالميت الذي لا حركة له إرادية ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي ولنسقي ذلك الماء أنعاما وأناسي كثيرا مما خلقنا. وخص ذلك بالذكر لأن أشرف الموجودات الإنسان وأقرب المنافع الحيوانية له هي الأنعام، وإلا فالمستفيد من ماء السماء كل ذي حياة ونماءٍ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ولقد غيرنا ذلك الماء بينهم فنسقي بلدة ونبقى أخرى، ونكثر منه في مكان، ونقل منه في آخر، وننفع به في بلدة، وندمر به في أخرى... حتى يتذكروا ويعلموا أنه مأمور من الله لا علاقة لها إلا بإرادته النافذة لا مرد لها، وأن الرياح، وإن كانت مثيرة للسحاب، ولكن كثيرا ما نرى السحاب ولكن ليس قطرة ماء، وكم من ايام واسابيع وشهور ومواسم يحتاج الناس فيها الى المطر وما ينزل منه شيء؟ وإذا أراد الله ذلك سال الوادي بحيث يقع الناس في أخطار وويلات. والحاصل أن العاقل لا ينكر الأسباب ولكنها بدون تعلق إرادة الله علة ناقصة لا يحصل منها أثر مقصود. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ وهم الجاهلون الذين لا يقدرون الله حق قدره ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ اي الا كفرانا بنعمة الله وإحسانه.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ أي رسـولا مبشـرا ونـذيرا فتخـف عليك أعباء النبوة، لكن خصصناك برحمتنا، وجعلناك ينبوعا للخـير كلـه، وجمعنـا آثـار الرسـل وأخلاقهم مجتمعـة في شخصـيتك، وبعثنـا رحمـة للعـالمين. ﴿فَلَا تُطِـعِ الْكَـافِرِينَ﴾ فيمـا يريـدون منـك ولا تـركن إليهم ﴿وَجَاهِـدْهُمْ بِـهِ﴾ أي بـالقرآن الكـريم ببلاغتـه للمتحـدين، وببراهينـه للمعاندين ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لا يتمكن منه غـيرك. ثم ذكـر البـاري سـبحانه أثرا آخر من آثار قدرته البـاهرة فقـال: ﴿وَهُـوَ الَّذِي مَـرَجَ الْبَحْـرَيْنِ﴾ أي خلطهما أي خلط كلا بالآخر، أي جعل أحدهما متصلا بالآخر بحيث لا حـد فاصل بينهما ﴿هَذَا﴾ أي هذا القسم منه ﴿عَـذْبٌ فُـرَاتٌ﴾ شـديد العذوبـة وقوي الكسر للعطش ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي مالح شديد الملوحة مع أن واحدا منهما لا يختلط بالآخر بحيث يؤثر في طعم الآخر وصفاته ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَـا بَرْزَخًـا﴾ أي حـاجزا من قدرتـه لا يغلب أحـدهما على صـاحبه ومثالهما الواقعي ككل ماء مستبحر ينصب في البحر، كماء شط العرب المنصـب في بحـر الخليج، ومـاء النيـل المنصـب في البحـر الأبيض المتوسط، فإن ماء الأنهار عذب فرات وماء البحار ملح أجاج ولا امتزاج بينهما، بل هناك حدٌّ كخط فاصل مع أن الماء لطيف بالطبع وحقه تـأثير القوى في الضـعيف والكثـير في القليـل ﴿وَحِجْـرًا مَحْجُـورًا﴾ أي ومنعـا للآخر وتنافرا بليغا، فإن كل وصف يبالغ فيـه يشـتق منـه وصـف يحمـل عليه، يقال: سواد أسود، وبياض أبيض. كما يقال: ليل أليل ويوم أيوم.

وأورد على ظـاهر الآيـة بأنـه خلاف المحسـوس، فـإن الأنهـار العظيمـة كدجلة وما ينضم إليها، والنيل وما ينضـم اليـه، ممـا يشـاهده النـاس إذا اتصلت في البحر تغـير طعم غـير قليـل منهـا في جهـة المتصـل، وكـذا يتغير طعم

غير قليل من البحر في جهة المتصل أيضا، ويختلف التغير قلة وكثرة الى آخر ما قاله.

وأقول: ليس المقصود من الآية أن لا يكون هناك تأثر وتغير من أحد الجانبين في الآخر، فإنه خلاف المحسوس بل المقصود أن الطبيعة الواحدة إذا قويت وزادت وطغت واتصلت بشيء يخالفها في اللوازم فالظاهر الى العقل أن يغلب القوي الضعيف ويسري فيه بالمرة، مع أنا نرى الأنهار المستبحرة المتصلة بالبحار لا يتغير إلا شيء قليل ومسافة يسيرة منها، ويبقى الآخر على حده وحقيقته وصفاته وليس ذلك إلا لأن الله تعالى جعل هناك حاجزا من قدرته يفصل بين الجانبين ولا يسري إلى ما وراء ذلك الحد أبدا.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ قيل: المراد هو الماء الذي خمرت به طينة آدم عليه السلام وجعل جزء من مادة البشر لتجتمع وتسلس وتستعد لقبول الأشكال والهيئات، فالمراد بالماء الماء المعروف، والمراد بالبشر آدم عليه السلام. أو المراد جنس البشر الصادق عليه وعلى ذريته. ويجوز أن يراد بالماء النطفة وحينئذ يتعين حمل البشر على أولاد آدم عليه السلام كما يجوز أن يراد به المادة السائلة سواء كانت نطفة كما في الحيوانات الوالدة الولودة، أو بيضا كما في الحيوانات البائضة. وعلى كل ففي هذا الخلق إبداع باهر وإيجاد قاهر، حيث خص كل جزء من أجزاء النطفة مثلا لجزء من أجزاء البدن كالرأس ومحتوياته من الدماغ والسمع والبصر وغيرهما، والظهر وفقراته، والكنف وعضلاتها، والرقبة ومستوعباتها، والصدر وما فيه، والبطن وما يحويه، والفخذين والركبتين والكعبين والقدمين... وفي كل ذلك عروق وأعصاب وأشياء لطيفة لا يبقى ذلك العضو بدونه، بله ما أودع الله في الإنسان من العقل والشعور وسائر اللطائف على وجه دقيق مشتمل على أسرار لا تستوعب إلا بتشريح للأعضاء

ودراسة على مقوماتها، ومنافراتها وينجـر ذلـك الـدرس والتشـريح الى معرفة الأمراض ومعالجاتها والأدوية السريعة التـأثير من غيرهـا. وذلـك في حد الذات، وأما من حيث المجتمع ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِـهْرًا﴾ أي جعلـه قسمين ذكورا وإناثا، فجعل الذكور ينسب إليهم والإناث يُصاهر بهن.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي وافر القدرة مبالغا فيها حيث قدر على أن يخلق من شيء قليل أشياء جليلة.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَـانَ الْكَـافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَـا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ أَجْـرٍ إِلَّا مَنْ شَـاءَ أَنْ يَتَّخِـذَ إِلَى رَبِّهِ سَـبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْـدِهِ وَكَفَى بِـهِ بِـذُنُوبِ عِبَـادِهِ خَبِـيرًا (58) الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ اسْـجُدُوا لِلـرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الـرَّحْمَنُ أَنَسْـجُدُ لِمَـا تَأْمُرُنَـا وَزَادَهُمْ نُفُـورًا (60) تَبَـارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُـوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَيَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إسـتئناف لبيـان تعمقهم في الجهـل والـدوام على التقليـد الأعمى الـذي لا يمت إلى عقـل وشـعور، فيقول: ﴿وَيَعْبُـدُونَ﴾ أي أولئـك المشـركون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَـا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾

من الأصـنام اللاتي لا تنسـب اليهـا قابليـة الإنفـاع ولا الإضـرار لهم ولا لغيرهم، لأنها أخشاب وأحجـار ومـواد جامـدة مفتعلـة منصـوبة جعلوهـا سندا للأهواء ﴿وَكَانَ الْكَـافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِـيرًا﴾ أي كـان معاونـا وظهـيرا للشيطان في عداء ربه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ﴾ في حـال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حال كونك ﴿مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكـافرين، وقـد بشرت وأنذرت ولا شيء عليك إذا حصل لهم العناد والاستكبار. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبشيري وإنذاري ﴿مِنْ أَجْـرٍ إِلَّا﴾ أجـر ﴿مَنْ شَـاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ فـإن الأجـر الواصـل منـه إليّ مـرادي ومبتغـاي فإن من سن سنة حسنة فله أجره واجر من عمل به إلى يـوم القيامـة. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ في الإغناء عن أجور الناس ﴿وَسَـبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي ونزهه سبحانه متلبسا بالثناء عليه ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَـادِهِ خَبِيرًا﴾ لأن الخبرة الواقعية معرفة النيات قبل الأعمال وهو بهـا خبـير لا يخفى عليه منها شيء ﴿الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من الأيـام الملحوظـة عنـده ﴿ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ﴾ واستولى عليه وأعلن عظمته في عالم السـماوات والأرض ومن فيهمـا ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي هو الرحمن ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ ولا خبير بـه بحـق إلا هـو نفسه، فخذ من صـفاته مـا وصـل إليـك منهـا بحـق واكتـف بـذلك فـإن المحدود لا يعلم من اللا محدود إلا ما شاء أن يفهمه منه.

وهذا الإله الأزلي القديم الباقي اللا متناهي اثار صفاته الذي تدل الآفاق والأنفس على وجوده ووجوبـه ووحدتـه وعظمتـه.. ينبغي أن تسـجد لـه الكائنات بأسرها. ﴿وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ اسْـجُدُوا لِلـرَّحْمَنِ قَـالُوا﴾ متجـاهلين: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ وكيف هو؟ ﴿أَنَسْجُدُ لِمَـا تَأْمُرُنَـا﴾ أنت ﴿وَزَادَهُمْ﴾ أمـرك لهم بالسجود ﴿نُفُورًا﴾ من الإيمان والسجود.

ولمـا نفـروا عن السـجود وأكـثروا من الكفـر والجحـود أشـاد بصـفات عظمتـه وعـزه وقـال ﴿تبَـارَكَ الَّذِي جَعَـلَ فِي السَّـمَاءِ بُرُوجًـا﴾ وجـدنا النصـوص القاطعـة في أن السـماوات سـبع، وأن في السـماء بروجـا، والبروج في الأصل القصور العالية. وعن الزجاج: أن البرج كـل مرتفـع، واشتق منه التبرج بمعنى الظهور. كما وجـدنا في عـالم الارض منـاطق متعددة تختلف فيها أوضاع النيرين قربـا وبعـدا من سـمت رءوس أهـل البلاد، ومنها منطقتا القطب الشـمالي والقطب الجنـوبي الـذين السـنة فيهما يوم وليلة، كل منهما سـتة أشـهر عنـدنا، وعلمنـا أيضـا أن السـنة الشمسية عندنا عبارة عن ثلثمائـة وسـتة وسـتين يومـا وكسـرا، أي أن مدة ما بين طلوع الشمس من نقطة معينة أفقية وطلوعها مرة أخــرى منها تلك الأيام المعدودة. وهذه المـدة تنقسـم الى اثـني عشـر قسـما، ستة منها تقع في شمال الخط الاستوائي يتكون منهـا الربيـع والصـيف، والأسماء على الترتيب: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسـد، والسنبلة. وستة منها تقع في جنوب ذلك الخط، ويتكـون منهـا الخريـف والشـتاء، والأسـماء: المـيزان، والعقـرب، والقـوس، والجـدي، والـدلو، والحوت. وبعـد انتهـاء الحـوت تطلـع الشـمس من أول نقطـة من بـرج الحمل وهو أول الربيع، وهكذا إلى ما شـاء اللـه تعـالى... وعليـه يكـون أيام الشهور ثلاثين يوما وواحدا وثلاثين يوما، إلا شهرا واحدا وهو شباط يكون ثمانية وعشرين يوما، وفي كل أربع سنوات يزيد يوما واحدا. هذه هي السـنة الشمسـية وبروجهـا أي منـازل الشـمس منهـا على نهج مـا ذكرناه لك آنفا.

فالبروج هي الأقسـام الاثنـا عشـر المـذكورة، وهي عاليـة وظـاهرة في السماء ﴿وَجَعَـلَ فِيهَـا﴾ أي في السـماء ﴿سِـرَاجًا﴾ هي الشـمس لقولـه تعـالى ﴿وَجَعَـلَ الشَّـمْسَ سِـرَاجًا﴾. ﴿وَقَمَـرًا مُنِـيرًا﴾ وكـل منهمـا ينـور السماء والأرض

مما يقابله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذوي خلفة ونيابة لأنه يخلف كل منهما الآخر لقيامه مقامه وذلك التكرر نافع ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أي يتذكر ما فاته من العبادة فيقضيها، أو يتذكر حقوق الباري تعالى ونعمه الوافرة عليه، فإنه إذا كان في وقت الشباب غافلا لاهيا غير مبال بالطاعة فإذا شاب تذكر ما فاته من الأوقات وخلاها عن الطاعة ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي أو قصد شكر ربه تعالى على نعمة تكرار الليل والنهار وما ناله من الخيرات فيهما.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)﴾

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ استئناف لبيان أوصاف عباد الله الخالصين، وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال الكافرين المعاندين

فقال ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الآية... والعباد جمع عبد، وقال بعض جمع عابد كصاحب وصحاب. ويوافقه قراءة وعُبّاد بضم العين وتشديد الباء. والعبد من العبودية وهي الرضاء بما يفعله الرب تعالى. والعابد من العبادة وهي فعل المأمورات وترك المنهيات رجاء الثواب، والنجاة من العقاب بذلك وعلى كل فالعباد مبتدأ، وخبره الموصول وصلته أي ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي بهون ورفق ولين، أو المراد يمشون هينين في سكينة ووقار لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ويريدون بذلك التواضع ويناسبه قوله تعالى ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي واذا خاطبهم السفهاء وقليلو الأدب ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي قالوا تسلما منكم ومتاركة لاخير بيننا وبينكم ولا شر، والمراد مدحهم بالإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ جمعان لساجد وقائم، والبيتوتة أن يدركك الليل نُمتَ أو لم تَنَم، أي والذين يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة. وهذه الفقرة وصف لحالهم في الليل كما أن الفقرة السابقة وصف لحالهم بالنهار. وفي الآية الكريمة ترغيب في صلاة الليل، وقيل: المراد فعل الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء، وقيل: من شفع أو أوتر بعد أن صلى العشاء فقد دخل في عموم الآية. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي يدعون الله تعالى في أعقاب صلواتهم أو في عامة أوقاتهم ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا﴾ وبعد عنا ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي ثقيلا أو لازما أو دائما، ودوامه بالنسبة إلى الكافرين فإن المسلم يخرج من النار ويدخل الجنة كيفما كان ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وساءت من أفعال الذم وفاعله مستتر راجع الى تمييز النسبة أعني مستقرا ومقاما. أي أنها ساء من حيث كونها مستقرا ومقاما لمن يكون فيها.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ أي لم يتجاوزوا حد الكرم ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ أي لم يضيقوا تضييق الشحيح. وهذا الوصف يشمل حال العباد بالنسبة إلى أنفسهم وعائلتهم وكذا بالنسبة إلى الواردين والسائلين من شتى الجهات. وقال بعض: الإسراف هو الانفاق في المعاصي، والقتر الامساك عن الطاعة ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي وكان إنفاقهم بين الإسراف والقتر عدلا وسطا. والقوام بالفتح العدل، وبالكسر نظام الأمر وعماده. يقال هذا قوام الأمر وملاكه الذي يقوم به.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ﴾ أي لا يشركون به غيره سبحانه وتعالى ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي حرم قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها كالزنا بعد الإحصان والكفر بعد الإيمان وقتل النفس البريئة. فالاستثناء من أعم الأسباب ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي ولا يطأون فرجا محرما. وهذه الصفات وإن كانت من صفات عباد الرحمن لكن ذكر هنا للتعريض بالكفار المشركين الجامعين أو الآتين بهذه الصفات الذميمة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الأمر المذكور من الجرائم والذنوب ﴿يَلْقَ﴾ يوم القيامة ﴿أَثَامًا﴾ أي عذابا لا يقادر قدره ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بدل من جملة يلق أثاما ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ﴾ أي في ذلك العذاب ﴿مُهَانًا﴾ محقرا فيجتمع له العذاب الجسماني والروحاني ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾أي من تاب في الدنيا ورجع إلى الله تعالى، وندم على ما فرط في جنب الله، وعزم على أن لا يعود إلى ما اقترفه، وأدى ما يترتب عليه من الحقوق، واستمر على الأعمال الصالحة من فعل الواجب وترك الحرام فإنه كف النفس وذلك فعل. ودخول الايمان في المستثنى يفيد دخول الكفر في المستثنى منه، أي إلا من آمن منهم إذا كان كافرا وفعل ما فعل في وقت الكفر، وكذا يدخل أهل الإيمان لأن المؤمن

المرتكب إذا تاب واستمر إيمانه وعمل الصالحات دخل في قوله تعالى ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الناس الموصوفون بالصفات المذكورة بعد الاستثناء ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي عملوها في الدنيا ﴿حَسَنَاتٍ﴾ في ميزان الأعمال يوم الحساب وقرر ذلك بقوله الكريم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وقوله تعالى ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ في قوة التعليل لما قبله، ومعناه أنهم بتوبتهم ورجوعهم الى ربهم يكونون من زمرة عباده المخلصين المختصين به تعالى فلا جرم أنه تعالى يحبهم ويبدل الله سيآتهم حسنات وما ذلك على الله بعزيز.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)﴾

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي لا يشهدون الشهادة الكاذبة خوفا من الله المنتقم الذي يراعي حقوق العباد ويكره أن يبغي بعضهم على بعض ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ أي بالأمر الذي ليس من شأنه أن يعتنى به ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي وعظوا وأرشدوا بتلاوة الآيات القرآنية عليهم ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ جمعان للأصم والأعمى وذكرهما كنايةٌ عن الإعراض وعدم

الاهتمام. أي إذا وعُظوا بآيات الله أَصْغوا لها باهتمام، واستمعوا لها بجد ونشاط، ونظروا إلى الآثار المشهودة التي دلت عليهما وأبصروه إبصارا دقيقـا، وعملـوا بمقتضـاها، فـامتثلوا أوامرهـا وتركـوا مـا نهت عنهـا. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي اجعـل لنا من أزواجنا ما يعيننا على التقـوى وقريـرة العين، ومن ذرياتنـا ذريـة طيبة تأتي بثمار الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة حـتى نفـرح بهـا في الـدنيا والآخـرة. ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي واجعلنـا أئمـة للمتقين يقتدون بنا في الاعتقاد والإيمـان والعهـود والأيمـان والأعمـال الصـالحة بحسـب الإمكـان ﴿أُولَئِكَ﴾ العبـاد الموصـوفون بتلـك النعـوت الجليلـة ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أي الدرجة العالية من درجات الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على ما نابهم من المتاعب في طريق الطاعـات ﴿يُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي في الغرفـة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ من الملائكـة المسـتقبلين لهم والمستبشرين بقدومهم حالكونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقـدرين الـدوام والخلود فيها ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ بقدر مـا سـاءت جهنم مسـتقرا ومقامـا والأشـياء تعـرف بأضـدادها. ﴿قُلْ﴾ يـا حبيـبي لأولئـك النـاس الكافرين المستكبرين عن قبول الحق والإيمـان باللـه وتوحيـده ورسـله ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ أي عبء يعبـأ بكم وأي اعتـداد يعتـد بكم ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي لولا عبادتكم وطـاعتكم، أو لـولا إرادة دعـوتكم الى قبـول الحق؟ ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي فقـد دعونـاكم وأنتم كـذبتم ولم تُلبـوا دعوتنـا ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي فسـوف يكـون جـزاءُ تكـذيبكم للحـق جـزاء لازما يحيق بكم على أمره سبحانه وتعالى.

سورة الشعراء، مكية، وآياتها مائتان وسبع وعشرون نزلت بعد سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)﴾

قوله تعالى ﴿طسم﴾ الكلام فيه كالكلام في أمثاله من فواتح السور. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه السورة آياتُ القرآن الظاهر إعجازه، فإن كانوا في ريب من نزولها من الله تعالى فليأتوا بمثلها ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي لعلك قاتل نفسك من شدة الأسى والأسف على ﴿أَلَّا يَكُونُوا﴾ أي أولئك المشركون ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ فلا تبخع نفسك ولا تهتم بأحوالهم، فإن منهم من يؤمن في المستقبل، ومنهم من يكون في نسله المؤمنون فنمهلهم لذلك الذي جرى في قضائنا، وإلا فـ ﴿إِنْ نَشَأْ﴾ إلجاءهم للإيمان ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ ملجئة لهم إليه ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾ أي لتلك الآية ﴿خَاضِعِينَ﴾

أي منقادين، وهو خبر الأعناق في الأصل، وتذكيره لاكتساب المبتدأ التذكير من المضاف إليه. ويحتمل أن يقال إن نشأ إهلاكهم رأسا حتى تكون في راحة من أذاهم نـنزل عليهم من السماء آية من القواصف وغيرها فظلت أعناقهم لها خاضعين أذلاء عاجزين لموتهم بها، فلا تبقى منهم قابلية العصيان والتمرد لموتهم عموما. ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لشدة شكيمتهم، وسوء جريمتهم، وفساد طبيعتهم. فيقول سبحانه وتعالى ما يأتيهم من ذكر من الرب الرحمن جديد تنزيله حسب حكمتنا في التنزيل إلا كانوا عنه معرضين ومستمرين على الإعراض. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بما نزلنا عليك قريبا ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي فسيطلعون على ما يحيق بهم من جراء تكذيبهم إن عاجلا أو آجلا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي من كل فرد من النبات له مزاوج من صنفه، فإن كان من الذكور فزوجه من الإناث أو بالعكس فبالعكس ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على وفور قدرته وشمول علمه وعلى سائر شئونه التي يجب عليهم الإيمان بها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حسب تعلق علمه بسوء اختيارهم في المستقبل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي الغالب على كل ممكن من الممكنات وبالغ الرحمة على ذوات الأرواح في الأرض والسماوات.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَإِذْ نَـادَى رَبُّكَ مُوسَـى﴾ كلام مسـتأنف لتـذكير الأمـة المعاصرة بسوء أحوال الكافرين في مقابلة دعـوة المرسـلين، وتسـلية للرسول صلى الله عليه وسلم بأن إيذاء الكفرة لـدعاة الحـق من سـنة اللـه في العـالمين. أي واذكـر إذ نـادى ربـك موسـى ﴿أَنِ ائْتِ الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي واستعباد النـاس وقولـه ﴿قَـوْمَ فِرْعَـوْنَ﴾ عطف بيان للقوم الظالمين قائلاً لهم على وجه الـترغيب: ﴿أَلَا يَتَّقُـونَ﴾ الله وعذابه وعقابه وكيف يستمرون على تلك الأفعال الشنيعة المضافة إلى الكفر والإشراك بالله الواحد الأحد؟ ﴿قَـالَ﴾ أي موسـى: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَـافُ أَنْ يُكَـذِّبُونِ﴾ من أول الوهلـة وبـادىء ذي بـدء، وذلـك خوفـا من محذور خارجي ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ معطوفان على خبر إن، أي وعنـدي مانعـان ذاتيـان همـا ضـيق الصـدر عنـد مجابهـة الأمـر الخطير وعدم انطلاق لساني وعـدم مسـاعدته لي في البيـان والتقريـر ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ أي فأرسل الملك المأمور بالوحي وهـو جبرائيـل إلى هرون أخي، وأشركه معي في الرسالة، فإن صحبته لي تخفف من ضيق صدري وينوب عني في بيـان المهمـات، وربمـا يرفـع عـني خـوف التكذيب، فإن الإنسان إذا كان مع غيره لا يهمه ما يأتيـه من أذى عـدوه وشره ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ أي تبعـة ذنب وجريمـة عنـدهم، يعـني جريمـة قتل الرجل القبطي الخباز في بيت فرعـون ﴿فَأَخَـافُ أَنْ يَقْتُلُـونِ﴾ وإذا كان أخي هرون معي أمكن أن يصرفوا النظر عن قتلي، لأن له مناسبة وألفة مع بعض أتباعه فيمكن أن نستفيد من ذلك.

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ يعني فأجاب الله سبحانه وتعالى طلبه لإرسـال أخيه هرون وردعه عن خوف قتله وقال له: جعلتُ أخاك رسولا معك،

فاذهبا إلى فرعون وأتباعه ولا تخف أنت بالذات أو لا تخافا كلاكما ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ لما يقوله، وراءُونَ له ولأتباعه وأعمالهم. وهذه المعية معية النصرة والقوة وربط الجأش ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ واترك استعبادهم وارفع اليد عنهم، وكان بنو إسرائيل قد استعبدوا أربعمائة سنة ما بين وفاة يوسف عليه السلام وبعث موسى وهرون، وكان عددهم ستمائة وثلاثين ألفا على ما ذكره البغوي.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)﴾

ولما وقفا موقفهما المتين من رسالة رب العالمين، وطلبا من فرعون الطاغي الإيمان بالله تعالى والانقياد لحكمه وإطلاق بني إسرائيل من استعباده.. رفع فرعون رأسه ونظر إليه متعجبا مستنكرا لدعواه وثورة نفسه. و﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي ألم تكن أنت كما سمعت من الناس وليدا ضعيفا جعلوك في تابوت مخافة من سطوة زبانيتي وذبحهم لك، وأخذناك رحمة منا عليك وربيناك حتى وصلت الى حد الاكتفاء الذاتي، وتوقفت فينا من عمرك سنين تخدم دائرتنا وأهلنا كغلام في البيت وأنت تحت رعايتنا، وتعرف مقامنا ونفوذنا وشوكتنا... فكيف تتكلم بما تكلمت به وتدعونا

إلى اطاعتـك في أوامـرك واطلاقي لبـني إسـرائيل أن يكونـوا معـك كخدام؟

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ وبعد ذلـك الإحسـان والتربيـة والبقـاء فينـا فعلت فعلتـك المنكـرة الـتي يسـتكرهها النـاس حيث قتلت أحـد أفـراد رعايانـا وخاصـتنا من الأقبـاط ﴿وَ﴾ كنت ﴿أَنْتَ مِنَ الْكَـافِرِينَ﴾ بحقـوق نعمتي وتربيتي وإلا ما كنت تقدم على ذلك العمـل؟ ﴿قَـالَ فَعَلْتُهَـا﴾ أي نعم فعلت تلك الفعلة ﴿إِذًا﴾ أي إذ كان الأمر كـذلك أي إذا اسـتغاث بي المستغيث ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين بأن وكزتي تقضي عليه ويمـوت، وإنمـا ظننت أنهـا تزعجـه وتدفعـه بحيث لا يرجـع الى ضـرب الفقير المستغيث. ومن اللازم لأهل الوجـدان السـليم دفـع الظـالم عن المظلوم وذلك شيء مقرر معلوم ﴿فَـ﴾ لمـا أفضـت الـوكزة إلى قتلـه ووقعت فيمـا وقعت فيـه ﴿فَـرَرْتُ مِنْكُمْ﴾ ومن عقـابكم ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ وذلـك حين تكـرر مثـل حادثـة قتـل القبطي وأراد أن يسـطو بالرجـل المتعارك على أحد بني إسرائيل فهدده بأنك تريد أن تقتلـني كمـا قتلت نفسا بالأمس، وذهب الرجل وأخبر عنه بما صـدر منـه، والنـاس تـدبروا في الأمر وقـرروا معاقبتـه، فجـاء رجـل مـؤمن إليـه وقـال لـه إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج من البلد إنى لـك من الناصـحين. ﴿فَـوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي أنـه بعـد أن فـررت من الجبـارين إلى اللـه وعـبرت النيل وسيناء ووصلت الى شعيب النبي وخدمته، وزوجني بنتـه وتـبركت بمصاحبة بيت الرسالة، وهب لي ربي الذي رباني ومن الكافرين نجاني حكما الى نبوة ورسالة لإخراج النـاس من الضـلالة، وحكمـا ونفـوذا في قلوب الناس بمـا خصـني بـه من المعجـزات ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَـلِينَ﴾ إليك وإلى من تبعك من الغاوين.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ اي وتلك التربية التي ذكرتها الآن وتعـدها عليّ نشأت من ﴿أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ واستضعفتهم وقـد ذبحت أبنـاءهم واستحييت نساءهم، ومن أجل ذلك جعلتـني أمي في التـابوت والقتـني في اليم

بإلهام ربها مرتجيـة فتح بـاب الكـرم وصـيانتي من الـذبح والألم. فهـذه التربية وإن كانت بالنسبة إليّ نعمة ولكنها بالنسبة إليك كانت فرعا من فـروع تعـذيبك لبـني إسـرائيل المسـاكين المضـطهدين الـواقعين تحت يديك وأيدي زبانيتك الجبارين الفارغين من كل رعايـة لحقـوق الإنسـان لاسيما المستضعفين.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُـوقِنِينَ (24) قَـالَ لِمَنْ حَوْلَـهُ أَلَا تَسْـتَمِعُونَ (25) قَـالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آَبَـائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَـالَ إِنَّ رَسُـولَكُمُ الَّذِي أُرْسِـلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَـالَ لَئِنِ اتَّخَـذْتَ إِلَهًـا غَيْـرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْـجُونِينَ (29) قَـالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـادِقِينَ (31) فَـأَلْقَى عَصَـاهُ فَـإِذَا هِيَ ثُعْبَـانٌ مُبِينٌ (32) وَنَـزَعَ يَـدَهُ فَـإِذَا هِيَ بَيْضَـاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي بعد أن سـمع فرعـون كلام موسى وقوة نفسه ومعنويتـه سـأله مسـتفهما عن مرسـله: ﴿وَمَـا رَبُّ الْعَـالَمِينَ﴾ أي مـا حقيقتـه المختصـة الـتي نعرفهـا؟ ﴿قَـالَ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِنْ كُنْتُمْ مُـوقِنِينَ﴾ قـال موسـى عليـه السلام في جوابه على نهج أسلوب الحكيم الذي يجيب بما يفيد السائل ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن رب العالمين لا طريق لنا الى معرفـة كنهـه وحقيقتـه فإنهـا لا تكشـف لنـا وكيـف يصـل العقـل المحـدود الى الحقيقة

اللا محـدودة الموصـوفة بوجـوب الوجـود والأزليـة والأبديـة والاسـتغناء المطلق وعدم مماثلة شيء من الاشياء واتصـافه بالوحـدة ذاتـا وصـفة وفعلا وانمـا يعـرف بالصـفات والآثـار الناشـئة من قدرتـه؟ فهـو رب السماوات والأرض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الهواء وما فيه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُـوقِنِينَ﴾ بالآثار محققين لها وعالمين بأنهـا من الممكنـات الخاصـة وهي لا توجـد بدون فاعل يرجح وجودها على عدمها. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ عند سماع جوابه عليه السلام ﴿لِمَنْ حَوْلَـهُ﴾ من أشـراف قومـه: ﴿أَلَا تَسْـتَمِعُونَ﴾ جوابـه الذي ليس فيـه مقصـودي فـإني أسـأله عن حقيقـة رب العـالمين وهـو يجيبني ببيان الأعمال والآثـار. ﴿قَـالَ﴾ موسـى عليـه السـلام منتقلا إلى جـــواب أوضـــح من الاول: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آَبَـــائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إن رب العالمين هـو ربكم ورب آبـائكم الأولين الـذين خلقهم من نطفـة ثم من علقـــة. ثم من مضـــغة ونفخ فيهـــا الـــروح وأودع في الأرواح العقـــول والشعور والهداية إلى الظلمات والنور ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مبالغـا في الـرد: ﴿إِنَّ رَسُــولَكُمُ الَّذِي أُرْسِــلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُــونٌ﴾ حيث يسـأل عن شـــيء ويجيب عن آخر ﴿قَالَ﴾ عليه السلام مشـيرا إلى أنكم لسـتم أهلا لـذلك الباب وليس من حقكم السؤال عن حقيقة الحق سبحانه لأنـه لا يسـأل عن شي لا تصل إليـه العقـول وموضـحا للجـواب الأول: هـو ﴿قَـالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الدرجات المختلفـة لسـير الشـمس ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته وأشرت إليه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد أن فهم أن موسى حكيم يأتي بالأسلوب الحكيم ولا يذكر أسرارا يعجز عن إدراكها أفهـام الأوسـاط، وهـو لا يفحم بالمقـال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ المحكومين بالسـجن المؤبد

حتى لا تخرج فتحرج الناس وتدعوهم إلى ما تعودوا عليه من اتخاذ الهياكل واعتبار أولى النفوذ الدنيوي أربابا ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي أتحكم بتعذيبي وسجني ولو جئتك بشيء من المعجزات الإلهية الخارقة للعادة مبين وموضح لأهل العقل أن للكائنات ربا قادرا على الممكنات وتحويل الاشياء الى ما هو على غير صفاتها الاعتيادية ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر ثعبانيته ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي أن بياضه يدعو الناس إلى النظر إليها.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)﴾

قوله تعالى ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ أي قال فرعون للأشراف الذين استقروا حوله بعد أن رأى من موسى عليه السلام ما رأى ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ إن هذا الرجل الذي عرفتموه ورأيتموه أتى بما أتى به لساحر عليم فائق في فن السحر ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ التي قد ولدتم فيها وتربيتم وعمرتم وعشتم مستريحين ﴿بِسِحْرِهِ﴾ أي بجلب نظر كم إليه به فيلقى في قلوب الناس مهابة له واحتراما فيتبعونه بكثرة فتكون له القوة والنفوذ

ويجبر الناس على اطاعته وأنتم تخالفونه وتحاربونه فيغلبكم ويخــرجكم منها ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ به في دفعه قبل استفحال أمره ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي اخر أمرهما الى أن تجمع السحرة من البلاد التي لك قدرة عليها ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ مأمورين محصلين ﴿حَاشِرِينَ﴾ لأهل السحر ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ كثير التفنن في السحر ﴿عَلِيمٍ﴾ فائق في فنه يغلب غيره بمكيدته.

وفي ﴿أَرْجِهْ﴾ لغات، لأن اصله أرجئه، أمر باب إفعال من الإرجاء بمعنى التأخير، فقرأ الكثيرون أرْجئهُ بإبقاء الهمزة وضم هاء الضمير على الأصل. وقرأ عاصم وحمزة أرجه بحذف الهمزة وسكون الهاء لأن الهمزة ما دام تنقلب ياء لسكونها وكسر ما قبلها والياء تحذف آخر الأمر حقها الحذف، وسكنا الضمير لشبهه بهاء أصل الكلمة. والكسائي وخلف أرجهِ بحذف الهمزة وكسر الهاء.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي فذهب الحاشرون وجمعوا السحرة المعهودين أو جميع السحرة لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة. ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ في ذلك الميقات متفرجين على ما يحدث ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ في دينهم ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ على موسى عليه السلام ومرادهم بذلك أن لا يتبعوا موسى فإن معاندته هي الأمنية الغالية لهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ واجتمعوا في البلاط الملكي وتشاوروا فيما بينهم في حالهم ومستقبلهم اتفقوا على طلب أجور معينة عند الغلبة ﴿قَالُوا﴾ لفرعون: ﴿لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم الأجر اللائق ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ علاوة على الأجر المادي المناسب لكم ﴿إِذًا﴾ إذا كانت الغلبة لكم ﴿لَمِنَ﴾ الناس ﴿الْمُقَرَّبِينَ﴾ إلينا تدخلون علينا قبل الداخلين، وتخرجون بعد الخارجين.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)﴾

قوله تعالى ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ أي بعد أن قال له السحرة إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي فوضهم الى ميل أنفسهم الاشتهاء بدون تخصيص وتقييد استعملوا ما تستعملونه وألقوا الى مرأى الناس ﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ له وذلك لعدم الاعتناء بأعمالهم ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ﴾ أي الحبال التي بللوها وغذوها بالزئبق ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾ التي يعتمدون عليها في إبراز عمل السحر ﴿وَقَالُوا﴾ عند إلقائها: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وقوته الجبارة ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ لا شك ولا غالب غيرنا ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ وتبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي المواد التي يأتون بالإفك عليها ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ من القوة القدسية على وجوههم ﴿سَاجِدِينَ﴾ لله تعالى على ما شاهدوه من معجزة موسى مقارنة بالهيمنة والرهبة الربانية ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أي الرب الذي يعرفانه من دون شبهة وريب إيمانا لهما به من أعماق القلوب ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لما شاهد ذلك:

﴿آَمَنْتُمْ﴾ أيها السحرة له ﴿قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ﴾ وأعلمكم بإجازتي لكم في هذا الأمر الخطير الذي يمس كيان الدولة المدعية أنها القوة الهائلة فوق قوى العالم إن هذا الأمر لمكر مكرتموه وشيء دبرتموه، ومؤامرة علينا تآمرتم واتفقتم عليها سرا و﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فاتفقتم على ما فعلتم ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ النتائج التي تحيق بكم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ من جهة ﴿خِلَافٍ﴾ جهة الأخرى أي لاقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى، ثم أيديكم اليسرى وأرجلكم اليمنى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ على جذوع النخل العالية حتى لا تنالها أيدي المتناولين وتتمزقوا وتأكلكم الطيور والحشرات الجوية ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بلا استثناء أحد منكم حتى لا تبقى لكم باقية.

﴿قَالُوا﴾ أي السحرة: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا في تطبيق ما هددتنا به ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا﴾ العالم بالخفيات ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ ويهب لنا الثواب الجسيم والجزاء العظيم البتة ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ السابقة وما كنا عليه ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لأنا كنا بهذا الإيمان المعلن في هذا الموقف المحمود واليوم المشهود أول المؤمنين بصورة جماعية معروفة بين العالمين.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآَخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)﴾

قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ يعني أنه بعد أن صارت المقابلـة بين موسى عليـه السـلام وبين السـحرة وغلب عليهم، وانقلب المعارضـون صاغرين، بقي موسى وهرون ومن تبعهما من بني إسـرائيل في مصـر، ولكنهم كانوا مضطهدين، وكان سيدنا موسى عليه السلام يـدعوهم الى الايمـان واتبـاع الحـق وهم يعانـدون، فـأوَحى اللـه إلى موسـى عليـه السلام: أن فرعون في صدد المهاجمة عليك وعلى من تبعك، فالطريق لخلاصكم منه ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ المؤمنين، وتحرك من مصر معهم ليلاً مختفين ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ واسعوا في قطع مسافات واسعة بمـدة قليلـة لعلكم تنجـون، فسـرى بهم ليلاً وارتحلـوا من ديـار مصـر متـوجهين إلى سـيناء، ﴿فَـــ﴾ لمـا علم فرعـون أنهم ارتحلـوا وكـانوا كثـيرين ﴿أَرْسَـلَ فِرْعَـوْنُ فِي الْمَـدَائِنِ﴾ أي مـدائن مصـر رجـالا ﴿حَاشِـرِينَ﴾ جـامعين للعساكر ليتبعوهم قائلا لهم ﴿إِنَّ هَـؤُلَاءِ﴾ اي بـني اسـرائيل ﴿لَشِـرْذِمَةٌ﴾ أي طائفة من الناس وقيـل هي السـفلة منهم ﴿قَلِيلُـونَ﴾ عـدداً وعـددا. وفي الواقع كانوا ستمائة ألف وعشـرين ألفـا واتبعهم فرعـون لتعقيبهم بعـدد زائـد على ذلـك ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَـا لَغَـائِظُونَ﴾ أي حاقـدون فـإذا أمكنهم النزاع والحرب حاربونا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي وإنا لجمـع من سـيرتنا الحذر وملاحظة العـواقب ﴿فَأَخْرَجْنَـاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ (57) وَكُنُـوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾

معناه أنا كدْناهُم وهيأنا لهم وسيلة خروجهم من ديـارهم المحتويـة على البساتين والحدائق والعيون الجارية فيهـا. ومن أمـوال مكنـوزة عنـدهم مخزونة في خزائن خاصـة مقفلـة، ومقامـات للراحـة والمنـام والقعـود والقيـام. والمـراد بهـا القصـور المسـكونة لهم فتركوهـا واتبعـوا بـني إسرائيل لإبادتهم أو أسرهم واسـتعبادهم أو لأجـل إبعـادهم الى ممالـك أخرى ولم يعلموا أنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وإنا بعد خـروجهم لا نخليهم يرجعون على آثارهم، وفعلا لما خرجوا ما رجعوا ﴿وَأَوْرَثْنَاهَـا﴾ أي تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وظاهر هذه الآية الكريمـة أن بـني إسـرائيل هم الـذين اسـتولوا عليهـا. فمن النـاس من يقـول إن المـراد أنهم بعـد هلاك فرعـون وقومـه المحاربين وعبور موسى مـع من كـان معـه من بحـر النيـل رجعـوا إلى مصر وسكنوا فيها مدة عشر سنين. ومنهم من يقول أنه بعد العبور من النيل رجع بعض بني إسرائيل الى مصر وهم الذين أورثوا أموال القبط، وذهب الباقون مع موسى عليه السلام الى أرض الشام. قلت: ويحتمـل أنه كان بعض من بني إسرائيل السـاكنين في مصـر سياسـيين مـوالين لفرعون وأتباعه، ولم يخرجـو مـع موسـى عليـه السـلام وأتباعـه فبقـوا هناك وبعد غرق فرعـون وأتباعه الشـداد المقـاتلين في النيـل اسـتولوا على تلـك المسـاكن والبسـاتين والحـدائق والكنـوز بشـتى أسـاليب الإستيلاء، فإنا نجد في بعض الأماكن كثيرين من قوم يوالون قومـا آخـر كأنهم منهم فيستفيدون منهم أموالا طائلة، ولعـل هـذا الإحتمـال أوفـق وأنسب وأقوى تأريخا ومدركا.

ولنرجع إلى تسلسـل موضـوع الآيـات الكريمـة فيقـول البـاري سـبحانه ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ﴾ أي لما جمع الحشد الكبير الكثير عنده، وعـزم على السـير وراء بني إسرائيل اتبعوهم أي أتبع فرعون وجنوده بني إسرائيل

﴿مُشْرِقِينَ﴾ حـالكونهم داخلين في وقت شـروق الشـمس أي طلوعهـا من صباح ليلة اجتماع الجيش، فساروا وراءهم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَـانِ﴾ أي تقـارب الجمعـان جنـود فرعـون واتبـاع موسـى عليـه السـلام ورأى بعضهم بعضا ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي لملحقون من جهة جيش العدو ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام في جـوابهم وتشـجيعهم: ﴿كَلَّا﴾ لا ندرك أبدا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قريبـا الى مـا فيـه النجـاة الأبديـة ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ أي بحر النيل ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي فضـربه فـانفلق أي فانفصـل البحـر بعضـه عن بعض وتفـرق الى أقسام ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي كالجبل العالي الثـابت في مقره. ورأوا أن سطح أرض النهر ليس فيه ماء بحيث يمنـع المـارة من المرور الإعتيادي. ويروى أن عدد الفرق كـان على عـدد الأسـباط فمـر كل منهم في ممر خـاص واللـه أعلم ﴿وَأَزْلَفْنَـا ثَمَّ الْآَخَـرِينَ﴾ أي وقربنـا هناك الجمع الآخرين من أتباع فرعون معه ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَـهُ﴾ أجمعين بمرورهم في فجـوة الفـرق ولم يمسَّ أحـداً منهم السـوء ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ﴾ فرعون وجنوده بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى ومن معه من البحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً﴾ عظيمة ومعجزة جسـيمة ﴿وَمَـا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وما كان أكثر من كان مع سيدنا موسـى عليـه السلام مؤمنين بأن هذه الآيـة العظيمـة كـانت من اللـه لنصـرة موسى ونجاة من معه، بل كانوا يحملونها على الصـدف فـإن من شـأن الضـال التائه الغويِّ أن لا يعتبر بأية عبرةٍ ترد عليه سـواء كـانت من المهلكـات كالقحط والحـرب والأمـراض، أو من المنجيـات كالنصـرة والخلاص من الزحمة ووفور النعمة إلى غير ذلك.

وقد فسر بعض المفسـرين الأعلام هـذه الآيـة على معـنى أن في ذلـك القصص المذكورة في شأن موسى عليه السلام مع فرعون وإنجائه مع من معه وإغراقه مع جنوده لآية عظيمة للنـاس الـذين يقصـها الرسـول محمد

صلى الله عليه وسلم، وحقهم أن يعتبروا بها ويقيسوا المتمردين من المشركين على فرعون وأتباعه العتاة الطغاة، ويقيسوا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين على موسى ومن معه، ويؤمنوا بأنه كما كان العاقبة لموسى والعقاب لفرعون وأهله وجنوده تكون العاقبة الحسنى لمحمد صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به والعقاب والعذاب للمتمردين من مشركي العرب، مع أن أكثرهم لم يؤمنوا بذلك، ولم يأخذوا منها عبرة تنفعهم وتسوقهم الى الايمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وينصر من شاء على من شاء ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث لا يأخذ العتاة فورا بل يمهلهم الى أجل مسمى كما يقال: إن الله يمهل ولا يهمل.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطـف على العامـل المقـدر في إذ نادى، أي اذكر ذلك لقومك، واتل عليهم نبأ إبراهيم، ويتعلـق بالنبـأ إذ أي النبأ الحاصل ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي مـا الـذي تعبدونـه وذلـك ليسـمع جـوابهم ويبـني عليـه مـا أراد إعلانـه من أن مـا يعبدونـه جوامـد هامـدة لا أرواح لهـا ولا يحصـل منهـا أثـر من نفع أو ضـر لأحـد. ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ زادوا في الجـواب على مـا أريـد بالسؤال ليزيدوا من إظهـار مـا في ضـمائرهم من التعمـق في الضـلال وأنهم عاكفون لعبادتها بالاحترام والإجلال ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليـه السـلام بعد مـا سـمع من الكلام: ﴿هَـلْ يَسْـمَعُونَكُمْ﴾ أي يسـمعون كلامكم ﴿إِذْ تَـدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُـونَكُمْ﴾ بسـبب عبـادتكم لهـا ﴿أَوْ يَضُـرُّونَ﴾ أي يضرونكم بتركها ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُـونَ﴾ أضـربوا عن أن تكون عبادتهم لها لطمع نفع أو قطع ضرر، وأظهروا أن لا سند لهم فيها سوى تقليد آبـائهم ﴿قَـالَ أَفَـرَأَيْتُمْ مَـا كُنْتُمْ تَعْبُـدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآَبَـاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ أي أرأيتم شيئا من الخير تحصلونه على عبادتها أنتم وآباؤكم السابقون؟ فكأنهم قالوا لا مـا رأينـا شـيئا فقـال إبـراهيم عليـه السـلام ﴿فَـإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لِي﴾ ولا شـك في عـداوتهم لي وعـداوتي لهم ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنه ليس عدوا لي ولا لغيري بل هو رءوف بي وبغيري. وهـو ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ من العـدم وسـواني إنسـانا مكرمـا داخلا في أمـة من الأمم ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى ما يهمني ويُصلحني من أمور المعـاش والمعـاد ﴿وَالَّذِي هُـوَ يُطْعِمُنِي﴾ إذا جعت ﴿وَيَسْـقِينِ﴾ إذا عطشـت فـإن الطعـام والشراب نصيب

والنصـيب مغيب والمعين لـه هـو الـرزاق القـريب ﴿وَإِذَا مَرِضْـتُ فَهُـوَ يَشْفِينِ﴾ أي ويرشدني إلى طبيب يداويني أو يدفع عني المـرض بسـلام يأتيني ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي﴾ اذا جاء أجلي فأبقى مـا شـاء اللـه، ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ للحسـاب ومـيزان الأعمـال في الـدين. يعـني إن هـذه الأمـور كلهـا من ابتداء خلق الانسان ونشوئه وبقائـه وامراضـه وسـائر عوارضـه وإماتتـه وإحيائه... كـل في كتـاب وذلـك عائـد الى اللـه سـبحانه وتعـالى لا غـير ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ قالوا استعظم أن يصدر منه شيء مخالف لميزان إلا لصورة الخطأ ولذلك قال: خطيئتي، ولكن الواقع أن الأنبياء عليهم السلام وان كانوا معصـومين من الـذنوب، كمـا حقق في محله، لكنهم لمـا تعمقـوا في الايمـان وإدراك عظمـة البـاري جل جلاله وجدوا أنفسهم في ذلك المقام قاصـرين عن الإتصـاف بـأداء حق العبودية وعدوا مـا صـدر منهم، وفيـه شـائبة من اشـتهاء النفس أو الغفلة عن جانب القدس ذنوبا واستغفروا الله عنه وكفى في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ((وإني لأستغفر الله في كل يـوم سـبعين مـرة)) أو كما قال وما روي عنه من قول سيدنا إبراهيم إلي سقيم وقوله ﴿بَلْ فَعَلَـهُ كَبِـيرُهُمْ﴾ هـذا وقولـه لزوجتـه سـارة هي أخـتي ليسـت من بـاب الإخبار بالكذب قطعا بل أراد من الاول الحيرة في جلال الذات ومعرفة الحق سبحانه وتعالى. وكان القول الثاني تعريضا والثـالث صـدقا وحقـا وهي أختـه دينـاً وإيمانـاً. وقولـه ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًـا﴾ حملـه على هـذا الدعاء الجليل ما أتى بـه من صـفات البـاري وإسـناد الأمـور إليـه فلمـا استغرق في ذلك غلبه الشـهود، وأتـاه المقصـود وهـو طلب المهم منـه فقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًـا﴾ أي القـوة والسـيطرة على نفسـي لرعايـة جانب القدس أو كمال القوة العلميـة لأفهم كـل شـيء على حقيقتـه أو النفوذ لتطبيق الحق في العالم.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي بالعباد الصالحين في اعتقادهم وأقوالهم وأفعالهم ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآَخِرِينَ﴾ أي واجعل لي قوة على آثار نافعة خالدة يكون لمن يذكرني بها لسان صدق أي لسان يتكلم بالصدق، أي إذا ذكروني بالخير يكون كلامهم صدقا وحقا ولا أريد ذلك في طبقة خاصة بل في كأفه الآخرين مادام أهل الدين موجودا إلى يوم القيامة، وقد أجاب الله دعاءه فجعل ذكره بالخير منتشرا في ربوع الدنيا وسيبقى ذلك مادامت الدنيا باقية. ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي من الذين ياخذون مقامهم في الجنة موهبة رحمانية كإرث الورثة من المورثين، وذلك إشارة إلى أن من دخل الجنة فقد دخلها برحمة الباري وموهبته لا باستحقاقه في مقابل طاعته، وهو ظاهر ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن طريق الحق أي طريق التوحيد لله ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ بتعذيبه ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي الناس هو وغيره ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي لا ينفع مال بذاته ولا بصرفه في الخير، ولا ولد بذاته ولا بأعماله ودعواته لي. وقد استغفر له قبل أن يعلم بأن الدعاء لأمثاله غير مقبول وقد وعده به كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ﴾ الآية... وظاهر الآية أن ذلك الرجل المدعو (آزر) كان والده وكان استغفر له سيدنا إبراهيم عليه السلام لموعدة وعدها اياه. وعند بعض المحققين من المؤرخين أنه كان عمه وتربى عنده الوفاة أبيه سابقا فكان يدعوه باسم الأب. وقوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ بدل من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ استثناء من أعم المفاعيل، أي يوم لا ينفع مال أحد ولو كان مصروفا في جهات الخير. ولا ينفع بنون بذاتهم ولا بدعواتهم أو أعمالهم أحدا إلا من أتى الله بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل ما يتعلق بالإنسان بالإيمان الثابت الخالي عن الخلل. جعلنا الله تعالى من أصحاب القلب السليم إنه هو الرءوف الرحيم.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ معطوف على قوله ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ أي يوم ازلفت الجنة الآية. والتعبير بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع. ويجوز أن يكون هو وما بعده جملا مذكورة لبيان ظهور آثار النعمة للمؤمنين والنقمة للكافرين وبيان الأسئلة الموجهة على القسم الثاني في الآخرة ومعنى الآية: وقربت الجنة للمتقين عن الكفر والنفاق مبتهجة ومزينة بجهات الزينة وفنون المحاسن بحيث يشاهدونها فيفرحون بأنهم يدخلونها ويخلدون فيها ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي الضالين عن طريق الحق والدين وهو التقوى والإيمان الخالص. وطريقة تقريب الجنة وتبريز الجحيم مع أن أرض المحشر لا تسعهما بكشفهما عن أهلهما فإن المنظار القوي يدرك به الأمكنة البعيدة كأنها قريبة وأمام الناظر وإدراك عالم الخلود لا يقاس على إدراك عالم الفناء في الدنيا ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي للغاوين، والقائل هو الله أو الملائكة المأمورون بذلك: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في الدنيا

﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع ما تشـاهدونه من الجحيم ومـا فيهـا من العـذاب ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ بدفع ذلك عن أنفسهم.

﴿فَكُبْكِبُـــوا فِيهَـــا﴾ أي ألقـــوا على وجـــوههم في الجحيم ﴿هُمْ﴾ أي المعبـودون من دون اللـه ﴿وَالْغَـاوُونَ﴾ الضـالون وهم عُبّـادُهم ﴿وَجُنُـودُ إِبْلِيسَ﴾ من شياطين الجن والإنس ﴿أَجْمَعُونَ﴾ بلا اسـتثناء ﴿قَـالُوا﴾ أي الغـاوون ﴿وَهُمْ فِيهَـا﴾ أي في الجحيم ﴿يَخْتَصِـمُونَ﴾ يخاصـم بعضـهم بعضا: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي لا شك أنا كنا في ضلال مـبين واضح. ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ﴾ أيها الأصنام المفتعلون ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَـا أَضَلَّنَا﴾ عن طريق الحق وهو عبادة الله الواحد الأحـد ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُـونَ﴾ من شياطين الثقلين ﴿فَمَـا لَنَـا مِنْ شَـافِعِينَ﴾ أي شـافع من الشـافعين ﴿وَلَا صَـدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي ولا صـديق شـفيق حـار في الصـداقة يسـعى لخلاص صـديقه ﴿فَلَـوْ أَنَّ لَنَـا كَـرَّةً فَنَكُـونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ أي ليت لنـا رجوعا إلى الـدنيا فنكـون من المؤمـنين باللـه وبرسـوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآَيَةً﴾ أي إن في بيان قصة إبراهيم عليه السلام لحجـة وعظـة لمن أراد أن يتعظ بها، فإن الإنسان العاقل إذا تأمـل في أعمـال رجـل كـإبراهيم عليه السلام بين أظهر قوم كافرين عابدين للأصـنام، ولمـا أن وقـع في قلبه أن أعمالهم باطلـة ثـار عليهم ونـاظرهم وأرشـدهم ولم يخـف من بطشهم واستمر على أمره حتى نصره الله استفاد من هذا أن من نصر الحق نصره الله ومن سلك على الصراط المستقيم أوصـله اللـه ﴿وَمَـا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر قومه ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ أو ومـا كـان أكـثر القـوم الـذين تقص عليهم هذه القصة العظيمة مؤمـنين بـك وبكلام اللـه الـذي أنـزل عليـك القصــة الماضـية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُــوَ الْعَزِيــزُ﴾ الغـالب على أمــره ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن خصه برحمته.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُـوحٌ أَلَا تَتَّقُـونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ (107) فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُـونِ (108) وَمَـا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَـالَمِينَ (109) فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قَالَ وَمَـا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْـعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَـذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَـالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُـونَنَّ مِنَ الْمَرْجُـومِينَ (116) قَـالَ رَبِّ إِنَّ قَـوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَـهُ فِي الْفُلْـكِ الْمَشْـحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَـا بَعْـدُ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَـا كَـانَ أَكْثَـرُهُمْ مُـؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَـلِينَ﴾ القـوم يـذكر ويـؤنث وكـذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر، ولـذلك يصـغر على قويمة. وقيل هو مذكر ولحقت فعله علامة التـأنيث على إرادة الأمـة أو الجماعة، وفي ألفية السيوطى:

وابن القبيلَ والبِلادَ والكْلم على الذي قَصَدْته كما رُسِم

وتكذيب القوم للمرسلين باعتبار أن تكذيبهم لسيدنا نوح كان في توحيد الله تعالى والرسل متفقون عليـه، فتكـذيب واحـد منهم تكـذيب للكـل. وقوله ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ ظرف للتكـذيب أي كـذبوهم إذ قـال لهم ﴿أَخُـوهُمْ نُوحٌ﴾ عليه السلام ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون الله تعالى حيث تعبدون

معه غيره وتشـركونه بـه تعـالى؟ يـا قـوم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ﴾ من اللـه ﴿أَمِينٌ﴾ مشـهور بالأمانـة في مـا بينكم، أو أمين على أداء الرسـالة من الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في ما آمركم به من التوحيد وعبادته تعالى وحده ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على ما أبلغكم ﴿مِنْ أَجْـرٍ﴾ من المـال أو غيره ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي مـا أجـري ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَـالَمِينَ (109) فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قَـالُوا أَنُـؤْمِنُ لَـكَ وَاتَّبَعَـكَ الْأَرْذَلُـونَ﴾ أي السـفلة وأصحاب الخسة من القوم. ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السـلام: ﴿وَمَـا عِلْمِي بِمَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ومـا أدري بأعمـالهم ومكاسـبهم إذا كـانت سـافلة أو عالية وليست تلك الملاحظة وظيفتي، وإنما وظيفتي دعـوة النـاس الى توحيد الله ﴿إِنْ حِسَـابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَـوْ تَشْـعُرُونَ﴾ أي ليس حسـابهم فيما يعملونه من حسن الصناعة وجودتها لبعض دون آخر.

يعني إذا كان هناك محاسـبة عليهم فالمحاسـبة تعـود الى عملهم وذلـك على الله ولا عتب في رذالة أعمالهم لأن النـاس تختلـف ظـروفهم في المعيشـــة. وعلى كـــل فالحســـاب والمراقبـــة في الـــدنيا أو الحســـاب والسؤال في الآخرة على الله وحده وهو العليم بأعمال الكـل ونيـاتهم. ولو شعرتم بذلك ما نظـرتم إلى قلـة مـالهم في هـذا العـالم ﴿وَمَـا أَنَـا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عن الحضـور إلي ومجالسـتهم ودعـوتهم إلى التوحيـد والطاعة الخالصة موافقة لرغبتكم المبنية على الأنانيـة والتكـبر الفـارغ ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما أنا إلا رسول مبعـوث لإنـذار المكلفين أيّـاً كانوا.

ولما علموا بنية سيدنا نوح عليه السلام وثباته على ما هـو عليـه ﴿قَـالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ عما أنت عليـه من دعـوى الرسـالة ودعـوة النـاس الى التوحيد ورفض عبادة الأصنام التقليدية ﴿لَتَكُـونَنَّ مِنَ الْمَرْجُـومِينَ﴾ أي لتقتلن برمي الحجارة عليـك حـتى تمـوت بالحقـارة، أو لتكـونن من المشتومين بالكلمات البذيئة. ولما بلغت وقاحتهم الى هذه الدرجة

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ أي استمروا على ما هم عليه من التكذيب ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي افتح بيني وبينهم بابا لأخـرج منـه وأكـون محفوظا من شتامهم وإيذائهم، أو احكم بيننا بمـا يسـتحقه كـل منـا من الفتاحة بمعنى الحكومة ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من قصدهم الفاسد وعملهم الكاسد ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْـكِ الْمَشْـحُونِ﴾ أي فأوحينـا إليـه أن اصـنع الفلـك واسـلك فيـه من سـلك في الـدين فـإني أغرقهم بالطوفان، فصنعه وجعـل فيـه من آمن بـه، وأمرنـا السـماوات بالإمطار والأرض بتفجيرها بالماء حتى صار الطوفان، فـدخل نـوح ومن معه في الفلك المملوء بالناس وما لهم إليه حاجة ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْـدُ﴾ أي بعد الحكم بإنجائهم ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه الكـافرين ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآَيَـةً﴾ عظيمة دالة على عظم قوته ونفوذ قدرته وإنجاء من يؤمن بـه ونصـرته ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولـذلك غـرق النـاس عـدا من في السـفينة اجمعين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما أراد ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن شاء من العباد.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُـونَ (124)
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَـا أَسْـأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آَيَةً
تَعْبَثُـونَ (128) وَتَتَّخِـذُونَ مَصَـانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُـدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْـتُمْ
بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَـدَّكُمْ
بِمَا تَعْلَمُـونَ (132) أَمَـدَّكُمْ بِأَنْعَـامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ (134)
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ
لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُـقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَـا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآَيَـةً وَمَـا كَـانَ أَكْثَـرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ تأنيث الفعل باعتبارِ أنَّ المرادَ بعاد القبيلة، وهو اسم أبيهم الأعلى ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ والتذكير لإرادة بني عاد ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الإشراك بالله سبحانه وتعالى ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ناصح لكم وأريد الخير لكم في الدارين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الإشراك به ومباشرة المعاصي ﴿وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تعبي في نصيحتكم ودعوتكم الى توحيد الله وطاعته ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مادي أو معنوي ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والتصريح بالبراءة عن طلب الأجر لإعلان أن الأنبياء والرسل منزهون عن المطامع الدنيوية الدنيئة وأن المقدار الذي يكفي لمعيشة الإنسان يوجد بلا اهتمام زائد، ولا يجوز للراشد أن يضيع وقته النفيس إلا في الطاعة والتقديس.

ثم زجرهم على صرف الأموال الهائلة على ما لا طائل تحته من بناء القصور في الطرق من هنا وهناك وقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ أي أتبنون بكل طريق يكون ممرا للناس، أو بكل فج بين الجبلين قصرا يكون آية من آيات قواتكم وعلوكم في بنائه وعلوه وإتقانه وحديقته ومرافقه للفخر والكبرياء تعبثون ببنائها وتصرفون في بنائها مالا كثيرا ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي تبنون مآخذ للماء ومجاري تحت الارض وبُرَكا وحياضا للتفرج والأنس بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي عاملين عمل من يرجو الخلود في الدنيا. وسر النهى عن ذلك أنهم صرفوا أموالا كثيرة في أمور ممتعة زائدة

على الحاجـة للبطـر والأشـر واللهـو واللعب وقضـاء شـهوات النفس وإشـباعها فيمـا يخـالف الكرامـة الإنسـانية مـع أن صـرفها في الأمـور الحيويـة المعتدلـة والـدفاع عن الأمـة وإنعاشـها بالسـدود المسـتحكمة القوية لإجراء الانهار وإرواء الأراضـي القحلـة، والإسـتفادة من المـزارع والبساتين والثمار بقدر ما يكفي الأمة، وتصـدير مـازاد عليهـا الى البلاد أنفع وأعْدَلُ بكثير من الإنهماك في تلـك الملـذات الحيوانيـة الـتي ليس لها نتائج إلا ضـعف الأمـة ونـزول أخلاقهـا وكرامتهـا وإحـداث المنافسـة والشـجار بين أبنائهـا إلى أن يعـادي بعضـهم بعضـا ويتقـاتلوا فيفشـلوا وتـــذهب قـــوتهم، ويطمـــع فيهم الطـــامعون من كـــل صـــوب وحـــدب فيستَعْبدوا أذلاء صاغرين. فهذه النصيحة الإلهية أقـوى نصـيحةٍ لسـعادة الـدارين. ﴿وَإِذَا بَطَشْـتُمْ بَطَشْـتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي وإذا كـرهتم عملا وأردتم الإنتقام من أهله بطشتم بطش الجبارين بلا نظام مقرر ودستور معتدل حتى يتـأدب الفاسـد ويتهـذب الراشـد ﴿فَـاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ارتكـاب هـذه الامور ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَـا تَعْلَمُـونَ﴾ ولا يـدخل في نطـاق العـد والبيـان، ولكن المهم منه أنه ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ تسـتفيدون من الانعـام الـدر والدهن واللحم والصوف المتخـذ منـه ألبسـة فـاخرة، ومن البـنين قـوة وسـيطرة على العبـاد والبلاد وغنـائم ومنـافع ظـاهرة ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ﴾ تأخـذون منهـا أنـواع الثمـار والأقـوات المتكـاثرة وتتنعمـون بكـل ذلـك غافلين عن إطاعة من أولاكم هـذه النعم الـوافرة، فـإن تسـتمروا على هذه الأحوال ولا ترجعوا إلى الإيمان بالله وحده وبشرائعه وميزان عدله وشكر نعمه فـ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا للإبـادة والإهلاك، وفي الآخرة عقابا على الكفر والإشراك ﴿قَـالُوا﴾ في جوابـه: يـا هـود اهـدأ وكن من الصـامتين ﴿سَـوَاءٌ عَلَيْنَـا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ فلسنا بوعظك من المتعظين

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الوعظ والكلام والتهديد والوعيد إلا خلق الناس الأولين، فلم تمض أمة إلا ومضت فيها ثلة من القوالين والواعظين، ولم يستند ذلك إلا إلى الوفاء بما يقتضيه طبع جمع من الناس من حرب الذين يعيشون متنعمين أو ما هذا الذي نحن عليها من عبادة الأصنام إلا خلق الأولين من آبائنا الأقدمين وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، ولا قيمة في الواقع لما تهددنا به ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فكذبوه في آخر مرة تكذيبا صارما لا يقبل ردا. فأهلكناهم بريح صرصر عاتية سخرناها عليهم سبع ليال وثمانية أيام فكانوا من الهالكين. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الأمر المذكور ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة لأهل الشعور ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين في الدارين، وبالكافرين في الدنيا، وفي ذلك بلاغ للعالِمين.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ القول في تأنيث الفعل وربط التكذيب بالمرسلين على ما مر سابقا. وثمود قيل: إنه أعجمي منع من الصرف للعجمة والعلمية. وقيل عربي ومنع صرفه للعلمية والتأنيث باعتبار القبيلة. وهو من الثمد أي قليل الماء ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي الإشراك برب العالمين ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي رسول من الله أمين على التبليغ وعلى رعايتكم بكل وجه يمكن ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه من الله ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي يجزي بفضله ما يزيد على ثواب العمل بدرجات. ثم قال موبخا وزاجرا لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ من النعم المتلاحقة والهبات المتوافقة ﴿آَمِنِينَ﴾ من كل عذاب ينزل عليكم من السماء لعدم شكركم على النعماء، أو يخرج من الارض من البراكين والزلازل والحشرات والسباع الضاريات ومن الأعداء المهاجمين عليكم في المفاجآت، والحال أنتم تابتون وساكنون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ جنات مثمرة وعيون متفجرة ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ متداخل بعضه في بعض ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ﴾ أي من الأراضي الصخرية الصلبة في الجبال ﴿بُيُوتًا﴾ مستحكمة لا يصل إليها الأعداء والسباع والمؤذيات حالكونكم ﴿فَارِهِينَ﴾ أي أشرين بطرين متنعمين. يعني لا تتصوروا الخلود في هذا الأمر فإن الله قائم بالمرصاد على العباد يفتح عليهم أبواب النعمة والرحمة، فإذا آمنوا به وشكروا نعمته زادهم منها، وإذا كفروا بالله وكفروا بنعمته أزالها عنهم وهذه سنة الله في عباده.
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الإشراك به ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما أبلغكم به ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾

أي سادتكم المتجاوزين عن الحدود ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يكتفون بضلالهم في أنفسهم بل يضلون غيرهم. ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أنفسهم فضلا عن أن يصلحوا غيرهم.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه على هذه النصائح القيمة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ من الشياطين المتمردين فغلبوا على عقلك فصرت من المجانين، وعللوا كلامهم ذلك بقولهم ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ولست حائزا لرتبة الرسالة من الله حتى تلقي الينا ما تلقيه ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ أي بعلامة ودليل على صحة دعواك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وأرادوا بالآية ناقة عشراء تخرج من صخرة عينوها ثم سقباً، فقعد عليه السلام يتذكر فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك. ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا، وعند ذلك ﴿قَالَ﴾ صالح عليه السلام: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ كما اقترحتموها ﴿لَهَا شِرْبٌ﴾ أي نصيب مشروب من الماء كالسقي والقيت للنصيب من السقي والقوت وكان هذا الشرب من عين عندهم ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ كضرب وعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظم ما يقع فيه من البلاء.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ العاقر هو قدار بن سالف، لكن لما كان عقره لها بأمرهم نسب العقر إليهم. وفي رواية أن مسطعا ألجأها إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ خوفا من حلول العذاب ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعود وكان صيحة خمدت لها أبدانهم وانشقت قلوبهم وماتوا عن آخرهم. وصب عليهم حجارة خلال ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وكانوا من أصهاره عليه السلام ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله تعالى ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم وبخهم على عملهم الشنيع الفاحش وقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي الذكور منهم مع أن هذا العمل السيء لم يسبق في العالم من غيركم، ويزيل الغيرة من الرجال فإن الإنسان إذا صرف عرضه صرف ماله وجاههُ وأرضهُ، وإن الغاية إن كانت قضاء الشهوة الجنسية فأولى ما تصرف وتقضي به هو الزواج المشروع لمن هي من نوعه وجنسه. ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ وتتركون الإستمتاع بما خلقها الله تعالى لاستمتاعكم وانتفاعكم بهن أنساً وألفة، ولإدامة النسل وحفظ

الأصل لأن التعرض للاعراض يقتل إن كان هناك غـيرةٌ عليهـا ﴿بَـلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي إنه حقيق بنـا أن لا نصـرح بـذنب واحـد منكم وجريمـة واحـــدة وفاحشـــة من الفـــواحش لانكم قـــوم متعـــدون عن الحـــدود ومتجـاوزون الـدين والوجـدان ولا تتيسر لكم جريمـة وعمـل سـيء الا ارتكبتموه، سواء الكفر أو الإشراك، أو نهب الأموال، أو هتـك الأعـراض الى غير ذلك من المهالك.. ﴿قَالُوا﴾ له بدل أن ينزجروا بمواعظه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَـهِ يَـا لُـوطُ لَتَكُـونَنَّ مِنَ الْمُخْـرَجِينَ﴾ أي المطـرودين من قريتنـا والمنفيين من عشيرتنا. ولما يئس من إصلاحهم ﴿قَـالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي الباغضين. وحيث لا أستطيع رد المنكر بيدي ولا بلساني لم يبق لي إلا أضعف آثار الإيمان وهو الكراهية بالقلب، ثم لم يكتف بــذلك ودعا ربه لخلاصه من شؤم إعتقادهم وأعمالهم وقال ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من شؤم عملهم، فإن القريب من النار كاد أن يحترق بهـا ﴿فَنَجَّيْنَـاهُ وَأَهْلَـهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُـوزًا فِي الْغَـابِرِينَ﴾ أي إلا عجوزا مقدرة في الباقين من العذاب بعد سـلامة من خـرج. أو عجـوزا من الباقين في الدار ولم تخرج مـع لـوط عليـه السـلام. أو عجـوزا من الطـاعنين في السـن أي عمرهـا كـان طـويلا. وعلى كـل فـالمراد بهـا زوجته، وكانت مائلة إلى القوم الفاسـدين، لأنهـا كـانت من بنـاتهم ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآَخَـرِينَ﴾ أي أهلكنـاهم أشـد إهلاك وأفظعـه بالإئتفـاك أي جعـل أعالي البلاد أسـافلها وبـالعكس ﴿وَأَمْطَرْنَـا عَلَيْهِمْ مَطَـرًا﴾ أي نوعـا من المطر اللا معهود، فقـد كـان حجـارة من سـجيل، وذلـك كمـا في قولـه تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَـافِلَهَا وَأَمْطَرْنَـا عَلَيْهَـا حِجَـارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾. ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ مطرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآَيَـةً وَمَـا كَـانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكة الغيضة التي تنبت ناعم الشجر، وهي غيضة من ساحل البحر إلى مدين، يسكنها طائفة، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام، وكان أجنبيا عنهم، ولذلك قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم. وقيل الأيكة الشجر الملتف، وكان شجرهم الدوم، وهو المقل وعلى القولين أصحاب الأيكة غير أهل مدين. ومن غريب النقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أصحاب مدين. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وذكر نبذة مما يتقون الله في رعايته وهي الإحسان في المعاملة مع الناس فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي أتموه إذا كلتم للناس كما توفونه إذا اكتلتم لأنفسكم ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي ولا تجعلوا الناس في خسارة مالية بالتطفيف ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الذي يكون الوزن به موافقا للحق ولا يكون مما يزيد وينقص بسبب خلل في جهازه، أو المراد بالقسطاس المستقيم القسطاس الذي صاحبه مستقيم الحال ومخلص في المعاملة على اعتبار أن لا ضرر ولا ضرار. وقوله تعالى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم شيئا من حقوقهم إما جيء به تأكيدا للحكمين السابقين، أو المراد به رعاية الحق والعدل في كافة المعاملات والديون وأشباهها. وذلك من باب التعامل والتجارة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تفسدوا في الأرض مفسدين للنظام بالقتل والسلب والنهب وهتك الأعراض وقطع الطرق والسرقة وغيرها مما يكون سببا للإخلال بالحياة الاجتماعية، فإن ذلك ظلم شديد والدنيا إذا بقيت مع الكفر لا تبقى مع الظلم، لأن حق الكفر بين العبد وبين ربه، وأما الحقوق المهضومة بالظلم فبين الظالم والعباد المظلومين، والله مهيمن عليهم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ ثم ترقى شعيب عليه السلام عن النهي عنهم في الأمور الحيوية إلى الأمر برعاية جانب الباري سبحانه فقال واتقوا الذي خلقكم، أي واتقوا الإشراك بربكم الذي خلقكم وخلق أصحاب الجبلة والغريزة الأقدمين، يعني إن الذات المختص بالخالقية هو المختص بالمعبودية فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئا ﴿قَالُوا﴾ أي قومه الغافلون ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يا شعيب أي سحرك الناس أو تسلط عليك الجن فصرت ممن يندهشون ولا تبقى عقولهم سالمة من الاختلال ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وليس فيك وصف فضيلة يجعلك مختصا بالرسالة من الله، وإن

نظنك لمن الكاذبين فيما تدعيه من الرسالة ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَـا كِسَـفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فما دام لك علاقة بـرب السـماوات والأرض فاطلب منه أن يسقط علينا قطعا من السماء تقع علينا وتهلكنا وتخلص منّـا ﴿فَكَـذَّبُوهُ﴾ أي فتشـددوا في التكـذيب وصـارحوه بـه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾. وذلك كما روي عن ابن عباس رضي اللـه عنهما أن الله تعالى بعث عليهم حـراً شـديدا، فأخـذ بأنفاسـهم فـدخلوا أجواف البيوت، فدخل عليهم فخرجوا منها هربا إلى البريّـة، فبعث اللـه عليهم سـحابة، فَـأظَلَّتْهم من الشـمس وهي الظلـة فوجـدوا لهـا بـردا شديدا ولذة، فنادى بعضهم بعضا، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسـقطها اللـه عز وجل عليهم نارا فأهلكتهم جميعا ﴿إِنَّهُ كَانَ عَـذَابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الشدة والهول ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَـانَ أَكْثَـرُهُمْ مُـؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وهذه القصـة آخـر القصـص السـبع المـذكورة التي سيقت للاعتبار والاستبصار، فلم تكن نافعة إلا لمن اختاره الله.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيـلُ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (192) نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَـانٍ عَـرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آَيَـةً أَنْ يَعْلَمَـهُ عُلَمَـاءُ بَنِي إِسْـرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَـانُوا بِـهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَـرَوُا الْعَـذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَـأْتِيَهُمْ بَغْتَـةً وَهُمْ لَا يَشْـعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَفَبِعَـذَابِنَا يَسْـتَعْجِلُونَ (204) أَفَـرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَـانُوا يُوعَـدُونَ (206) مَـا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207)﴾

قولـه تعـالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيـلُ رَبِّ الْعَـالَمِينَ﴾ الضـمير راجـع إلى القـرآن الكريم المستفاد من قوله تعالى في مطلع السورة ﴿تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَـابِ الْمُبِينِ﴾ وقيل إنه راجع إلى ما قصه الله على رسوله محمد صـلى اللـه عليه وسلم من قصص الأنبياء ومناظرتهم مع أقوامهم. ومعنـاه وإن مـا قصصناه عليك لا شك أنه تنزيل من رب العالمين وتلقيته من إيحاء الله تعالى إليك ﴿نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي نـزل بـذلك التنزيل بمعنى المـنزل جبريـل المشـهور بـالروح الأمين على قلبـك في حال اليقظة والإدراك الكامـل، لا في النـوم وحالـة النقص في الإدراك. وإنما اشتهر جبريل عليه السلام بالروح لأنه يحيا بـه الخلـق في الـدين، أو لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح. ووصفه بـالأمين لأنـه أمين وحيـه تعـالى إلى كافـة الرسـل عليهم السـلام. والمـراد بـالقلب الروح الإنساني المدرك للكليات والجزئيات المجردة عن المادة بالذات وللجزئيات المادية بواسطة الحواس والمشاعر.

والآية الكريمة نص في أن القرآن الكـريم نـزل بألفاظـه بـدون نقصـان على حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريــل. أي ودور جبريل فيه إبلاغه فقط وإيصاله وقراءته له عليه صلى الله عليه وسلم.

وطريق وصول ألفاظ القرآن إلى جبريل هو أن اللـه أودع تمـام ألفـاظ القـرآن في روح جبريـل فضـبطها، وكلمـا أراد البـاري سـبحانه وتعـالى إنزال آية أو آيات أو سورة إليه عليه السـلام نـزل جبريـل بهـا عليـه، أو أمره أن يتلقاها من اللوح المحفوظ فـإن القـرآن كلـه مكتـوب فيـه، أو من المجموع المـنزل إلى بيت العـزة في السـماء الـدنيا. وفي وصـوله إليه صلى الله عليه وسلم طريقتان:

إحداهما أن النبي صلى الله عليه وسلم انخلع من الموانع البشرية بحيث ناسبت ذاته الشريفة ذات الملك جبريل فأخذه منه بقراءته عليه.

والثانية: أن جبريل انخلع من الأوضاع الملكية بحيث ناسب الأوضاع البشرية فقرأه عليه في هذه الحالة وأخذه منه صلى الله عليه وسلم. وتلك الحالة التي كانت تأتي على الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي من تلبسه بشبه رعدة وقشعريرة كما للمحموم هي ذلك. فخذ هذا المنهج السليم في نزول القرآن الكريم على الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم بألفاظه الواضحة الجلية الدالة على معانيها الواقعية.

حتى لو قررنا أن بعض الآيات القرآنية ألقاها الله تعالى إلى حبيبه في ليلة المعراج وكلم بها معه بلا واسطة فلابد أن نؤمن بأنها نزلت مرة أخرى مع جبريل الأمين إليه عليه الصلاة والسلام

وقوله تعالى ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ متعلق بنزل أي نزل به لتنذرهم به ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ واضح ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإنّ ذكر القرآن وبيان نزوله مع جبريل إلى محمد خاتم الأنبياء ثابت في كتب الأنبياء الأولين الأقدمين من آدم إلى سائر الرسل من أولاده. ولاسيما في التوراة والإنجيل. أو المراد أن أحكامه التوحيدية الأصلية وهي أهم حكم يحتوي عليه ثابت في كتب الأولين، لأن الأنبياء متفقون في الإلهيات ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إستفهام إنكاري للتوبيخ. أي أليس آيةً واضحةً وحجةً مقبولة للجمهرة من المشركين واليهود والنصاري على أنّ القرآن كلامُ الله المنزل على حبيبه محمد مع جبريل الأمين عِلمُ علماءِ بني إسرائيل بذلك؟ لأنهم عندما كانوا يقرأون التوراة والإنجيل ويفهمون نعوت رسول آخر الزمان محمد العربي صلى الله عليه وسلم بأنه يبعث

في قوم كذا، وينزل عليه الكتاب العربي.. افتهم الناس كل ذلـك، وأنـه ينزل عليه قرآن عربي مبين.

وبعد ذلك كله لابُدَّ أن تعلموا أنّ إنكار المشـركين للقـرآن المـنزل على محمد صلى الله عليـه وسـلم معانـدة ومعارضـة للحـق بمحض الهـوى. فإنهم علموا أن محمدا لم يقرأ في مكة ولم يجاور من يعلمه شـيئا من الكتب، ولم يسافر إلى خـارج البلاد ليسـتفيد مـا يسـتفيد. فظهـور كلام بليغ في مستوى أرفع البلاغات بحيث لا يقاربه كلام العرب العرباء دليل على أنه كلام الله المنزل على حبيبه المبعوث رحمة للعالمين إلى كافة الثقلين أجمعين. فإنكارهم للقرآن ولتنزيله من الله الجليـل على حبيبـه ليس لأنه منزل بلسان عربي على رجل عربي يمكن أن يتوهم أنه كلام أنشأه بنفسه، بـل لأنـه لا يـروق لهم كلام يـدعوهم إلى التوحيـد ورفض عبادة الأصنام، حتى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَـا كَـانُوا بِـهِ مُـؤْمِنِينَ﴾ لأن مدلولـه يجعلهم من المعلولين ﴿كَـذَلِكَ﴾ أي كـذلك الوجـه الغـير المرغـوب فيـه ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ أي أدخلناه ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أصروا على الإنكار والاسـتكبار مـع الحـق حـتى طبـع اللـه على قلـوبهم. وقولـه تعـالى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إما بيان لما يسـتفاد من قولـه ﴿كَـذَلِكَ سَـلَكْنَاهُ﴾ أو جملـة مستأنفة سيقت لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية للإيمان به ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الملجئ لهم إلى الإيمان، وذلـك لا ينفعهم لأن إيمـان الإضـطراب غـير مقبـول ﴿فَيَـأْتِيَهُمْ بَغْتَـةً وَهُمْ لَا يَشْـعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ تحسرا: ﴿هَـلْ نَحْنُ مُنْظَـرُونَ﴾ أي مؤجلـون من حيث العذاب ومؤخرون.

ثم عاد الباري سبحانه وتعالى إلى إنكار استعجالهم العذاب تعنتا وقال ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ يطلبون نزوله قبل حلول موعده ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ مدة طويلة من الزمان ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ به من وجوه التمتع في تلك المدة الطويلة فليس ما حل بهم من العناد والاستنكار للحق إلا لإعراضهم عن مقتضى الحق والفطرة السليمة.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ تهديد وإرشاد يهدد المشركين بأننا من سنتنا إرسال المنذرين، فإذا لم يتعظ الناس أهلكناهم فقد أرسلنا إليكم رسولنا محمدا، وقد وعظكم ونصحكم فإن لم تتعظوا أهلكناكم. وفي الوقت نفسه إرشاد لهم إلى الإيمان والعمل الصالح ليخلصوا من عذاب الدارين. وقوله تعالى ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ استثناء من أعم الأحوال يعني وما أهلكنا من قرية في حال من الأحوال الا حال كون أهلها منذرين، فإن كان منذرون مبتدأ لها خبر مقدم فالحال جملة، وإن كان فاعلا للظرف فالحال مفرد. وقوله ﴿ذِكْرَى﴾ حال عن فاعل ﴿مُنْذِرُونَ﴾ بتقدير مضاف، أي منذرون ذوي ذكرى أي أصحاب تذكير وإرشاد لأهلها ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي وليس من شأننا أن يصدر عنا الظلم والتعدي على حقوق أحد. وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ رد لزعم من قال إن هذا القرآن ليس كلام الله ولا كلام نفسه، وإنما تنزلت به الشياطين عليه فيرد ذلك الزعم ويقول

وما تنزلت به الشياطين لأن ذلك الكلام المتين المعجز المبين ليس في مستوى كلام أنفسهم فإذا أخذوه فإنما أخذوه من عالم الملائكة في السماء وذلك ليس في حدود قابلياتهم بعد البعث ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ وما يناسبهم، لأن الشياطين أشرار، وهذا القرآن يدعو إلى الحق وإلى صراط مستقيم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وما يقدر الشياطين على ذلك أصلا ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لما يتكلم به الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ أي ممنوعون فإن الله قرر الرمي بالشهب إلى الشياطين المسترقين، وبعد أن جاهدت واجتهدت في دعوة أولئك المشركين ولم يستمعوا ولم يتعظوا فاتركهم ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ فإن صيانة النفس أعز شيء على النفس. وأمثال هذه الآيات الكريمة تعريض بعذاب المشركين وترغيب في التوحيد للموحدين.

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)﴾

قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ حكم مربوط بما قبله من سلسلة أحكامه. أي مادام المشركون لم يصعد طبعهم الوضيع إلى أن يستمعوا لك ويطيعوك في الإيمان بالله ورسوله فاهتم بنفسك ومن يليك من أقاربك ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ انت ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ﴾ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإن السعي في خلاصهم أهم من السعي في خلاص الغير لوجوب حق صلة الأرحام.

روي أنه لما نـزلت هـذه الآيـة صـعد الصـفا ونـاداهم فخـذاً فخـذاً حـتى اجتمعـوا إليـه، فقـال: لـو أخـبرتكم أن بسـفح هـذا الجبـل خيلا أكنتم مُصَدِّقِي؟ قالوا: نعم. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقـال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ ! فـنزلت ﴿تَبَّتْ يَـدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَـا كَسَـبَ... ﴾ أخـرج أحمـد وجماعـة عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم قريشـا وعم وخصّ. فقـال: يـا معشـر قـريش أنقـذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا. يا معشر بني قصـي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا. يا معشـر بـني كعب ابن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا. يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا. يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملـك لـك ضرا ولا نفعا. ألا إن لكم رحما وسأبلها ببلالها.

ثم ظاهر هذا الحديث الشريف وما شابهه أنه لا يملك بنفسه شيئا ينفـع اولئك الناس، أما بالنسبة الى الكفار منهم فمعلوم أن الكفـر يسـد كـل باب من أبواب الرحمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ﴾ وأمـا بالنسـبة إلى المؤمـنين فالرسـول في الحقيقـة لا يملـك شـيئا من النفـع إلا إذا أكرمه ربه وخوله الشفاعة لهم، فيشفع. فلا تنـافي هـذه الآيـة الكريمـة نفع الشفاعة التي ثبتت بأدلة جليلة واضحة.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ ولين الجـانب لهم وراعهم وساعدهم وساندهم وتعاون معهم ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ في ارتكاب المعاصي ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي أظهـر سـخطك وعـدم رضـاك بـذلك وأنكره عليهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ﴾ الغالب على كل ما أراد ﴿الرَّحِيمِ﴾ بالعباد ولا يهمنك

مـا يصـدر منهم من البغض والعنـاد ﴿الَّذِي يَـرَاكَ حِينَ تَقُـومُ﴾ أي إلى الصـلاة ﴿وَتَقَلُّبَـكَ﴾ وحركـات عضـلاتك ﴿فِي السَّـاجِدِينَ﴾ وخص وصـف الساجدين بالذكر مع أن المصلين قائمون وراكعون وساجدون لأن حـال السجود أقرب أحوال العباد إلى الله، وإنما خص وقت الصلاة بالذكر مع أن الله يراه في كل وقت لأن الصلاة معراج المؤمن، وأشرف العبادات البدنية، وعليها يدور فلك المؤمنين فـإن الاجتمـاع في المعبـد كـل يـوم خمس مـرات فيـه شـوكة للإسـلام والمسـلمين ﴿إِنَّهُ هُـوَ السَّـمِيعُ﴾ لمناجاتكم وطلب حاجاتكم و﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تستحقون من درجاتكم.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)﴾

قوله تعـالى ﴿هَـلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَـزَّلُ الشَّـيَاطِينُ﴾ نـزلت للـرد على الكافرين الذين ادعوا أن القرآن ليس كلام الله تعالى، وإنما كلام تـنـزل به الشياطين عليه صلى الله عليه وسلم فيرد الباري تعـالى عليهم هـل أنبئكم وأخبركم، ولا ينبئكم مثل خبير، على من تنزل الشياطين؟ ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ مبالغ في اقتراف الآثام والجرائم كالكهنة والفساق من الناس ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ للشياطين، ويتلقون الأوهام منهم ويتلقون منهم أمورا مظنونة لا تمتّ إلى الواقع أبدا ويضيفون إلى تلك

الظنون الكاذبة أكـاذيب أخـرى كثـيرة لم يتلقوهـا من تلـك الشـياطين، ولذلك قال تعالى وأكثرهم كاذبون، أي وأكثرهم كاذبون في نسـبة تلـك الظنـون والأباطيـل المضـافة من عنـدهم الى مـا يتلقونـه، لأنهـا من مفتعلاتهم. والحاصـل أن مصـادر الأفـاكين هي الشـياطين الـتي تلقي إليهم الأوهام والأباطيل ومع ذلك فهم يضيفون إليها اكـاذيب أخـرى من تلقاء أنفسهم ويدعون أنها من مسموعاتهم فالأصل فاسـد لأنـه مـأخوذ من الشـياطين المتمـردين، والفـرع أفسـد لأنهـا مفتعلات اخترعوهـا ونسـبوها إليهم. ولتنـوير أذهـانكم قـد وجـدنا بعض النـاس المرتزقـة يأخذون من رؤسائهم أوامر باطلة مخالفة للحق لتنفيذها وتطبيقهـا بين الناس، ولا يكتفون بذلك، بل يضيفون إليها أمـورا فاسـدة أخـرى لا علم لرؤسائهم بها فينشرونها باسم الرؤساء. وهذه كما يقال ظلمات بعضـها فوق بعض.

وأما حبيب الله محمـد خـاتم الأنبيـاء والمرسـلين فقلبـه الشـريف كـرة نورانيـة أقـوى من الكـرة الناريـة لا يمكن للشـياطين أن تحـوم حولهـا وتقـرب منهـا وتلقي إلى قلبـه مـا يريـدون وإنمـا يصـل الـروح الأمين المناسب للنور بل هو النـور فيلقي إليـه كلام ربـه كأصـل للسـعادة في العـالم ونظـام ودسـتور يحتـوي على الإلهيـات والشـرائع والأحكـام من الأخلاق والإجتماعيات والعبادات والعـادات وسـائر مـا يلـزم للبشـر في حياته السعيدة بدون أن يشوبها شيء من الشين، ولمـا تلقـاه الرسـول منه قرأه على عرفاء أمته فكتبوه وحفظوه ونشـروه بين الأمـة وتـربت شجرة سعادتها بنماء ماء هذا الكلام المبارك الـذي لا يأتيـه الباطـل من بين يديـه ولا من خلفـه تنزيـل من حكيم حميـد وإن كنتم في ريب من ذلـك فتعـالوا إلى آيـات القـرآن الكـريم وقـارنوا بينهـا وبين الدسـاتير الموضوعة حتى يظهر لكم الفرق بينه وبينها بما بين الثرى والثريـا، بـل بما لا حد له ولا مُنتهى.

واما اتهامه بأنه شاعر وكلامه شعر فهو أكذب من الاتهام السابق. فرده الباري تعالى بقوله العزيز الكريم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أي أصحاب الغي والضلال، ومحمد صلى الله عليه وسلم يتبعه الهادون أي الذين اهتدوا بنور الحق، ويهدون الناس إلى الحق والرشاد، وليسوا من الغاوين، ينتج من الشكل الثاني أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس من الشعراء. وتأليفه بالوجه المعروف أن يقال: كل شاعر يتبعه الغاوي، ولا شيء من الرسل، ومنهم خاتمهم محمد عليه السلام، بمن يتبعه الغاوي، ينتج أن لا شيء من الشعراء برسول، وتنعكس النتيجة السالبة الكلية إلى نفسها، فتحصل أن لا شيء من الرسل ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم بشاعر. أما الصغرى فلأن الشعراء يبنون نظام نظومهم على المبالغات والإفراط والتفريط في الهجاء والمدح وبيان المشتهيات النفسية، ولا يروق لهم الكلام إلا بذلك. وأما الكبرى فلان الكلام المنزل على الرسول دستور سماوي عدل يدعو إلى الحق ويأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ويدعو الى إيتاء كل ذي حق حقه، ويوصي بتوسيد الأمور الى أهلها، ورد الأمانات إلى أصحابها والمشاورة في المهمات، والاستقامة على الحق والقول به وتطبيقه ولو كان فيه ضرر صاحبه، وهذا الأمر لا يتبعه إلا أصحاب الهدى والرشاد. وأثبت الله تعالى ذلك بقوله الحكيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي أن الشعراء يهيمون في كل واد من أودية القيل والقال، وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال، وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال. وقد يتطرقون إلى البهتان وشهادة الزور والتكلم بالقول المهجور، وأين ذلك من القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم، وينصح العالم بالوجه الأسلم؟ تعالى القرآن عن ذلك علوا كبيرا. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ غير مبالين بما يتبعه من اللوم على الأكاذيب والمفتعلات.

ولا يلزم من أن القرآن الكريم ليس بشعر وأن الرسول ليس بشاعر وجود بعض أجزاء آيات موافقة لمصرع من بعض الأبحر العروضية، كما في سورة يوسف عليه السلام ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ وكقوله ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ لأن المقصود من الشعر أن يكون هنا أبيات مرتبة على تفاعيل بحر من البحور العربية في الأدب، وإلا فما من رجل يخطب أو يتكلم إلا وأمكن جعل بعض عباراته شطرا من بيت من بحر من تلك البحور كما هو ظاهر. كما لا يلزم من عدم كونه صلى الله عليه وسلم شاعرا أن لا يكون عالما بأيام العرب وشعرائهم وأدبائهم، فإنه صلى الله عليه وسلم كان كبحر مواج في معرفة الناس وأحوالهم وأخلاقهم وأدبهم ونظمهم ونثرهم وربما مدح بعض بيت من الشعراء كما قال صلى الله عليه وسلم: «أصدق كلمة قالها الشاعرُ قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله، ويوجهون الناس إلى محاسن الأخلاق والآداب، وإلى ترك المحرمات وأداء الواجبات، وترويج الآيات البينات. والشعراء الذين يقابلون ويكافحون شعراء الكفار الهجاة للرسول صلى الله عليه وسلم ودينه وأصحابه، فانتصروا بذلك وغلبوا عليهم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد لمن ظلم الإسلام بتشويه آدابه،

والرسول بقلب صفاته وأخلاقه الحسنة العالية وأصحابه رضي الله عنهم بصفات كانوا مبتعدين عنها، ويشمل سائر الظالمين المتعدين على حقوق الناس وأرواحهم وأموالهم وأعراضهم إلى غير ذلك أعاذنا الله تعالى منها بمنّه وفضله وكرمه إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة النمل، مكية، وآياتها ثلاث وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طس تِلْكَ آَيَاتُ الْقُرْآَنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى
الْقُرْآَنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)﴾

قوله تعالى ﴿طس﴾ الكلام فيه كالكلام في أمثاله ﴿تِلْكَ آَيَاتُ الْقُرْآَنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي هذه السورة المنزلة المعروفة بسورة النمل آيات القرآن المعروف في السماوات والأرض، وآيات كتاب مبين هو القرآن. فهذه الآيات موصوفة بأنها آيات القرآن المتلو المتعبد بتلاوته، وآيات الكتاب الواضح بالذات الموضح للأحكام على المكلفين. وذلك الكتاب هو اللوح المحفوظ حالكون القرآن أو الكتاب ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يهديهم إلى الإعتقاد والأعمال ويبشرهم برحمة من الله ورضوان. ثم نعت المؤمنين بقوله ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يؤدون الصلاة في أوقاتها مع

رعاية شروطها وأركانها، أو يروّجونها ويهتمون بها من حيث الوفاء بكل ما يقصد بالصلاة من المناجاة مع الله تعالى، وحضور القلب معه، والخشوع والتواضع لجلاله وهيبته. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي ومع إقامة الصلاة يؤتون زكاة أموالهم المفروضة عليهم للمستحقين بدون تعلل وتأخير ﴿وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي وهم مع أداء ما وجب عليهم من الصلاة وإعطاء الزكاة يؤمنون بمجيء يوم الآخرة وهو يوم القيامة ويوم البعث والنشور ويوم حساب الأعمال ووزنها وخلود الكافرين في النار والمؤمنين في الجنة. وإلا فأداء الصلاة وإيتاء الزكاة بدون الإيمان بالآخرة لا اعتبار به قطعا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ﴾ ويحسبون أنهم حدثوا في العالم بدون صانع خالق محدث، وهم الذين يعدون أنفسهم كالنباتات والحيوانات البهم التي لا يُكَلفْنَ، أو يؤمنون بوجود الصانع، ولكن لا يؤمنون بمجيء يوم القيامة كما مرّ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ اللاغية التي يمشون عليها من التنعم بأنواع المأكولات والمشروبات والتلذذ بأنواع الملذات بسبب سوء الفكر، وقلة النظر، وعدم الملاحظة للأدلة الواضحة الدالة على وجود الخالق الحكيم للعالم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ ويتحيرون ويَتَرَدَّونَ في هاوية الافكار الباطلة والأعمال العاطلة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ في عالم الدنيا لأنه كما قد قضت النواميس بأن يتمتع الأقوياء برهة من الزمان بمتاع الحياة كذلك قد قضت بأن الدنيا محكمة عدل لابد أن يؤدوا بعض الحقوق وجزاء بعض الأعمال التي جرت ظلما وتعديا على نفوس الناس وحقوقهم ﴿وَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ أي أخسر في الآخرة منهم في الدنيا فالحنظل أمر عند النضوج منه عند الخروج ﴿وَإِنَّكَ﴾ أيها الرسول البشير النذير الأمين ﴿لَتُلَقَّى الْقُرْآَنَ﴾ أي لتعطي القرآن ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ في الأفعال

﴿عَلِيمٍ﴾ بها وبالأقوال بـل وبكـل سِـرّ لـه تجـوال، فلا يغـرب عن علمـه شيء من الأشياء.

﴿إِذْ قَـالَ مُوسَـى لِأَهْلِـهِ إِنِّي آَنَسْـتُ نَـارًا سَـآَتِيكُمْ مِنْهَـا بِخَبَـرٍ أَوْ آَتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَـا نُـودِيَ أَنْ بُـورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (8) يَـا مُوسَـى إِنَّهُ أَنَـا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآَهَـا تَهْتَـزُّ كَأَنَّهَـا جَـانٌّ وَلَّى مُـدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَـلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُـوءٍ فَـإِنِّي غَفُـورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِـلْ يَـدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آَيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِـهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَـاءَتْهُمْ آَيَاتُنَـا مُبْصِـرَةً قَـالُوا هَـذَا سِـحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)﴾

قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ منصـوب بفعـل مضـمر مفهـوم من السياق أي اذكر مما تلقيته من القرآن أحوال موسى إذ قـال لأهلـه أي زوجته ﴿إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا سَآَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي خبرٍ من صـادق يرشـدنا إلى طريق العابرين على الطريق المسـتقيم ﴿أَوْ آَتِيكُمْ بِشِـهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي بشعلة نار مقبوسة ومأخوذة من أصلها فأوقـد لكم بهـا نـاراً ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي رجاء أن تستدفؤا وتستريحوا من ألم البرد.

وقد روي أنه عليه السلام لما خرج من مدين مع أهله لزيارة وطنه وذويه في مصر أجازه شعيب وجاء مع أهله متوجها إليها، وبينما هم في الطريق إذ أتى زوجته المخاض، والوقت ليل بارد، وقد انحرفوا عن الطريق العام، فأراد أن يوقد النار، فأَصْلَدَ زنده ولم تخرج منها النار. وفي نفس الوقت بدت من جانب جبل الطور نار فقال ما قال ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي جاء النار، أي المحل الذي ظهرت له فيه لم يجدها، ولكن ﴿نُودِيَ﴾ من جانب الطور ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ كلمة أن بمعنى أي لأن في النداء معنى القول والمضاف محذوف على النار، أي بورك من في محل النار والنار هي النار التي ظهرت لموسى عليه السلام، ولم تكن نارا بل كان نورا مخلوقاً من إرادة الحق سبحانه وتعالى. وذلك المحل هو المعبر عنه بالبقعة المباركة في قوله تعالى ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ الآية... وموسى عليه السلام في وقت النداء كان واقفا في محل النار، والمراد بمن حولها إما الملائكة الموجودون إذ ذاك أو أهل موسى عليه السلام، لأن أهله كانت قريبة من محلها، أو المراد كل مسلم يكون هناك ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن يكون هو النار أو النور المتجلي هناك أو مستقرا في مكان، وإنما صدرت إرادته السنية بأن يتجلى على عبد من عباده المصطفين الأخيار هناك ويرسله إلى ملك عاص جبار ليكسر شهوته وشوكته ويهدم كيانه وعظمته ويعلمه درسا من دروس الحق أنه خاب من طغى وبغى وادعى الألوهية بدون أي شيء إلا أن أمهله في برهة من الزمان، واستدرجه حتى حصل له الطغيان ففعل به ما فعل.

﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يا موسى إن الشأن والواقع أنا الله الذات الجامع للكمال المنزه عن النقص المعلم بلفظ الله، ولا يمكن لغيري أن يشاركني في الربوبية والخلق والعبادة وأنا العزيز الغالب على كل

ما أريده لا يمنعني شيء من أي شيء الحكيم في التصرفات السلبيات والإيجابيــات في الأرض والســماوات. ﴿وَأَلْــقِ عَصَــاكَ﴾ لــترى بعض العجائب من المصنوعات ﴿فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَـزُّ﴾ أي فألقاهـا فصـارت ثعبانـا وقعت في الجولان، فلما رآها تهتز بكـل سـرعة ﴿كَأَنَّهَـا جَـانٌّ﴾ أي حيـة صـغيرة الجثـة خفيفـة في التقلب والحركـة ﴿وَلَّى﴾ موسـى ﴿مُـدْبِرًا﴾ منهزما منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع على عقبه فناداه ربه وقـال ﴿يَـا مُوسَى لَا تَخَـفْ﴾ من غـيري لا من الحيـة ولا من غيرهـا ﴿إِنِّي لَا يَخَـافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي لا يناسـب المرسـلين الـذين يـنزل عليهم الـوحي، ويستأنسـون بـأنوار البـاري عنـد نـزول كلامـه عليهم أن يخـافوا من أي شـيء بـل حقهم الاسـتغراق في التنـور بـالأنوار القدسـية الـتي تضـيء القلوب وتزيل الشكوك والأوهام عنها. فالكلام منزل على وجه الإرشـاد والتنوير لا على وجه الإخبـار عن شـيء كـان أو لا يكـون، فـإن الخـوف صفة غريزية كسائر الغرائز يشترك الناس فيه سواء العـوام والخـواص الأولياء والأنبياء والمرسلون. وقد أخبر البـاري عن خـوف موسـى عليـه السلام في آيات فقال فأوجس في نفسه خيفة موسى، وقال هنا فلمــا رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب.

وأما قولـه تعـالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللَّهُ ثُمَّ اسْـتَقَامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فبيان لأحوالهم في الآخرة وكذا نظـائره. وقولـه تعـالى ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَـدَّلَ حُسْـنًا بَعْـدَ سُـوءٍ فَـإِنِّي غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ اسـتثناء منقطـع عنـد كثـير من المفسـرين. والمـراد بمن ظلم غـير الأنبيـاء والمرسـلين، أي لكن من ظلم من سائر العباد ثم تاب فإني أغفر له. ومتصل عنـد جماعـة منهم، والمـراد من صـدر منهم من الأنبيـاء مـا هـو في صـورة الظلم ثم تـاب ورجع عنه فإني أغفر له فلا ينبغي أن يخاف أيضا وهو شامل لمن فعـل منهم شيئا من ذلك قبل رسالته هذا، ومنهم من

قال يجوز أن يكون المراد أعم مما قبل الرسالة وبعدها وتعبيره عنه بالظلم بالنظر الى علو مقامهم وعزة شأنهم فإن حبة من الغفلة بالنسبة إليهم قبة.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي جيب قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح الى الصدر ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وهو احتراس عن أن يتوهم أن البياض حصل من مرض أو عرض مثلاً ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أي آية واحدة معدودة من جملة تسع آيات وهي: فلق البحر، والطوفان، والجراد والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، وهي جعل أسبابهم حجارة، والجَدَبُ في بواديهم والنقصان في مزارعهم ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ أي اذهب إلى فرعون وقومه ممن له مكانة ومقام ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي كافرين ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي لما ظهرت عندهم آياتنا التسع الصادرة على يد موسى عليه السلام واضحة، وإسناد الابصار إليها مجاز لأن المبصر لها فرعون وقومه ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي هذا الذي ظهر على يده سحر واضح لاخفاء في كونه سحرا وليست معجزة من الله لإظهار صدقه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي وكذبوا بها، والحال أنه استيقنتها أنفسهم، وعلمت أنها ليست إلا من الله تعالى ﴿ظُلْمًا﴾ على أنفسهم وقومهم وسائر من كان يستفيد منها ﴿وَعُلُوًّا﴾ على موسى وقومه ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، أو كيف كانت عاقبتهم في الدنيا؟ ذهبت عنهم الجنات والعيون والكنوز وغيرها، واعلم أن عاقبتهم في الآخرة أفظع وأشنع أبد الآبدين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَـدْ آَتَيْنَـا دَاوُودَ وَسُـلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ اسـتئناف لإلقـاء بعض علوم غيبية أخرى في الماضي إلى حبيبه محمد صلى الله عليه وسـلم، أي آتينا كـل واحـد منهمـا طائفـة من العلم لائقـة بـه من علم الشـرائع والأحكام ﴿وَقَالَا﴾ أي قال كل منهمـا شـاكرا لهـذه النعمـة: ﴿الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا من العلم ﴿عَلَى كَثِـيرٍ مِنْ عِبَـادِهِ الْمُـؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ أي ناب منابه في النبوة والملك والهيبة، وخصـه بأشياء. ﴿وَقَالَ﴾ للإفصاح عن نعم الله وإعلان رسالته وبيـان اختصاصـه ببعض المواهب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِـقَ الطَّيْـرِ﴾ المنطـق بمعـنى النطق والمراد به المنطوق به، يعني ان الله سبحانه وتعالى علمنا بمنه وإحسـانه مـدلولات مـا يَحصـل من أصـوات الطيـور، وهي مـا يفهمهـا بعضهن من بعض من المعـاني والأغـراض عنـد تصـويتهن في الأوقـات. فإن الله سبحانه وتعالى جعل الحيوانات البرية والبحريـة أممـا مختلفـة وأعطاهن قابليات لإدارة أنفسهن وأصواتا للتفاهم بينهن، وقـد لا يكـون وسيلة التفاهم الصوت بل يكون نظرا بالعين أو حركـة بالبـدن أو ببعض أجزائه، فإنا جربنا بعض الحركات الحادثة من أذناب الحيوانات تدل

على اختلاف الأنواء الجوية ونزول المطر والثلج وغير ذلك. ولله في خلقه شئون وقوله تعالى ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى الملك والسلطة والقوة التي وهبت له. والجملتان المتعاطفتان شارحتان لقوله تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي المذكور من التعلية والإيتاء ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ والإحسان الواضح إلينا من الله رب العالمين.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ والمقصود أن الله سبحانه وتعالى منّ عليه وخوّله تسخير ما يريد من الإنس والجنّ والطيور لاستخدام ما أراد فيما يريد. ولا يلزم من ذلك تسخير الكل من الكل وذلك ظاهر ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبسون، يعني أنه يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيأمرهم بما يهمه ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ أي فساروا في ركب سليمان عليه السلام حتى إذا أتوا على وادي النمل وهو وادٍ بأرض الشام كثير النمل. وقال كعب: هو وادي السدير بأرض الطائف. وقيل: واد بأقصى اليمن، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جواب إذا أي صوتت بما فهم سليمان عليه السلام منه معنى قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وليس لقول سليمان عليه السلام حصرٌ حتى يقال إنه فهم منطق الطير، وكيف يفهم منطق النمل أيضا؟ مع أنه لم يكتف بقوله علمنا منطق الطير، بل أضاف إليه قوله وأوتينا من كل شيء ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ سرورا بما ألهمت من حسن حاله وحال جنوده وأنهم لا يتعمدون إيذاء شيء ولو صدر منهم إيذاء فهو على الجهل والغفلة لا من التعمد.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ يعني رب اجعلني أَزَعُ شكر نعمتك أي أكْفِيهِ وَأرْبُطُته لا يَتَفلّت عني النعمة التي أنعمت عليّ وعلى والدي من نعم النبوة والرسالة والاحترام

والجـاه والجلالـة وخدمـة الإنسـانِ والجَهـدِ في نشـر الفضـائل وإطاعـة الباري وعبادته الخالصـة ﴿وَأَنْ أَعْمَـلَ صَـالِحًا تَرْضَـاهُ﴾ أي وأوزعـني أن أعمـــل عملا صـــالحا بحيث ترضـــاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِـــكَ فِي عِبَـــادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي اثبتني في جملتهم واجعلني من أهل جنتـك الـتي أعـدت للمتقين.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْـرَ فَقَـالَ مَـا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُـدَ أَمْ كَـانَ مِنَ الْغَـائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَـدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَـأْتِيَنِّي بِسُـلْطَانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِـهِ وَجِئْتُـكَ مِنْ سَـبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَـدْتُهَا وَقَوْمَهَـا يَسْـجُدُونَ لِلشَّـمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْـجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)﴾

قوله تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْـرَ﴾ كـان سـليمان عليـه السـلام يتفقـد جنـوده ليعلم الموجود منهم والغائب كما هو عادة الملك، فتفقد الطـير فلم يـر الهدهد، وقيل إن سليمان عليه السلام نزل بمفـازة لا مـاء فيهـا، وكـان الهدهد يرى الماء في داخل الأرض فيخـبر سـليمان بـذلك، فيـأمر الجن فيحفر الارض الى أن يصـل المـاء سـاعة، فاحتـاجوا إلى المـاء، فتفقـد لذلك الطير ولم يره ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَـائِبِينَ﴾ لما تفقده فلم

يره سأل عن سبب عدم رؤيته هل أنه حدث في عينه مـانع من رؤيتـه، ثم لما تبين له أنه لم يحدث فيـه أي مـانع من الرؤيـة أضـرَبَ عن ذلـك السؤال وقال ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أي بل كـان من الغـائبين فتوعـده وقال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل بنتـف ريشـه وإلقائـه تحت الشـمس، وقيل بإلزامـه مرافقـة طـير لا يوافقـه ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَـأْتِيَنِّي بِسُـلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجـة تـبين عـذره في غيابـه ﴿فَمَكَثَ غَيْـرَ بَعِيـدٍ﴾ أي مكث الهدهد وتوقف عن الحضـور زمانـا غـير كثـير. يـروى أنـه عليـه السـلام أرْسَلَ العُقابَ لإحضاره فطار يتفقده، فلما وَجَدَه أمـره بالحضـور أمـام سيدنا سليمان، فطار معـه ووصـلا إليـه، ولمـا سـأله عليـه السـلام عن سـبب غيابـه أجابـه ﴿فَقَـالَ أَحَطتُ بِمَـا لَمْ تُحِـطْ بِـهِ﴾ أي أحَطْتُ بعلمٍ واطلاعٍ لم تحط به أنتَ ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَـبَإٍ﴾ أي طِـرْتُ للاسـتطلاع على الدنيا حتى وصلتُ السبأَ وحصلت لي معلومات خطـيرة فأتَيتُـكَ ﴿بِنَبَـإٍ﴾ عظيم ﴿يَقِينٍ﴾ لي به علم ثابت جازم مطابق للواقع.

ثم أوضحه بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي تتصـرف فيهم بـدون اعتراض من أحد ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي تحتـاج إليهـا الملـوك ﴿وَلَهَـا عَـرْشٌ عَظِيمٌ﴾ تقعـد عليـه صـنع لـه سـريرُه من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلـؤ حَسَـن الصـنعة غـالي الثمن. هـذه من ناحيـة المـادة والأُبَّهَـة، وأمـا من حيث المعـنى فـ ﴿وَجَـدْتُهَا وَقَوْمَهَـا يَسْـجُدُونَ لِلشَّـمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعـالى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ﴾ الـتي قوامهـا عبـادة الشـمس ﴿فَصَـدَّهُمْ﴾ أي الشـيطان ﴿عَنِ السَّـبِيلِ﴾ أي سبيل الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وقوله تعـالى ﴿أَلَّا يَسْـجُدُوا لِلَّهِ﴾ قـرئ ألّا بفتح الهمـزة وتشـديد اللام، فيحتمـل أن يكـون أصـله أن لا بحـذف الخافض، يعني فصدّهم الشيطان عن السـبيل لئلا يسـجدُوا للـه ويبقـوا على عبادتهم للشمس. ويحتمل أن

يكـون ألّا للتحضـيض والكلام مسـتأنفا من الهدهـد، لأنـه ملهمٌ من ربّـه ومُسبح بِحمدِهِ، فيقول: ألا يسجدُوا لله. أو يكون كلاما مستأنفا من الله تعـالى وقـع في الـبين، أي ألا يسـجدوا للـه ﴿الَّذِي يُخْـرِجُ الْخَبْءَ﴾ أي الشيء المخفي المكنون ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يُظهِرُ كُـلَّ خفيّ دقيـق أو جلي فيهمـا لشـمول علمـه بالجزئيـات والكليـات ﴿وَيَعْلَمُ مَـا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وهو ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحـده لا شـريك لـه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿قَـالَ سَـنَنْظُرُ أَصَـدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَـاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَـابِي هَـذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَـا أَيُّهَـا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الـرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُـونِي مُسْـلِمِينَ (31) قَـالَتْ يَـا أَيُّهَـا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْـرًا حَتَّى تَشْـهَدُونِ (32) قَـالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُـو بَـأْسٍ شَـدِيدٍ وَالْأَمْـرُ إِلَيْـكِ فَـانْظُرِي مَـاذَا تَـأْمُرِينَ (33) قَـالَتْ إِنَّ الْمُلُـوكَ إِذَا دَخَلُـوا قَرْيَـةً أَفْسَـدُوهَا وَجَعَلُـوا أَعِـزَّةَ أَهْلِهَـا أَذِلَّةً وَكَــذَلِكَ يَفْعَلُــونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِــلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَــاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِــعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَـالَ أَتُمِـدُّونَنِ بِمَـالٍ فَمَـا آتَـانِيَ اللَّهُ خَيْـرٌ مِمَّا آتَـاكُمْ بَـلْ أَنْتُمْ بِهَـدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُـونَ (36) ارْجِـعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَـأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37)﴾

قوله تعـالى: ﴿قَـالَ سَـنَنْظُرُ أَصَـدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَـاذِبِينَ﴾ اسـتئناف بياني كأنه قيل: فماذا فَعَل سليمانُ عليه السلام عند قوله ذلك؟ فقيل: قال: سننظر أي فيما ذكرته لنا، أي نتفكر لِنعلمَ أصدَقتَ فيما أخبرت به أم كنت من الكاذبين؟ وقوله ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا﴾ استئناف مبيّن لكيفية النظر فيقولـه ﴿اذْهَبْ بِكِتَـابِي هَـذَا فَأَلْقِـهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَـوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي خـذ جانبا منهم ﴿فَانْظُرْ مَـاذَا يَرْجِعُـونَ﴾ أي فـانظر مـاذا يرجـع بعضـهم إلى بعض من القـول، أي مـاذا يقـول بعضـهم لبعض في موضـوع الكتـاب. فيكـون الهدهـد هنـاك مراقبـا لكلامهم ومشـاوراتهم فيمـا بينهم، ثم إذا كتبوا جـوابَ المكتـوب يفهم جـانبُ سـليمان عليـه السـلام هـل مـا في المكتوب موافق لما تكلموا به أم شيء يتسترون بـه عنـه. ولا يبعـد أن يكون الهدهد فاهما لكلامهم بقوة من الله تعـالى أي بإلهامـه لـه معـنى كلامهم أو بفهمه بالذات كلامهم.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ يعني إن سليمان عليه السـلام أمـر الكـاتب فكتب الكتــاب ثم ســلمه إلى الهُدهُــد وذهب بــه وألقــاه إليهم وتنحى عنهم حسبما كان مأمورا به فسمع من الملكة أنه قالت لملأها ﴿يَـا أَيُّهَـا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ أي مختوم ﴿إِنَّهُ مِنْ سُـلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْـمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وجملة إنه من سليمان إستئناف وجـواب لقـول الملأ: ذلك الكتاب الكريم ممن صدر؟ فقالت: إنه من سليمان. وكـذلك جملـة إنـه بسـم اللـه الـرحمن الـرحيم اسـتئناف وجـواب لقـولهم: مـاذا في الكتاب؟ فقالت انه بسم الله أي أن نص الكتاب أو ما يؤخذ منـه باللغـة العربية، والحال إنه مكتوب باللغة العبريـة بسـم اللـه الـرحمن الـرحيم ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وأن مفسرة بمعنى

أيْ ومُفَسَّرةُ الكتـاب في قولـه ألقي إلي كتـابٌ كـريم، يريـد بمضـمون كتابه لهم مقام أن يُحارِبوا سليمان عليه السلام.

ولما قرأت الملكة عليهم الكتـاب أو اطلعـوا عليـه ﴿قَـالَتْ﴾ مستشـيرة ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي أشيروا علي بما عنـدكم من الـرأي والتدبير فيما حدث لي وذكرت لكم خلاصته. وأكدتْ استشـارتها بقولهـا ﴿مَـا كُنْتُ قَاطِعَـةً أَمْـرًا حَتَّى تَشْـهَدُونِ﴾ أي مـا أقطـع أمـراً من الأمـور المربوطـة بـإدارة الحكم والملـك حـتى تشـهدوا. ﴿قَـالُوا﴾ في جوابهـا ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ﴾ أي في الأجسْام والأحشـام ﴿وَأُولُـو بَـأْسٍ شَـدِيدٍ﴾ أي في السيوف والرماح وسائر المعدات الحربية الحديدية وغيرها ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْـكِ﴾ أي والبتّ في القضـية إيجابـا أو سـلبا إليـك ﴿فَـانْظُرِي مَـاذَا تَأْمُرِينَ﴾ به من المقاتلة أو المصالحة ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب قلاعها ومواقعها الحصينة ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ لأن الأعزة هم الذين كانوا على دست الحكم قبل دخول الأعـداء، ولمـا استولى الأعداء ودخلوا بلادهم قبضوا عليهم وأبادوهم بالقتل والتشـريد والتبعيد ﴿وَكَـذَلِكَ يَفْعَلُـونَ﴾ إذا اسـتولى سـليمان علينـا ﴿وَإِنِّي مُرْسِـلَةٌ إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى سـليمان وأهلـه وقـادة جنـوده ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ تناسـبُ مستوياتهم، وأطلبُ منهم التحابب فيما بيننا حتى نعيش في ظل الأمان ولا يقتـل بعضـنا بعضـا ﴿فَنَـاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِـعُ الْمُرْسَـلُونَ﴾ أي بمـاذا من الجواب يرجع الذين أرسلوا إليهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ يعني فأرسلت الهدية اللائقة بمقام سـليمان عليـه السلام إليه، فلما جـاء المـالُ سـليمان ﴿قَـالَ أَتُمِـدُّونَنِ بِمَـالٍ﴾ أي قـال للرسـول والمرسـل تغليبـا للحاضـر على الغـائب: أتمـدّونني بمـال أي تساعدونني بمال لأكتفي به وأتْرُككم على ما أنتم عليه؟ كلّا ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ من النبوة

والملك الذي لا غاية وراءه ﴿خَيْرٌ مِمَّا آَتَاكُمْ﴾ أي من المال الــذي آتــاكم
ومن جملتــه مــا جئتُم بــه اِلي ﴿بَــلْ أَنْتُمْ بِهَــدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُــونَ﴾ بــل أنتم
تفرحون بالهدية التي تُهْدى إليكم من جانب الناس لقصــور همتكم على
الـدنيا وحبكم الزيـادة فيهـا ﴿ارْجِـعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي ارجـع أيهـا الرسـول إلى
بلقيس وملأها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ أي فوالله لنـأتينهم ﴿بِجُنُـودٍ لَا قِبَـلَ لَهُمْ بِهَا﴾
أي لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا
أَذِلَّةً﴾ أي من بلدة سبأ ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي وهم أسرى أذلاء بين أيدينا.
﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَـأْتِينِي بِعَرْشِـهَا قَبْـلَ أَنْ يَـأْتُونِي مُسْـلِمِينَ (38)
قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُـومَ مِنْ مَقَامِـكَ وَإِنِّي عَلَيْـهِ
لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَـا آَتِيـكَ بِـهِ قَبْـلَ أَنْ
يَرْتَـدَّ إِلَيْـكَ طَرْفُـكَ فَلَمَّا رَآَهُ مُسْـتَقِرًّا عِنْـدَهُ قَـالَ هَـذَا مِنْ فَضْـلِ رَبِّي
لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَـا يَشْـكُرُ لِنَفْسِـهِ وَمَنْ كَفَـرَ فَـإِنَّ
رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُـرْ أَتَهْتَـدِي أَمْ تَكُـونُ مِنَ
الَّذِينَ لَا يَهْتَـدُونَ (41) فَلَمَّا جَـاءَتْ قِيـلَ أَهَكَـذَا عَرْشُـكِ قَـالَتْ كَأَنَّهُ هُـوَ
وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْـلِمِينَ (42) وَصَـدَّهَا مَـا كَـانَتْ تَعْبُـدُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَـا ادْخُلِي الصَّـرْحَ فَلَمَّا
رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَـرْحٌ مُمَـرَّدٌ مِنْ قَـوَارِيرَ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُـلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (
44)﴾

قولـه تعـالى: ﴿قَـالَ يَـا أَيُّهَـا الْمَلَأُ﴾ في الكلام إيجـاز حـذف أي فرجـع الرسول إليها، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان، فتجهزت للمسـير إليـه إذ علمت أنـه نـبي ولا طاقـة لهـا بقتالـه، فتـوجهتْ إلى سـليمان عليـه السلام وكتبت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظرَ ما أمـرك وما تدعو إليه من دينك، فلما كانت على فرسخ من سـليمان قـال: ﴿يَـا أَيُّهَـا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَـأْتِينِي بِعَرْشِـهَا قَبْـلَ أَنْ يَـأْتُونِي﴾ أي بلقيس وقومهـا ﴿مُسْـلِمِينَ﴾ منقـادين مطيعين ومقصـوده عليـه السـلام من اسـتدعاء عرشها في سبأ لِيُرِيَها القدرة التي هي من عند الله تعالى لتـؤمن باللـه وحده ويؤمن قومها معها ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي جن خـبيث مـارد ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ أي بعرشها ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِـكَ﴾ أي من مجلسـك الذي تجلس فيه للحكومـة، وكـان عليـه السـلام يجلس من الصـبح إلى الظهر ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ و﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَـابِ أَنَـا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

كثرت أقوال المفسـرين في تعـيين ذلـك الرجـل، ومـا المـراد بعلم من الكتاب؟ فمنهم من قال: هو جبريل عليه السلام تمثل لهم هناك، وقـال ما قال. ومنهم من قال: هو سليمان نفسه عليه السلام وخطابه في أنا آتيك به مع العفريت، وكلاهما خلاف الظـاهر. أمـا جبريـل فلانـه لم يكن حاضرا في صفوف أصحاب سليمان على العادة فكيف يـدعى حضـوره اذ ذاك بلا دليل؟ وأما سليمان عليـه السـلام فلأن العـرش إنمـا أتي بـه لأجل سليمان فيبعد خطاب سليمان مـع العفـريت بقولـه أنـا آتيـك بـه. ومنهم من قال: هو وزيره وابن أخته آصف بن برخيا من بني إسـرائيل، والمراد بعلمٍ من الكتاب

الاسم الأعظم الذي تلقاه من سليمان عليه السلام، وإذا قيل: فما دام الأمر كذلك فلم لم يأت به سليمان عليه السلام وطلبه من الحاضرين بصورة العموم وقال أيكم يأتيني بعرشها؟ فالجواب أنه سأل كذلك ليتصدى كل من عنده قابلية لذلك العمل، وليظهر اختلاف درجاتهم فإن ما بين العفريت وبين آصف ما بين الثرى والثريا. وليتبين الناس أن من كان في أتباعه شخص يأتي بالخوارق فدرجة نفسه أرقى وأعلى بمراتب كثيرة، وكيف لا وقد خصه الله تعالى بما لم يتيسر لغيره؟

ويظهر من المقام أن ذلك العمل كان خاوفا معنويا وكرامة لآصف، ومعجزة لمتبوع سيدنا سليمان عليه السلام، ولم يكن أمرا مبنيا على علوم مادية وأجهزة دقيقة، فإن المادة قاصرة عن الوصول إلى مستوى المعنويات التي لا يكون بين الطلب والمطلوب بها إلا ما بين العلة والمعلول الذي بينهما تقدم وتأخر بالذات لا بالزمان. وليتبين أيضا أنه يجوز التوسل بأصحاب القوة القدسية في تحصيل المطالب الشخصية لأنها لا تخرج عن نظام الأسباب والمسببات. وقد قال تعالى وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا، وأنه يجوز هذا الطلب مع إمكان حصوله بالطلب من الله سبحانه وتعالى. والطرفُ تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شيء ثم تجوز به عن النظر، وارتدادُه انقطاعه بانضمام الأجفان. والمعنى أنا آتيك به قبل أن ينضم جفن عينك بعدَ فتحه.

﴿فَلَمَّا رَآَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ أي فلما رأى سليمان عليه السلام العرش مستقرا عنده على الحالة الطبيعية ﴿قَالَ﴾ تلقيا للنعمة بالشكر: ﴿هَـذَا﴾ الفيض ﴿مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ عليّ ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي ليعاملني معاملة المختبر ﴿أَأَشْكُرُ﴾ ربي على ذلك بأن أراني خالص كرمه سبحانه وتعالى من غير حول وقوة مني ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ ه بأن أجد لنفسي مدخلا في العين

﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي لنفعها ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ لا يهمه كفره بنعمائه. وفي عين الحال له كرم وإمهال لا يؤاخذه بالاستعجال.

فـ ﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي اجعلوه نكرة عندها أي بحيث لا تعرفه وتشتبه فيه، وذلك بقلبه وجعل أسفله أعلاه ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ الى معرفته لحذقها وقوة فكرها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ الى معرفة العرش ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ أي وصلت بلقيس إلى سليمان عليه السلام ﴿قِيلَ﴾ من جانب سليمان بالذات أو بالواسطة ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي أمِثل هذا العرش العجيب الذي تَرينه عرشُكِ الذي تركته ببلادك ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فأجابت بما يدل على كمال عقلها حيث لم تجزم بأنه هو لاحتمال أن يكون مثله، بل أتت بأداة التشبيه الدالة على غلبة ظن الإتحاد ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ إن كان من كلامها فالمعنى أنه يبدو أن هذا العرش هو عرشي، وقد أوتينا العلم من قبل هذه الحركة بأن سليمان عليه السلام رسول من الله وله معجزات، ومنها نقل عرشي إلى بلاده قبل وصولي إليها، وكنا مسلمين مؤمنين بالله وبرسالة رسوله. وإن كان من كلام سليمان عليه السلام وملأه فالمعنى أصابت بلقيس في ما قالت وهي عاقلة فاهمة وأوتينا العلم من قبل هذه السفرة بأحوالها وكنا مسلمين ومعتقدين أنها فهمت الحق وأطاعت وأسلمت لله رب العالمين.

وقوله ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ﴾ إما استئناف من جانب الباري سبحانه، أو من جانب سليمان عليه السلام. والمعنى هي فاهمة ذكية مستعدة بصفاء عقلها للإسلام والإيمان، ولكن صدّها ومنعها منه ما كانت تعبدُ من دون اللهِ ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ تعودوا الكفرَ والإشراك وعبادة الشمس، فلذلك بقيت فيهم على تلك الحالة الفاسدة

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ كأنَ مـا قيـل لهـا من الاسـتفهام عن العـرش وقع عندما دخلت في منزل الاستراحة قبل الدخول في القصـر الخـاص الملكي، فقيـل لهـا بعـد الاسـتراحة: ادخلي الصـرح أي القصـر الملكي لشرف اللقاء مع سيدنا سليمان عليه السلام.

روي أنه أمر الجن فبنوا لـه صـرحا وجعلـوا لـه صـحنا على طوابـق من قوارير كأنها الماء، وجعلوا في باطن الصحن كلّ مـا يكـون من الـدواب في البحر ثم أطبقوه، ووضـعَ سـريره في صـدره فجلس عليـه وعكفت عليه الطير والإنس والجنّ، وفعلَ ذلك امتحانـاً لهـا أيضـا على مـا قيـل. وقيل ليزيدها استعظاما لأمره وتحقيقا لثبوته وثباتنا على الدين.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي رأت صحنه بناء على أن الصّرح بمعنى القصر ﴿حَسِـبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي ظَنَّتْه ماءً كثيراً ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ لئلا تبتلّ أذيال أَلْبِستها ﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام منبهـا لهـا على الواقـع: ﴿إِنَّهُ صَـرْحٌ مُمَـرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ أي إن مـا حسـبته لجـة ومـاء كثـيراً صَـرْحٌ مُمَلّسٌ وصـحن كذلك مصنوع من الزجـاج، وهـو جمـع قـارورةٍ ﴿قَـالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي قالت لما عاينتْ هذا البناء العجيب وذلك الصحن المسـتوي من الزجاج يا رب إني ظلمت نفسي بما كنتُ عليه من عبادة الشمس، أو ظلمت نفسـي باعتقـادي أن سـليمان ليس بنـبي ﴿وَأَسْـلَمْتُ مَـعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكأنّ هـذا القـولَ تجديـدٌ لإسـلامها على أتَم وجهٍ وآكده بإعلانه بين الخـدم والحشـم وملأهـا الـذين كـانوا معهـا، وإلا فقد اعترفت بإسلام نفسها سابقا بقولهـا ﴿وَأُوتِينَـا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَـا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

واختلف في أمرها بعد الإسلام فقيل: إن سليمان عليه السـلام تزوجهـا وأحبَّها وأقرها على ملكها، وكان يزورهـا في الشـهر مـرة فيقيم عنـدها ثلاثة أيام، وولدت له، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عطف على قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ وأقسم عليه اعتناء بشأن الحكم، أي ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أن بمعنى أي للتفسير لأن في الإرسال معنى القول ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ففاجأ إرسالنا إلى ثمود تفرقهم فيما بينهم واختصامهم، ففريق آمن وفريق كفر ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ يعني نادى صالح الفريق الكافر من قومه بعبارة ترحمية وخصوصية كأنهم كل قومه و﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي لم تستعجلون بسيئة الكفر الموجب لحلول

العقوبة قبل وصولكم إلى الحسنة التي هي التوبة والإيمان الموجب لحسن المآب ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هلا تستغفرونه قبل نزول العذاب لعلكم ترحمون من الله الرءوف الرحيم فيرفع عنكم الغباوة ويدفع عنكم العذاب ﴿قَالُوا﴾ في جواب هذه النصيحة المباركة ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أي تطيرنا وتشاءمنا بك وبمن معك حيث تتابعت علينا المصائب والشدائد منذ تدعونا إلى ما تريده وأصل اطير تطير، قلبنا التاء طاء، وأدغمناها فيها، فجلبنا همزة الوصل فصار اطيرنا. ﴿قَالَ﴾ صالح عليه السلام: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي سبب شؤمكم ونزول المصائب عليكم عند الله ومن قضائه ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ﴾ أي بل الداعي الى طائركم هو انكم ﴿تُفْتَنُونَ﴾ وتختبرون من الله بتعاقب السراء والضراء. أو أن سبب طائركم أنكم قوم تفتنون وتقعون في فتنة زيغ الشيطان ويلقي إليكم الكفر وتتبعونه فيغضب الله عليكم وينزل العذاب عليكم.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة ثمود المعروفة بالحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ هو اسم جمع ويطلق على الثلاثة فصاعدا إلى العشرة ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كلها مما كانت لهم السيطرة عليها ومجال الإفساد فيها ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وليس في نياتهم الإصلاح أبدا ﴿قَالُوا﴾ أولئك الجماعة بينهم، أي قال بعضهم لبعض ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ فعل وقع مقولا للقول أو ماض بدل عن قالوا، أو حال بتقدير قد. أي قالوا وقد تقاسموا بالله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي لنباغتن صالحا وأهله ليلا ونتزاحم عليهم حتى يقتلهم بعض منا وهم المقدّمون الواصلون إليهم، ﴿ثُمَّ﴾ إذا أصبحنا وظهر أنهم قتلوا واتهمنا وليّ صالح ورهطه المؤمن به ﴿لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أي ليقول الجمع الخلفي منا الذين لم يصلوا إلى صالح وأهله ولم يباشروا قتلهم والله ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي والله ما حضرنا مهلك صالح وأهله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في حلفنا لأن الحاضرين

على قتلهم هم الجمع المقدمون المباشـرون لقتلهم لا نحن المتـأخرين خلفهم. والحاصـل إنـا نـذهب جميعـا ونقـدم بعضـا لقتلهم ونبقى نحن وراءهم وغدا نحلف كما ذكرنا، ولا تلتفتوا إلى غير هذا التفسير فإن هذا بالقبول جدير.

﴿وَمَكَـرُوا مَكْـرًا﴾ أي واحتـالوا وتـآمروا واتفقـوا على قتلـه وقتـل أهلـه ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي وفعلنا شيئا أدق وأوفق بالمقـام حيث منعنـاهم عن الوصول إليه وإلى أهله وهم لا يشعرون بمكرنـا وعملنـا. روى أنـه كـان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلي فيـه فقـالوا: زعم أنـه يفـرغ منا إلى ثلاث، فنفـرغ منـه ومن أهلـه قبـل الثلاث فـذهبوا إلى الشـعب ليقتلـوه، فانحـدرت صـخرة فطبقت عليهم فم الشـعب فهلكـوا ثمة. وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أفاده قوله تعالى ﴿فَـانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ مَكْـرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـاهُمْ وَقَـوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهلكنـاهم وقومهم بعضهم بالبقاء في الشعب حتى الموت وبعضا بالصيحة ﴿فَتِلْـكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي فتلك الـبيوت الخاويـة الخاليـة عن النـاس الساقطة على قواعدها لـو كنت تمـر عليهـا مباشـرة بعـد تـدميرها في عصـر صـالح بُيـوتهم الخاويـة. أو تلـك الـبيوت السـاقطة على الأرض بيوتهم، وتحولت إلى تلك الحالة بسبب ظلمهم على أنفسهم بالإشـراك باللـه تعـالى وعلى صـالح وأهلـه بالمعارضـة والإيـذاء وإسـاءة الأدب والمؤامرة لإبادته مع أهله. وبيـوتهم هي الـتي قـال فيهـا سـيدنا محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم لأصـحابه عـام تبـوك: ((لا تـدخلوا على هـؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين...)) الحديث ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ﴾ أي في ذلـك التدمير العجيب ﴿لَآَيَةً﴾ لعبرة عظيمة ﴿لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ﴾ شـيئا ﴿وَأَنْجَيْنَـا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾

أي صالحا ومن معه ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الكفر وسائر المعاصي إيمانا بـرب العالمين.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)﴾

قوله ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي وأرسلنا لوطا إذ قـال لقومـه، أو اذكـر حال لوط إذ قـال لقومـه مسـتنكرا ومسـتقبحا لأعمـال قومـه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي أتفعلـون الفعلـة الفاسـدة المتناهيـة في الفحش والقبح والرذالة؟ ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنفسكم عليها أو وأنتم أهـل إدراك وشـعور بدناءة العمل وقبحه ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي هل تقبلون على ضوء العقل أن تقضوا شـهواتكم في أدبـار الرجـال ولا تقضوها في فروج النسـاء اللاتي خلقن لهـا وللاسـتئناس بهن ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي بـل أنتم تفعلـون فعـل الجـاهلين بقبح القبـائح، أي توغلتم فيها وتعودتموها حتى لا تميزون بين القبيح وغيره.

الجزء العشرون

<201>

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آَلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آَللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59)﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آَلَ لُوطٍ﴾ أي من تبع دينه معه ﴿مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ التي بنيتموها وسكنتم بها ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من أعمالنا التي يعدونها أقذارا ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي بعد تدمير القوم ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي من الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي فقلبنا ديارهم عليهم وأمطرنا على مقلوبها

مطرا غير معهود من الحجارة التي كانت تتطاير من السماء بقـوة دفـع البركان لها إليها، أو أمطرنا من سماء غضبنا مطراً مخلوقا أجــزاؤه من الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ذلك المطرُ.

وبعد أن أتاك أخبار الأولين وقصص الأنبياء والمرسـلين من اللـه تعـالى وإنجاء الرسل مع أتباعهم وأن سنة الله في العالمين تبقى كذلك ﴿قُــلِ الْحَمْــدُ لِلَّهِ﴾ على تلــك النعم الجســام ﴿وَسَــلَامٌ عَلَى عِبَــادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ أشخاصهم لنيل الرسالة. وقل لمن يجـوز خطابـه ولـه عقلـه وحسابه ﴿آللَّهُ﴾ الواجب الوجود المنبع لكـل خلـق وخـير وجـود ﴿خَيْـرٌ﴾ للعبادة له ﴿أَمَّا﴾ أي ام ما ﴿يُشْرِكُونَ﴾ من الأحجار والأخشاب؟

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْـزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَنْبَتْنَا بِـهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَـلَ الْأَرْضَ قَـرَارًا وَجَعَـلَ خِلَالَهَـا أَنْهَـارًا وَجَعَـلَ لَهَـا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ وَيَكْشِـفُ السُّـوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَـاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَـرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَـالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُـلْ هَـاتُوا بُرْهَـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (64) قُـلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَــا يَشْــعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَـا بَـلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66)﴾

قوله تعالى ﴿أَمَّنْ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أم من، وأم منقطعـة، يعني بل أعرض عن المذكور سابقا واسـأل من الـذي خَلَـقَ السـماوات والأرض الـتي هي أصـول للكائنـات المحسوسـة ومنهـا تظهـر المنـافع الحيوية ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ ولا نتفاعكم بالوجه المشـروع ﴿مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي ذات بهاء ومنظر حَسَـنٍ ﴿مَـا كَـانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يعني أيقرن به غـيره ويجعـل شـريكا لـه تعالى ﴿بَلْ هُمْ قَـوْمٌ يَعْـدِلُونَ﴾ عن الحـق ويتجـاوزون عنـه ﴿أَمَّنْ جَعَـلَ الْأَرْضَ قَـرَارًا﴾ أي مَقَـرّا لبقـاء النـاس وسـكناهم ومنـامهم ومقـامهم وممشاهم في كسب سعادة المعـاش والمعـاد ﴿وَجَعَـلَ خِلَالَهَا﴾ أي في أوساطها ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية، ونافعة للمزارع والمنافع ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا عوالي ثابتـة داخلـة في أعمـاق الأرض ﴿وَجَعَـلَ بَيْنَ الْبَحْـرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا﴾ يمنعهما عن استيلاء أحدهما على الآخـر ﴿أَئِلَـهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي في هذه التصرفات ﴿بَلْ أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ﴾ الحـق حـتى يقدروا على الجواب به أو لا يعرفون الإله الحق الواجب الوجود ولــذلك يشركون به.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ وهو الذي ألجأتـه الحاجـة الشـديدة إلى اللجـوء إلى اللـه تعـالى بعـد يأسـه عن كـل واسـطة وسـبب ﴿وَيَكْشِـفُ﴾ عن المضـطر الأمـر ﴿السُّـوءَ﴾ من النـوائب المـدمرة ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَـاءَ الْأَرْضِ﴾ بأن أهلك أهلها وأسكنكم في أماكنهم وتصـرفون فيهـا تصـرف الملاك ﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ في هذا التطوير لأهل الأرض ورفع بعضهم ببعض وجعل قوم خلفاء لقوم

﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ في تيسير الأسباب من العلم والعمل والعدل والإستقامة وربط الجأش والصبر وحرمان الآخرين منها. ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالشمس والقمر والنجوم ومصابيح الأرض وعلاماتها ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾ بضم الباء وسكون الشين مخفف بشرا بضمهما جمع بشور كصبور بمعنى المبشر، فالمعنى ومن الذي يرسلُ الرياح مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي قبل نزول المطر النازل من بحر رحمته أو من ترحمه؟ ﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يقدر على شيء من ذلك فيكون شريكا له تعالى؟ حاشا وكلّا ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو عن الصنم الذي يشركونه به.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ بدون سبق مادّة وعادة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ للبعث بجمع الأجزاء من أصل عجب الذنب أو بخلق أمثالها ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بإنزال المطر والمن والسّلوى وسائر الخيرات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بما فيها من الأنهار والعيون والنبات والأشجار المثمرة والكمأة وأمثالها وبالمعادن والمنافع المخلوقة فيها الخارجة بذاتها أو المستخرجة بالعلاج ﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل شيئا كذلك فإن عاندوا وقالوا نعم ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على وجود من يفعل شيئا كذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم ذلك. وإذا لم يأتوا بالبرهان بل ولا بشبهة عليه وثبت أنه الخالق ثبت أنه المعبود الحق المبين.

وبعد أن بينت لهم أن القدرة المؤثرة من صفات الله تعالى، ومعلوم أنها تابعة للإرادة والإرادة تابعة للعلم، وعلم الخالق لابد من استيعابه للشهادة والغيب ﴿قُلْ﴾ للمشركين الجاحدين المعاندين: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولا يطلع على غيبه المضاف إلى الأسباب المادية إلا من وفقه عليها، ولا على الغيب المضاف إلى الكشف عما وراء

الطبيعة إلاّ من اختاره وخصه بنور منه يتنور له بـه الأمـور المخفيـة عن الأبصـار والبصـائر يختص برحمتـه من يشـاء، وإلا فليس من شـئون من في السـماوات والأرض بالـذات ﴿وَمَـا يَشْـعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُـونَ﴾ أي ومـا يشعرون أين يحيون ويسـتقرون ولا أين يموتـون، ولا أي زمـان يبعثـون للحشر والحساب ونيل الثواب والعقاب ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآَخِرَةِ﴾ وأصل إدارك تدارك قلبت التاء الزائدة دالا، وأدغمت الـدال في الـدال، وجلبت همزة الوصل لدفع الابتداء بالساكن. ومعنى تدارك تتـابع تقـول: تدارك بنو فلان إذا تناهوا في الهلاك. والمعنى تتـابع علمهم في الآخـرة وأحوالهـا حـتى لم يبـق لهم علم بهـا، وفـني علمهم بـذلك الموضـوع. والمقصود أنهم لم يقتدوا بالمخبر الصادق ولم يتبعوه فيما بينه لهم من أحوالها وتفكروا حسب أهوائهم وملاحظاتهم لها فحصل من ذلـك أن لم يحصلوا على شيء. بل لا مجال بالنسبة إليهم إلى حصـول العلم وغايـة ما حصل لهم ظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا ﴿بَـلْ هُمْ فِي شَـكٍّ مِنْهَا﴾ أي بـل ذلـك الظن والإدراك الـراجح انفلت عنهم لغلبـة الإنكـار والجحــود عليهم فهم في شــك وتصــوّر ســاذج لا رجحــان فيــه لأحــد الطرفين من النسب على الآخر ﴿بَـلْ﴾ اضـرب عن وجـود هـذا التصـور السـاذج لأنهم تعمقـوا في المـواد الملموسـة ولا يصـل إدراكهم إلى أيّ أمر مغيب غير مربوط بالمشاعر والحواس فـ ﴿هُمْ مِنْهَا﴾ ومن أحوالهـا ﴿عَمُونَ﴾ لا يبصرون شيئا.

وعمون جمع عم بإعلال قاض وأصله عميٌ بالياء كحذر بمعــنى الأعمى. ففي الآيـة الكريمـة تـرق بالنسـبة إليهم من السـيء إلى الأسـوء ففي الأول قال بل ادّارك علمهم في الآخرة أي لم يبـق علم يقين بهـا. وهنـا كان مجال لوجود إدراك راجح لهم وهو الظن فترقى إلى أنهم في شك أي تصور بلا حكم، ثم تـرقى إلى نفي الإدراك عنهم مطلقـا. فقـال بـل منهم عمون أي قلوبهم

عامية لا تبصر شيئا. إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلـوب الـتي في الصدور. أعاذنا الله من كل جهالة وضلالة وأوصلنا إلى الإيمان بما جاءنا من الرسالة بفضله وكرمه آمين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآَبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَـدْ وُعِـدْنَا
هَذَا نَحْنُ وَآَبَاؤُنَا مِنْ قَبْـلُ إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68) قُـلْ سِـيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُجْـرِمِينَ (69) وَلَا تَحْـزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَـى أَنْ يَكُـونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْـتَعْجِلُونَ (
72) وَإِنَّ رَبَّكَ لَـذُو فَضْـلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لَا يَشْـكُرُونَ (73)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُـدُورُهُمْ وَمَـا يُعْلِنُـونَ (74) وَمَـا مِنْ غَائِبَـةٍ فِي
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75) إِنَّ هَذَا الْقُـرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ
(77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيـزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْـمِعُ الصُّـمَّ
الـدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُـدْبِرِينَ (80) وَمَـا أَنْتَ بِهَـادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَـلَالَتِهِمْ إِنْ
تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآَبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، وإذا ظرف زمان، والعامل فيه لمخرجون. وهذه الآية الكريمة بيان لعمى قلوبهم وحيرتهم في أمور الآخرة، فإن الإنسان الذي له بصيرة في الأمر يؤمن بأن الذي خلق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى. وقوله ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل بعث محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا الكلام الدال على البعث والحساب ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وكلماتهم الدائرة بينهم جيلاً بعد جيل ويقوم بها الذّين يَدَّعُونَ الرسالة ولا يتفكرون في أنّ وجود الكائنات دليلٌ على وجود خالق موصوف بالكمال ووجوده بتلك الصفة يدل على أنه ما خَلق الإنسانَ عبثا، وأنّ هناك دستوراً للطاعة والمعاملة في الدنيا، وأنّ عليها مسئولياتٍ، ولابد من وجود يوم تتحقق فيه المسئوليات وما يترتب عليها من الثواب والعقاب. فإذا قام إنسان مختار من بني آدم فهل يجوز أن يقال إنه صاحب الأساطير؟ كلّا فإنهم في بحر الأهواء يسبحون ويمرحون، ويعارضون كل رسول ناصح أمين بأمثال تلك العبارات الفارغة. ﴿قُلْ﴾ في معارضتهم ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وكيف أهلكناهم ودمرنا بلادهم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على تكذيبهم لك ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ أي حرج صدر ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي مما يأتون به في إزعاج المؤمنين وإزعاجك نتيجة لمكرهم ومُؤامراتهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي العذاب الموعود ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الأخبار والإنذار بها ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي ردفكم ولحقكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي بعض من العذاب الذي تستعجلون حلوله ونزوله وهو عذابهم يوم بدر بالقتل والأسر والإخزاء ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بتأخير عذابهم

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الـرب على ذلـك ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَـا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تكنّه وتخفيـه صـدورهم من العنـاد والعـداء لـك ولمن يتبعـك ﴿وَمَـا يُعْلِنُـونَ﴾ من الاسـتهزاء والاسـتهتار ﴿وَمَـا مِنْ غَائِبَـةٍ﴾ أي خافية ﴿فِي السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ﴾ والمـراد بـه اللـوح أو علمـه الأزلي ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُـرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَكْثَـرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من مبـاحث الجنـة والنـار وعزيـر والمسـيح ﴿وَإِنَّهُ لَهُـدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنّ المعتقد هو المنتفـع ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِـي بَيْنَهُمْ﴾ أي بين بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أي بدستور حكمه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تهتم بأحوالهم ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ومن كان على الحـق المـبين فحقـه التوكـل على رب العـالمين ﴿إِنَّكَ لَا تُسْـمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الـدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُـدْبِرِينَ﴾ أي إن أولئـك الكفـار قلوبهم ميتة لا تدرك الحقائق وآذانهم صمّ لا تسمع المواعـظ، ولاسـيما عندما يولون عن الناصح الأمين مدبرين فإنك لا تسمع أولئك الموتى ولا تُسمِعُ أولئك الصم لاسيما إذا ولوا مدبرين. ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَـلَالَتِهِمْ﴾ أي بمخـرجهم عن العمى ومرشـدهم إلى الصّـراط إلا إذا أطاعوا أمرك وانقادوا لحكمك ﴿إِنْ تُسْـمِعُ إِلَّا مَنْ يُـؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا﴾ حسـب علم الله تعالى بتصرفاتهم الحسنة ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ منتفعون بإرشادك وما على الرسول إلّا البلاغ المبين.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَـوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَـا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآَيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ فَوْجًـا مِمَّنْ يُكَـذِّبُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآَيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُـوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَـا ظَلَمُـوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِـرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)﴾

قولـه تعـالى ﴿وَإِذَا وَقَـعَ الْقَـوْلُ عَلَيْهِمْ﴾... الآيـة هـذه الآيـة من الآيـات الخفيـة شـرحا وبيانـا، وهي من علامـات السـاعة وقـرب حلولهـا جـدا. فيقـول البـاري سـبحانه وتعـالى: ﴿وَإِذَا وَقَـعَ الْقَـوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي إذا دنـا وقرب وقوع مدلول القول المذكور، أي آن قيامِ الساعة وبعث الأموات ﴿أَخْرَجْنَـــا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي تكلمَ النـــاس ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ الكافرين ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ولا يؤمنون بها.

وتكلم المفسرون عن حقيقـة هـذه الدابـة، وتعـيين الأرض الـتي تخـرج منها، وعن معنى قوله ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ﴾ الآية... أما أصل الدابة فقـد وَرَد في صـحيح مسـلم أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال: ((بـادروا بالأعمـال قبـل سـتٍ: طلـوع الشـمسِ من مغربهـا، والـدخان والدّجال، والدابة، وخُويصة أحـدكم، وأمـر العامـة)) وورد فيـه أيضـا أن أول الآيـات خروجـا طلـوع الشـمس من مغربهـا. وخـروج الدابـة على الناس ضُحىً، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا. ولم يرد في الصحيح على مـا أعلم مـا ذكـر من صـفاتها. وأمـا الأرض الـتي تخرج الدابة منها فقال بعض: المسجد الحرام، وقال بعض: هي الصـفا. وقيل: تخرج بـاليمن، ثم تخـرج من بين الـركن والمقـام حـذاء دار بـني مخـزوم. وأمـا معـنى تكلم بصـيغة مضـارع بـاب التفعيـل فهـو التكلم والنطق المعتاد على ما هو الظاهر. وقيل: هو من الكلم بمعنى الجـرح، والتفعيل للتكثـير، ويؤيـده قـراءة ابن عبـاس ومجاهـد وابن جبـير وأبي زرعة والحجدري وأبي حيوة

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام وتخفيفها. وكأنـه أريـد بالجرح النطق بالتوبيخ واللّوم والعتاب. يعـني تلـوم النـاس على مـا هم عليـه من سـوء الاعتقـاد وفسـاد الأعمـال، والغفلـة عن البعث وحلـول الساعة ودخول يوم القيامة.

فيكون معنى الآية الكريمة: إذا قرب قيـام السـاعة ووقـع وثبت القـول في تعذيب الكفار، وحقت كلمة العذاب على الإنسان فجهلوا المعنويات وعكفوا على الماديات وتمرنوا على الكذب والنفاق.. أخرجنـا لهم دابـةً من الأرض تكلمهم نطقـا وتجـرحهم بـاللّوم والتـوبيخ بـأنّ النـاس كـانوا بآياتنا لا يوقنون. ولقد جاء وقت المعاينة والمشاهدة لما لم يؤمنوا به.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُـرُ﴾ أي واذكـر يـوم نحشـر ﴿مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ﴾ من أمم الأنبيـاء ﴿فَوْجًا﴾ أي جمعـا ﴿مِمَّنْ يُكَـذِّبُ بِآَيَاتِنَا﴾ فـإن في كـل أمـة بعث إليهـا الرســول مصــدقين ومكــذبين ﴿فَهُمْ يُوزَعُــونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا﴾ إلى موقف السؤال والجواب ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى: ﴿أَكَـذَّبْتُمْ بِآَيَـاتِي﴾ الدالة على مجيء هذا اليوم ﴿وَلَمْ تُحِيطُـوا بِهَـا عِلْمًا﴾ أي والحـال أنكم لم تكونوا عالمين بحقيقة الأمر وأن الله قادر على أن يـأتي بهـذا اليـوم ﴿أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذه الفقـرة لمزيـد التـوبيخ لأنهم لم يكن لهم حال إلا التكذيب. وأماذا أصلها أم مـاذا. ﴿وَوَقَـعَ الْقَـوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي حـل بهم العذاب ﴿بِمَـا ظَلَمُـوا﴾ أي بسـبب ظلمهم على أنفسـهم وتكـذيبهم بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ بشيء لأنهم لا حجة لهم حتى يحتجـوا بهـا ولا فائدة في الكلام اللاغي فيسكتون.

ثم رجع الباري سبحانه إلى توبيخ المشـركين بعـد بيـان أهـوال الأفـواج المحشـورة يـوم القيامـة فقـال: ﴿أَلَمْ يَـرَوْا﴾ بـالقلب ﴿أَنَّا جَعَلْنَـا اللَّيْـلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي وجعلنا النهار مبصرا بالإسناد المجـازي، أي

ليبصروا بما فيه من الإضاءة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التصرف والجعـل ﴿لَآَيَـاتٍ﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بوجوده تعالى وعلمه وقدرته.

﴿وَيَـوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّـورِ فَفَـزِعَ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِـدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِـيرٌ بِمَـا تَفْعَلُـونَ (88) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْـرٌ مِنْهَـا وَهُمْ مِنْ فَـزَعٍ يَوْمَئِذٍ آَمِنُـونَ (89) وَمَنْ جَـاءَ بِالسَّـيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُـوهُهُمْ فِي النَّارِ هَـلْ تُجْـزَوْنَ إِلَّا مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَـا وَلَـهُ كُـلُّ شَـيْءٍ وَأُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُـوَ الْقُـرْآَنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُـلْ إِنَّمَـا أَنَـا مِنَ الْمُنْـذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَـا رَبُّكَ بِغَافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُـونَ (93)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ معطوف على قوله تعالى ﴿وَيَـوْمَ نَحْشُـرُ مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾... الآيـة أي واذكـر يـوم ينفخ في الصـور. والمشهور في الدين أن صاحب الصور النافخ فيه هـو الملـك المسـمى باسرافيل إحدى الملائكة الأربع المقـربين. والمشـهور أن الصـور مـادة تشبه القرن أو البوق العسكري، وفيها منافذ بعدد أرواح الأحياء. والنفخ فيه مرتان: مرة لتخريب الجبال والوهدان وجعل الأرض صـافية وإماتـة الأحياء إلا من

شاء الله. ومرة لإعادة الأرواح وبعث الأمـوات وسـوقهم إلى الحسـاب. وروي أن ما بين النفختين مدة أربعين سنة. ونص الكتـاب الكـريم على النفختين في قوله تعـالى في سـورة الزمـر ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيـهِ أُخْـرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ وكيفية ذلك الصور، ومقداره، ووضـع النفخ فيـه موكول إلى علام الغُيـوب. ومـا ثبت في بعض الأحـاديث الشـريفة وارد لتفهيم الأمة الموضوع بحسب مستوى قابلياتها والمراد بالنفخ في هـذه الآية الكريمة النفخة الثانية. وإليه ذهب كثير من المفسرين.

وقوله تعالى ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي من شــدة الخوف والهيبة الجبليين العارضين عند مشاهدة الأمـور الهائلـة. وقولـه تعالى ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء متصل كما هو الظاهر، والمستثنى هو أصحاب الحسـنات لقولـه تعـالى ﴿وَهُمْ مِنْ فَـزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُـونَ﴾ وقولـه تعالى ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أي وكل واحد من الفازعين حضروا الموقف بين يدي رب العالمين أذلاء مطيعين منقادين. وقيل: إن المراد بالنفخـة هنا النفخة الأولى لمناسبة قوله ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي وتـرى بـالعين المجـردة الجبـال الراسـية على الأرض تحسبها جامدة أي ثابتة غير متحركة وهي متحركـة وتمـرّ في الجـو مـرّ السحاب أي تتحول إلى الهباء وتنتشر في الفضـاء. فـإن هـذه الأوضـاع الواردة على الجبال إنما هي عند النفخة الأولى كما في سورة القارعـة ﴿يَـوْمَ يَكُـونُ النَّاسُ كَـالْفَرَاشِ الْمَبْثُـوثِ (4)ـ وَتَكُـونُ الْجِبَـالُ كَـالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾. ومنهم من قال: إن إحالة الجبال إلى تلـك الحالـة إنمـا هي عند النفخة الثانية كالفزع المـذكور عنـد سـوق الخلائـق للحشـر فيبـدل الله تعالى الأرض والجبال كما في قوله تعالى ﴿وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَـالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَـا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108)﴾

﴿صُـنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُـلَّ شَـيْءٍ﴾ مصـدر مؤكـد لمضـمون الجملـة السابقة الحالية يعني صَـنَعَهُ صـنْعَ اللـهِ الـذي أتقن كـل شـيء أي أتقن خلقه وسواه على ما تقتضيه الحكمـة الإلهيـة ﴿إِنَّهُ خَبِـيرٌ بِمَـا تَفْعَلُـونَ (88)ـ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَـنَةِ﴾ من الإيمـان ومـا يتبعـه من الأعمـال الصـالحة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ إذ الحسنة بعشـر أمثالهـا إلى مـا شـاء اللـه ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آَمِنُونَ﴾ أي وهم آمنون من فزع البعث وما بعده ﴿وَمَنْ جَـاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهي الكفر وما يتبعه ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي كبوا فيها على وجـوههم منكوسـين، فالإسـناد مجـازي ﴿هَـلْ تُجْـزَوْنَ إِلَّا مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وارد على أسلوب الإلتفـات لأخـذ العـبرة بهـذه الآيـات وقولـه تعالى ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ استئناف بتقدير قل أي قل يا حبيـبي ﴿إِنَّمَـا أُمِـرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْـدَةِ﴾ أي مكـة المعظمـة الـرب ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي جعلها حرما آمنا ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقا وملكا وتصرفا من غير مشـاركة أحَـدٍ سـواه ﴿وَأُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ﴾ أي اسـتقيم على مـا هداني إليه من الإيمان والإسلام ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآَنَ﴾ أي وأمرت أن أتلــو القرآن ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بهدي الحق ومنار الإسلام والتزام الأحكام واتبـاع الأنام ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ومنافع هداه ترجـع إليـه في أولاه وأخـراه. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن الهدى فكفر وانحرف ﴿فَقُـلْ إِنَّمَـا أَنَـا مِنَ الْمُنْـذِرِينَ﴾. وقد خرجت عن عهدة الإنذار إذ أنذرت وبلغت. ﴿وَقُلِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ﴾ على مـا هـداني إليـه ووفقـني عليـه ﴿سَـيُرِيكُمْ آَيَاتِـهِ﴾ إن عـاجلا أو آجلا ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ والمراد بها ماحـلّ بهم من النقمـات أو سـيحل ﴿وَمَـا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فتأخذون الجزاء كما تستحقون.

سورة القصص، مكية، وهي ثمان وثمانون آية نزلت بعد النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)﴾

قوله تعالى ﴿طسم﴾ الكلام فيه مثل ما في أشباهه ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إشارة إلى السورة وآياتها، أي إن هذه السورة وآياتها آيات الكتاب المبين والقرآن الواضح الموضح للأحكام ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي نتلو ونقرأ ونوضح عليك يا حبيبي ﴿مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ ﴿بِـ﴾ الوجه ﴿الْحَقِّ﴾ الموافق له الواقع ﴿لِـ﴾ إفهام ﴿قَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال الجلال السيوطي: لما حكى الباري في الشعراء قول فرعون لموسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ ثم حكى سبحانه قول موسى لأهله ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ وكانا على وجه الإجمال بَيَّنَهُما في سورة القصص

تفصيلاً للمؤمنين. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي تجبر وطغى في أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي فرقا وطوائف يشيعونه ويتبعونه في كل ما يريد. وذلك لأن الأمة إذا تفرقت إلى طوائف وجماعات تقع بينهم بطبيعة الحال حزازات من اختلاف مصالحهم، فيحصل بينهم العداء والبغضاء، فإذا أراد الملك تسخير أيّ طائفة منهم لأغراضه أطاعه بكمال الإطاعة ولا يخالفه خوفا من الطائفة المعادية له، أو حتى لا تبادر هي للإطاعة وتسبقها ولضعفها في ذاتها، لأنها ليست إلا حَفْنَةً من مجموعة مرفوعة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ وهي طائفة بني إسرائيل لعداء سابق ثابت بينه وبينهم دينا وسياسة، وللحذر من صعودهم واستيلائهم على ملك مصر كما علم ذلك من بعض الكهنة والنجومين. وبيان الاستضعاف أنه ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ كلما ولد منهم واحد خوفا من نمائه وبقائه واستيلائه ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ إذ لا منعة فيهن فيبقيهن للاستخدام والاستمتاع ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الثابتين في الإفساد ولذلك تجاسر على ذبح المعصومين الأبرياء.

روي أنه رأى بالمنام أن نارا أقبلت من بيت المقدس إلى مصر حتى وصلت واحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل الموجودين فيها، فسأل العلماء تعبير المنام، وقالوا له: إنه يخرج من بني إسرائيل ولد يكون هلاك اهل مصر على يده. فقرر مراقبة الحوامل وقتل الذكور من المواليد وإبقاء الإناث. وهذا دليل على أن قتل الأولاد لحفظ الملك كان شريعة فرعونية. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ وقدوة في الدين والدنيا ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لجميع ما كان في ملك فرعون مما يناسبهم ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ﴾ أي من جانب أولئك المستضعفين ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ويتوقون منه من فناء ملكهم وسلطنتهم في

الديار المصرية، ولما كان هامان هو رئيس ملأ فرعون والنائب عنـه في ما يأمر به وينهى عنه ربطه بفرعون في إضافة الجنود إليهما.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيـهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَـاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَـلِينَ (7) فَالْتَقَطَـهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَـانَ وَجُنُودَهُمَـا كَـانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَـى فَارِغًـا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُـونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَـا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَـالَتْ هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْـلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَـهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْـزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13)﴾

قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَـا إِلَى أُمِّ مُوسَـى أَنْ أَرْضِـعِيهِ﴾ المـراد بالإيحـاء هنـا الإلهام والإيقاع في القلب بصورة يطمئن لهـا. وقـال بعض المفسـرين: إنّ الايحاء كان بإرسال مَلَكٍ فأخبرها بما أمر بـه ربهـا سـبحانه وتعـالى. ولا يلزم من إرسال الملك وتكلمه معها النبـوة والرسـالة، لأن الملائكـة قد

ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم. وعلى كلٍّ ألهمها الباري سبحانه بما في الآية الكريمة.

وأنْ تفسيرية لأن الإيحاء فيه معنى القول ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأبناء ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي في البحر والمراد به نهر النيل ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ مِنَ المَضار الواردة ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ عليه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ قريباً بحيث تأمنين عليه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ الفاء فصيحة، والتقدير ففعلت ما ألهم إليها من إرضاعه وإلقائه في اليم عندما خافت عليه.

روى أنها لما ضَرَبَها الطّلقُ دَعَتْ قابلةً من الموكلات بحُبالى بَني إسرائيلَ فعالجتها، فلمّا وقع موسى على الأرض هالَها نورٌ بين عينيه وارتعشت مفاصلُها ودخل حُبُّه في قلبها بحيث مَنَعَها من السّعاية فَأرضعته ثلاثة أشهر ثم ألحّ فرعون في طلب المواليد واجتهد العيون في تفحصها فأخذت له تابوتا فقذفته في النيل ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ اللام للتعليل استعيرت للفاء تشبها لمطلق الغاية بمطلق العلة، ثم استعملت اللام الموضوعة للتعليل الجزئي في الفاء المستعملة في الغاية الجزئية، فإنهم لم يلتقطوه إلا لأن يكون أحد الجنود المخلصين لدولة فرعون، ولكن الله تعالى جَعَلَهُ داءً مهلكا لملّة فرعون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ في الأصول والفروع والعقائد والأعمال وفي تقرير دستور الاستيلاء على بني إسرائيل وتسخيرهم لخدمة الأقباط، وإذا كانوا كذلك فلا بدع في قتل الأبرياء المستضعفة لبقاء الكبرياء المزخرفة. ولما أخذ آلُ فرعونَ التابوتَ وفتحوها وأخرجوا موسى منها وأرادوا قتله على دستورهم المقرر ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ له: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ نستأنس

بـه و﴿لَا تَقْتُلُـوهُ عَسَـى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ بعـد الكـبر بخدمـة قصـر الملـك ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وتنبناه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعواقب الأمور.

﴿وَ﴾ لما سمعت أم موسى بوقوع التابوت في أيـدي آل فرعـون وتَبنيـه لـه ﴿أَصْـبَحَ فُـؤَادُ أُمِّ مُوسَـى فَارِغًا﴾ خاليـا عن القلـق من ابتلاع حـوت للتابوت أو وقوعه في مهلك، أو اطلاع فرعون عليـه وقتلـه ﴿إِنْ كَـادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي إنه كادت أن تصرح بأن الصـبي الـذي جعـل في التـابوت ابنها ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ بـإنزال السـكينة والوقـار عليـه. وإنمـا ربطنـا عليـه ﴿لِتَكُـونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ أي لتطلـع على مـا يجـري على موسى في المستقبل وتؤمن بـأن اللـه الـذي قـال لهـا إنـا رادوه إليـك يحقق ما ألقاه وألهمه إليها كاملا.

﴿وَقَـالَتْ﴾ أم موسـى ﴿لِأُخْتِـهِ قُصِّـيهِ﴾ أي تتبعي أثـره وتتبعي خـبره ﴿فَبَصُرَتْ بِـهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ أي فـذهبت على امرأتهـا وتتبعت فبصـرت بـه موسى عن جنب أي عن بُعدٍ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنها أخته وتقص أثره.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ جمع المرضـع أي ومنعنـاه من أن يرتضـع من أية مرضعة بُغيَةَ أن نرجعه إلى أمه ﴿مِنْ قَبْـلُ﴾ أي من قبـل تتبـع أختـه أثره ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَـهُ نَاصِـحُونَ﴾ أي مخلصون لا يقصرون في إرضاعه وحضـانته وخدمتـه ﴿فَرَدَدْنَـاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَـا وَلَا تَحْـزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَـقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما وعدنا الله به واقع لا ريب فيه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي ولما بلغ موسى المبلغ الذي تتكامل فيه القوة الإدراكية واستوى أي وتم واستقر وصار مهيمنا على المنازعات النفسية ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي نبوة ورسالة موجبة للحكم والتصديق بما أمر به من الإيجابيات، وما نهى عنه من السلبيات. فإن النبوة والرسالة موقوفة على التكامل النفسي قبل كل شيء، وإذا تكاملت شرع صاحبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوة المكلفين إلى الله الأكبر ﴿وَعِلْمًا﴾ بالشريعة المنزلة عليه فالحكم عبارة عن التصديق بما يجب التصديق به سلبا أو إيجابا، والعلم عبارة عن الشريعة الموحاة إليه. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وبمثل ذلك الإيتاء الذي كان لموسى نجزي المحسنين للأعمال التبليغية إلى الناس المربوطة بالأمة التي أرسل إليها المرسلون. أي لا نؤتى الحكم والعلم بمعنى الدين والشريعة إلا لمن تعلّق علمنا بأنّه من المحسنين القائمين بأعباء الرسالة في عهده وهذا الإيتاء، وإن لم يكن جزاء للأعمال بل موهبة من الله تعالى، لكن لما لم تجر عادة الباري بإيتائه إلا لمن في ذروة الأعمال الحسنة والأخلاق الفاضلة صار كأنه جزاء في مقابل الأعمال. ولا ينافي كون الآية دالة على إعطاء مقام النبوة أن موسى عليه السلام بعدُ، في مصر ولم يخرج عنها، ولم يمض عليه زمان السفر إلى شعيب عليه السلام وبقائه عنده كأجير يخدم مواشيه، وتزوجه لبنته،

ثم رجوعه إلى مصر لأن سرد الآيات هنا وربط بعضها ببعض بالواو التي هي لمطلق الجمع لا بالفاء ولا بثم فاحفظه.

ومن المفسرين من قال: إن هذه الآية ليست في إيتاء النبوة والرسالة بـل المـراد بهـا إيتـاء الحكمـة، وعلم تهـذيب الأخلاق، وتـدبير المـنزل، وسياسة المدن، والعلم بالتواريخ الـتي تزيـد الإنسـان ثقافـة وقـوّة في رعاية شئون الناس وبروزه في المجتمع. وذلك لأن النبوة وهبيـة وليس كسبية محصولة في مقابل الإحسان والأعمال الصالحة. وسـياق الآيـات لا يناسب بيان إرسال موسى عليه السلام وهو بعدُ في باكورة الشباب، ولم يدخلْ في المشاكل الموجبة لخروجه إلى البلاد البعيـدة ثم رجوعـه منها ونيله مقام النبوة والرسالة والأمر كما ترون.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَـةَ عَلَى حِينِ غَفْلَـةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي ودخـل موسـى المدينـة التي يتنزه فيها فرعـون، وهي بلـدة منـف على نهـر النيـل في وقت لا يتوقع أهلها دخول الناس عليهم، وكان الوقت بين العشاء والعتمة وذلك أن فرعون ركب يوما وسار إلى تلك المدينة فعلم موسى بركوبه فلحق ودخل المدينة في ذلك الوقت ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي يتحاربان ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي ممن شايعه وتابعه في الـدين﴿وَهَـذَا مِنْ عَـدُوِّهِ﴾ أي من الأقباط ﴿فَاسْـتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِـيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَـدُوِّهِ﴾ أي فطلب منه الغوث والنصر عليه ﴿فَـوَكَزَهُ مُوسَـى﴾ أي فضـرب موسـى القبطي بجمـع كفـه أي بكفـه المضـمومة أصـابِعُها ﴿فَقَضَـى عَلَيْـهِ﴾ أي فقتله موسى. وأصله أنهى حياته أي جعلها منتهيـة منقضـية، ولمـا قتلـه تندم و﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي هـذا العمـل الـذي عملتـه من تزيينه له في عيـني ﴿إِنَّهُ عَـدُوٌّ مُضِـلٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن الشـيطان ولا شـك عدو مضل للإنسان عن طريق الخير مبين العداوة وظاهرها.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بوكز القبطي بحيث ترتب عليه القتل ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي لما استغفر موسى عليه السلام من ربه غفر الله له لأنه هو الغفور الرحيم ولا يردّ المستغفرين. ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ﴾ أي اقسم بإنعامك ﴿عَلَيَّ﴾ لأمتنعن عن مثل هذا العمل ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ وعونا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ كالرّجل المستغيث بي.

وإذا نظرنا إلى الواقع علمنا أن الرجل الذي من عدوّه كان من الأقباط المتعودين على قتل بني إسرائيل وذبحهم عند الولادة وتحقيرهم وإهانتهم في الكبر، ووقع الإسرائيلي تحت سيطرته وخاف من أن يقتله، ولذلك استغاث بموسى عليه السلام لوجوده في قصر فرعون وحيازة اعتبار وحصانة لنفسه، فأغاثه موسى عليه السلام على وجه دفع الصائل، ولم يكن وكزه له مما يقتل الإنسان الكبير غالبا، ولكنه صادف محلا كان مقتلا وقتله، وليست هذه الإغاثة ذنبا وجريمة، بل إنها خصلة حميدة واجبة أو مندوبة، فاستغفار موسى عليه السلام في القضية لأنه في عقيدته لم يرد إلا معونة للرجل الإسرائيلي لا قتل القبطي، فكان قتله شيئا كبيرا عنده. والتعبير عن الإسرائيلي المستغيث بالمجرم إما لأن بداية المعركة كانت منه، أو أنه لما صار سببا لهذا القتل كان كأنه هو القاتل، فلا تعد القضية من المنافيات لعصمة الأنبياء عليهم الصلوة والسلام. وهذا هو الذي أراه وأعتقده في هذه القضية والله اعلم.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)﴾

قوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فلما صدر من موسى ذلك العمل المستبشع ظاهرا، وعلم به بعض الناس أصبح موسى عليه السلام خائفا من وصول خبر قتل القبطي إلى فرعون وملأه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الحادث في المستقبل ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾ يعني الإسرائيلي الذي قتل موسى القبطيَّ في نصرته ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يطلب المعونة والنصر منه على هذا القبطيّ الثاني. والإستصراخُ من الصراخ وهو الصياح، ثم صار مجازا عن الإستغاثة، فصار منقولا عرفيا لها ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ﴾ أيها الإسرائيلي المستغيث بي ﴿لَغَوِيٌّ﴾ ضالّ عن الطريق ﴿مُبِينٌ﴾ واضح الغواية لأنك تريد أن تكون وسيلة لإثارة الفتن وإحياء الأحقاد الميتة. ومع ذلك لما ظن أنّ القبطي قوي وغالب على الإسرائيلي أخذته الغيرة وذهب إليه ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي يأخذه بصولة وسطوة ﴿قَالَ﴾ القبطي له: ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قبطية أخرى ﴿بِالْأَمْسِ﴾ ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ أي ما تريد ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي فاعلا ما أردت فعله لاعتزازك بنفسك وبعمادك ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في أرض مصر بين الناس بدفع التخاصم وتقوية التفاهم. فامتنع موسى من البطش لأنه علم أن الناس اطلعوا على الجناية

السابقة وهو واقع في الحرج: ﴿وَ﴾ بينما هو قَلِقٌ من أمـره ﴿جَـاءَ رَجُـلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة فرعون وملأه وهو الرجل المـؤمن الـذي كـان من آل فرعــون ﴿قَــالَ يَــا مُوسَــى إِنَّ الْمَلَأَ يَــأْتَمِرُونَ بِــكَ﴾ أي يتشـــاورون بســـبب قتلـــك للقبطي. وســـمي التشـــاور ائتمـــارا لأن المتشاورين يـأمر بعضـهم بعضـا ليقتلـوك ﴿فَـاخْرُجْ﴾ من البلاد قبـل أن يظفروا بـك ﴿إِنِّي لَـكَ مِنَ النَّاصِـحِينَ (20) فَخَـرَجَ﴾ فـورا من المدينـة ﴿خَائِفًا﴾ أي من جنود فرعـون ﴿يَتَـرَقَّبُ﴾ لحـوقهم بـه ﴿قَـالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّــبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْـهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْـقُونَ وَوَجَـدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَـيْخٌ كَبِـيرٌ (23) فَسَـقَى لَهُمَـا ثُمَّ تَـوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَـالَ رَبِّ إِنِّي لِمَـا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْـهُ إِحْـدَاهُمَا تَمْشِـي عَلَى اسْـتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَـا فَلَمَّا جَـاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْـهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَـوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَـالَ إِنِّي أُرِيـدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَـانِيَ حِجَجٍ فَـإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيـدُ أَنْ أَشُـقَّ عَلَيْـكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِـكَ بَيْنِي وَبَيْنَـكَ أَيَّمَـا الْأَجَلَيْنِ قَضَـيْتُ فَلَا عُـدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ كلمة تلقاء في الأصل مصدر انتصب على الظرفية و(مدين) بلدة شعيب عليه السلام سميت باسم مدين ابن إبراهيم عليه السلام، لأنه كان له إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، ومدين ومدان. وتوجهه إلى مدين بإلهام من الله تعالى إذ لم يكن في سلطان فرعون وكان بين مصر وبين مدين مسيرة ثمانية أيام ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لأنه كان مسبوقا بألطاف ربه من جهات كثيرة، وقد حقق الله ما ترجاه. وروي أنه وصل إلى مفرق طرق ثلاث فأخذ الوسطى منها، وذهب طالبوه على غير طريقه فلم يجدوه ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي وصل إلى الماء المشهور الذي يستقي منه الناس ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي جماعة كثيرة يسقون مواشيهم على ما تعارف بينهم من التناوب ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنمهما من التفرق والانتشار ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ مما أنتما عليه من التأخر والذود، ولم لم يأت غيركما؟ ﴿قَالَتَا﴾ أما تأخرنا فلأنه ﴿لَا نَسْقِي﴾ غنمنا ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي يصرف الراعون مواشيهم بعد ريّها إلى المرعى، وتخلو أطراف الماء من الناس. وأما أنه لم يأت غيرنا فلأنه ليس عندنا أحد إلا أبونا ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ في الجلالة والقدر لا يناسبه الاختلاط بالناس من كل أصناف، وفي العمر فلم تبق عنده قوة السعي وراء الأغنام ورعيها وسقيها. وأما مجيئنا فلأن مجيء النساء عادة أهل البلد ولا تخرم المروءة، فمشينا على ما هو المعتاد.

وقوله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ معناه أنه لما سمع كلامهما، وعلم أن تأخرهما لعدم الاختلاط والضعف عن مقاومة المتزاحمين هناك قام إلى خدمتهما وسقى لهما أغنامهما. ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ الذي كان هناك من شجرة مظللة

واستراح ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَـا أَنْـزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْـرٍ فَقِـيرٌ﴾ أي أنت تعلم أني مسافر غريب ليس لي مأوى ولا ملجأ للعيش الإعتيـادي والنـاس لا يعتـدون بمن لا يعرفونـه فـالأمر موكـول إلى رحمتـك الواسـعة يـا ألله ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي وبينما هو يدعو ربه وينتظـر كرمه إذ جاءته إحدى البنـتين اللـتين صـادفهما على المـاء تمشـي على استحياء وأدب في مشيها ومجيئها حتى وصلت و﴿قَالَتْ﴾ لموسى عليـه السلام ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ إلى حضوره ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَـقَيْتَ لَنَا﴾ أي يجزيك من عنده بلا طلب وقرار مثل جزاء سقيك لنا بـدون طلب منـك لشيء، أو أنت سقيت المواشي ماء العادة وهو يسـقيك مـاء السـعادة، فقام ملبيا دعوة عمه شعيب، ومتوكلا على ربه عالم الشهادة والغيب.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ واستراح، وطلب منه شرح حاله ﴿وَقَصَّ﴾ موسـى ﴿عَلَيْـهِ الْقَصَصَ﴾ من الأول إلى الأخير ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السـلام لـه مسـكنا له ومبشرا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منهم ﴿نَجَـوْتَ مِنَ الْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وليس لهم سلطان على بلـدنا وأنت أمين. ﴿قَـالَتْ إِحْـدَاهُمَا﴾ وهي الـتي اسـتدعته إلى أبيها وهي التي زوجهـا من موسـى عليـه السـلام واسـمها صـغيراء بالتصغير، واسم الكبرى الصغراء: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي لرعي الأغنـام ﴿إِنَّ خَيْـرَ مَنِ اسْـتَأْجَرْتَ الْقَـوِيُّ الْأَمِينُ﴾ اطلعت على قوتـه في جرأتـه النفسية وحركته الجسمية إذ سقى مواشيهما، وعلى أمانته بغض البصر من النظر اليهما.

ويؤخذ من الآية الكريمة قياس من الشكل الأول تقريره: موسـى قـوي على العمل وأمين، وكل قوي أمين خـيرُ أجـير ينتج من الضـرب الثـاني من الشكل الأول: موسى خير أجير.

فلما توسم شعيب عليه السلام فيه القوة والأمانة وشـهدت عليهمـا من شهد من أهله قال له

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ في الخدمة والعمل ﴿فَـــ﴾هـو ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ من طريق التفضل لا من عندي بطريق الإلزام ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام عمل فيه كلفة إياك ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب. ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي الذي قلت وعاهدتني ثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منّا ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ أطولهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ والمراد من أمثال هذا الكلام التسوية بينهما في الانتفاء، وإلا فهو إذا قضى أطول الأجلين لا يتوجه ولا يتصور أي عدوان من أحد عليه ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من الشروط ﴿وَكِيلٌ﴾ أي شهيد.

فان قيل: إن صورة ما جرى بين شعيب وموسى عليهما السلام إن كانت إنشاء عقد النكاح فهي مختلفة من جهة إبهام البنت المزوجة، وأخذ أجرة عائدة إلى الولي من الزوج! أجيب بأن ذلك ليس إنشاء العقد بل وعد بإنشائه بعد إتمام مدة الخدمة. ولو سلمنا أنها العقد فشريعة شعيب غير شريعتنا، وقد جاز العقد في شريعته على الخدمة والرعي مدة معلومة وإبهام المنكوحة لفظا مع نية العاقدين لمنكوحة معينة، على أنّ جعلَ الصداقِ رعي المواشي جائز على قول بعض الأئمة في شريعة الإسلام.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)﴾

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي أتم المـدة المعينـة للخدمـة وتزوج المطلوبة ﴿وَسَـارَ بِأَهْلِـهِ﴾ نحـو مصـر لزيـارة أمّـه وأخيـه وذويـه ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أي رأى نـارا من الجهـة الـتي تلى الطـور ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أي أقيموا مكـانكم، وأهلـه كـان عبـارة عن زوجتـه وولدين وخادم ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وإيضاح للطريق وقد كانوا ضلوا الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي عـود مشـعول ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي تستدفئون.

روي أنه عليه السلام خرج بأهلـه ومالـه في فصـل الشـتاء، وأخـذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته حامـل لا يـدري أليلا تضـع أم نهارا. فسار في البرية لا يعرف طرقها فألجأه السير إلى جـانب الطـور الغـربي الأيمن في ليلـة مظلمـة مثلجـة شـديدة الـبرد، وأخـذ امرأتـه الطلق، فقدح زنده فأصْلَدَ أي فلم تخرج منه النار. فنظر فإذا نـار تلـوح من بعد. فقال لأهله: امكثوا ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي أتى النار التي آنسها ورآها من بعد

﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أي أتاه النداء من الجانب الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بدل من قوله من شاطئ الوادي ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

قيل: إن حكاية هذا النداء وقعت في صور متعددة بعبارات مختلفة، وذلك مستشكل! وأجيب: بأن النداء كان مشتملا على مفاهيم متعددة، فذكر الله تعالى في كل سورة بعضا منها. وقد يقتضي المقام ذكر بعض الأشياء من وقائع دون بعض.

وللعلماء المفسرين الاجلة عبارات في كيفية سماع موسى عليه السلام كلام الله تعالى. والقضية قضية دقيقة جدا. فمنهم من قال: إنه تعالى خلق الألفاظ الدالة على المعاني في تلك الشجرة، وانتشر الصوت منها كما نسمع نحن الأصوات من أجهزة المذياع. ومنهم من قال: خلق الله الأصوات في الهواء هناك وأخذها موسى عليه السلام كما هي. والحق أن بيان كيفية سماعه لكلامه سبحانه وتعالى يحتاج إلى توفيق من جانب المبين، وتوفيق من جانب المخاطب الفاهم للبيان، وأن الله سبحانه وتعالى تكلم مع عبده موسى مباشرة بدون وساطة أيّ واسطةٍ، كما تكلم مع حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات المفروضة، وذكرَ له أشياء أخرى، وأن موسى عليه السلام استغرق في تجلي الكلام عليه وسمع كلام الحق من كل الجوانب وبالسمع والقلب، وأنّ ذلك الطور ظاهر على أهله فإن الله قادر على إنطاق كل جزء من أجزاء البدن كاللسان، وقادر على خلق قوة السمع في كل جزء من أجزائه، ولذلك اختص باسم الكليم، وهذا ظاهر عند من له ذوق سليم.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على أنْ يا موسى ﴿فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يعني فألقى عصاه امتثالا لأمره تعالى، ولما ألقاها

رآها تهتز وتتحرك بسرعة زائدة كأنها صغار الحيات الخفيفة الجثة والسريعة الحركة، وعند إحساسه عليه السلام بها خاف منها وولى مدبرا خوفا من لدغها وإيذائها له ولم يعقب ولم يرجع الى محله السابق. وعند ذلك ناداه الله بقوله ﴿أَقْبِلْ﴾ إلى عصاك ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ من المخاوف، ولا مجال للخوف عند الإيحاء. ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي أدخلها فيه. وجيب الكساء فتحه من حيث يخرج الرأس ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي إن أدخلتها فيه ثم أخرجتها منه تخرج بيضاء مشعة بارقة يظهر أثر برقها في مقابلها من غير عروض عيب عليها ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي واضمم إليك عضدك وذراعك وهو الجناح (إلى جنبك) من أجل المخافة من العصا أي من أجل دفعها. ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أنه يتخفف ويخلص منه ﴿فَذَانِكَ﴾ الأمران أي العصا واليد ﴿بُرْهَانَانِ﴾ حجتان ظاهرتان على صدقك في دعوى الرسالة ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ تعالى وقوله ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ متعلق بمحذوف أي واصلتان إلى فرعون وملأه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين من حدود الظلم والعدوان.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ في مقابلها ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ حالكونه ﴿رِدْءًا﴾ أي عونا وظهيراً لي في المكالمات حتى يأتي بالحجة الكلامية ويلقيها إليهم علاوة على المعجزة الربانية ﴿يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ إذا تكلمت معهم لأن كلامي ضعيف والمعاند لما أدرك الضعف في الكلام غلب على مقابله ﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ إجابة لك فيما أردته ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي سيطرة عظيمة جدا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي مع وجود آياتنا معكم ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ لا غيركم من المعاندين.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا بَيِّنَـاتٍ قَـالُوا مَـا هَـذَا إِلَّا سِـحْرٌ مُفْتَـرًى وَمَـا سَـمِعْنَا بِهَـذَا فِي آَبَائِنَـا الْأَوَّلِينَ (36) وَقَـالَ مُوسَـى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَـاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الـدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَـا الْمَلَأُ مَـا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي فَأَوْقِـدْ لِي يَـا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِـعُ إِلَى إِلَـهِ مُوسَـى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْـتَكْبَرَ هُـوَ وَجُنُـودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَـا لَا يُرْجَعُـونَ (39) فَأَخَـذْنَاهُ وَجُنُـودَهُ فَنَبَـذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَـدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ لَا يُنْصَـرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَـاهُمْ فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا لَعْنَـةً وَيَـوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَـى الْكِتَـابَ مِنْ بَعْـدِ مَـا أَهْلَكْنَـا الْقُـرُونَ الْأُولَى بَصَـائِرَ لِلنَّاسِ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ (43)﴾

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي ظاهرات الدلالة على صدقه في دعوى الرسالة من الله لأن تلك الآيات من خـوارق العـادات ولا يقدر أحـد على خلقهـا إلا اللـه سـبحانه وتعـالى، وقـد ادعى موسـى الرسالة منه تعالى، وقالوا له ما حجتك على صدقك فكأنـه قـال حجـتي أن يخلق لي ربي من عصاي ثعبانا مبينا، ومن يدي مصباحاً مُضيئاً. وقـد أتى بما قاله فَقَد صَدَّقه ربه وثبت بين الناس صدقُه. ومع ذلك لـمّا جـاء موسى

بالآيـات ﴿قَـالُوا﴾ أي فرعـون وملأه: ﴿مَـا هَـذَا إِلَّا سِـحْرٌ مُفْتَـرًى﴾ أي مختلف مفتعل لم يسبق له مثيل ﴿وَمَا سَـمِعْنَا بِهَـذَا فِي آبَائِنَـا الْأَوَّلِينَ﴾ واقعا في أيامهم و﴿قَالَ﴾ موسى عليه السـلام بكـل سـكونة واطمئنـان ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ وأراد بالموصولين نفسه المباركة يعني لا نهتم بتكـذيبكم فإنـه عـارض يـذهب أدراج الرياح ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لأنه ثبت على حسب سنة الله تعالى في العالم أنـه لا يفلح الـذين ظَلَمُـوا أنفسـهم بـالكفر والإشـراك والمعاصي، وغيرهم بالقتل والتعذيب والمآسي. فالـدنيا محكمـة العـدل وإذا بقي شيء فالآخرة أجمعُ وأبقى.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ قولا ناشـئا من أحـد أمـرين: فإمـا كـان سيّاسـا وحيـالا يَعلمُ بوجود الباري تعالى، ويَعَلمُ أنـه ليس في مقـام من السـماء يصـل إليه، ولكن علم أن قومه جهلاء حمقى فإذا بنوا له صرحا وصعده ونـزل منه إلى الأرض وقال لقومه ما وجدته أحدا هناك صدّقوه واعتبروه إلهـاً لهم، وإما أنه كان غبيّاً من الأغبيـاء، كمـا أنـه كـان من أشـقى الأشـقياء وظنّ أنه إذا كـان موسـى صـادقا فربـه موجـود في مسـتوى معين من السماء، وإذا صعد الصرح رآه، فإن لم يـره فمعنـاه أنـه ليس بموجـود، ويغلب نفسيا على موسى عليه السـلام وهـذا الإحتمـال أظهـر وأنسـب بتوارثهم على الجهالة العمياء فقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرِي﴾ إلى يومنا والآن لمـا جـاء موسـى يـدعي وجـود رب للسـماوات والأرض فـإذا كـان صـادقا فلا بـد أن يكـون موجـودا في الأرض أو في السماء ومادام ليس في الأرض فهو لابد أن يكون في السـماء ﴿فَأَوْقِـدْ لِي يَـا هَامَــانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي اصــنع لي آجُــراً ﴿فَاجْعَـلْ لِي﴾ منــه ﴿صَرْحًا﴾ أي بناء مرتفعا جدا مكشوفا ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ أي لعلي أصعد على الصرح، وأقرب من السماء،

وأطلع على إله موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في ما يقول من أن الله موجود وهو رب السماوات والأرض.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي فبنى له هامان صرحا عاليا في مستوى ارتفاع زائد فصعد عليه وبقي زمانا، واستعمل ما في إمكانه العالمي من أجهزة الاستطلاع والاستعلام، ولم يصل إلى أيّ نتيجة، ونزل وبقي على جهله وغبائه وشقائه أقوى مما كان قبل ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر ونظر إلى من عداهم بنظر التحقير ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بل على وجه الأنانية والاستنكاف من رعاية الغير ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي وظنوا أن لا إله غير فرعون، وأن لا حياة إلا ما في الدنيا، وأنهم إذا ماتوا لا يبعثون، ولا يرجعون إلى الله للحساب وأخذ الجزاء من العذاب والعقاب ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ بعد عبور موسى وقومه من النيل ﴿فَانْظُرْ﴾ يا حبيبي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ المعروفين بأشد المنكرات.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي وجعلناهم لسوء اختيارهم، وقلة شعورهم، وترجيح العادة على العقل، والمعجل على المؤجل والمؤقت على المؤبد... قدوة الضلال يدعون من عداهم إلى الكفر والمعاصي والسيئات فأهلكناهم في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم قطعا. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴿طردا وإبعادا من الله والملائكة والناس على ظلمهم وطغيانهم واعتدائهم على الأبرياء﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿بين الخلائق أجمعين. ﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴿بعدما خلص هو وقومه من استيلاء الأقباط وعبورهم النيل﴾ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴿أقوام الأنبياء المتقدمين﴾ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى ﴿إلى الشريعة﴾ وَرَحْمَةً ﴿لهم حيث كان دستورا من مشى عليه سلم﴾ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

بـذلك الكتـاب ويـذكرون أن الإنسـان كائنـا من كـان إذا تمـرد وعصـى فعاقبته الخسران، وإذا آمن وعمل الصالحات فهو من أهـل النجـاة بين العالمين.

﴿وَمَـا كُنْتَ بِجَـانِبِ الْغَـرْبِيِّ إِذْ قَضَـيْنَا إِلَى مُوسَـى الْأَمْـرَ وَمَـا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًـا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَـا أَتَـاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ وَنَكُـونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْـلَ مَـا أُوتِيَ مُوسَـى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِـحْرَانِ تَظَـاهَرَا وَقَـالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْـدَى مِنْهُمَـا أَتَّبِعْـهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَـعَ هَـوَاهُ بِغَيْـرِ هُـدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ (50) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51)﴾

ثم أخذ الباري تعالى يبين حقيـة رسـالة حبيبـه محمـد صـلى اللـه عليـه وسلم، ويـدفع عنهـا أوهـام المتـوهمين المعانـدين، فيقـول: ﴿وَمَـا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي بجانب الجبل الغربي من مقام موسى

﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَـى الْأَمْـرَ﴾ أي إذ أنفـذنا إليـه حكم رسـالته والتكلم معه، وأحكمنا نبوته ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي من جملة الحاضـرين للـوحي إليـه ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَـأْنَا قُرُونًا﴾ من الـزمن بعـد موسـى ﴿فَتَطَـاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي فتطاول على أهـل القـرون الأمـد، فتغـيرت الشـرائع والأحكام وانحرف الناس عن الحق ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَـدْيَنَ﴾ أي مقيما في أهـل مـدين شـعيب حـتى تسـمع منهم بعض مـا قصصـنا من ورود موسـى على مـاء مـدين، ومـا جـاء عليـه بعـد ذلـك بحيث ﴿تَتْلُـو عَلَيْهِمْ﴾ أي تقرأ عليهم بطريق التعلم منهم ﴿آيَاتِنَـا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِـلِينَ﴾ لك وأوحينا إليك آياتنا البينات الناطقـة بأحوال موسـى من أول نشـوئه إلى آخـر شـئونه ﴿وَمَـا كُنْتَ بِجَـانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسـى وقلنـا: يـا موسـى إني أنـا اللـه رب العـالمين ﴿وَلَكِنْ رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ولكن أوحينا إليك القصص رحمة من ربك ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَـاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كطوائف العرب في أم القرى وما حولهـا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ﴾ أي يتعظون بهذه الآيات البينات الواصلة إليك.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ﴾ ممـا اقـترفوه من الكفـر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُـولًا﴾ أي هلا أرسـلته إلينـا ﴿فَنَتَّبِـعَ آيَاتِـكَ وَنَكُـونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ وجـواب لـولا الأولى الامتناعيـة محذوف أي مـا أرسـلناك إليهم. ولـولا الثانيـة تحضيضـية ﴿فَلَمَّا جَـاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي فلما جاء أهل مكة الكلام الحق من عندنا وأنزلنـاه على حبيبنا محمد صلى الله عليـه وسـلم ﴿قَـالُوا لَـوْلَا أُوتِيَ﴾ أي محمـد عليه السلام ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ عليـه السـلام من الكتـاب المـنزل عليه جملة. يعني أنه لو كان ينزل عليه الكتـاب جملـة واحـدة لآمنَّا بـه، فرد الله عليهم بقوله ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ والحـال أنه نزل عليه جملة واحـدة، ومن قبـل متعلـق بقولـه تعـالى يكفـروا أي كيف يدعون

أنه لو نزل القرآن جملة واحدة كما نزل التوراة على موسى جملة واحدة لآمنّا به؟ مع أنهم كفروا بما أوتي موسى من قبل هذا الوقت عندما بَعَثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا: (نجده في التوراة بنعته وصفته) فلما رجع الرهط إلى مكة وأخبروهم بما قالت اليهود أنكروا كتاب موسى كما أنكروا القرآن ﴿قَالُوا﴾ هما: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي التوراة والقرآن سحران تظاهرا وتعاونا بتصديق كل منهما للآخر ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي قال أهل مكة: إنا كافرون بكل من القرآن والتوراة. ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لهؤلاء المشركين الكافرين بكل من الكتابين: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أنهما سحران تظاهرا وتعاونا ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي فإن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ وهذا القيد لزيادة التقدير فإنه لا شك في أن من اتبع هواه ليس متلبسا بهدى من الله تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي ولقد تابعنا المذكرات لأهل مكة فانزلنا آية بعد آية لعلهم يتذكرون فيؤمنون بما فيه.

﴿الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)﴾

قولـه تعـالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ مِنْ قَبْلِـهِ﴾ يعـني الـذين آتينـاهم الكتاب من قبل نزول القرآن ﴿هُمْ بِـهِ يُؤْمِنُـونَ﴾ أي هم الـذين يؤمنـون بالقرآن لا أولئك المشركون الذين قالوا سحران تظـاهرا. والآيـة نـزلت في مؤمـني أهـل الكتـاب، وقيـل في أربعين من أهـل الإنجيـل إثنـان وثلاثـون جـاءوا مـع جعفـر من الحبشـة وثمانيـة من الشـام ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّنَـا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِـهِ مُسْـلِمِينَ﴾ ليس إيماننـا شـيئا مسـتحدثا وإنمـا هـو عن معرفـة تقـادم عهـدها وتوارثناهـا ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَـرَّتَيْنِ﴾ مـرة على إيمـانهم بكتـابهم، ومـرة على إيمانهم بالقرآن ﴿بِمَـا صَـبَرُوا﴾ أي بصـبرهم وثبـاتهم على الإيمـانين، أو على الإيمــان بــالقرآن. ﴿وَيَــدْرَءُونَ بِالْحَسَــنَةِ السَّــيِّئَةَ﴾ أي بالطاعــة المعصية، أو بالحلم أذى الجاهلين أو بالمعروف المنكر، أو بالخير الشر، أو بالعلم الجهل، أو بالكظم الغيظ، أو بشهادة لا إله إلا الله الشـرك، أو بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم عناد أهل الكتاب ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في سبيل الله ﴿وَإِذَا سَـمِعُوا اللَّغْـوَ﴾ سـقط القـول ﴿أَعْرَضُـوا عَنْهُ﴾ تكرّما ﴿وَقَالُوا﴾ للاّغين الطاعنين فيهم على إيمانهم بمحمد صـلى اللـه عليـه وسـلم ﴿لَنَـا أَعْمَالُنَـا وَلَكُمْ أَعْمَـالُكُمْ﴾ متاركـة لهم ﴿سَـلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قالوه توديعا لا تحيـة وترفيعـا ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَـاهِلِينَ﴾ أي لا نبتغي صحبتهم ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي كل من أحببته هداية موصلة إلى المطلوب، وإنما ترشده وتوجهه إلى الحق وتبلغه كلام اللـه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هِدايَتَه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِينَ﴾ أي بالمسـتعدين لـذلك وهو من علم الله تعالى منه حسن الفكرة والاختيار.

﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُـدَى مَعَـكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِـنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًـا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِـرَتْ مَعِيشَـتَهَا فَتِلْـكَ مَسَـاكِنُهُمْ لَمْ تُسْـكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِـكَ الْقُـرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُـولًا يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَـا وَمَـا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُـرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَزِينَتُهَـا وَمَا عِنْـدَ اللَّهِ خَيْـرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُـونَ (60) أَفَمَنْ وَعَـدْنَاهُ وَعْـدًا حَسَـنًا فَهُـوَ لَاقِيـهِ كَمَنْ مَتَّعْنَـاهُ مَتَـاعَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا ثُمَّ هُـوَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِـنَا﴾ نـزل في الحرث ابن عثمان ابن نوفل ابن عبد مناف حيث أتى النـبي صـلى اللـه عليه وسلم فقال: نحن نعلم أنـك على الحـق، ولكنـا نخـاف إن اتبعنـاك وخالفنا العرب، وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا. فرد اللــه عليهم خوف الخطف ومعنى الخطف الاختلاس بسرعة يعـني قـالوا: إن اتبعناك وتركنـا تقاليـد العـرب في عبـادة الأصـنام هاجمتنـا واختطفتنـا. فقال تعـالى في ردهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًـا آمِنًا﴾ أي ألم نُهـيئ لهم مكانا آمنا وجعلناه حرما محفوظا من أيـدي العـابثين ومجمعـا للخـيرات ﴿يُجْبَى إِلَيْـهِ ثَمَـرَاتُ كُـلِّ شَـيْءٍ﴾ أي ثمـرات كـل شـيء مثمـر من المـأكولات والمشـروبات والملبوسـات حالكونهـا ﴿رِزْقًا﴾ صـادراً ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ والجواب إذا كان من العاقل ﴿بلى﴾

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الحرم آمن بعصمة الله، وظنـوا أن أمنـه من موافقـة العـرب في عبـادة الأصـنام مـع أن الأصنام وعبادتهـا من محدثات عمرو بن لحي الجار أمعاءه في النار، ولا يعلمون أن الثمـرات تجـبى إليهم إجابـة لـدعاء إبـراهيم عليـه السـلام، ويظنـون أنهـا من مسـافراتهم بالشـتاء إلى اليمن وبالصـيف إلى الشـام، ولا يعلمـون أن قسما كبيرا من أرزاقهم يأتيهم من الخارج بإلهامنا إلى الناس الطائفين الحجاج والمعتمـرين، وإن كثـيرا من التجـار يخسـرون ولكنهم يربحـون بتوفيقي لهم في تيسير اشتراء المواد النافعة وتيسير بيعها للناس فـإن معنى قوله ﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ ليس أن الأرزاق مطلقا تأتيهم من السـماء أو من الأرض بدون كسب ومحاولة منهم، فإن ذلك خلاف سنة الله في عباده، بل معناه أن هناك أسبابا خفية في تحصيل المسببات وتوفيقـات وإلهامات في قلوب الناس لتحصيل وسائل المعـاش والمعـاد، وذلـك لا يوجد إلا من لدن حكيم خبير.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِـرَتْ مَعِيشَـتَهَا﴾ أي وكثـيرا من أهـل معمـورة في الارض حالتهم الأصلية كـانت فقـرا ثم مكنـاهم في الأرض وترفهـوا فبطروا واغتروا ولم يشـكروا نعمـة اللـه الـذي أنعم عليهم، فأهلكنـاهم وخلت ديارهم ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ﴾ التي في ممـرهم في أسـفار التجـارة وغيرها وتدمرت بحيث ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا زمانـا من المارّة والعـابرين، أو إلا قليلا من تلـك المسـاكن عمـروه وسـكنوا فيـه ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْـوَارِثِينَ﴾ منهم إذ لم يبـق منهم أنـاس يخلفـونهم أو بقي منهم أنـاس استبشـعوا البقـاء فيهـا فتركوهـا وانتقلـوا إلى بلاد أخـرى، وقومك من الذين كانوا في فقر حـال فأسـكناهم في أرضـنا وأغنينـاهم فزادت معايشهم واغتروا، فإذا لم يؤمنوا ولم يستسـلموا للـه فإنـا نحن نعلم ماذا نفعـل بهم ونقـدر عليهم في كـل تصـرف شـئناه ونحن أحكم الحاكمين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي آياتنا البينات الواضحة التي تدعوهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فإذا قبلوا الدعوة رضيناهم في الدنيا والآخرة، وإذا ردوها رددناهم ودمرناهم على بغيهم وظلمهم ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى﴾ أي مُهلكي أهلِها ومُدمري أنفسها ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ وهذه سنتنا في عبادنا إلى يوم الدين. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمور المعيشة ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ وتبقى لكم مدة معينة محدودة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الجنة ورضوانها ومن محبة الله ورضاه ﴿خَيْرٌ﴾ في حد ذاته لأنه لا ألم معه ﴿وَأَبْقَى﴾ وجودا نوعا أو فردا لأنه يستمر أبد الآبدين ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الفرق بين الأمرين أيها العاقلون ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ في نفسه لأنه من الله وفي متعلقه الموعود به لأنه دخول الجنة ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي فذلك الموصول الموعود مدركه ذلك الأمر الموعود به لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانية الفاني ما فيها ﴿ثُمَّ هُوَ﴾ أي ذلك الموعود المقطوع ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب والعقاب والعذاب. والجواب الحق أن ليس الموصولان على حد سواء، بل الأول فوق الثريا، والثاني فيما تحت الثرى والأمر كما ترى.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)﴾

قولـه تعـالى ﴿وَيَـوْمَ يُنَـادِيهِمْ﴾ ظـرف منصـوب بـأذكر، أي واذكـر يـوم ينـاديهم اللـه تعـالى فيقـول: ﴿أَيْنَ شُـرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُـونَ﴾ أي تزعمونهم شركاء لي، ولما كان موقف النداء موقف الترهيب والإخافة، وكـان توجيـه السـؤال إلى المشـركين توجيهـا إلى شـركائهم أجـاب الشركاء عنهم ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي الشـركاء الـذين ثبت عليهم مقتضى قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنـة والنـاس أجمعين، أي قال الشركاء المستحقون لـدخول النـار: ﴿رَبَّنَـا هَـؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي أغويناهم عن عبادتك وحدك ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أغويناهم غيّاً مثل ما غوينا. أي أضللناهم وكانوا مثلنا في الضلال، ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل كانوا يعبدون هواهم ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي فلما تبرأ الشركاء من العبّاد قيل من طـرف اللـه أو من طـرف الملـك المأمور: ادعـوا شـركاءكم لعلكم تتفـاهمون وتعتـذرون ﴿فَـدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْـتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لعجـزهم عن كـل معونـة ونصـر لهم ﴿وَرَأَوُا الْعَـذَابَ﴾ لأربابهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَـدُونَ﴾ إلى حيلـة لـدفع العـذاب عنهم لنجـوا، ولكن لم يهتدوا، أو لو كانوا يهتدون في الدنيا إلى الحـق مـا وقعـوا في هذه المآسي.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله تعالى ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم، فقد شبهت الأنباء بمن توجه إلى شيء فأتاه العمى، ولم ير المقصود يومئذ أي يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضا ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ إلى الله في وقت الحياة المستقرة ﴿وَآمَنَ﴾ بالله وحده لا شريك له ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من كف النفس عن المحرمات وفعل الواجبات ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ﴾ ذلك التائب المؤمن العامل للعمل الصالح ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الناجين من النار ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأعيان والأعراض ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ويرجح أحد الجانبين على الآخر بمحض إرادته السنية لا موجب عليه ولا مانع ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ أي للناس ﴿الْخِيَرَةُ﴾ أي التخير في خلق الله وأمره أي لا شريك له لأنه هو الخالق وحده، ولا موجب ولا مانع عليه لأن الله هو المختار. ومعنى هذا نفي تصرف العباد وعلاقتهم في خلق الله، وهذا هو الإيمان السليم بأن الله هو الفاعل المختار، وكل شيء يسند إليه بالذات بدون توسط شيء إلا تلك الأسباب الإعتيادية التي خلقها وأثبتها في قوله وآتيناه من كل شيء سببا.

وليس معنى قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي الإختيار في أفعالهم وآثارهم لأن الكلام هنا في أفعال الباري لا في أفعال العباد. وكذلك أثبت للعباد المكاسب والأفعال في آيات. وقال ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وقال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وقد ثبت بالأدلة القاطعة أن للعباد أفعالا إختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها، ولكن للعلماء في تحقيق الاختيار آراء، والمختار منها رأيان: الأول: رأي أبي الحسن الأشعري. والثاني: رأي أبي منصور الماتريدي رضي الله تعالى عنهما.

اما رأي الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه في كسب العبد فهو مقارنة قدرته وإرادته المتوجهة للعمل الذي يفعله بقدرة الباري تعالى وإرادته. وتوضيحه: أن الله تعالى خلق العبد وخلق فيه حواسا سليمة، وعلما إجماليا بالأفعال الإختيارية قبل صدورها، وعلما بحسنها وقبحها، وخَلقَ فيه إرادة تابعة لذلك العلم مرجحة لبعض الأفعال على بعض، وقدرةً متعلقة بالفعل تابعةً لتلك الإرادة بحيث لو كانت مستقلة في الإيجاد لأوجدها. وينبعث من هذه الإرادة شوق ورغبة في إنجاز الفعل، وعند ذلك يخلق الله تعالى ذلك الفعل الذي رغب فيه. فكسبه عبارة عن توجيه إرادته للقدرة نحو العمل، وهذا التوجيه سبب إعتيادي لخلق الله تعالى ذلك الفعل له.

وحقق العلامة الكوراني أن مذهب السلف أن للعبد قدرة مؤثرة في العمل بإذن الله تعالى، وادّعى أن ذلك هو مذهب الأشعري، لا أنّ قدرته غير مؤثرة أصلا وهذا واضح.

وأما رأي الإمام أبي منصور الماتريدي رضي الله عنه فهو أن الكسب عبارة عن صرف العبد قدرته وإرادته إلى الفعل المرغوب عنده، وأن ذلك أثر لقدرة العبد وصادرة عنه، وإيجاد الله تعالى الفعل عقب ذلك خلق، والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين بجهتين مختلفتين، فالفعل مقدور لله بجهة الخلق والإيجاد، ومقدور للعبد بجهة الكسب، أي صرف قدرته وإرادته إليه، وظواهر الآيات شاهدة بأن العبد كاسب وله كسب صادر منه يترتب عليه الثواب والعقاب، وأن الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل. فاختر ما تشاء من الرأيين، والله سبحانه وتعالى هو الموفق والمعين. ولما قرر الله تعالى أنه بذاته يخلق ما يشاء ويختار، وما كان لأحد التخير في أفعاله تعالى أكد ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي

تنزه تعالى بذاته تنزها خاصا به من أن ينازعه أو يزاحمه أحد في خلقه واختياره ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراك الأصنام التي كان المشركون يزعمون مشاركتها له تعالى في أي عمل من أعماله ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما يخفونه في صدورهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عبادات شاهدة على دناءتهم وقصورهم ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ أي وهو الذات الواجب الوجود الجامع لكمالاته المنزه عن النقائص المعلم بالاسم الأعظم بين الاسماء الحسنى، وهو ﴿اللَّهُ﴾ كما بينه العلماء المحققون ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا واجب في الوجود، ولا خالق للموجود، ولا من يستحق أن يكون معبودا إلا هو ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ﴾ لأنه هو المنعم بالنعم الباطنة والظاهرة ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ في خليقته بالمغفرة لأهل الطاعة والعذاب لأهل المعصية ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء والثواب والعقاب.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75)﴾

قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي دائما وهو عند البعض من السرد بمعنى المتابعة، والميم زائدة فوزنه فعمل، ونظيره دلامِصُ من الدلاص، يقال: درع دلاص أي لينة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلق بسرمدا ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ الدلائل التي ترشدكم إلى حق اليقين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الآثار والشواهد الدالة على أن الله رب العالمين. فإن قيل إذا جعل الله سبحانه وتعالى الليل أو النهار مستمرا إلى يوم القيامة فلا مجال للإتيان بخلافه لأن يوم القيامة ليس فيه المَلوَان على ما نعلم. أجيب بأن المراد من الجعل إرادته أي أنه إن أراد أحد الأمرين فمن هو القادر على منازعته في إرادته ذلك؟

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي بالنهار. ففي الآية أمر بديع معروف باللف والنشر المرتب. ويمكن أن يقال: إن كلا من الليل والنهار قابل للسكون فيه وابتغاء الفضل مما يكفيه، فالكل للكل. كما يمكن أن يقال: إن الخالق عليم وخبير بأن الليل عندنا نهار والنهار ليل في نصف الكرة المقابل، فليلنا الذي هو محل لسكوننا نهار بالنسبة إلى أهله والعكس بالعكس، والمعنى حينئذ من يأتيكم بليل تسكنون فيه أنتم وغيركم يبتغون من فضل الله فيه؟ لأنه نهارهم ومن يأتيكم بنهار تبتغون فيه من فضل الله أنتم ويسكن فيه غيركم؟ لأنه ليله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولكي تشكروا نعمته تعالى جعل لكم الظرفين بالوجهين المعروفين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم شركائي ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه. وذلك الشهيد الذي شهادته كافية شهادةً نبي تلك

الأمة كما تشـهد بـه الآيـات الأخـرى. ﴿فَقُلْنَا﴾ لكـل أمـة من تلـك الأمم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُـوا أَنَّ الْحَـقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغـاب عنهم ﴿مَـا كَـانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُـوزِ مَـا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُـوَّةِ إِذْ قَـالَ لَـهُ قَوْمُـهُ لَا تَفْـرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الـدَّارَ الْآَخِـرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِـيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَـنَ اللَّهُ إِلَيْـكَ وَلَا تَبْـغِ الْفَسَـادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًـا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَـالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَـارُونُ إِنَّهُ لَـذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَـالَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَـوَابُ اللَّهِ خَيْـرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّـابِرُونَ (80) فَخَسَـفْنَا بِـهِ وَبِـدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَـهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُـرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَـا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِـرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَـا لَخَسَـفَ بِنَـا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُـوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ (84)﴾

قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ قَـارُونَ كَـانَ مِنْ قَـوْمِ مُوسَـى﴾ أي كـان من بـني إسرائيل، فقيل: إنه كان ابن عم موسى عليه السلام. وقيل ابن خالتـه. وقولـه ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ أي فطلب الفضـل عليهم بـأن يكـون آمـرا لهم يأمرهم وينهاهم، أو تكبر عليهم، وكان لـه كبريـاء ﴿وَآَتَيْنَـاهُ مِنَ الْكُنُـوزِ﴾ أي الأموال الثمينة التي تدخر للمستقبل ﴿مَـا إِنَّ مَفَاتِحَـهُ﴾ أي المقـدار الــذي أن مفــاتيح صــناديقه ﴿لَتَنُــوءُ﴾ أي لتثقــل حملاً ﴿بِالْعُصْــبَةِ﴾ أي بالجماعة الكثيرة من ﴿أُولِي الْقُوَّةِ﴾ قيل في عدده من الخمسـة عشـر الى الأربعين. وقيل ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقيل غير ذلك ﴿إِذْ قَـالَ لَـهُ قَوْمُـهُ لَا تَفْـرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَـرِحِينَ﴾ أي لا تبطـر بهـذا المـال الــوافر، ولا تتكــبر بســببه على ضــعفاء الأحــوال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ كذلك ﴿وَابْتَغِ فِيمَـا آَتَـاكَ اللَّهُ﴾ من الأمـوال ﴿الـدَّارَ الْآَخِـرَةَ﴾ بصـرفها في وجـوه الخـير ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِـيبَكَ مِنَ الـدُّنْيَا﴾ أي حظـك من متاعهـا المبـاح من المأكـل والمشـرب والملبس والمسـكن والمنكح... وسائر ما طاب ولذّ حسب العـادة ﴿وَأَحْسِـنْ﴾ أي إلى عبـاد اللـه ﴿كَمَـا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بإفاضة هذه الأموال الطائلة عليـك ﴿وَلَا تَبْـغِ الْفَسَـادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بصـرفه في طـرق الشـرور والفسـوق والفجـور النفسـية وإثـارة الشـغب والعـداء بين النـاس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِـدِينَ (77) قَالَ﴾ قارون بكل صلافة ما آتاني الله بإفادة منه وإفاضـة ﴿إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْـدِي﴾ أي على وجــه الاكتســاب بــالطرق العلميــة في الاقتصاديات عندي، ولم ينظر إلى أن كل إنسان خلقه ورزقه وما عنده بتوفيق منه تعالى

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ يعني إن قارون لما قال ما قال في جواب إرشاد المرشدين ونصيحة الناصحين كان معتمداً على قوته الاقتصادية، وكثرة جماعته وطغى وبغى وجهل وغفل، ولم يدر أن القوة والعزة لله جميعا، وأن من طغى وبغى فعاقبته الدمار؟ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من أهل القرون الطاغية الباغية على الحق أناساً بغاة طغاة ممن هو أشد قوة من قارون وأكثر جمعا منه؟ ولا شك أنه سيحيق به ما حاق بهم ويهلكه القادر المقتدر كما أهلك الأولين ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ عند حلول وقت الانتقام.

ثم أخذ الباري سبحانه يحكي مقدمات هلاكه وقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ متبرجا ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ من فرسه وحشمه وأتباعه بحيث حصل تظاهر لهم على عيون الناس حتى ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي نصيب كبير لا يقدر قدره ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بأمور الآخرة ونعيمها وجحيمها: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا﴾ أي ولا يلقى تلك المثوبة الحسنى ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على تعب كف النفس عن الشهوات وصرف العزيمة لأداء الواجبات. ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ﴾ أي لقارون ﴿مِنْ فِئَةٍ﴾ أي جماعة مشتق من فأوت قلبه إذا ميلته، وسميت الجماعة بذلك لميل بعضهم إلى بعض، أو من فاء يفيء إذا رجع لرجوع الأفراد بعضهم الى بعض أو رجوع كلهم الى سيدهم ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بدفع العذاب عنه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ الغالبين بنفسه أو من الممتنعين عن عذاب الله تعالى في الآخرة.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي تمنوا نيل ما ناله في الأيام السابقة ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي

يبسطه ويقدره بمقتضى مشيئته لا لكرامة ذلك الشخص عنده، فرب كافر في نعمة ورب مؤمن في زحمة ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بأن أعطانا الكفاف ولم يعطنا ما يوجب البغي والخلاف ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ مثل ما خسف بقارون لتوليده فينا ما ولده فيه فخسف بنا لأجله مثل ما خسف به ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ بالله أو بنعمته أي الذين يعتبرون أرزاقهم من أنفسهم لا من خلاقهم ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي غلبة وقهرا على العباد الصالحين ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ ظلما عليهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أي العاقبة الحسنة والعافية المستمرة الهنيئة المريئة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون مخالفة ربهم بإيمان ويقين.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ إعتقادية أو عملية ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ من عشرة إلى سبعمائة أو أزيد ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ كذلك ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وإذا كان ما عمله من باب تسنين السنن السيئة فوزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة له أصل الجزاء لا مضاعفاته.

روي أنه كان يؤذي موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد، فحسبه فاستكثره، فعمد إلى أن يفضح موسى بني إسرائيل ليرفضوه فأغرى امرأة بغيَّة بالمال لترميه بنفسها. فلما كان يوم العيد قام موسى خطيبا، فقال: من سرق قطعناه، ومن زنى محصنا رجمناه، ومن زنى غير محصن جلدناه. فقال قارون: ولو كنتَ. قال: ولو كنتُ. قال: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فاستحضرت، فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدقَ فقالت: جعل لي قارون جعلا على أن أرميك بنفسي، فخرّ موسى شاكيا منه إلى ربه. فأوحى الله إليه أن مُرِ الأرض بما شئت. فقال: يا أرض خذيه، فأخذته إلى ركبتيه. ثم قال: خذيه، فأخذته إلى وسطه، ثم قال: خذيه

فأخذته إلى عنقه. ثم قال: خذيه. فخسفت به. وكان قارون يتضرع إليه في هذه الأحوال فلم يرحمه، فأوحى الله إليه: ما أفَظك! استرحمك مرارا فلم ترحمه، وعزتي وجلالي لو دعاني مرة لأجبتهُ. ثم قال بنو إسرائيل إنما فعله موسى ليرثه. فدعا الله تعالى حتى خَسَفَ بداره وأمواله.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (85) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آَيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ نزلت على الرسول بالجحفة بعد أن خرج صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا واشتاق إليها. فيقول تعالى ﴿إِنَّ﴾ الله ﴿الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ﴾ أي أنزله عليك وفرض عليك العمل به وتبليغه إلى العالمين وجَعَلَك بحيث يأتيك الملك الموكل بالوحي من عالم الغَيب هو يَردّك غالبا منتصرا إلى بلدك الذي تشتاقه، ويسمى بلد الرحيل معادا لأنه ينصرف في البلاد لكسب المعيشة ثم يعود إليه، ويحتمل أن يقال معاد لقب لمكة لأنه يعود إليها الناس في كل سنة لأداء فريضة الحج. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وهم المشركون المفسدون ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي إن رحمة الله واسعة وقد اختصك الله بحظ وافر منها من

جملتها إنزال القرآن إليك بدون حسبان منك، إذ ماكنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بأي وسيلة إلا وسيلة فيضان الرحمة بدون اكتساب لك فيه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ وهذه العبارة تعريض بالناس حتى لا يكونوا عونا للمشركين.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آَيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ولا يمنعنك عن تلاوة آيات الله واتباع أحكامها وتبليغها للناس ﴿بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي بعد استقرارها عندك ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ جميع المكلفين في العالم فإنك مبعوث رحمة للعالمين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87)ـ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ﴾ وابلغ الناس أن لا يدعوا مع الله إلها آخر، فإن التوحيد أساسُ الإسلام.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي كل حي يموت إلا ذاته الذي هو حي لا يموت، وكل ممكن قابل للهلاك والفناء إلا ذاته ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي القضاء النافذ على الكائنات ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عند البعث والنشور لنيل الجزاء عذابا وعقابا أو جنة ورضوانا. جعل الله رضاءه نصيبنا عند اللقاء برحمته، إنه أرحم الراحمين.

سورة العنكبوت، مكية، وآياتها تسع وستون، نزلت بعد الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7)﴾

قوله تعالى ﴿الم﴾ الكلام فيه كما في نظائره. وقوله ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾... الآية نزلت في ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين، وقيل: في عمار رضي الله عنه وقد عذب في الله تعالى، وقيل في مهجع مولى عمر بن الخطاب، رماه عمار بن الحضرمي بسهم يوم بدر فقتله، فجزع عليه أبواه وامرأته. وحسب هنا من أفعال القلوب فيقتضي مفعولين

أولهمـا أن يـتركوا، وثانيهمـا أن يقولـوا. وأن في الموضـوعين ناصـبة. ومعنى الآية الكريمـة: أحسـب النـاس تـركهم حـالكونهم غـير مفتـونين لمحض قولهم آمنا بالله ورسوله؟ لأن الإيمـان باللـه ورسـوله وإن كـان ينجي الإنسان من النار لكن يقتضي الصعود في الـدرجات الـتي تـترتب على المشاق من المهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات، وقوله تعـالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ حال من الناس أي والحال إنه جرى أمرنـا وقضـت سـنتنا في العبـاد إلقـاء المكلفين المطيعين في مشـاق الأمـر والنهي، وقــد فتنــا الــذين من قبلهم فلم تمض مــدة بــدون التبعــات والمصــائب على المســلمين الــذين ســبقوهم ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في قولهم آمَنّا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ في ذلك. وذلك لأن قبــول البلاء والمصـائب دليـل الثبـات والإخلاص في الإيمـان كمـا أن المقابـل دليل المقابل. ومعـنى علمـه تعـالى بـذلك تعلـق علمـه بحسـب الحـال الجاري، وإلا فهو عالم بجميع الأحوال من الأزل إلى الأبد.

وقوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ معناه كما أن النــاس المؤمــنين لا يخلصــون من الفتن كــذلك النــاس العــاملون للسيئات لا يفوتون من أيدينا ولا يخرجـون من دائـرة قـدرتنا ﴿سَـاءَ مَـا يَحْكُمُونَ﴾ به حكمهم بأنهم يسبقوننا وإنـا لا نأخـذهم ولا نؤاخـذهم ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُـو لِقَـاءَ اللَّهِ﴾ أي من آمن باللـه ورسـوله وسـعى في الإطاعـة ورجا لقاء الخير من لقاء ربه يوم الحساب فإنه فائز بالخير لا شبهة فيه لأن أجل الله أي الأجل المحدود المعين لنيل الجزاء ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة ولا شك ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد و﴿الْعَلِيمُ﴾ بأعمالهم وعقائدهم ﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ في الدين ﴿فَإِنَّمَـا يُجَاهِـدُ لِنَفْسِـهِ﴾ وجـزاؤه عائـد إليـه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَـالَمِينَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ السابقة على الإيمان بالإيمان واللاحقة

بما عملـه من الصـالحات ﴿وَلَنَجْـزِيَنَّهُمْ﴾ أجـرهم على الأعمـال الحسـنة ﴿أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِـهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَـا إِلَيَّ مَـرْجِعُكُمْ فَـأُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (8) وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَنُـدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّـالِحِينَ (9) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ فَـإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَـلَ فِتْنَـةَ النَّاسِ كَعَـذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11)﴾

قوله تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي أمرنـاه برعايتهمـا حـق الرعاية، ويدخل في ذلك الإنفاق عليهما عنـد إعسـارهما ويسـار الولـد، واحترامهما وإطاعتهما حسب العادة في الأمـور الحيويـة وأمـور أخـرى مفصلة في محلها ﴿وَإِنْ جَاهَـدَاكَ لِتُشْـرِكَ بِي مَـا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ يعني وإن كلفاك بأن تشـرك بي مـا ليس لـك علم بمشـاركته معي في القدرة وسائر صفات الألوهية فلا تطعهما، لأن الإشـراك باللـه إهلاك للنفس أبديا، ولا يرضى به اللـه، ولا طاعـة لمخلـوق في معصـية الخالق. ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَـأُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ أي مرجـع من آمن ومن كفـر ومن أخـذ بتوصـيتنا ومن تركهـا فأجـازي كلا منكم، وأطلعكم على ما تستحقون.

والآية نزلت في سـعد بن أبي وقـاص، فإنـه حين أسـلم أمرتـه أمـه أن يتراجع فلم يطعها، وأمره رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم بصـلتها والعطف عليها

﴿وَالَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَنُـدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّـالِحِينَ﴾ أي في زمرة الخيار منهم في الدين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أي في سبيل الله بأن عذبهم المشـركون على الإيمـان باللـه تعـالى ﴿جَعَـلَ فِتْنَـةَ النَّاسِ﴾ وتعذيبهم له في الـدنيا ﴿كَعَـذَابِ اللَّهِ﴾ أي كتعـذيب اللـه تعـالى لـه في الآخرة، فجزعوا من ذلك ولم يصبروا عليه، وأطاعوا الناس ورجعوا إلى الكفر، والعياذ بالله ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي للمؤمنين بأن صـارت لهم غنيمة ﴿لَيَقُـولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ فأشـركونا فيمـا عنـدكم من الغنـائم والخيرات ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُـدُورِ الْعَـالَمِينَ﴾ والجـواب: بلى أي فيعلم أن أولئك الناس كانوا من الكافرين ولم يكونوا مع المسلمين ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُـوا﴾ مخلصـين للـه ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَـافِقِينَ﴾ في الدين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَـا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَـيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَـالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُـوا﴾ أي أنهم لتـوغلهم في الكفر وشدة حالهم فيه ومحبتهم له يسعون في إرجـاع المسـلمين إلى الكفر ويعدونهم بحمل خطاياهم، كمـا قـال تعـالى ﴿وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُـوا اتَّبِعُـوا سَـبِيلَنَا﴾ السـابق الـذي كنتم فيـه معنـا ﴿وَلْنَحْمِـلْ خَطَايَـاكُمْ﴾ إن كـان ذلـك خطيئـة ﴿وَمَـا هُمْ بِحَـامِلِينَ مِنْ خَطَايَـاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قليـل أو كثـير ﴿إِنَّهُمْ لَكَـاذِبُونَ﴾ في أنهم يحملونهـا، لأن أحـدا لا يحمل أوزار أحد

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي أثقال ما اقترفوه من الكفر والفسوق والسعي في إرجاع المسلمين إلى الضلال ﴿وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ هي أثقال تسببهم في إضلال المسلمين وإرجاعهم إلى الكفر إذا لم يطيعوهم وما يساوي أثقال كفرهم الإرتدادي إذا أطاعوهم بدون أن ينقص من أثقال المطيعين شيىء ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكلمات الكاذبة التي ينطقون بها في خدع الناس وردهم إلى الضلال.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ تذكير لرسوله صلى الله عليه وسلم بسنته التي مرت في العالم بين الأنبياء وأممهم بإطاعة بعض وعصيان بعض، وبأن العاقبة الحسنى للمتقين، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ أي فيدعوهم ويرغبهم في الطاعة ويرهبهم عن المعصية لاسيما الإشراك الذي هو رأس الخطايا ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ والظاهر أن هذه المدة مدة دعوته الناس إلى الله، وأما عمره قبل ذلك وبعده فغير

مقصود بالذكر، وطول أعمار الأحياء تحت قدرة من بيده الخلق والإحياء والإماتة. ولا مانع من أن يكون هناك أسباب لقوة الأجساد وتركيبها ومقاومتها للأمراض والأعراض فإن ذلك مما يدعيه أهله ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ عقيب المدة المذكورة على قضاء مقرر من الله. والطوفان مصدر يطلق على كل ما يطوف بالشيء على شدة سواء كان سيلا أو نارا أو ريحا أو عدوّا أو غيرها ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي والحال أن القوم ظالمون أنفسهم بالإشراك وسائر المعاصي ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي نوحا ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً﴾ أي عبرة وعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ منصوب بأذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ العابدين للأصنام ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحده ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ عن أن تشركوا به شيئا ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مما أنتم عليه في الواقع ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون الحقائق وتميزون بين الخير والشر ذلك لأن عبادتكم التي أنتم عليها لا منفعة فيها، ولا يوافق واقع العقل ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ﴾ أي وتختلقون ﴿إِفْكًا﴾ أي كذبا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يصل إليكم لانتفاعكم من المأكل والمشرب والملبس والمسكن وغيرها ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ أي اعبدوا الله وحده ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على نعمه التي لا تحصى ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فاعبدوه كي ترجعوا إليه وأنتم مقبولون ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ولم تكن عاقبتهم إلا الخسران المبين ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي التبليغ الواضح للمكلفين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)﴾

قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ كلام من جانب الباري سبحانه يستنكر به إنكار الناس للبعث وإهمالهم للنظر في الدلائل الدالة على وجود خالق واجب الوجود يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. أي أو لم ينظروا إلى كيفية خلق الله تعالى للحوادث سواء كانت لها مادة سابقة كالأولاد من النطف، والشجرات والمزارع من البذور؟ أو لم تكن لها مادة كذلك كخلقه تعالى لبعض أشجارٍ ونباتِ أورادٍ لم تكن أمثالها موجودة في البلاد ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي ثم بعد فناء ذلك المخلوق في وقته المعين يعيده

في السنة التالية مثل ما كـان أو أحسـن منـه. فهـذه الحـوادث المرئيـة التي يرونها بالعين ثم تفنى ثم تعاد دليل على أن اللـه سـبحانه وتعـالى يخلـق عبـاده في الـدنيا ويـربيهم ويـرزقهم ثم يميتهم، وإذا جـاء وقت البعث يعيدهم ويبعثهم وليس ذلك من قدرة الله تعالى إلا كخلق النبات والأوراد ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور من الخلق وإفنائـه ثم الإعـادة ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ تعالى ﴿يَسِيرٌ﴾ سهل لا تعب فيه بالنسبة لقدرته تعـالى فـإن الممكنـات متساوية بالنسبة إليه تعالى ﴿قُلْ﴾ يا إبراهيم لقومك سـيروا في الأرض وانظـروا إلى الموجـودات المدركـة فيهـا ﴿كَيْـفَ بَـدَأَ﴾ اللـه ﴿الْخَلْـقَ﴾ فأنشأها من العدم ورباها وأوصلها إلى منتهى ما قـرر لهـا من المـراتب وهي على أطوار متنوعة وعلى جهات شتى من الأفكار والأعمال. فهـذا البدء والإنشاء المعلومـان دليـل على قدرتـه تعـالى على الإعـادة، فـإذا تفكرتم فيها علمتم أنه تعالى يبـدأ خلـق مـا شـاء ثم يفنيـه ويميتـه ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ﴾ بعد هذه النشأة الأولى التي ترونها وإذا جاء وعد الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عبـاده ﴿وَيَـرْحَمُ مَنْ يَشَـاءُ﴾ منهم ﴿وَإِلَيْـهِ﴾ تعـالى لا إلى غـيره ﴿تُقْلَبُـونَ﴾ أي تُـرَدّون ﴿وَمَـا أَنْتُمْ بِمُعْجِـزِينَ﴾ للـه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي بالهرب منه والالتجاء إلى ملجأ ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ كـذلك ﴿وَمَـا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتـولى أمـركم فيحرسـكم من البلايـا ويمنـع نزولهـا ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعه عنكم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ﴾ البينات الدالـة على قدرتـه في كـل مـا أراد التصـرف فيـه ﴿وَ﴾ كفـروا بـ ﴿لِقَائِهِ﴾ أي بـالبعث بعـد المـوت ﴿أُولَئِكَ يَئِسُـوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَـذَابٌ﴾ مهين محقـر لهم على رءوس الأشـهاد في الآخـرة و﴿أَلِيمٌ﴾ شـديد الألم لا يسـتطاع تحملـه في هـذه النشأة ولكن لا ممات في النشـأة الآخـرة فيبقـون معـذبين ﴿فَمَـا كَـانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي قوم إبراهيم عليه السلام ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي أمـراؤهم لغلمانهم أو بعضهم لبعض

﴿اقْتُلُوهُ﴾ أي إبراهيم ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ واتفقت كلمتهم أخيرا على إحراقه فأوقدوا له نارا ملتهبة عديمة النظير، ورموه فيها بالمنجنيق، وكان اليوم يوما مشهودا رهيبا فأنجاه الله من النار كما قال تعالى ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ﴾ عجيبة عظيمة عالمية ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وآياته.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطبا لهم بعد نجاته منها: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لتجعلوا عبادتها والاجتماع عندها ذريعة لمحبة بعضكم مع بعض في ما بينكم لاستفادة ما ينفعكم في الحياة الدنيا أي أن عقلاءكم وساستكم يعلمون أن ليس وراء عبادتها منفعة واقعية إلا هذه الأشياء التي ذكرناها ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عندما يظهر الحق ويزهق الباطل ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي بعض الكفار الصغار يكفر بالبعض من الكبار، ويقول له: أنتم الذين أغويتمونا وعودتمونا على هذه الخرافات ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ أي يلعن فريق منكم فريقا آخر على المنهج نفسه ﴿وَمَأْوَاكُمُ﴾ جميعا الكافر والمكفور واللاعن والملعون ﴿النَّارُ﴾ نار جهنم التي برزت للغاوين ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلصونكم هناك كما خلصني ربي من ناركم الموقدة في هذه الدنيا ﴿فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ أي فآمن به ابن أخيه لوط عندما استنبأ الله إبراهيم واستقر على الدعوة إلى التوحيد ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم بعد النجاة من النار ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من وطني العراق ومن قومي الوثنيين ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أي إلى الجهة التي أمرني ربي بالمهاجرة إليها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي ووهبنا لإبراهيم إسحق ولدا من صلبه ويعقوب نافلة له ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فمن ذريته إسماعيل وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما أن من ذريته إسحاق

ويعقــوب ونســله الأســباط الاثنــا عشــر الــذين انتشــرت فيهم النبــوة والكتاب، وكما أن من ذرية ابنــه مــدين شــعيب عليهم السـلام ﴿وَآَتَيْنَـاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ بإنجائه من النار ومن نمرود الجبار، وتوفيقه على بنـاء الكعبة المشرفة، وقبول دعوته في ذريته، وإبقاء لسان الصـدق لـه في الآخرين ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآَخِـرَةِ لَمِنَ الصَّـالِحِينَ﴾ أي الراسـخين في الصّـلاح المثابين بجزيل الثواب إلى أبد الآبدين.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَـدٍ مِنَ الْعَـالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجَـالَ وَتَقْطَعُـونَ السَّـبِيلَ وَتَـأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَـانَ جَـوَابَ قَوْمِـهِ إِلَّا أَنْ قَـالُوا ائْتِنَـا بِعَـذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَـةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًـا قَـالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَـا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جَـاءَتْ رُسُـلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَـاقَ بِهِمْ ذَرْعًـا وَقَـالُوا لَا تَخَـفْ وَلَا تَحْـزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَـانَتْ مِنَ الْغَـابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُـونَ عَلَى أَهْـلِ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَـدْ تَرَكْنَـا مِنْهَـا آَيَـةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)﴾

قوله: ﴿وَلُوطًا﴾ عطف على إبراهيم ومنصوب بفعل مقدر، أي أذكر لوطا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ موبخا لهم ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي الفعلة الفاحشة حالكونها ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي إنكم أبدعتم هذه الفاحشة فعليكم وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة. ثم استفهم على سبيل الاستنكار وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي تطأونهم ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ أي تقطعون الطريق المعتاد لسير الناس مخافة أن تفعلوا بهم هذه الفاحشة ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ من الهمز واللمز والحذف بالمارين وغير ذلك من أعمالكم القبيحة الحقيرة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تهددنا به وأنت على بصيرة عن وقوعه ونزوله. ولما أن جاوبوه بهذه العبارة ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة وغيرها من وجوه الفساد. ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ أي بالبشارة بإسحاق ويعقوب ﴿قَالُوا﴾ أي لإبراهيم ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي قرية سدوم وهي أكبر قرى قوم لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ بابتداع الفاحشة وغيرها من أنواع المعاصي. ﴿قَالَ﴾ أي إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فكيف تهلكون أهلها ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين في القرية حتى تهلك مع أهلها.

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ أي عرض المساءة والسآمة عليه انفعالا وتألما من ترقب تعرض أهل قريته لهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي وضاق بتدبير أمرهم ونجاتهم طاقته فإن ضيق الذرع كناية عن عدم القدرة بالأمر ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي لا تخف من تمكنهم منّا ولا تحزن على سوء قصدهم إيانا أبدا ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ فلا يصيبكم العذاب ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ﴾ في قضاء الله ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين في العذاب.

وقوله تعالى ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾ أي إنا منزلون بـأمر اللـه تعـالى ﴿عَلَى أَهْـلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ الظالم أهلها ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي عذابا نازلا منها ﴿بِمَـا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم، ثم قـال تعـالى ﴿وَلَقَـدْ تَرَكْنَـا مِنْهَا﴾ أي من قرية لـوط ﴿آَيَـةً بَيِّنَـةً﴾ أي علامـة واضـحة على عظمتنـا وغلبـة قدرتنا وهي الآثار الباقية المشهودة. وقيل: هي الماء الأسود على وجــه الأرض. وقيل: هي الحجـارة الـتي أمطـرت عليهم... وتلـك الآيـة نافعـة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَـوْمَ الْآَخِـرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَـةُ فَأَصْـبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَـدَّهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ وَكَـانُوا مُسْتَبْصِـرِينَ (38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَـى بِالْبَيِّنَـاتِ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْـهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)﴾

قوله تعـالى ﴿وَإِلَى مَـدْيَنَ﴾ أي أرسـلنا إلى أهـل مـدين ﴿أَخَـاهُمْ شُـعَيْبًا فَقَـالَ﴾ لهم ﴿يَـا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ﴾ وحـده ﴿وَارْجُـوا الْيَـوْمَ الْآَخِـرَ﴾ أي وتوقعوا رحمته ومغفرته عند ذلك. وأما إذا لم تعبدوا اللـه وحـده فـأنتم كافرون ولا مجال لتوقع المغفـرة ﴿وَلَا تَعْثَـوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِـدِينَ﴾ أي ولا تفسدوا

في الأرض بما يقـال لـه إفسـاد قليلا أو كثـيرا؛ فالحـال مؤكـدة لمعـنى العامل ومعنى التأكيـد ذلـك ﴿فَكَـذَّبُوهُ﴾ في رسـالته ونصـيحته وتهديـده ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة الشديدة، وجاء في سـورة هـود ﴿وَأَخَـذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ ولا منافاة فهناك ذكر السبب وهنا المسبب فـإن الرّجفة نشأت من تلك الصّيحة. وإذا قيل: إن الصيحة والصوت الشـديد كـان من انشـقاق الأرض فالانشـقاق أيضـا حـادث بقـدرة اللـه والملـك الصائح مأمور من الله ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي بـاركين على الرُّكَب، وهو كنايـة عن المـوت أي فأصـبحوا ميـتين. ولا يلـزم من ذلـك بقـاء جثثهم لأن منهم من وقـع تحت الأرض، ومنهم من دفعتـه الزلزلـة إلى غير المحلّ المستقرّ، والمقصود أنهم مـاتوا هنـاك ﴿وَعَـادًا وَثَمُـودَ﴾ أي وأهلكنا عاد وثمودا ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي وقد ظهر لكم إهلاكهم من مشـاهدة تـدمير مسـاكنهم ويجـوز أن يكـون الفاعـل من بمعنى بعض أي وقـد ظهـر لكم بعض أجـزاءِ مسـاكنهم المـدمرة بحيث تطلعـون من ذلـك على فنـاء سـكانها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ﴾ بالاغترار والأهواء الباطلـة ﴿فَصَـدَّهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ﴾ المعهـود لعبـاد اللـه المؤمـنين ﴿وَكَـانُوا مُسْتَبْصِـرِينَ﴾ أي عقلاء بصـراء في الـدنيا وكـان بإمكانهم التمييز بين الحق والباطل لو كانوا متفكرين.

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ أي وأهلكنا. وإنما قدم قارون للدلالـة على أن الاغترار بالمال ربمـا يكـون أفحش من الاغـترار بالسـلطنة والجـاه، ولتسلية الرسول صلى الله عليـه وسـلم في ابتلائـه على أيـدي أقاربـه وذلك لأن قارون كان ابن عم موسى أو ابن خالته، ومـع ذلـك حفـر لـه بئرا يضيع فيها شخصه وشرفه، ولكن لا يحيـق المكـر السـيء إلا بأهلـه ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأدلة الواضحة على وجود اللـه تعـالى وقدرته

وثبوت شريعته ورسله ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ من قبول الإيمان ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي فائتين أمر الله أي ما خلصوا وقد أدركهم رب العالمين.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ وإذا علمت استكبارهم فاعلم أن كلا منهم أخذناه وعذبناه بسبب ذنبه ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي ريحا شديدة الهبوب والتموج فيها حصباء تلقيها عليهم وهم قوم عاد ولوط ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم قوم ثمود ومدين ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وهو قارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعون ومن معه وكذا قوم نوح عليه السلام ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي وما كان الله تعالى محبا للمعاملة معهم معاملة تشبه الظلم، أي يأخذهم بدون كفر وعصيان ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالإشراك والاعتداء على نفوس الناس وأموالهم وأحوالهم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ المثل الشأن والصفة العجيبة، والعبارة تحتمل تشبيه المفرد بالمفرد. ويحتمل

التشـبيه المـركب وبمـا أنّ المقصـود من التشـبيه لا يتحقـق بتمامـه إلا بملاحظة الـمُلابِسات فالأحسن أن يعتبر من التشبيه المركب، وحاصــله أن صـفة الـذين اتخـذوا من دون اللـه أوليـاء من الأصـنام المصـنوعة الجامدة التي لا يحصل منهـا أي نفـع أو ضـرر مـع أنهم يعتمـدون عليهـا ويفرحون بها كمثل العنكبوت حيث اتخذت بيتـا وسـكنته واطمـأنت بـه، وتحسبه مستقرا رصينا حصينا، والحال ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ المبنيـة من جانب الإنسان والسّباع والطيور والحشرات ﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُـوتِ لَـوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ﴾ بالمآل لمحاولاتهم البائسة اليائسة ما اتخذوا الأوثان والأصـنام أولياءَ ولكن لا يعلمون.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ مِنْ شَـيْءٍ﴾ ومـا إمـا نافيـة أي يعلم أنهم لا يدعون شيئا له قيمة، أو استفهامية ومعلقة لما قبلها عما بعدها، أو موصولة أي يعلم الذي يدعونه من دونه فيكون من شيء بيانية، كمـا يحتمل أن تكون مصدرية ﴿وَهُـوَ الْعَزِيـزُ﴾ الغـالب على أمـره ﴿الْحَكِيمُ﴾ في الإمهـال والاسـتعجال للكـافرين ﴿وَتِلْـكَ الْأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ لتوضـيح المعقـول بتشـبيهه بالمحسـوس ولتزكيـة النفـوس عن أقـذار الجهل وأوساخ الكفر ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَـالِمُونَ﴾ أي ومـا يفهم الـدقائق المودعة في تلك الأمثال ونتائجها ومدى تأثيرها في العقول إلا العالمون بالأمور المتبصرون ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهمـا ومـا في ضـمنهما ومـا عليهمـا ومـا يصـدر من سـكانهما ﴿بِـالْحَقِّ﴾ أي الوجـه المطابق للواقع فكيف يكـون الخلـق أو إرسـال الرسـل وإنـزال الكتب عبثا؟ بل كل ذلك حق روعي فيـه الحكم والمصـالح ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿اتْلُ مَـا أُوحِيَ إِلَيْـكَ مِنَ الْكِتَـابِ﴾ أي لازم تلاوتـه لأنهـا شـرح للصـدر، وتيسير للعسر، وتقرب إلى الله، ورفعـة للـدرجات ﴿وَأَقِمِ الصَّـلَاةَ﴾ أي أقمهـا كمـا تعلمهـا أنت وبكيفياتهـا الـتي شـرعت لهـا ﴿إِنَّ الصَّـلَاةَ﴾ المعهودة التي تؤدى

كمناجاة مع الله سبحانه وتعالى ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أي تدفع اتصاف المصلي بها، ويبقى نظيفا عفيفا وترفعه عن المتوسخ بها فإنهـا دواء يعالج به الداء. ذلك لأن الصـلاة ذكـر اللـه أي تـذكر وجـوده وآلائـه وجوده وحضور للنور الحاصل في ركوع المصلي وسجوده ﴿وَلَـذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ثوابا ودرجة من غيره لأن غيره وسيلة والـذكر غايـة وأين البدايـة من النهايـة؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَـا تَصْـنَعُونَ﴾ من الخـير والطاعـة فيجـازيكم على ذلـك أحسـنَ المجـازاة. وممـا يصـنعه النـاس صـلاتنا في الأوقـات الخمس، وعليها درجات في فعلها على مقدار إحسان فاعلهـا، ودركـات في تركها. ونسأله تعالى الفـوز برحمتـه والخلاص من موجبـات نقمتـه، إنه هو السميع المجيب.

الجزء الحادي والعشرون

﴿وَلَا تُجَـادِلُوا أَهْـلَ الْكِتَـابِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَـا وَإِلَهُكُمْ وَاحِـدٌ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ (46) وَكَـذَلِكَ أَنْزَلْنَـا إِلَيْـكَ الْكِتَـابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَـا إِلَّا الْكَـافِرُونَ (47) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُـونَ (48) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)﴾

قوله ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي لا تتكلموا معهم في قالب المناظرة والجدال ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالخصلة أو الصورة التي هي أحسن الصور الممكنة هناك كمعارضة الخصومة بالصداقة، والخشونة باللين، والمشاغبة بالمناصحة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالتجاوز عن حدود الدين بأن لا يستساغ كلامه ومرامه، وكلما تأدبت معه عذبك بالقول البذيء فعند ذلك دافع عن دينك بما هو الحق إذا أمكنك، وإلا فسلم عَلَيه واتركه وما لديه. ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن الكريم الجليل والتوراة والإنجيل ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ولا مثيل ولا ولد ولا نظير ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فإن هذه العبادة الصحيحة السّليمة تكون بيانا للجهة الجامعة وجهة الوحدة الإسلامية لمن يريد الإسلام

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي وكما أنزلنا إلى الرسل السابقين الكتاب من عندنا وبوحي منا بحيث لم يرد عليه أي خلل أنزلنا إليك الكتاب المستبين وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهديناهم إلى السعادة كعبد الله بن سلام وأضرابه، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي من العرب ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وهم الذين هداهم الله لما يحبه ويرضاه ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ المتعمقون في الضلال.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ وقد أنزل عليك الكتاب جامعا لسعادة الدارين من كافة النواحي ومانعا من كل الرذائل النفسية والأعمال السيئة، ولو نظر عاقل منصف إليك لعلم أنك لرسول وأن كتابك وحي منه، ولو كنت تتلو وتخط قبل ﴿إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي أعرض عن كل قول صادر عن جاهل أو معاند متجاهل ادعى أن القرآن كتاب استنسخه محمد عليه السلام من بعض الناس الذين أملوه عليه، فإن ذلك لا يمت إلى الواقع قطعا فإن العالم المشاهد له علم أنه لم يكن يقرأ ولم يكن يكتب وما دارس وما مارس أهل القراءة والكتابة، ولم يكن في جزيرة العرب آنذاك رجل فصيح بليغ يتكلم بكلام عربي مبين يسمع منه ويكتب كلامه فضلا عن إنسان تصل درجة فصاحته وبلاغته إلى ما يقارب درجة القرآن الكريم، وإنما القرآن آيات بينات واضحات الدلالة على المعتقدات والأحكام وما تحتاج إليه الأمة من كافة نواحي الحياة، وهي ثابتة في صدور الذين أوتوا العلم، نزلت أولا على قلب سيد من أوتي العلم وهو محمد صلى الله عليه وسلم فقرأه على أصحابه فحفظوه في صدورهم، فكانت سطورهم في صدورهم، ولم يستقر إلا في قلوب صافية عن الأكدار وممتلئة من الأنوار، ولحفظه وبقائه بمرور الزمان أمر الكُتَّاب الأمناء ليكتبوه،

فيكـون المكتـوب سـندا لمـا حفظـوه، ومـا حفظـوه سـندا لمـا كتبـوه، فيكونان أي المحفوظ والمكتوب متعـاونين في بقـاء هـذا النـبراس بين طبقات الناس، وقد بقي مأمونا محفوظا بصيانة اللـه تعـالى كمـا قـال تعالى: ﴿) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَـهُ لَحَـافِظُونَ﴾ فصـدور الـذين أوتـوا العلم عبارة عن صدور الملك جبريـل وسـيدنا محمـد الجليـل وأصـحابه الكـرام الأمنـاء الحـافظين للتنزيـل، وتشـمل كـل من يحفظـه من المسلمين جيلا بعد جيل.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا﴾ المنزلة مع الروح الأمين على حبيبي المبعوث رحمة للعـالمين ولا يقـول أنهـا ليسـت من اللـه وإنمـا هي مـأخوذة من بعض الكتـاب الأجـانب ﴿إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ على العلم والعقـل وعلى التـأريخ والنقل.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آَيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآَيَـاتُ عِنْـدَ اللَّهِ وَإِنَّمَـا أَنَـا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَرَحْمَـةً وَذِكْـرَى لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ (51) قُـلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَـهِيدًا يَعْلَمُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آَمَنُـوا بِالْبَاطِـلِ وَكَفَـرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِـرُونَ (52) وَيَسْـتَعْجِلُونَكَ بِالْعَـذَابِ وَلَـوْلَا أَجَـلٌ مُسَــمًّى لَجَــاءَهُمُ الْعَــذَابُ وَلَيَــأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَــةً وَهُمْ لَا يَشْــعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـافِرِينَ (54) يَـوْمَ يَغْشَـاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُـوا مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (55)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ الضمير راجع إلى أهل الكتاب. أي قالوا لولا أنزل عليه آيات من خوارق العادات مثل ناقة صالح، وعصا موسى عليهما السلام ﴿قُلْ﴾ في جوابهم ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ الخوارق الكونية ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينزلها حسب مشيئته وليست داخلة تحت تصرفي ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فمن أنذر أعذر. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ أي أولئك الطالبين لنزول الخوارق ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي أليس من الخوارق في الكائنات والآيات البينات ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ فيسمعونه ويفهمونه، ويعلمون أنه عبارة عن آيات فيها جُملٌ ومفردات مصوغة من حروف الهجاء التي أمام أيديهم وهم أهل اللغة والأدب والفصاحة والبلاغة مع أنهم يتحيرون من سماعه ويندهشون من أقراعه ولا يقدرون على أن يأتوا بمثل كله أو سورة من مثله ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ أنه كتاب استوعب نظام الحكم بالعدالة بين كافة الناس من كافة الجهات وأنه يراعي كل فرد وجماعة ويؤتي كل ذي حق حقه؟ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ أنه كتاب أخبر عن قصص الأمم الماضية وأنبيائها وتكلم عن مصيرهم وأنبأ عن مغيبات أخرى لم يدركها أحد من الناس؟ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ أنا أنزلنا عليك كتابا يتطرق إلى الإلهيات والماديات من العلويات والسفليات بحيث يتحير فيه أكابر العلماء الفلكيين والرياضيين؟

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ أنا أنزلنا عليك الكتاب الآتي بالصدق في المدح والقدح ولم يتجاوز الحق والواقع قيد شعرة عند أهل الشعور؟ فحقيقة الخارقة الكونية ذلك وليس منحصرا في عصا تنقلب حية، أو نهر يتوقف عن التموج ويتفرق جانب منه عن جانب بل تلك خارقة تدهش عقول الماديين، وهذا الكتاب خارق يدهش أرباب الروحانيات والمعنويات وأصحاب الأفكار السليمة المتطورة، وأين تلك من هذا؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الكتاب ﴿لَرَحْمَةً﴾ عظيمة عامة ﴿وَذِكْرَى﴾ أي تذكرة هامة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقوم همهم بل أهم

مطالبهم الإيمان بخالق هو بديع السماوات والأرض الذي بيده مفاتيح الغيب ﴿قُلْ﴾ لأولئك الناس الذين يدعون أنك لست برسول الله أو لست بمبلغ آياته إلى الناس ﴿كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي عالما حق العلم برسالتي إلى الناس كافة وبتبليغي اياها إليهم حسب الأصول حالكونه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء فضلا عن شأني وشئونكم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما اتخذوه من الأصنام ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ الذي هو الواجب الخالق المعبود ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون في الدنيا والدين ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي كفار قريش ﴿بِالْعَذَابِ﴾ على وجه الاستهزاء ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ حسب استعجالهم ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني أنهم يستعجلون عذاب الآخرة تعننا واستهزاء وإن جهنم لمحيطة بالكافرين استيعابا وعذابا أي إن ما طلبوه من عذاب الآخرة إنما طلبوه لجهلهم به وبشدته وباستيعابه وإحاطته وإن جهنم لمحيطة بالكافرين. ولو علموا بذلك ما طلبوه ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي من فوق رءوسهم ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ﴾ القائل الصادق ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملون.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ نزل في المستضعفين من المؤمنين بمكة، امُروا بالهجرة عنها. يقول تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي ان لم تمكنكم العبادة في مكة فهاجروا إلى المدينة مثلا. وقال بعضٌ: الحكم عام لكل من لم تتسهل العبادة له في أرض، أي إذا لم تتيسر لكم العبادة في أرض فاخرجوا منها إلى حيث تمكنكم العبادة برحابة الصدر.

ويظهر أنه إذا كانت الفتن عامة لم يبق فرق بين أرض وأخرى فالأحسن البقاء في الأرض التي هو فيها، ويلزمَ خويصةَ نفسه.

فالفاء في قوله تعالى: فإياي جزائية للشرط المحذوف، وإياي مفعول لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور، ولا يجوز أن يكون معمولا له لاشتغاله بضميره، فإن أصله فاعبدوني بالياء، وذلك الفعل المحذوف جزاء الشرط، حذف وعوض عنه هذا المعمول، الفاء في فاعبدون هي الفاء الواقعة في الجزاء، إلا أنه لما وجب حذفه جعل المفسر المؤكد له قائما مقامه. وقوله

تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ جاء للترغيب في العبادة الخالصة والهجرة من أرض لا تسهل العبادة فيها إلى غيرها، والمقصود أن الحياة لا تستمر لأي ذي روح ولا قيامة لها، وما دام الأمر كذلك فالهجرة النافعة نافعة. وقوله: ثم إلينا ترجعون جملة مقررة لما سبق.

﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ والغرف العلالي، ومن الجنة بيان لها قدم عليها. وقوله ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ صفة الغرف و﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال عن المفعول و﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ للمدح ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لعدم قابليتها لذلك ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ والمعنى الدواب التي لا تقدر على حمل أرزاقها تساوي الإنسان العاقل الذي يحملها في أصل تقدير الرزق وتيسيره، وإن كان الثاني أقوى من الأول في تدبير تحصيله وأخذه، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ للأقوال ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالأحوال ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي أهل مكة ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بهذه الوضعية المشاهدة ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ للاستفادة منهما ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ إذ لا مجال لهم لإنكاره ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فكيف يصرفون عن الاعتراف بتفرده تعالى بتلك الأمور؟ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي يضيق عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ رزقا أو مرزوقا أو غيرهما ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على اعترافهم بذلك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يعترفون بهذه الحقائق.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾. يقايس الله تعالى في هذه الآية الكريمة بين الحياتين الحياة الدنيوية المحدودة والمتناهية والحياة الأخروية الأبدية الباقية، فيقول: إن هذه

الحياة الأولى ليست إلا كما يلهو ويلعب به الصبيان، يجتمعون عليه ساعة من الساعات ثم يتفرقون عنه، وأما الحياة الثانية فهي حياة مستمرة باقية أبدية لا يدرك العقل لها منتهى. هذه بالنسبة إلى نفس الحياتين لا مع ملابساتهما، وإلا فالحياة الدنيا قد تكون مع أفراح وأشواق ولكن آلامها ومعارضاتها من الألم النفسي والبدني، والعمى والعرج، والمرض والحرج، وضيق المعيشة، وسوء معاملة الناس معه، أو سوء معاملته مع الناس، والحقارة، والذل والهوان، وما يعرض عليه من فراق الأحباب بالغياب والموت، وفقدان الخير وما شاكل ذلك... وحرمان الإنسان من الوصول إلى المقاصد.. فمن هذه الجهات أتعس وأشد وأقسى الأمور الموجودة في العالم، فالغرض من الآية أو نقول: الغاية منها هي أنها منتهية لا قيمة لها بالنسبة إلى الحياة الأخروية فليس من المعقول الاعتماد عليها، والإطمئنان بها، ولاسيما بصرفها في الأمور التي تعود على الإنسان بالخسران والآلام في الدنيا والآخرة، وإلا فليس المقصود أن لا يهتم بالحياة الدنيا بل المقصود أنه يجب صرفها في المنافع وأسباب الثواب والخير ويجب السعي فيها بالتعليم والتربية والعمل الصالح، وتعمير البناء النافع من المساجد والمدارس والمساكن المشروعة، والسعي في الصناعات النافعة له والدافعة للبلايا الواردة من الأعداء، وتوفير وسائل الراحة والاقتصاديات وفنون الطب التي يعالج بها الأمراض والعاهات فإن كل ذلك من مهمات الإسلام لأن الإسلام جاء للتعاون مع العقل في سلوك سبيل سعادة الدارين. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شرط جوابه لما اختاروا عليها الحياة الفانية الموقتة.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)﴾

قوله تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني إن أولئك الكافرين المشركين اعترى عليهم مرض يعارض عقولهم، فإنهم عاقلون ويعلمون أن المؤثر في الكائنات وخالق الأرض والسماوات ومنزل الأمطار هو الله وحده، وإذا سألتهم أجابوا بالحق، وكذلك ﴿إِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ ووجدوا هناك علامة على حراجة الموقف وتموج البحر علموا أن لا منجي لهم إلا الله فـ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ عاودهم المرض النفسي، ودعاهم إلى الشر و﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ على عادتهم السيئة السابقة، فلا تهتم بهم وخلهم وضلالتهم ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم الجلية والخفية التي يعلمونها ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بما أمكنهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك...

ثم أخذ الله تعالى يعدد عليهم من نعمه التي يكفرون بها ما لا مجال لإنكاره، وقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ أي بلدهم ﴿حَرَمًا﴾ مكانا حرم فيه كثير من الأشياء التي ليس حراما في غيره كقلع الأشجار وقطعها وأخذ النبات وقصها إلا نوعا محدودا وصيد الحيوان، و﴿آَمِنًا﴾ أهلُه محفوظين عن التعرض، ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي يختلسون بالأخذ والقتل والنهب ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ وهو الأصنام ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يستحق أي نظر واهتمام

﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ وهي الإيمان والأمان والرزق الموفور المجلـوب لهم من كل مكان ﴿يَكْفُرُونَ﴾ وهي تستوجب الشكر للمنعم وحـده والعبـادة لـه وحـده، ويكـذبون على اللـه تعـالى بأنـه رضـي بإشـراك الصـنم لـه في العبادة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وقال إنه يرضى بعبادة الصنم، ﴿أَوْ﴾ أظلم ممن ﴿كَذَّبَ بِـالْحَقِّ﴾ وهـو توحيـده وإنزالـه الكتـاب وإرساله الرسول المرشد إلى طريق الصواب ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ ومقام ومقر للكافرين. واعملوا أن أولئك الكافرين باللـه ونعمـه نبقيهم في الضلال لأنهم لا يقتبسون من نور الهدى فبقوا حائرين.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ واجتهـدوا لأجـل تحصـيل مرضـاتنا بـأن آمنـوا بنـا وبرسولنا والتزموا ديننا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي لنرشدنهم ولنوصلنهم إلى سبل رضانا فنوفقهم كلا حسب ما يناسبه من كثرة العبادات البدنية، أو التزكية النفسية، أو الإرشادات العلميـة، أو إطعـام الطعـام، أو الخدمـة للأنام، وإخراجهم من الشدائد والظلام، وسائر الأعمـال الـتي كـل منهـا كـركن من أركـان السـعادة في الـدارين، ومنهـا مثلا التوسـل لخلاص المقهـورين وإصــلاح ذات الــبين وتربيــة اليتــامى وخدمــة الغربــاء المحرومين، ومعاونة المعوزين بالمال والجاه عند أهل النفوذ في الدنيا وغـير ذلـك ممـا لا يحصـى من أعمـال المسـلمين.. ذلـك لأن المجاهـد المذكور محسن ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أحسن اللهُ بفضله إلينا في الدنيا والدين برحمته إنه أرحم الراحمين.

سورة الروم، مكية، وهي ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ
اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا
مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ
الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)﴾

قوله تعالى ﴿الم﴾ الكلام فيه مثل ما في أمثاله ﴿غُلِبَتِ الـرُّومُ (2)۔ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ الفعل مجهول، والروم أمة عظيمـة وكـان مقـر سـلطنتها في وقت نـزول الآيـة بلـدة (قسـطنطينية) فتلـك الأمـة كـانت تحـارب الفرس، وقد غلبت في واقعة في أرض تقع بين أذرعات وبُصرى، وهمـا بلـدان من بلاد الشـام، وتلـك أدنى الأرض أي أقـرب أرض من أراضـي دولة الرّوم إلى الحرم المكي.

وتلك الواقعة وقعت بعـد بعث الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم وقبـل الهجرة إلى المدينة المشـرفة ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْـدِ غَلَبِهِمْ سَـيَغْلِبُونَ (3)۔ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع ما بين الثلاث إلى التسـعة أو العشـرة. وقـد غلبت الروم على الفرس كما ذكـر في الآيـة الكريمـة. روي أن فـارس غـزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى فغلبوهم فبلـغ ذلـك النـبي صـلى اللـه عليه وسلم وأصحابه وهم بمكـة، فشـق ذلـك عليهم. وكـان صـلى اللـه عليه وسلم يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهـل الكتـاب من الروم. وفرح الكفار بمكة وشمتوا، فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليـه وسلم فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتـاب، وقـد ظهـر إخواننـا من أهـل فـارس على إخـوانكم من أهـل الكتـاب، وإنكم إن قاتلتمونـا لنظهـرن عليكم، فـأنزل اللـه تعـالى ﴿الم (1)۔ غُلِبَتِ الـرُّومُ﴾ الآيـات.. فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننـا؟ فلا تفرحـوا، ولا يقـرن اللـه تعـالى عينكم فواللـه تعـالى ليظهرن الروم على فارس، أخبرنا بـذلك نبينـا صـلى اللـه عليـه وسـلم فقام إليه أُبيُّ بن خلف فقال: كذبتَ. فقال له أبو بكر رضي اللـه عنـه: أنت أكذب ياعـدو اللـه تعـالى أناحبـك (أي أراهنـك) عشـر قلائص مـني وعشر قلائص منك، وإن ظهرت الروم على فارس غرمتَ، وإن ظهرت فارس غرمتُ إلى ثلاث سنين فناحبه ثم جاء ابـو بكـر الى النـبي صـلى الله عليه وسلم فأخبرهُ، فقال عليه الصلاة

والسلام: ((ما هكذا ذكرتُ، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايدْهُ في الخطر ومادِّهِ في الأجل)). فخرج أبو بكر فَلَقِي أبيّا، فقال: لعلك ندمتَ. قال: لا تعالَ أزايدك في الخطر وأمادّك في الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين. قال: قد فعلتُ. فلما أراد أبو بكر الهجرة طَلَبَ منه أُبَيٌّ كفيلا بالخطر إن غلب فكفل به ابنه عبد الرحمن. فلّما أراد أُبَيٌّ الخروج، إلى أحد طلبه عبدالرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ومات أُبَيٌّ من جُرْحٍ جرحه النبي صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة.

وروي أنه لما ظهرت الروم على فارس أخذ أبو بكر رضي الله عنه الخطر من ورثة أبي وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام تَصَدَّق به. ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي إن القضاء بيد الله قبل الغلبة وبعدها. ولا يتوهمن أحدٌ أن أي الفريقين يغلب الآخر بدون إرادة الباري وقدرته ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أي وفي ذلك الوقت يفرح المؤمنون، ويستبشرون بنصر الله أهل الكتاب على من لا كتاب له، أو يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى لهم على المشركين لأن تلك الغلبة كانت بعد الهجرة وحين ظهرت شوكة للمؤمنين وقوة بعث السرايا إلى أطراف البقاع، ولم يبق زمان الضعف الذي كان في مكة المكرمة ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده على من شاء منهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المبالغ في العزة والرحمة.

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة في قوله تعالى ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾.

﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الله لا يخلف وعده، لأنهم ليسوا مؤمنين بالله العلي العظيم بما يجب له، وما يجوز له، وما يمتنع. وإنما يعلمون منه اسماً فقط ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

وهو ما يحتاجون إليه في المعيشة وما يدخر منه ووسائل تحصيله ﴿وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي وهم غافلون عن البعث والنشور وسائر أوضاع الآخرة ولقاء الله تعالى. ولو كانوا يعلمون تلك الأمور لتنبهوا لمعرفة الذات القادر عليها وعلموا أن الله صادق الوعد ولا يخلفُ الميعاد.

ثم وبخهم على غفلتهم وقصر نظرهم وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني أو لم يتفكروا بأنفسهم بدون ملاحظة الناس وسماع أقاويلهم واشتباهاتهم حتى يعلموا أنه تعالى إله قادر حكيم عظيم، وأنه ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالوجه الحق الموافق للحكمة، وخالق الكائنات بالحق والحكمة، يكون صادق الوعد والوعيد ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ما خلق ما خلقه إلا محدودا بأجل ووقت معين وهو وقت قيام الساعة التي لا يبقى فيها هذه المظاهر والآثار، وإذا جاء ذلك الوقت تحقق فيه وعده تعالى بلقاء الله وحساب الأعمال ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ومن كفر باللقاء كفر بوعده تعالى وبقيام الميزان والحساب.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ أي قلبوها للحرث والزراعة وحفر الأنهار، ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي وعمروها عمارة أكثر من عمارة هؤلاء الموجودين حالا ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات التي تشهد لهم بالصدق كالبينة على الدعوى أو بالآيات الواضحات لبيان العقائد وتشريع الأحكام ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ويعاملهم معاملة تشبه الظلم صورة ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن هم ظلموا أنفسهم حيث تعاموا عن إبصار المعجزات وتصامموا عن سماع المواعظ والإرشادات وتغافلوا عن إدراك الحقائق

وعاندوا الرسل، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ كَـانَ عَاقِبَـةَ الَّذِينَ أَسَـاءُوا السُّـوأَى﴾ كلمة ثم فيه للتراخي في الرتبة، وكان ناقصة، وعاقبة خبرها، والسوءى اسمها، أي وكانت الخصلةُ السـوءى عاقبـة الـذين أسـاءوا مـع الرسـل عليهم السلام. وقولـه ﴿أَنْ كَـذَّبُوا﴾ بتأويـل المصـدر بـدل من السـوءى ﴿وَكَانُوا بِهَا﴾ أي بالآيات ﴿يَسْـتَهْزِئُونَ﴾ عطـف على كـذبوا وداخـل معـه في حكم البدلية وهذا الاعراب إحتمال من احتمالات كثيرة في الآية.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ (11) وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُــونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُــرَكَائِهِمْ شُــفَعَاءُ وَكَــانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّـاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُـونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَـرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَـاءِ الْآخِـرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَـذَابِ مُحْضَـرُونَ (16) فَسُــبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُــونَ وَحِينَ تُصْــبِحُونَ (17) وَلَــهُ الْحَمْــدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا وَكَـذَلِكَ تُخْرَجُـونَ (19)﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ يعـني أن اللـه ينشـئ الخلائـق فيخلقهم ويسويهم ويربيهم ويبقيهم إلى الأجل المسمى فيميتهم، ثم بعد أن مات كلّ حي يخليه في البرزخ إلى يوم البعث ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إلى عالم الجسـم والتركيب السابق ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يسكتون لوقوعهم في دهش ورهبة من هيبة الباري وملاحظة أعمالهم السيئة أو الناقصة التي لا تناسب تقديمها للحساب ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ على مازعموا حتى يجيروهم من العذاب ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي كافرين بوجود شركائهم فضلا عن عزتهم وقابليتهم للشفاعة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي يتفرق كل الخلائق إلى أصناف وجماعات بحسب أعمالهم وأحوالهم وبحسب إخلاصهم وآمالهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ واسعة تسع أهلها ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أي يسرون ويفرحون بما آتاهم الله من فضله.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي وأما الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وجوب التزام الأحكام الإلهية ومن ذلك كذبوا بلقاء الآخرة، وبالبعث بعد الموت فإنه من البديهي أن الذين كذبوا بالآيات يكذبون بالبعث ولقاء الله ولقاء دار الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ موجودون لا يغيبون عنه ولا ينفك عنهم والعياذ بالله ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17)ـ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وإذا علمتم أحوال الناس ومآلهم فلا سبيل إلى الخلاص من العقاب ولا إلى نيل الثواب إلا بالطاعة والذكر والتسبيح، فقولوا: سبحان الله حين تمسون أي تدخلون في المساء، وحين تصبحون أي تدخلون في الصباح. وقوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ مربوط بتقدير القول أي وقولوا وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا معطوف على حين تمسون، وحين تظهرون أي تدخلون في الظهر أي نصف النهار.

وحاصل الآية الكريمة وما دامت أحوال الناس كما عرفتم فمنهم من دخل الجنة والرضوان ومنهم من دخل في عذاب النيران داوموا واستمروا على تسبيح الباري تعالى وتحميده في الأوقات المذكورة حتى

يغلب عليكم الذكر، ولا تكونـوا من الغـافلين، ومنهم من فسـر التسـبيح بالصلاة أي فصـلوا حين تمسـون صـلاة العصـر وصـلاة المغـرب، وحين تصبحون صـلاة الصـبح، ووعشـيا صـلاة العشـاء، وحين تظهـرون صـلاة الظهر.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي الإنسـان من النطفـة ﴿وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كعكسـه ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا﴾ ويخلـق فيهـا قـوة الإنبـات والتنمية بعد أن لم يكن فيها لأنها باليبس والجدب تتعطل تلـك المبـادئ عن العمــل، وإذا نــزل المطــر عليهــا تنبعث وتــدخل في دور العمــل ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أنتم من الأرض عند البعث والنشور، فقـدرة البـاري على هذا مثل قدرته على ذلك.

﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَـرٌ تَنْتَشِـرُونَ (20) وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَـلَ بَيْنَكُمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَــةً إِنَّ فِي ذَلِــكَ لَآَيَــاتٍ لِقَــوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آَيَاتِــهِ خَلْــقُ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِــنَتِكُمْ وَأَلْــوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآَيَـاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آَيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآَيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَسْـمَعُونَ (23) وَمِنْ آَيَاتِـهِ يُـرِيكُمُ الْبَـرْقَ خَوْفًـا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِـأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَــاكُمْ دَعْــوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُــونَ (25) وَلَــهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَـلُ الْأَعْلَى فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (27)﴾

قوله تعالى ﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي ومن أدلته الباهرة الدالة على كمال قدرته أن خلقكم أي خلق أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب ﴿ثُمَّ إِذَا﴾ مفاجأة ﴿أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ في ربوع الأرض لأغراضكم ومقاصدكم، وفي البحر لاستخراج ما ينفعكم أو للسير عليه إلى أماكن تستفيدون، وفي الجو لاكتشاف حقائق علوية ترشدكم إلى معلومات أخرى لم يكن في أذهانكم اكتسابها. ﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ﴾ الدالة على رحمانيته ولطفه ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ونوعكم المألوف المرغوب ﴿أَزْوَاجًا﴾ تألفكم وتألفونها ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بالزواج الذي جمع بينكم وبينهن، فالمودة للألفة النفسانية، والرحمة للعلاقة الإنسانية في وقت المرض والغيبة والحاجة، وبعد الموت لإدارة أولاد المتوفى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ﴾ عظيمة دالة على دقائق آثار قدرته ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ما يحصل من هذه الألفة والتواد والتراحم.

﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ﴾ الظاهرة الدلالة على أنه حي عليم قادر قيوم ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ﴾ بموادها الأثيرية، وكواكبها النيرة الساكنة والسيارة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بما فيها من المنابع والمعادن، وما عليها من النبات والأشجار والأحجار ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ في تقطيع الهواء السيار الذاهب والراجع من الشفتين إلى ما فوق الحلقوم على مقاطع مختلفة ذاتا وصفة ﴿وَ﴾ اختلاف ﴿أَلْوَانِكُمْ﴾ من البياض والسواد والسمرة والحمرة وغيرها، وإن كان للمناخ والقرب والبعد من مدار الشمس ومجاورة البحار والسكون في قمم الجبال وأعماق الوديان تأثير واضح جلي، فإن النوع له أصناف معلومة، وكل فرد من

أي صنف إذا تحول من وطنه إلى وطن مغاير تحول وضـعه من البيـاض إلى السواد ومن اللين إلى الخشونة والعصبية، ومن الطول إلى القصر ومن ملامح وجهه إلى ملامح أخرى كما هو معلـوم بالتجـارب في الأيـام ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ بأنّ الله تعالى جعل في كـل منـاخ نوعـا من السببية لتلك الاختلافات.

﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي جعـل النـوم غالبـا عليكم بالليـل والنهار فيزول عنكم الشعور المعتـاد وتسـتريح القـوى النفسـانية، إذ لا تشـتغل بالأخـذ من الحـواس وتقـوى القـوى الطبيعيـة ﴿وَابْتِغَـاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ومن آياته قوة طلبكم ما يكفيكم أو يزيد عليه من فضـله أي من رزقه أو أسباب تحصيل الرزق من العلوم والصناعات بالليل والنهار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الإرشادات والمواعظ سماعَ قبـولٍ ﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ أي أن يريكم البرق ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي إخافةً لكم من التضـرر بـه، وإطماعـاً في المطـر النـازل بعـده ﴿وَيُنَـزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ ويجعل فيها قوة الإنبـات والتنميـة ﴿بَعْـدَ مَوْتِهَا﴾ من الجــدب ﴿إِنَّ فِي ذَلِــكَ لَآَيَــاتٍ﴾ دالــة على قــدرة البــاري للتصــرف في الســماوات والأرض ﴿لِقَــوْمٍ يَعْقِلُــونَ﴾ أي يســتعملون عقــولهم في إدراك الأســرار الدقيقــة ﴿وَمِنْ آَيَاتِــهِ أَنْ تَقُــومَ السَّــمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بحكمه ونفـوذ قدرتـه فطبقـات السـماوات الأثيريـة من السماء الدنيا إلى السـماء السـابعة ومـا فيهـا من كـرات الكـواكب سواء كانت سيارة أو ثابتة وكذلك كرة الأرض الممزوجة مع الماء ككرة واحدة، كل ذلك حافظة لنفسها في الحركـة حـول مركـز نفسـها، وفي الحركة حول الشمس، وكذلك الشمس لها قوة حافظة لنفسها، ومانعة لها من السقوط في فضاء العالم الواسع جدا ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْـوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي ومن آياته قيام السـماء والأرض بـأمره ثم خروجكم

من قبوركم الموجـودة في الأرض بسـرعة إذا دعـاكم للحسـاب، وذلـك عند البعث الناشئ من النفخة الثانية.

وقوله ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كالتعليـل لمـا قبلـه والمعـنى وخروجكم من قبوركم عند الدعوة إنما هو لأن له ملكا وتصرفا مَنْ في السموات والارض من الإنس والجن والملك ﴿كُلٌّ لَهُ﴾ أي للباري تعـالى ﴿قَانِتُونَ﴾ مطيعون ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الموت ﴿وَهُـوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي والإعادة في النشأة الثانية أهون على الباري تعالى من البدء في مجاري عقولكم وعاداتكم لأن الإبداء خلق بدون مـادة وأصـل مناسب ظاهرا، وأما الإعادة فهي خلـق الإنسـان مثلا في المـرة الثانيـة على الأجزاء السابقة الثابتة بمادتها، ولو تحولت إلى التراب أو المـاء أو الهواء ﴿وَلَـهُ الْمَثَـلُ الْأَعْلَى﴾ أي ولله تعـالى الوصـف والشـأن العجيب الأعلى الذي ليس لغـيره، لأن شـئون واجب الوجـود أرقى درجـةً بـل لا مناسبة لهـا بشـئون الممكن الخـاص الموجـود، وهـذا المثـل جـار ﴿فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ﴾ الغـالب على مـا يريـد ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعله المنزه المجيد.

﴿ضَــرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِــكُمْ هَــلْ لَكُمْ مِنْ مَــا مَلَكَتْ أَيْمَــانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَـأَنْتُمْ فِيـهِ سَـوَاءٌ تَخَـافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَـكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَـعَ الَّذِينَ ظَلَمُـوا أَهْـوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29)﴾

قوله تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي ذكر الله سبحانه وتعالى لكم قصة عجيبة متعلقة بأنفسكم وتعلمونها على حسب وجدانكم

في إبطـال اعتقـاد الشـرك ووجـود الشـريك ﴿هَـلْ لَكُمْ مِنْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَـاكُمْ﴾ يعـني هـل يوجـد لكم شـركاء من ممـاليككم وعبيـدكم الـذين ملكتمـوهم ملـك اليمين في مـا رزقنـاكم ﴿فَـأَنْتُمْ فِيـهِ سَـوَاءٌ﴾ أي أنتم ومماليككم على مقـام وعلاقـة متسـاوية بينكم أي كما أنكم تتصرفون في ما رزقناكم كذلك يتصرف فيه عبيدكم وممـاليككم حـالكونكم ﴿تَخَـافُونَهُمْ﴾ تخـافون من أولئـك المماليـك الشـركاء في التصـرف في مـا رزقنـاكم بـدون إجـازتهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَـكُمْ﴾ أي كمـا تخـافون من شـركائكم الأحـرار في التصـرف فيـه بدونها والجواب لهذا الاستفهام: حاشا وكلا. والمقصود أنتم أيهـا الكفـار المشركون كيف تتجاسرون على اعتقاد الشركاء من الأصنام لله تعالى في السـموات والأرض مـع أنكم لا تقبلـون أن يكـون لكم عبيـد يشاركونكم فيما رزقناكم مـع أنهم انـاس مثلكم ويجـوز أن يكـون بعض منهم أرقى وأعلى شـأنا منكم في العقـل والعلم. ﴿كَـذَلِكَ﴾ التفصـيل بالتمثيل والتشبيه ﴿نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في إدراك الأشياء ﴿بَلِ﴾ إضراب عن مخاطبتهم وتنويرهم بالتمثيل لأنـه ﴿اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائفة ﴿بِغَيْـرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْـدِي مَنْ أَضَـلَّ اللَّهُ﴾ أي لا يوجـد هـاد لمن أضـله اللـه تعـالى ﴿وَمَـا لَهُمْ﴾ أي لأولئـك المتبعين للأهواء ﴿مِنْ نَاصِرِينَ﴾ في الآخرة أبدا.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْـرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لَا تَبْـدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَلَا تَكُونُـوا مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِـزْبٍ بِمَـا لَـدَيْهِمْ فَرِحُـونَ (32) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُـرٌّ دَعَـوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْـهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْـهُ رَحْمَـةً إِذَا فَرِيـقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُـلْطَانًا فَهُـوَ يَتَكَلَّمُ بِمَـا كَـانُوا بِـهِ يُشْـرِكُونَ (35) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَـيِّئَةٌ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيَقْـدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37) فَـآَتِ ذَا الْقُـرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْـكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْـهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (38) وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)﴾

قوله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي لمـا علمت بإنزالنـا الآيـات البينـات هـدى ورحمـة فتلقاهـا المشـركون بالإبـاء والعنـاد، ولم يأخـذوا سـبيل الرشـاد فلا تهتم بهم، بـل توجـه إلى اللـه وارجـع إلى نفسـك لتوجيهها إلى جانب قدسك وأقم وجهك للـدين حنيفـا أي اقصـد واعـزم على إخلاص نفسك لله في إقامة دينه مائلا عن كل الأمور التي اعتادها أولئك الغـافلون والـزَمْ ﴿فِطْـرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ روي عن انس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم ((فطرة الله التي فطر الناس عليها هو دين الإسلام)).

والمـراد بفطـرهم على ذلـك أن الإنسـان المتمـيز بالعقـل السـليم والحواس السليمة إذا خلي وطبعه اعـترف بوجـود خـالق للكائنـات حي عليهم قادر مريد، والتزم النظام السليم الذي هو خـير وسـيلة لسـعادة الدارين، ومتكفل برعاية الحقوق ورفض العناد والعقوق، وهذه الفطـرة خلق الله، ولا تبديل لخلق الله، فإذا خالفها إنسـان فمثلـه كمثـل بصـير يعمى عينـه، ونـاطق يقطـع لسـانه بنفسـه فيقـع في الـدار بين أعمى وأخرس، فالبـاري سـبحانه جهـز الإنسـان للإحسـان، وإذا منـع الإنسـان نفسه عنه فقد ظلم نفسه ﴿ذَلِكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي ذلـك المـذكور وهـو إقامة الوجه لله هو الدين القيم المستوي الذي لا انحـراف فيـه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ (30)ـ مُنِيبِينَ إِلَيْـهِ﴾ حـال من النـاس في قولـه تعـالى فطـر النـاس عليهـا. أي حـالكون النـاس البـاقين على الفطـرة منيـبين إلى اللـه تعـالى راجعين إليـه، ثم غـير الأسـلوب إلتفاتـا إلى الخطـاب فقـال ﴿وَاتَّقُـوهُ وَأَقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَلَا تَكُونُـوا مِنَ الْمُشْـرِكِينَ﴾ المبـدلين للفطـرة الحسـنة بالفعلـة السـيئة واتبـاع الأهـواء والإشـراك بالواجب وصاروا من الضالين ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ الواحـد بتوحيـد معبودهم إلى أصناف، وارتكبوا خلاف الحق وكانوا شيعا طوائف مختلفة على أهواء مزيفة مختلفة يعاند بعضهم بعضا. و﴿كُـلُّ حِـزْبٍ بِمَـا لَـدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي فرحون بما يوجد لـديهم من العقيـدة والـرأي لأنهـا توافـق أهواءهم، وعما قليل يتنـدم منم العـاقلون. ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُـرٌّ﴾ أي شدة ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْـهِ﴾ راجعين إليـه مسـتغيثين ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ يسرا وخلاصا منها ﴿إِذَا فَرِيـقٌ مِنْهُمْ بِـرَبِّهِمْ يُشْـرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من المال والمنال ﴿فَتَمَتَّعُـوا﴾ أيهـا المغـترون بمـا أتـاكم بعـدما آذاكم وكـان الـواجب أن تشـكروا لا أن تكفـروا ﴿فَسَـوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مآل هـذه الغفلـة والفـراغ عن ذكـر رب العـالمين ﴿أَمْ أَنْزَلْنَـا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أم منقطعة أي بل أانزلنا عليهم

سلطانا أي حجة وبرهانا على هـذه الأهـواء الباطلـة والأعمـال العاطلـة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْـرِكُونَ﴾ أي يـدل دلالـة قاطعـة وينتج إنتاجـا ساطعا بحقيـة مـا بـه يشـركون رب العـالمين من أصـنام وأوثـان يبـول عليها الثعلبان.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ من صحة وثروة وجاه وعشيرة ﴿فَرِحُـوا بِهَا﴾ وبطروا ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شدة وبؤس ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي جـزاء على ما قدمته أيديهم من السيئات ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ من رحمته تعالى مع أن باب الرحمة واسع على مصراعيه. ورحم الله من قـال: إن أشـد البلايـا على الإنسـان قنوطـه. ﴿أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُـطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يبسطه وليس ذلك الإنعـام بنفسـه من الإكـرام ﴿وَيَقْـدِرُ﴾ أي ويضيق الرزق على من يشاء وليس ذلك من الإهانة بل كل ذلـك مبـني على تدبير وتخطيط وتقدير رباني موافق لحكمة الملك العلام.

فاذا وجدت الناس على هـذه الأحـوال، وقـل من يعتمـد منهم على ربـه المتعال فتجاوز عنهم ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ من الصدقة وصلة الأرحام ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّـبِيلِ﴾ بمـا يسـتحقانه من كثـير أو قليـل و﴿ذَلِـكَ﴾ الإيتـاء ﴿خَيْـرٌ لِلَّذِينَ يُرِيـدُونَ وَجْـهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ﴾ القـائمون بهـذه الآداب ﴿هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ وهـذه العطايـا هي الـتي يسـتفيد منهـا المسـلمون المعطون والآخذون ﴿وَمَـا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا﴾ أيهـا المتعـاملون المسـتدينون ﴿لِيَرْبُوَ﴾ ويزيد ذلـك ﴿فِي أَمْـوَالِ النَّاسِ﴾ المعطين حـتى يتعـاملوا على ذلك الذي أخذوه بالربـا والآخـذين لهـا ﴿فَلَا يَرْبُـو عِنْـدَ اللَّهِ﴾ لأنـه حـرام والحرام نار والنار محرقـة لا منميـة ﴿وَمَـا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَـاةٍ تُرِيـدُونَ﴾ بـه ﴿وَجْـهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْـعِفُونَ﴾ أي يزيـدون في أمـوال المعطين أضعافا مضاعفة ببركة الإخلاص لله رب العالمين.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَـلْ مِنْ شُـرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40) ظَهَـرَ الْفَسَـادُ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ بِمَـا كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ لِيُـذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) قُلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَـرُهُمْ مُشْـرِكِينَ (42) فَـأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْـهِ كُفْـرُهُ وَمَنْ عَمِـلَ صَـالِحًا فَلِأَنْفُسِـهِمْ يَمْهَـدُونَ (44) لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45)﴾

قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يحتمل أن يكون الاسم الجليل مبتدأ والموصول مع صلته خبره، كما يحتمل أن يكون الموصول وصلته صفة له، وجملة هـل من شـركائكم خـبره، لكنّ الإعراب الأول انسب بسياق الكلام مـع المشـركين والاعـراب، لأنهم لا يعترفون بالإحياء والبعث فلا تكون أجزاء الصلة كلها معهـودة ومعلومـة لهم. والمعنى اعبدوا الله وحده فإن الله هـو ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ في بطون أمهاتكم وبعـد الخـروج منهـا إلى ممـاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عنـد آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث والنشور. ومن كانت هذه الأفعـال صـادرة منه فهو المسـتحق للعبـادة فـ ﴿هَـلْ مِنْ شُـرَكَائِكُمْ﴾ المزعـومين ﴿مَنْ يَفْعَـلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَـيْءٍ﴾ والجـواب لا. فقـل ﴿سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)ـ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالجدب والموتان وكـثرة الحرق والغرق ومحق البركات وغيرهـا ﴿بِمَـا كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ﴾ أي بشـؤم معاصـيهم الـتي نشـأت من قـوتهم، فلا عجب في ذلـك الفسـاد ليكون جزاء وفاقا ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ أي الناس

﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي جزاء بعض أعمالهم السـيئة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ﴾ إليه ويتوبوا عن تلك السيئات. وهذه سنة اللـه في خلقـه، فـإن صـدقوا بها فذاك، وإن أنكروها فـ ﴿قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ لتشاهدوه ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ فابتلاهم الله تعالى بالتدمير والإهلاك فكانوا من الهالكين ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ القائم المستقيم جدا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ من أيّ رادّ لأنه كان ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ وقد شاءه وما شـاء اللـه كـان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يـوم البعث الذي لا مردّ له ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يتفرقون فريقا فريقا، ففريق إلى الجنة وفريق إلى السعير. ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ولا ينال جـزاء كفـره غـيره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي فيمهدون ويسوون لأنفسهم منزلا في الجنة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فلا يجزيهم إلا بما يستحقون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَـاحَ مُبَشِّـرَاتٍ وَلِيُـذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِـهِ وَلِتَجْـرِيَ
الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَـوْمِهِمْ فَجَـاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَانْتَقَمْنَـا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُـوا
وَكَـانَ حَقًّا عَلَيْنَـا نَصْـرُ الْمُـؤْمِنِينَ (47) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ فَتُثِـيرُ
سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ
مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِـرُونَ (48)
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِـينَ (49) فَـانْظُرْ إِلَى
آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًـا فَـرَأَوْهُ مُصْـفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ
بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَـوْتَى وَلَا تُسْـمِعُ الصُّـمَّ الـدُّعَاءَ إِذَا
وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْـمِعُ إِلَّا مَنْ
يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ الرياح المبشرات بالأمطار هي الشمال والصبا والجنوب، فإنها رياح الرحمة. وأما الدبور فريح العذاب. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا)) وذكروا أن الثلاثة الأول تلقح السحاب الماطر وتجمعه، فلذا كانت رحمة. وأما الدبور فللبلاء، وأهونها أن تثير غبارا.

﴿وَلِيُذِيقَكُمْ﴾ أي الباري تعالى عند هبوب الرياح ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يريد المنافع التابعة لها لسقي الأشجار، وتصفية الحبوب في البيادر، وإزالة الغبار عن أوراق الأشجار، وتنشيط المرضى والمتعبين ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني السفن التجارية ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا بالرياح ركوب السفن البحرية التي كانت تسير بقوتها عند الهبوب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بظهورها لأنها أمارات الخير ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي فكذبوهم ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بالتكذيب ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ متصلا ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ سائرا أو واقفا ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ أي قطعات متفرقة منفصلة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ في حالتي الاتصال والانفصال ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالأمطار النازلة على مزارعهم ومراتعهم

﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل السحاب ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي آيسين قانطين ﴿فَانْظُرْ إِلَى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ﴾ الخالق القادر الحكيم الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي لقادر على أن يحيي ﴿الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي فرأوا السحاب الحاصل منها مصفرا يدل على عدم وجود المطر فيه ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ بالله جهلا وسفها وتزلزلا من قلوبهم السخيفة فأولئك الناس موتى في القلوب و﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ إلا بقدرة الله تعالى ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وإنما قيده بالظرف لأن الأعمى المستقبل قد يدرك شيئا بعلامة ما، وأما الأعمى المستدبر فكما لا يسمع لا يرى العلامة على الدعوة حتى تحصل له حالة تشبه السماع ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ عَمىً ناشئا ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي عمى ناشئا عن فقد البصيرة وفقد الإيمان ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ وتهدي ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ومنقادون لما تأمرونهم به.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآَيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)﴾

قولـه تعـالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَـعْفٍ﴾ اسـتدلال على وجـوده الواجب بنفوذ قدرته في التكوين وتصرفه في المواد الضـعيفة فيحولها إلى مادة قوية ثم يرجعها إلى شيء ضعيف. ومعنى العبارة: خلقكم من شيء ذي ضعف، أو أنه مثل خلق الإنسان من عجل أي أن الإنسان لما خلق خلق بلا قـوة كأنـه خلـق من عـرض الضـعف، أي ابتـدأكم ضـعفاء وجعـل الضـعف اسـاس أمـركم ﴿ثُمَّ جَعَـلَ مِنْ بَعْـدِ ضَـعْفٍ قُـوَّةً﴾ بـأن أوصـلكم إلى درجـة النشـاط الـدموي وقـوة الأعصـاب والعضـلات ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ بـأن جعـل الـدم قليلا وجريانـه كـذلك، والعظم بلا رطوبة، والعضلات يابسة، والمعـدة بـاردة فضـلا عن الأمـور التي تساعد الهـرم والشـيبوبة ﴿يَخْلُـقُ مَـا يَشَـاءُ﴾ من الضـعف والقـوة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بكيفية الخلق و﴿الْقَدِيرُ﴾ على تنفيذ ما يعلمه ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ويحشر الناس للحساب والمـيزان ﴿يُقْسِـمُ الْمُجْرِمُـونَ﴾ أنهم ﴿مَا لَبِثُـوا﴾ في الـدنيا ﴿غَيْـرَ سَـاعَةٍ﴾ أي زمانـا قليلا أو جـزء من أربعـة وعشرين جزء من يوم، وذلك لقلة زمان حيـاتهم الدنيويـة بالنسـبة إلى بقـائهم في الـبرزخ أو مـوقفهم الطويـل في المحشـر ﴿كَـذَلِكَ كَـانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي مثل ذلك الإفك والصرف عن الصدق كـانوا يؤفكـون عنـه في الـدنيا. أي كـذبهم هنـا في الآخـرة مثـل كـذبهم في الـدنيا بـاختلاق الأصنام وغيرها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من كبار الإنس المؤمنين ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي علمه مدة متمادية من أيام الدنيا والبرزخ ﴿إِلَى﴾ أن

وصلتم ﴿يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي كنتم تنكرونه ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في الدنيا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا هم يزال عتبهم بالتوبة والندم، إذ لا توبة هناك ولا ينفع الندم إذ ذاك من قولهم: استعتبني فلان فاعتبته أي استرضاني فأرضيته.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد وصفنا الناس بالصفات الكثيرة المناسبة لهم كالمؤمنين والمخلصين والكافرين والمشركين، أو لقد ذكرنا لهم من كل قصة عجيبة أو وصف عجيب يفيدهم التنبه والتوجه إلى الله وتوحيده والاستقامة عليه ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآَيَةٍ﴾ من آيات الله لحملهم على الإيمان والإذعان بحقية دينكم ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون الحقائق أو أمور الدين، أولا يطلبون العلم وإنما يحبون الخرافات والأوهام ﴿فَاصْبِرْ﴾ أي على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أي بنصرك عليهم والانتقام منهم ﴿حَقٌّ﴾ لا ريبَ فيه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي ولا يحملنك على الخفة والاضطراب والقلق النفسي بعباراتهم وجساراتهم ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ولا اكتسبوا الإيقان والإيمان بالشريعة السماوية التي نزلت عليك من القرآن المبين.

سورة لقمان، مكية، وهي أربع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (1) تِلْـكَ آَيَـاتُ الْكِتَـابِ الْحَكِيمِ (2) هُـدًى وَرَحْمَـةً لِلْمُحْسِـنِينَ (3)
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ
عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (5) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْـتَرِي
لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِـلَّ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِـذَهَا هُـزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَـذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْـهِ آَيَاتُنَـا وَلَّى مُسْـتَكْبِرًا كَـأَنْ لَمْ يَسْـمَعْهَا
كَـأَنَّ فِي أُذُنَيْـهِ وَقْـرًا فَبَشِّـرْهُ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ (7) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُـوَ الْعَزِيـزُ
الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِـيَ
أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً فَأَنْبَتْنَـا فِيهَـا
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ
بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11)﴾

قولـه تعـالى ﴿الم﴾ الكلام فيـه كمـا في أمثالـه ﴿تِلْـكَ آَيَـاتُ الْكِتَـابِ الْحَكِيمِ﴾ أي تلك الآيات المشرفة على النزول آيات القرآن الموصـوف بالحكمة في إنزاله مـرة من اللـوح إلى سـماء الـدنيا وتنزيلـه منهـا إلى رسـوله محمـد عليـه السـلام في مـدة ثلاث وعشـرين سـنة، ودلالتـه وتشريعاته للعقائد والأحكام ومقابلته لطبقـات النـاس بمقتضـى الحـال والمقام، حالكون الكتاب ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي هدى للمهتـدين ورحمة للداخلين في الدين العاملين الحسـنات بقـوة الإيمـان والإخلاص لرب العالمين. ثم كشف عن المحسنين بقولـه المـتين ﴿الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّـلَاةَ﴾ أي الفـرائض في أوقاتهـا الخاصـة بخشـوع وتمكين ﴿وَيُؤْتُـونَ الزَّكَاةَ﴾ من أموالهم للمستحقين ﴿وَهُمْ بِـالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُـونَ﴾ أي ومـع أدائهم للواجب يوقنون بمجيء يوم القيامة ونيل الناس جزاءهم ثوابا أو عقابا ﴿أُولَئِكَ﴾ الناس الموقنون بذلك ﴿عَلَى هُـدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الناجون من عذاب رب العالمين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي الحديث الذي يلهي الإنسـان عما يعـني كالأحـاديث الـتي لا أصـل لهـا، وفضـولِ الكلام، والمضـاحيكِ والتي تجذب الإنسان إلى ما لا تحمد عواقبه. وغايته من ذلـك أن يضـل الناس عن طريق الحق كما قال تعالى ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ﴾ قـالوا: نـزلت في النضـر بن الحـرث اشـترى كتب الأعـاجم، وكـان يحـدث بهـا قريشا ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عـاد وثمـود فأنـا أحـدثكم بحديث رستم وأسفنديار ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي ليضـل النـاس عن سـبيل الحق ويتخـذ ذلـك السـبيل سـخرية ومهـزوءً بـه في المجتمـع ﴿أُولَئِكَ﴾ الناس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لإهانتهم بالحق فيكون جزاؤه موافقـا لعملـه وقصـده ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْـهِ آَيَاتُنَـا وَلَّى مُسْـتَكْبِرًا﴾ اسـتدبر مسـتكبرا عن الاستماع لها

﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ وهنـا تشـبيهان ففي الأول تشـبه حاله في الاسـتكبار المـوجب للإعـراض عن الكلام الحـق بحـال من لم يقرع سـمعه صـوت ولـو أراد سـماعه ولم يسـتكبر كـان يسـمعه. وفي الثاني ترق إلى درجة أنه صار استكباره وعتوه موجبـا لعاهـة في أذنيـه منعتهما عن وصول الصوت إليهما، حتى أنه لـو أراد أن يسـتمع ليسـمع لم تكن فيه قابلية لذلك ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مـؤلم جـدا، لأنـه علاوة على استكباره عن أخذ طريق الحق يمنع الناس عن سلوكها.

ولما ذكر أولئك الناس المستحقين للعـذاب الأليم ذكـر مقـابلهم وقـال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي اختصـت بهم على اقتضاء رحمته تعالى جناتٌ حاوية على النعيم الثـابت أبـدَ الآبـدين. ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعد الله بذلك وعداً وأحقه حقا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يقدر عليه أحد ﴿الْحَكِيمُ﴾ الـذي كـل أفعالـه مقـرون بحكمـة جليـة أو خفية ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي ليس لها عمد ولو كان لها عمد لرأيتموها، أو خلقها بعمد هي قوة لا ترى أودَعَها اللـه فيهـا تَحفـظُ بها نفسها عن الاختلال في سكونها وحركات المتحرك منهـا بحيث تبقى على اسـتمرارية الوضـع ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِـيَ﴾ أي جبـالا عاليـة ثابتة ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي كراهة أن تميـد بكم وتميـل وتنحـرف إلى غـير المحـل المقـرر والمـدار المعين ﴿وَبَثَّ فِيهَـا﴾ أي نشـر فيهـا ﴿مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ﴾ أي من كـل زوج وصـنف ممـا تعلـق بـه إرادتـه ومشـيئته من الحيوانـات الماشـية على القـدمين أو الأقـدام القليلـة أو الكثـيرة، ومن الزحافات والحيوانات البحرية والطيور وغيرها مما لا تحصـى. وفي كـل دلالة على سعة علمه وقدرته وحكمته ﴿هَذَا﴾ المقـدار المـذكور ﴿خَلْـقُ اللَّهِ﴾ ومخلوقـه الـذي أخرجـه من العـدم إلى الوجـود ﴿فَـأَرُونِي﴾ أي أعلمُوني ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام

المفتعلة ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ المشركون ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لا يستحسن أن يسأل عنهم ويستفهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان بطلان الشرك وانه نهى عنه كل عاقل ذي حكمة. وفي حكاية هذه الجملة

عن لقمان إرشاد إلى أن حق الإنسان أن يأخذ الحكمـة من أي شـخص كان، وأنها كالماء الزلال يشربه العطشان في أي ظرف كان. والحكمـة علم بأحوال الموجودات من الأعيان والأعراض بقـدر الطاقـة البشـرية، فإن كان في تلك الأحوال اختيارٌ للبشر فالعلم بها حكمةٌ عملية كتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل وسياسة المدن، وإلا فالحكمة حكمة نظرية منهـا طبيعية كعلم الطب، ورياضية كالفلكيات، وإلهية كـالعلم بالبـاري تعـالى وصفاته، وقد تفسر الحكمة بالقيام بالأمور على ما ينبغي علماً أو عملا. وهذا المعنى هـو المـراد في الآيـة. ولقمـان كـان ابن أخت أيـوب عليـه السلام أو ابن خالته. ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي اشكر لله، فتكون أن مفسـرة ﴿وَمَنْ يَشْـكُرْ فَإِنَّمَـا يَشْـكُرُ لِنَفْسِـهِ﴾ لأن الشـكر من أعظم الطاعـات وثوابها عائد إلى أصحابها ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي غـني عن العالمين فلا يحصل بعـدم شـكره نقص في شـأنه تعـالى ولائـق للحمـد والشكر في حد ذاته بتجليات صفاته فمن حمده أو لم يحمده لا يزيد به ولا ينقص.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ﴾ بيان لبعض جمل جميلـة من حكمتـه الجليلـة أي واذكر إذ قال لقمان لابنه تاران أو ماثان ﴿وَهُـوَ يَعِظُـهُ﴾ أي والحـال أنـه يعظه موعظة الوالد الحنـون لابنـه العزيـز ﴿يَـا بُنَيَّ لَا تُشْـرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي احـدا ﴿بِاللَّهِ إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لا يسـاويه ذنب آخـر فـإن اللـه واجب الوجود وأكبر الموجودات وأعظمها، والإشراك به أعظم الخطايـا وأشدها وأقساها، فذلك ظلم عظيم لا يساويه ظلم آخـر. وقولـه تعـالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ كلام مستقل وجملة معترضة أثناء كلام لقمان وكأنه إشـارة إلى أنـه كلمـا وجهت العبـاد إلى توحيـدي وعبـادتي وجهتهم إلى إطاعة الوالدين وبرهما ولما لم يكن في موعظة لقمان ذلك أذكركم به وأقـول ووصـينا الإنسـان ﴿بِوَالِدَيْـهِ﴾. أمـا الوالـد فلأنـه الأصـل الأصـيل لوجوده. وأما الوالدة فلما أقوله وهو أنه

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي ضعفا على ضعف أي في حـال ضـعف على ضعف. وليست التثنية مقصودة، وإنما المـراد تتـابع الضـعف فإنهـا تضـعف في حملـه أولا ثم يـزداد الضـعف كلمـا ازداد وزنـه في بطنهـا، وتضعف في مخاض الولادة وتضعف في عسرها وربما تمـوت وتضـعف في جريان الدم في النفاس وتضعف في حمله في حضـنها وتربيتـه، ولا سيما في سهرها عليه بالليالي وفي مرضه.

وكلمـا تـأذى بـأذى فهـو في عينهـا قـذى ﴿وَفِصَـالُهُ﴾ أي فطامـه ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ أي في انقضاء عامين. وظـاهر الآيـة أن مـدة الرضـاع عامـان. وعليه الإمام الشافعي، والإمام أحمـد وأبـو يوسـف، ومحمـد وروي عن مالك، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن مـدة الرضـاع ثلاثـون شـهرا ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ تفسـير لقولـه وصـينا ﴿إِلَيَّ الْمَصِـيرُ﴾ أي المرجـع يـوم القيامـة وعنـدي مـا تسـتحقونه من الثـواب ﴿وَإِنْ جَاهَـدَاكَ﴾ أي الوالدان أو أحدهما ﴿عَلى أَنْ تُشْـرِكَ بِي مَـا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ﴾ أي مـا ليس لك علم باستحقاقه لشراكته معـه بـل لـك علم لـو تفكـرت بعـدم استحقاقه لهـا ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ إذ لا طاعـة لمخلـوق في معصـية الخـالق ﴿وَصَـاحِبْهُمَا فِي الـدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي صـحابا معروفـا بـأن تتـأدب منهمـا وتنفق عليهما، وتتحمل أذاهما، وتعاهد المريض منهما وما شاكل ذلك... ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي رجع إلي بالتوحيـد وإخلاص العمـل ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَـرْجِعُكُمْ فَـأُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ وبعـد الإنبـاء أجـازيكم حـق الجزاء.

روي أن هذه الآية نزلت في سـعد بن أبي وقـاص قـال: كنت رجلاً بـارّاً بأمي، فلما أسلمتُ قـالت: يـا سـعد ومـا هـذا الـذي أراك قـد أحـدثت؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أولا آكـل ولا أشـرب حـتى أمـوت فَتُعَيَّرِ بي فيقـال: يـا قاتل أمّهِ! قلت: لا تفعلي يا أمّه فإني لا أدع ديـني هـذا لشـيء. فمكثتْ يوماً وليلة لا تأكُـلُ، فأصـبحت قـد جَهَـدَت، فَمكثت يومـاً وليلـة لا تأكـل فأصبحت قد اشتد جهدها. فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله

لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا مـاركت ديـني هـذا لشـيء فان شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فلما رأت ذلك أكَلَتْ فـنزلت هـذه الآية.

ثم رجع سبحانه وتعالى إلى بقيـة موعظـة لقمـان لابنـه حيث قـال ﴿يَـا بُنَيَّ﴾ تصـغير ابن للـترحم ﴿إِنَّهَا﴾ أي الخصـلة أو الفعلـة الناشـئة من المكلـف ﴿إِنْ تَـكُ مِثْقَـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَـرْدَلٍ﴾ أي إن تكن مثلاً في الصـغر كحبة الخردل ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي فتكن مع كونهـا صـغيرة جـدا في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة ﴿أَوْ﴾ تكن ﴿فِي﴾ العالم العلوي كـ ﴿السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي﴾ العالم السفلي كـ ﴿الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي يعلمها الله تعـالى ويبينهـا ويحسـبها للمكلـف أو عليـه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيـفٌ﴾ يصـل علمه إلى كل شيء. ﴿خَبِيرٌ (16)يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ المفروضـة عليـك تكميلا لنفسك وإخراجاً لها من الظلمات إلى النـور ﴿وَأْمُـرْ بِـالْمَعْرُوفِ﴾ في الـدين فيـه تكميلا لغـيرك ﴿وَانْـهَ عَنِ الْمُنْكَـرِ﴾ ﴿وَاصْـبِرْ عَلَى مَـا أَصَابَكَ﴾ من الأذى والبليات سواء كانت في مقابـل الأمـر والنهي أو من القضـاء الإلهي في الأبـواب المنتظـرة أو غيرهـا كـالمرض والوفيـات والفقر والذل وما شاكل ذلك ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الصبر على المصائب ﴿مِنْ عَـزْمِ الْأُمُـورِ﴾ أي من معزومـات الأمـور، أي من الأمـور الـتي قطعهـا وقررها الله، وجعلها مركز دائرة الأعمال والأخلاق الحسـنة ﴿وَلَا تُصَـعِّرْ خَـدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُمِلْـه عنهم وَلا تُـولِهِمْ صـفحة وجهـك على عـادة المتكـبرين ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي لا تمش في الأرض الـتي هي أحطُّ الأماكن منزلة بطراً وفرحا، فانك تدفن فيها وتتمزق فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي كل متبخـتر في المشـي فخـور على غيره ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ واعتـدل فيـه لا مسـرعا متعجلا ولا متباطئـا متكاسـلا ﴿وَاغْضُـضْ مِنْ صَـوْتِكَ﴾ أي وانقص بعض صـوتك وحُـطَّ من درجتـه ﴿إِنَّ أَنْكَـرَ الْأَصْـوَاتِ﴾ الناشـئة من الإنسـان والحيـوان ﴿لَصَـوْتُ الْحَمِيرِ﴾ لجهارة زفيرها وشهيقها، والإنسان إذا رفع

صـوته وخـرج من العـادة الحسـنة يشـبه صـوته صـوتها. وأنكـر أفعـل التفضـيل المصـوغ من المجهـول على خلاف القيـاس. والحمـير جمـع حمار. وكفى بهذا التشبيه تقبيحا للأصوات الإنسانية المرفوعة الخارجـة عن العادة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ وَأَسْـبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَـةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (20) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَـلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّـعِيرِ (21) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُـوَ مُحْسِـنٌ فَقَـدِ اسْتَمْسَـكَ بِـالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُـورِ (22) وَمَنْ كَفَـرَ فَلَا يَحْزُنْـكَ كُفْـرُهُ إِلَيْنَـا مَـرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلُـوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24)﴾

قوله تعـالى: ﴿أَلَمْ تَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَـخَّرَ لَكُمْ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ﴾ رجوع إلى سنة التنزيل وإلقاء الوحي الجليل بدعوة النـاس من الأحرار والعبيـد إلى الاعـتراف بوجـود الـواجب، والـتزام التوحيـد ببيـان قدرته وآثارهـا، وذكـر إفاضـة النعم وإظهارهـا. فيقـول ألم تـروا يـا من تمكن لهم الرؤيـة أن اللـه تعـالى سـخر لكم ﴿مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر وسائر الكواكب الثابتة والسـيارة المُشـعة والمشـتعلة الـتي تكـون وسـيلة لمنـافع معلومـة ﴿وَمَـا فِي الْأَرْضِ﴾ من المعـادن والنبات والأشجار والأنهار والجبال

الراسية ذوات المنابع والعيون والأوراد والأزهار ﴿وَأَسْـبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَـهُ﴾ أي أتم وأوسع عليكم نعمه الـتي لا تحصـى ظـاهرة محسوسـة وباطنـة معقولة، ومن أهمها حسن الصورة والسيرة، وإعانـة الإنسـان بـالعقول المتفكـرة الجساسـة والمشـاعر والحـواس الحساسـة، والمشـي على الرجلين والبطش باليدين إلى غير ذلك...

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي في وجوده وتوحيده ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مسـتفاد مكتسـب من الاسـتدلال ﴿وَلَا هُـدًى﴾ مـأخوذ من رسـول ذي الجلال ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ للقلوب نازل من اللـه سـبحانه وتعـالى أي ذي نور في ذاته واضح معقول ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي لأولئك الناس ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من توحيده تعالى وسلوك شريعته ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَـا وَجَـدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة ما يعبدونـه من دون اللـه ﴿أَوَلَـوْ كَـانَ الشَّـيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي أو لو كـان آبـاؤهم يـدعونهم إلى اتبـاع الشيطان وهو يدعوهم إلى عذاب السعير ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ بأن يفوض إليه تعالى جميع أمـوره ﴿وَهُـوَ مُحْسِـنٌ﴾ أي وهـو يعبـد ربـه بحيث لا يوجد في عبادته شوب الرياء ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَـكَ﴾ ذلـك الإنسـان ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي فقد تمسك بأوثق عروة يتمسك بها وهـو القـرآن الكريم الذي جاء به من الله تعـالى رسـوله الموصـوف بـالخُلقُ العظيم المعروفُ بأنه رءوف رحيم. ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَـةُ الْأُمُـورِ﴾ أي أن الأقـوال والأفعال الصادرة من المكلف راجعة إلى الله سبحانه وهو الـذي يقبـل منها ما يقبل، ويرد منها ما يرد وهو الذي يجازي عليها بالثواب والعقـاب ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ أي فلا يهمنك ذلك كل يعمل على شاكلته ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ رجوعهم ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي بعملهم أو بالذي عملوه أو بجزائه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما يختلج فيها من كل دقيقة ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي تمتيعا

قليلا في مدة محدودة ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ثقيل لا يتحمل عادة إلا بالتحميل الاضطراري.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي ليقولن: خلقهن الله. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على أنهم اعترفوا بهذا الحق وألزموه وألجئوا إليه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن التزامهم ذلك يوجب عليهم أن لا يشركوا به. يعني أن اعترافهم بأن الله خالق السماوات والأرض لو كان اعتراف إنسان عارف بالأمور لاقتضى أن لا يشركوا به شيئا ولكنهم جاهلون بالحقائق يعلمون بعضا منها علماً ساذجا تقليديا، ولو كان علما عن نظر واستدلال لامتنعوا عن الإشراك به تعالى.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا وتصـرفا، ومـع ذلـك ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن كل ما سواه وحميدٌ ومستحق للحمد في كل ما سوّاه.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَـجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ يكتب بهـا ﴿وَالْبَحْـرُ﴾ أي البحـر المحيط لتبادره ﴿يَمُدُّهُ﴾ أي يكون مـدادا وحـبرا للكتابـة بهـا ﴿مِنْ بَعْـدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ إذا نفد البحر المحيط نابت عنه في الكتابة بها ﴿مَـا نَفِـدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ لكون هـذه الأقلام والمـدادات محـدودة متناهيـة وكلمـات الله ومعلوماته الأزلية الأبدية لا متناهية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كـل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن حكمته شـيء ﴿مَـا خَلْقُكُمْ﴾ أيهـا النـاس أو أيها المشركون من العدم وإخراجكم إلى الوجـود ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ للنشـور وأخذ الأجور ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي إلا كخلق وبعث نفس واحـدة، لأنـه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقاويل النـاس ﴿بَصِـيرٌ﴾ بأعمـالهم ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ يـا من يتمكن من الرؤيـة بالبصـر أو بالبصيرة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُـولِجُ اللَّيْـلَ فِي النَّهَـارِ وَيُـولِجُ النَّهَـارَ فِي اللَّيْـلِ﴾ أي جعل زمانهما في الاعتدال على السواء، وكلما انحرف المدار وبعـد عن الاعتدال لحصل الزيادة والنقصان في الليل والنهار، فإمـا تـدخل حصـة النهـار في الليـل فينقص النهـار ويطـول الليـل، أو العكس فبـالعكس ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُـلٌّ يَجْـرِي إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى﴾ محـدود معين في علمه تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي ألم تر أنه بما تعملـون خبير وتخصيص ذلك بالذكر لأنه هو مدار السعادة والشقاء.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور المقرر ثابت ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُـوَ الْحَـقُّ﴾ الـواجب الوجـود لا غيره ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ الْبَاطِـلُ﴾ أي غـير الثـابت ذاتـا أو صـفة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ العالي على كل ما يتصور ﴿الْكَبِيرُ﴾ المتعـالي من أن يكون له شريك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَـةِ اللَّهِ لِيُـرِيَكُمْ مِنْ آَيَاتِـهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَـوْجٌ كَالظُّلَـلِ دَعَـوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَـدُ بِآَيَاتِنَـا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْـكَ تَجْـرِي فِي الْبَحْـرِ﴾ بيـان لبعض من نعم الله تعالى من نعمـه الـتي لا تحصـى وأن العبـاد قاصـرون عن شـكرها فيقول: ألم تر أننا ألهمنا عبادنا صنع السـفن للمشـي عليهـا في البحـار للتجارة وكسب أسـباب المعيشـة، وذلـك ﴿لِيُـرِيَكُمْ مِنْ آَيَاتِـهِ﴾ أي بعض آياته الدالة على شمول قدرته، وذلك من سـعة البحـار وشـدة أمواجهـا وهياجها، وكثرة الحيوانات البحرية الهائجة والهادئة؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ﴾ أي أتاهم ﴿مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ مثلَ ما أظل النـاس من سـحاب أو جبـل ﴿دَعَـوُا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الـدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَـرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ﴾ أي سـالك للطريـق المسـتقيم ومنهم منحرف ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي غدار ﴿كَفُورٍ﴾ بالنعم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَـوْا يَوْمًا﴾ نـداء عـام للنـاس يطلب إقبالهم عليه ليأخذوا تعاليمه القدسية، فيقول: ﴿اتَّقُـوا رَبَّكُمْ﴾ أي احفظـوا أنفُسَـكم عن مخالفـة أمـر ربكم، أي ونهي ربكم فـإنّ التقـوى الإيمان والإيمان سعادة الدارين. ثم يذكرهم ببعض مخاوفَ هامةٍ فيقولُ ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾ أي واخْشَوا عقابه في يوم ﴿لَا يَجْـزِي وَالِـدٌ عَنْ وَلَـدِهِ﴾ أي لا يغني والد عن ولده ولا يُفيدهُ شيئا ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَـازٍ عَنْ وَالِـدِهِ شَيْئًا﴾ أي واتقوا عذاب يوم لا مولود هـو جـازٍ عَنْ والِـدِه شـيئاً باقتضـاء الرّحم يجزي عن والده شيئاً في ذلك اليوم. فلفظ مولـود عطـف على والد وفاعل يجزي، وقوله هو جـاز عن والـده شـيئا جملـة وقعت صـفة للمولود، والمنفي عنه محذوف وهو يجزي عن والده شـيئا كمـا قـدرناه ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أي بالثواب والعقـاب ﴿حَـقٌّ﴾ لا خلـف فيـه، فمن واجب العاقل التقوى حتى ينـال سـعادة الـدارين ﴿فَلَا تَغُـرَّنَّكُمُ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا﴾ بلذاتها ومغرياتهـا عن التقـوى والطاعـة ﴿وَلَا يَغُـرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَـرُورُ﴾ أي الشيطان الذي يغر الناس بخداعه.

وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية.. نـزل بعـد أن جـاء رجـل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقال له الوارث، فقـال: يـا محمـد مـتى قيام الساعة؟ وقد أجـدبت بلادنـا فمـتى تخصـب؟ وقـد تـركت امـرأتي حبلى فما تلد؟ وقد علمت مـا كسـبت اليـوم فمـاذا أكسـب غـدا؟ وقـد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت هذه الآية أي إن اللــه تعالى عنده علم حلول الساعة وهي يوم القيامة، وهذه من العلوم التي استأثر الله

بها لا يعلمها إلا هو، وقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عنها فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ في وقته بلا تقديم ولا تأخير، فتنزيله للغيث فعله، وعنده علمه القطعي بالذات، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ بالذات ويدري أنه ذكر أم أنثى أم خنثى. فإنه هو الخالق له. والخالق عالم بالمخلوق ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ بالذات ﴿مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي في الوقت المستقبل وإلا أن يعلمه ربه، كنبي أعلمه به ربه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إلا إذا أعلمه الله بها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ بهذه المغيبات وبغيرها. ومعنى الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى عنده العلم بهذه الأشياء علما قطعيا لا شبهة فيه علما ذاتيا غير مكتسب وأما غيره تعالى فليس له علم بها بالذات فإن كان المعلوم مما استأثر الله به فلا يعلمه أحد إلا هو وإلا فيجوز أن يعلمه بأعلام الله تعالى أو بوسيلة سبب لذلك العلم كجهاز يكشف به الأمور البعيدة أو الأمور المغيبة. وأما ذاتا فلا يعلمه قطعا.

سورة السجدة، مكية، وهي ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (1) تَنْزِيـلُ الْكِتَـابِ لَا رَيْبَ فِيـهِ مِنْ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُـونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْـذِرَ قَوْمًـا مَـا أَتَـاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِـكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَـدُونَ (3) اللَّهُ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ مَـا لَكُمْ مِنْ دُونِـهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَـفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّـمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْـرُجُ إِلَيْـهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِـكَ عَـالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْـقَ الْإِنْسَـانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْـلَهُ مِنْ سُـلَالَةٍ مِنْ مَـاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَـوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَـا تَشْـكُرُونَ (9)﴾

قوله تعالى: ﴿الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الآية... إن جعل الم اسما للسورة أو القرآن فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هـذا الم. وقولـه تعالى

تنزيل الكتاب خبر بعد خبر وقوله لا ريب فيه خبر ثالث، وقولـه من رب العالمين خبر رابع. ويحتمل أن يكون الم مبتدأ ومـا بعـده إخبـارا لـه أي المسمى بالم الكتاب المنزل. ويحتمل أن يكون تنزيل الكتاب مبتدأ وما بعده خبراً لَهُ سـواء بقي على ظـاهره، أي هـذا التنزيـل لا ريب فيـه، أو بعـد اعتبـار التنزيـل صـفة مضـافة مؤولـة باسـم المفعـول، أي الكتـاب المنزل لا ريب فيه، وهو من رب العالمين لا علاقة فيه بمن سواه. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي أبل يقولون افتريه؟ يعـني اختلقـه على اللـه وليس كلامه تعالى.

﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي بل هـو الكلام الحـق لفظـا ومعـنى ونسـبة ونزل من ربك ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِـكَ﴾ وهم قـريش، فإن هذا القوم بل ومن قبلهم إلى عدنان لم يأتهم نذير من قبـل مجيء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم. وهذا مبني على أن دعوتى موسى وعيسى لم تكونا دعوة عامة لبني إسرائيل والعرب، وهو كـذلك وأما دعوة إبراهيم وإسـماعيل عليهمـا السـلام، وإن كـانت شـاملة لهم لكنهم وقعوا في زمن الفترة وانقطـاع الـوحي، ولم ينـذروا قبـل زمـان الرسول صلى الله عليه وسـلم كمـا تشـهد بـذلك آيـات عديـدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بهذا الكتاب المبارك المنزل إليهم، والمعنى راجيا الاهتداء لهم به. والترجي في كلام الباري مستعار لمعنى الإرادة أو المحبة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بالمعنى الذي أراده سبحانه وتعالى أو استولى على العرش المحيط بالكل بلا منازع ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي مالكم إذا تجاوزتم عن الالتجاء إلى الله تعالى من ولي ناصر لكم ينصركم بالقوة ولا شفيع يترجى لكم من الله العفو والمغفرة إذا أشركتم به أو عصيتم أمره ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تستمعون هذه الآيات كي تتذكروا بها في عاقبة أموركم

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي أمر العالم وشئونه ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ بالملك المأمور بذلك ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ أي الملك يصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى المحل الذي عينه الله تعالى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ لو كنتم أنتم تباشرون ذلك العروج. والحاصل أن الله سبحانه وتعالى يأمر الملك المأمور المخصوص بتدبير أمور الدنيا وشئونها من الأمطار والرياح والخصب والغلاء والسلم والبلاء وغير ذلك. فينزل مع ملك الأوامر إلى الأرض وبعد اكمالها يعرج إلى المحل الخاص المعين له في داخل يوم ووقت لو كنتم أنتم تباشرون العمل فيه لأخذ مدة ألف سنة وأما ذلك الملك فيجوز أن يقطع تلك المسافة في لحظة. وأمثال هذه الأمور موكولة إلى العليم الخبير وربطه المسببات بالأسباب، وإلا فهو غني عن كل مباشر للأمور التي أرادها لأنه قال إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي ذلك الخالق الموصوف بتلك الصفات السابقة عالم الغيب والشهادة أي العالم بكل ما غاب عنكم وما تشهدونه أنتم، وإلا فلا غيب عند الله سبحانه العزيز الرحيم الغالب الذي لا يغالَبُ والرحيم بعباده فيما يطالب ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي أحْسَنَ وأتْقن خلق كل شيء خلقه على حسب تعلق إرادته الأزلية، بخلقه ليس في شيء من الصنع المتعلق بأي مصنوع فطور وقصور، وإن كان بين أفراد المخلوقات وأصنافها وأنواعها تفاوت في النقص والكمال حسب الخطوط المرسومة، وذلك لأن كمال الإنسان وفضله بالنسبة إلى الحيوانات والنبات والمعادن معلوم ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ﴾ المعهود وهو آدم عليه السلام ﴿مِنْ طِينٍ﴾ كما خلقه بقدرته ونفخ فيه الروح من رحمته ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أي من ماء النطفة وهو ماء لا يعتنى به ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ أي النسل وصوره كما أراد <317>

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ أي نفخ فيه نفخا كائنا من الملك المأمور بذلك ويسمى بالروح للطافته وأضيف إلى الله للتشريف.

ويفسر هذه الآية الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود رضي الله عنه ((إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح...)) الحديث. وفي فتح الباري: ومعنى إسناده لذلك أن يفعله بأمر الله. والمراد بإسناده إلى الله تعالى أن يقول له كن فيكون. ثم قال تعالى مخاطبا عباده على وجه الالتفات ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وتقديم السمع لكثرة فوائده فإن أكثر أمور الدين لا تعلم إلا من جهته وأفرد لأنه في الأصل مصدر. وقيل: للإيماء إلى أن مدركه نوع واحد وهو الصوت، بخلاف البصر فإنه يدرك الضوء واللون والشكل والحركة والسكون والاجتماع والافتراق ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الكثيرة الجليلة. أي شكرا قليلا أو في زمان قليل تشكرونها.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ روي أن القائل بهذا القــول هو أُبَيُّ بن خَلَف، وإنما نسب القـول إلى الجميـع لرضـاهم بـه. أي أئـذا ضِعنا وصار الجسد من التراب الضائع في الأرض ﴿أَئِنَّا﴾ بعد ذلـك ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ونشـوء ثـان مسـتوعب للقـوة الحيويـة ولوازمهـا ﴿بَـلْ هُمْ بِلِقَـاءِ رَبِّهِمْ كَـافِرُونَ﴾ أي أعـرض عن قـولهم هـذا إنهم كـافرون بلقـاء ربهم، وكافرون بالله تعالى، وينكرون وجوده في الواقع، وإلا فلـو كـانوا مؤمنين به لعملوا أن الإحيـاء والبعث للحسـاب والجـزاء من أسـهل مـا يكون ﴿قُلْ﴾ لهم يا حبيبي أنتم تموتون ولا شبهة أنه ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ويقبض أرواحكم ﴿مَلَـكُ الْمَـوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي وكـل بقبض أرواحكم ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والإحياء والإعـادة كمـا كنتم وتحاسـبون بين يدي الله رب العالمين.

ثم يستعرض الباري تعالى أحوالهم يوم القيامة فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا حبيبي ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الذين أنكروا البعث ﴿نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي مطرقو الرءوس لا يرفعونها من الخزي والخجل قائلين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي تحولنا إلى أناس مبصرين وسامعين بعد أن كنا عميا في الدنيا عن إبصار الأدلة، وصما عن استماع الآيات البينات والمواعظ الحسنة، ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ حسب اقتضاء الآيات ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي مؤمنون يقينا بالله ورسوله وكتابه المنزل، ولم تبق لنا شبهة فيها.

وقوله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ مقـدر بقـول في جـواب الذين قالوا ربنا أبصرنا وسمعنا، أي ونقول لهم في جواب كلامهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ في الدنيا وكان الناس كلهم مهتدين قســراً واجبـاراً، ﴿وَلَكِنْ﴾ أحبْبنـا أن نعـرض النـاس للتكليـف فيهـا حـتى يتـبين المكلف المطيع والمسيء باختيـاره، وكنتم من القسـم الأخـير وكفـرتم بي وبرسولي

فـ ﴿حَـــــقَّ الْقَـــــوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ من المعاندين منكم ومن سائر العاصين ﴿فَذُوقُوا﴾ عذاب جهنم ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا * إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَـذَابَ الْخُلْـدِ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ والذوق الأول ذوق على سوء الاعتقاد ونسيان لقاء رب العبـاد. والثـاني على المعصية وعمل الفساد.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُـجَّدًا وَسَـبَّحُوا بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْـتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَـافَى جُنُـوبُهُمْ عَنِ الْمَضَـاجِعِ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُـونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَـا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًـا كَمَنْ كَـانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَـقُوا فَمَـأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَـا أُعِيـدُوا فِيهَـا وَقِيـلَ لَهُمْ ذُوقُـوا عَـذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُـذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَـذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَـذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَـاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْـرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)﴾

قولـه تعـالى ﴿إِنَّمَـا يُـؤْمِنُ بِآَيَاتِنَـا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ جُملـة مسـتأنفةٌ لحصر الهدى في غير المعاندين أعـني العبـاد ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي وعظوا وأرشدوا بهـا ﴿خَـرُّوا سُـجَّدًا﴾ من غـير توقـف وتـردد ﴿وَسَـبَّحُوا بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ونزهـوه تعـالى عن النقـائص حامـدين لـه على نعمـة الفائضة

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والاعتراف باللسـان والعمـل بالأركـان ﴿تَتَجَـافَى جُنُـوبُهُمْ عَنِ الْمَضَـاجِعِ﴾ حـالكونهم ترتفـع جنـوبهم الملصـقة بفراش الاستراحة عن مضاجعهم يتوضـأون ويصـلون و﴿يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ ويطلبون من ذي الجلال بالتضرع والابتهـال ﴿خَوْفًا﴾ من سـخطه عليهم من سوء العقيدة والأعمال ﴿وَطَمَعًا﴾ في فيض رحمته الواردة في كـل وقت وحال ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من العلم والجاه والمـال ﴿يُنْفِقُـونَ﴾ على المسـتحقين للـه المتعـال ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ أي أيـة نفس من النفـوس ﴿مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ أي لأولئك الذين سبقت أوصـافهم الحميـدة ﴿مِنْ قُـرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي من درجات وجنات وهبات تقرُّ بهـا أعينهم وذلـك ﴿جَـزَاءً بِمَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ زائدا بدرجات على ما يستحقون.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ أي أفمن كان مؤمنا موصوفا بتلك الحسنات ومستحقا لهذه الدرجات كمن كان فاسقا خارجـا عن الإيمـان والطاعات ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ لا اسـتواء ولا مماثلـة بينهم بوجـه من الوجـوه وتفصـيل الفـرق فيمـا يلي ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أي جنات هي مأويهم في الآخرة حالكونها ﴿نُزُلًا﴾ أعدت لهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي كفروا وخرجوا عن إطاعـة البـاري تعـالى ﴿فَمَـأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ المسـتعرة ﴿كُلَّمَـا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي من تلك النار ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ جَبْـراً اسـتمراراً لعـذابهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُـوا عَـذَابَ النَّارِ﴾ العـذاب ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِـهِ تُكَـذِّبُونَ﴾ في الدنيا بالاسـتمرار ﴿وَلَنُـذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَـذَابِ الْأَدْنَى﴾ في هـذه الـدنيا من القحط والمرض والبلاء ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ الذي سيلقونه في الآخرة على تقدير دوام عنادهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الهدى والرشاد، أو لعـل من عاصرهم يتوب فإذا تابوا تـابوا، وإذا اسـتمروا على العنـاد اسـتحقوا العــذاب لأنهم هم الظــالمون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَـاتِ رَبِّهِ﴾ أي لا بآية واحدة من آياته

﴿ثُمَّ أَعْـرَضَ عَنْهَا﴾ بأسـرها ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْـرِمِينَ﴾ وهم المعرضـون عن الآيات ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَـى الْكِتَـابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَـةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَـاهُ هُـدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَـا لَمَّا صَـبَرُوا وَكَـانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ (25) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَـا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُـرُونِ يَمْشُـونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُـهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28) قُـلْ يَـوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَـرُونَ (29) فَـأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ استئناف لبيـان رسـالة موسـى عليه السلام وتوجيه الرسول إلى أنه كان صاحب كتاب سـماوي مثلـك، ومع ذلك آذاه الإسرائيليون من وجوه كثيرة، ولكنه مع ذلك لما صبر هو وأتباعـه نجحـوا وجعلنـا منهم أئمـة للهـدى وقـادة في الجهـاد والإرشـاد فيجب عليـك وعلى خـواص أصـحابك أن تصـبروا وتجاهـدوا وترشـدوا الناس ليكون النصر حليفكم وتحصـل منهم سـادة قـاده وقـد لبـوا هـذا التوجيه الوجيه فصبروا وجاهدوا وأرشدوا ونجحوا حتى اهتز العــالم بهم فيقول سبحانه

وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَـةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ أي لقاء موسى ذلك الكتاب وتبليغه للإسرائيليين ﴿وَجَعَلْنَـاهُ﴾ أي موسى أو كتابه ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23)ـ وَجَعَلْنَـا مِنْهُمْ﴾ أي من بـني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾ للناس ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فإن كانت الأئمة بمعنى الأنبياء فمعناه يهدون الناس بوحينا، وإن كانت خيار الأمة فمعناه يهدون الناس على حسب أمرنا علماء الدين وقدوة الأمـة أن يهـدوا ويرشـدوا النـاس إلى الحق. وقوله تعالى ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ ظـرف لقولـه تعـالى وجعلنـا، أي ولما صبروا او تحملوا الأذى جازيناهم بأن جعلناهم أئمـة للأمـة. ومعنـاه أن الدرجات العالية تكون من نصيب أهل الصـبر وقولـه ﴿وَكَـانُوا بِآَيَاتِنَـا يُوقِنُـونَ﴾ عطـف على قولـه صـبروا لإفـادة أن الصـبر وحـده لا يكفي للنجاح إذا لم يكن مقرونا بالإيمان الثـابت واليقين الراسـخ، وتلـك سـنة الله تعالى في خليقته فكل قـوم صـبروا في الجهـاد وأيقنـوا بآيـات رب العبـاد نجحـوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ يَفْصِـلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين أولئـك الأئمـة ومن خالفهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وكذلك يفصـل بينـك مـع أصـحابك وأمتـك المجاهـدين المخلصـين وبين النـاس الـذين عانـدوهم وآذوهم يوم حشر الأمة أجمعين.

ثم رجع الباري إلى توبيخ المشـركين فقـال: ﴿أَوَلَمْ يَهْـدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَـا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُـرُونِ﴾ حـالكونهم ﴿يَمْشُـونَ فِي مَسَـاكِنِهِمْ﴾ أي في مساكن أولئك المهلكين في تجـاراتهم. وكم في محـل النصـب مفعـول أهلكنا والمعنى أَغَفَلوا ولم يهدهم إلى الحق كثرة إهلاكنا للأمم السابقة المعاندة للرسل عليهم السلام كديار عاد وثمـود وقـوم لـوط وأصـحاب الأيكة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ البحث المذكور والوضع المشهور ﴿ لَآَيَـاتٍ﴾ كثـيرة للناس ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آياتي.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي التي لا نبات بها كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر. وهي صفة مشبهة، وفيها أربع لغات: ضم الفاء والعين، أو سكونها، وفتح الفاء وسكون العين، أو فتحها: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ كالبقول والحبوب التي يقتاتها الإنسان ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ في الحالتين أي حالة المحل وحالة البقل فمن الذي أنزل المطر عليها ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على سبيل الاستهزاء: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي الفصل للخصومة بيننا وبينكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الله يفصل بين المحقين والمبطلين ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يعني لا تستعجلوا فإن الفتح لا شك في حلوله، ولكن انظروا إلى ندمكم بلا فائدة عنده، فإنه لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذ ذاك ولا هم ينظرون أي يمهلون لتأجيل العذاب. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن هؤلاء المكذبين ولا تهتم بهم ﴿وَانْتَظِرْ﴾ وقت النصر لانصركم عليهم وأهلكهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي للغلبة عليكم أو إنهم منتظرون هلاكهم في الواقع، وإن لم يؤمنوا بوقوعه في المستقبل.

وروى أحمد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن جابر قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة، وتبارك الذي بيده الملك. وروى البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الفجر يوم الجمعة (ألم تنزيل السجدة) و(هل أتى على الإنسان).

سورة الأحزاب، مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (5)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ افتتح الله تعالى هذه السورة بنداء حبيبه بوصفه الذي هو أرفع أوصافه. وأمره بالتقوى التي هي أقرب صلات العبد بمولاه تشريفا له وتكييفا. أما الأول فلأن النبوة تنبئ عن رفعة الرتبة والمنزلة الثابتة عند الله. وأما الثاني فلأنه اشتملت هذه

السورة على أمور هامة نفسية وعائلية واجتماعيـة يحتـاج الإنسـان في الثبات عندها على تقوىً راسخة وحالة نفس مطمئنة لا يـتزلزل بشـيء مما يرد عليه، ولا يهتم بأمر من الأمور كيف كان، ويجعـل رضـاء مـولاه نصب عينه إلى لقائه. فيقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ في جميع الأحوال ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ في العقائد الفاسـدة، والأعمـال الكاسـدة، واتبـاع الهوى والانحراف من الهدى ﴿وَالْمُنَـافِقِينَ﴾ المضـمرين لكـل سـوء في كلامهم المعسول وعملهم المرذول واتبع مـا أنـزل إليـك من ربـك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَـانَ﴾ ولم يـزل ﴿عَلِيمًـا﴾ بـك وبغـيرك و﴿حَكِيمًا﴾ فيمـا يفعلـه بـك وبغيرك. والمراد اثبت على ما أنت عليه ولا تهتم بهم فانهم لا قـدر لهم عند ربك، ولا يقدرون على الإضرار بك إلا ما شاء الله.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نزلت عنـدما دعـاه بعض أهـل مكة أن يرجع عن قوله وعن دعوى التوحيد وخوفـه المنـافقون واليهـود بالمدينة انه ان لم يرجع عما هو عليه قتلوه.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في كل ما تفعـل وتـترك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَـانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فإذا أراد الأعداء بك مكيدة فإنه يحفظـك عنهـا، إنـه كـان لـك نصـيرا ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفـوض جميـع أمـورك إليـه تعـالى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظا موكولا إليه الأمور ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُـلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ روي أنها نزلت في أبي معمر الفهري كان أهـل مكـة يقولون: له قلبان من قوة حفظـه. وكـانت العـرب تـزعم أن كـل لـبيب أريب له قلبان حقيقة، وأبو معمر هذا اشتهر بين أهل مكة بذي القلبين. وروي أيضا أنها نزلت عندما كان المنافقون يقولـون: إن لـه قلبـا معكم وقلبا مع أصحابه ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَـاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـاتِكُمْ﴾ وهذه الجملة الجميلة إبطـال لمـا كـان في الجاهليـة من إجـراء أحكـام الأمومة على المظاهر منها، وكان الناس

في الجاهلية إذا قال زوج لزوجته: أنتِ عليَّ كظهـر أمي، والمعـنى أنت محرمة عليّ لا أركب عليك كما لا أركب على ظهـر أمي كنايـة بـالظهر عن البطن، وخصوا الظهر لأنهم يستقبحون ذكر الفرج.. حرمت الزوجة عليـه، فأبطلهـا الإسـلام وقـرر على من أتى بهـذه العبـارة أو بأمثالهـا وجوبَ كفـارةٍ مِن: عتـق رقبـة، أو صـيامِ شـهرين متتـابعين، أو إطعـام ستين مسكينا إذا عَجزَ عن الصيام. والتفصيل في كتب الفقه.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ إبطال لما تقـرر في الجاهليـة وصـدر من الإسلام من أنه إذا تبنى الرجل ولـد غـيره أجـريت أحكـام البنـوة عليـه. وقد تبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبـل البعثـة زيـد بن حارثـة. والأدعياء جمـع دعي، وهـو الـذي يُـدْعى ابنـا ﴿ذَلِكُمْ قَـوْلُكُمْ بِـأَفْوَاهِكُمْ﴾ الإشارة متوجهـة إلى الجمـل الثلاث المـذكورة. يعـني أن وجـود قلـبين لإنسـان واحـد، وصـيرورة الزوجـة أمّـاً للمظـاهر، وكـون الـدعي ابنـا للمتبني.. قول يجري في العادة على اللسان ولا حقيقة لـه. ورأى بعض أنهـا إشـارة إلى الجملـة الأخـيرة فقـط بقرينـة قولـه تعـالى ﴿ادْعُـوهُمْ لِآَبَائِهِمْ﴾ والاقتصار عليه ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي الأمر المحقق المطابق للواقع ﴿وَهُـوَ يَهْـدِي السَّـبِيلَ﴾ أي يهـدي النـاس إلى طريقـه ﴿ادْعُـوهُمْ لِآَبَائِهِمْ﴾ أي انسبوا الأدعياء إلى آبائهم وخصوهم بهم ﴿هُـوَ أَقْسَـطُ عِنْـدَ اللَّهِ﴾ أي تلك النسـبة والاختصـاص أعـدل عنـد اللـه لأنهـا ليس فيهـا إلا رعاية العطف والمحبة وهذه النسبة فيها المحبة وموافقة الواقع ﴿فَـإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ﴾ فتنسـبوهم إليهم ﴿فَـإِخْوَانُكُمْ فِي الـدِّينِ وَمَـوَالِيكُمْ﴾ أي وأوليـاؤكم في الـدين فـادعوهم بـالأخوة والمولويـة وقيـل: معـنى مواليكم عتقاؤكم وقيل بنو أعمامكم وذلك يكون تطييبا لقلوبهم وتحبيبا لهم ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِـهِ﴾ أي وليس عليكم جنـاح وإثم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل النهي

﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن الإثم في ما تعمـدتموه بعـد النهي بأن تدعوهم باسم الأبناء على أصول التبني، وأما إذا قال شـخص لآخـر يا ابني أو يا بـني بالتصـغير على معـنى الشـفقة أو التلمـذة والتربيـة أو على سبيل التشبيه بالابن في رعاية حقوقه فلا بأس فيـه قطعـا. وممـا ينبغي العلم به أنه إذا جعل التبني أمرا مقررا في الناس ففيـه مخالفـة صريحة للنهي فيكون حراما من الكبـائر، وفيـه أضـرار كثـيرة من حيث الدين لأنه يجعل الأجنبي بمنزلة المحـرم بين أفـراد العائلـة من البنـات والزوجات والأخوات، فينظر إليهن وينظـرن إليـه، ويجعـل غـير الـوارث وارثا، وربما يحجب الورثة كما إذا كان للرجل المتبني إخوة أو بنو إخوة أو أعمام أو بنو أعمام. علاوة على بعض أضرار أخرى كـدناءة الطبـع أو مرض موروث عند الولـد المتبـني إلى غـير ذلـك من المفاسـد فليحـذر ﴿وَكَـانَ اللَّهُ غَفُـورًا﴾ لمـا فـرط منكم سـابقا ﴿رَحِيمًا﴾ بهم في غفـران ذنوبهم.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِـالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ وَأَزْوَاجُـهُ أُمَّهَـاتُهُمْ وَأُولُـو الْأَرْحَـامِ بَعْضُــهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَـابِ اللَّهِ مِنَ الْمُــؤْمِنِينَ وَالْمُهَــاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُـوا إِلَى أَوْلِيَـائِكُمْ مَعْرُوفًـا كَـانَ ذَلِـكَ فِي الْكِتَـابِ مَسْـطُورًا (6) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْـكَ وَمِنْ نُـوحٍ وَإِبْـرَاهِيمَ وَمُوسَـى وَعِيسَـى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (7) لِيَسْأَلَ الصَّـادِقِينَ عَنْ صِـدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (8)﴾

قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناس منهم:

نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت. يعني إن النبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم في الأمور كلها فإنه لا يأمرهم ولا ينهاهم إلا بما فيه الخير والحكمة، بخلاف النفس فإنها أمارة بالسوء. وعلى تقدير سكونها واطمئنانها فإنها جاهلة بالحقائق والرسول صلى الله عليه وسلم يأتيه الوحي فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم. أي فلا مجال للتوقف والتردد قطعا في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وقرىء (وهو أب لهم) أي في الدين، فإن كل نبي أب لأمته ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي منزلات منزلتهن في تحريم النكاح واستحقاق التعظيم والاحترام وفيما عدا ذلك كالنظر والخلوة وغيرها كالأجنبيات ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ أي في التوارث. وهذه ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين. وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في ما أنزل وهو هذه الآية أو آية المواريث والمفضل عليه ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة، أي فالميراث بعد نزول الآية للأقارب حسب الأصول المقررة لا للمؤمنين والمهاجرين الأجانب. وقوله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع، والمراد بالمعروف الوصية. ومعنى الكلام وأولو الأرحام أولى من الأجنبي من المؤمنين والمهاجرين في كل نفع من صدقة وهدية وميراث، إلا في الوصية، فالأجنبي أحق بها من القريب الوارث، فإنها لا تصح لوارث ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ المذكور من الأحكام ﴿فِي الْكِتَابِ﴾أي اللوح المحفوظ أو القرآن ﴿مَسْطُورًا﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي واذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والصبر على أذى الأعداء، ونصرة بعضهم لبعض، وإعلان التوحيد ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾

وتخصيصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين لإظهار شرفهم على من سواهم لكونهم من أولي العزم. وأكد أخذ الميثاق بقوله ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عظيم الشأن قويا وأخذ ذلك الميثاق في وقته ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أعاذنا الله منه.
<330>

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُـرُوا نِعْمَـةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَـاءَتْكُمْ جُنُـودٌ فَأَرْسَـلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًـا وَجُنُـودًا لَمْ تَرَوْهَـا وَكَـانَ اللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ بَصِـيرًا (9) إِذْ
جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَـاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَـا (10) هُنَالِـكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُـونَ وَزُلْزِلُـوا
زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ مَـا
وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْـلَ يَثْـرِبَ
لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ
وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا
ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14) وَلَقَـدْ كَـانُوا عَاهَـدُوا
اللَّهَ مِنْ قَبْـلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَـارَ وَكَـانَ عَهْـدُ اللَّهِ مَسْـئُولًا (15) قُـلْ لَنْ
يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْـلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُـونَ إِلَّا قَلِيلًا (
16) قُـلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِـمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُـوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَـةً وَلَا يَجِـدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِـيرًا (17) قَـدْ يَعْلَمُ اللَّهُ
الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَـأْتُونَ الْبَـأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (
18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَـوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُـرُونَ إِلَيْـكَ تَـدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِـدَادٍ
أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِـكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرًا (19) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَـأْتِ الْأَحْـزَابُ يَـوَدُّوا
لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا
إِلَّا قَلِيلًا (20)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ شروع في قصة الأحزاب. وهي واقعة الخندق، ووقعت في شوال سنة خمس من الهجرة. أي اذكروا نعمته عليكم وتوفيقه. ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ والمراد بالجنود الأحزاب، وهم قريش ويقودهم أبو سفيان، وبنو أسد ويقودهم طليحة، وغطفان ويقودهم عُيينة، وبنو عامر ويقودهم عامر بن الطفيل، وبنو سليم ويقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير ورؤساؤهم حُيَى بن أخطب وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد، وكان بينهم وبين رسول الله عهد ونبذه بسعْي حيي، وكان مجموعهم عشرة آلاف، وفي قول خمسة عشر، وقيل: اثنا عشر ألفا. فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم حفر خندقا قريبا من المدينة المنورة محيطا بها بإشارة <331 >

سلمان الفارسي أعطى كل أربعين ذراعا لعشرة. ثم خرج عليه الصلاة والسلام في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فدفعوا في الآطام، واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق كما قص الله تعالى. ومضى قريب من شهر على الفريقين لا حرب بينهم سوى الرمي بالنبال والحجارة من وراء الخندق إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود، وكان يعد بألف فارس؛ وعكرمة ابن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وهبيرة ابن أبي وهب، ونوفل ابن عبدالله قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا ضيقا فضربوا بخيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق والسلع. فخرج على ابن أبي طالب كرم الله وجهه في نفر من المسلمين رضي الله عنهم حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموها، فأقبلت الفرسان منهم وقتل علي كرم الله وجهه عمرا في قصة مشهورة، فانهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو منبه بن عثمان بن عبد الدار، ونوفل بن عبد العزى، وقيل: وجد نوفل في جوف الخندق فجعل المسلمون يرمونه بالحجارة فقال لهم: قتلة أجملُ من هذه: ينزل بعضكم أقاتله فقتله الزبير بن العوّام. وذكر ابن إسحاق أن عليا كرم الله وجهه طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق، وبعث المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى» ثم أنزل الله النصر وذلك قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة عليهم السلام، وكانوا على ما قيل ألفا. روي أن الله تعالى بعث عليهم صبا باردة في ليلة باردة فأخصرتهم وسفتِ التراب في وجوههم، وأمر الملائكة عليهم السلام فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت <332>

النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة ابن خويلد الأسدي: أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاءَ فانهزموا ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي بصيرا بما فعلتم من حفر الخندق وترتيب مبادىء الحرب إعلاء لكلمة الله تعالى، ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم. وقوله تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ﴾ بدل من إذ جاءتكم أي اذكروا نعمة الله عليكم بالنصر والمدد إذ جاءوكم أي الأعداء ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي من أعلى الوادي من جهة المشرق ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي من أسفل الوادي من جهة المغرب. والجائي من ذلك قريش ومن تابعهم من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة. وقيل الجائي من فوق بنو قريظة ومن أسفل قريش وأسد وغفطان وبنو سليم وقيل غير ذلك. ويحتمل أن يراد من ذكر الجهتين الإحاطة من جميع الجوانب ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي مالت عن عادتها فشخصت ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي تزلزلت واضطربت حتى كنت تظن أن القلب وصلت إليها وإلا فالقلبُ لا يتحرك لاسيما نحو الصعود ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ فيظن المنافقون أنه يُدَمّرهم ولا يفلتُ منهم أحد، ويظن بعض المخلصين أن الله يبتليهم للإمتحان، وبعض آخر أن الله ينصرهم نصرا عزيزا ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي اضطربوا اضطرابا شديدا.

وقوله ﴿وَإِذْ يَقُولُ﴾ معطوف على إذ زاغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة أي وإذ يقول ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وضعف من وساوس المنافقين وإلقائها في قلوبهم ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وعد غرور أو قولا باطلا ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ هم عبدالله بن أبي بن سلول ومن معه، وقيل غيرهم ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ اسم للمدينة المنورة، أو اسم بقعة

وقعت المدينة في ناحية منها، واستعمل قبل الهجرة وكره استعماله بعدها لدلالته على التثريب واللوم. ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي لا تمكن الإقامة لكم عند الخندق في مقابلة الأحزاب ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي إلى منازلكم بالمدينة هي أحصن لكم وأستر، ومرادهم من ذلك القول أمرهم بالفرار ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ صلى الله عليه وسلم روي أنهم بنو حارثة بن الحرث قيل أرسلوا أوس بن قيظى وهو منهم للاستئذان ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي ذليلة الحيطان يصعد منها السراق بسهولة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ كما يقولون ﴿إِنْ﴾ نافية أي ما ﴿يُرِيدُونَ﴾ بقولهم هذا واستئذانهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من الحرب مع الأحزاب ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ أي البيوت أو المدينة والفاعل محذوف، أي ولو دخل الداخل وهو العدو ﴿عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي من جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي الردة أو مقاتلة المسلمين ﴿لَآتَوْهَا﴾ أي لأعطوها أي قبلوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي وما توقفوا من إجابتهم إلا زمانا قليلا.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا﴾ أي اولئك المستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قبل يوم الخندق ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ وتولية الأدبار كناية عن الفرار والانهزام ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ عن الوفاء به ويجازي على إخلافه بلا عذر مشروع ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ أي لن ينفعكم ذلك ولن يدفع عنكم ما أبرم في الأزل ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو فرضنا جدلا انه ينفعكم بان رفع عنكم ما أبرم ومنعتم فلم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعا قليلا فيما بقي من العمر المفروض بقاؤه. ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي يحفظكم من عذاب الله ونقمته ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ وقوله ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ﴾ على تقدير أو يمنع الخير منكم إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ ويجوز الاكتفاء بما في العصمة من معنى المنع. والخلاصة أن ما قدره الله تعالى لا مغير له، ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ أي أولئك

المستأذنون ﴿وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضرر عنهم ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ أي الناس المثبطين للناس عن رسول الله ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي ويعلم الناس القائلين لإخوانهم هلم إلينا أي أقبلوا إلينا حتى تسلموا من القتل والجروح ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اي وهؤلاء لا يأتون الحرب إلا قليلا من الزمان ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي حالكونهم بخلاء بالإنفاق عليكم ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ أي أحداق عيونهم من الاضطراب وشدة الخوف ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت أي من معالجة سكراته ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي وإذا جاء وقت الأمن آذوكم بكلام خشن بألسنة حداد أشحة على الخير أي بخلاء حريصين على مال الغنائم أو على أموالهم التي ينفقونها، وقيل بخلاء بأن يتكلموا بكلام فيه خير ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي أولئك الناس الموصوفون بهذه الصفات الذميمة لم يستقر الإيمان في قلوبهم ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وأسقطها عن درجة الاعتبار ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي ذلك الإحباط ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19)ـ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي هم في حالة من الجزع والخوف بحيث بعد أن هدم الله الأحزاب يظنون أنهم لم يذهبوا ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ أي كرة ثانية ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ تمنوا أنهم خارجون إلى البدو وساكنون مع الأعراب ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أي لا يعرفون أخباركم إلا إذا سألوا عن القادمين من المدينة ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ وذلك رياء أو خوفا من سوء السمعة وأناس هذا حالهم ليس فيهم خير بكل حال.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27)﴾

قولـه تعـالى: ﴿لَقَـدْ كَـانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللَّهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ﴾ الأسـوة الخصـلة والصـفة والمـراد بهـا الثبـات والصـبر على مقاسـاة الشـدائد، والمخاطب عبارة عن المؤمنين المخلصين الذين ظهر في قولـه تعـالى ﴿يَسْـأَلُونَ عَنْ أَنْبَـائِكُمْ﴾ أي لا شـك أنـه كـان وحصـل وظهـر لكم في شخص رسول الله خصلة حسنة من أعظم خصال الإنسان وهي الثبات والصبر، وهذا ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَـوْمَ الْآَخِـرَ وَذَكَـرَ اللَّهَ كَثِـيرًا﴾ أي هذه الخصلة لا تكون صـفة إلا لنفس من كـان يـؤمن باللـه ويرجـو منـه الخير والعفو والستر، ويرجـو جـزاء اليـوم الآخـر أي الثـواب فيـه. ﴿وَ﴾ علاوة على ذينك ﴿ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ حـتى تنـور قلبـه. ويحتمـل أن تكـون الأسوة بمعنى المؤنس به والمقتـدى، وكينونتـه في رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم إنما يكون على رعاية صفة التجريد، وهو أن

ينزع من شخص ذي صفة شخص آخر مثله فيها مبالغة في اتصافه بذلك الوصف، نحو لقيت من زيد أسدا، ويكون بكلمة في نحو لهم فيها جنات النعيم، وبمن كهذا المثال والآية كالمثال الأول. وقد تحققت تلك الصفة الحميدة في المؤمنين المخلصين كما يظهر من قوله تعالى ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي المخلصون الكاملون في الإيمان ﴿الْأَحْزَابَ﴾ الواردين على أطراف المدينة المنورة ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي هذا الإبتلاء بهذا الجيش العظيم هو الذي وعدنا الله تعالى به في قوله ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وفي قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وكذا وعدَ به رسوله في إرشاداته ومواعظه بأنكم تبتلون بالمحن على ضوء الآيات الواردة الدالة على ذلك الموضوع. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: ((إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا)) أي في آخر تسع ليال أو عشر ليال من وقت الإِخبار، أو من غرة الشهر؛ فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك فمرادهم بذلك ما وعد بهذا الخبر وتعقبه ابن حجر بأنه لم يوجد في كتب الحديث ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي إيمانا بصدق ما وعد الله به ورسوله. وتسليمهم لذلك. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المخلصين الذين ذكرت صفاتهم ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي صدقوا في ذلك وثبتوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم ثباتا حائزا للقبول. وفي المراد بأولئك الرجال أقوال:

الأول: إنهم أنس بن نضر وسائر الشهداء في واقعة أحد. ويقال إن فيهم نزلت ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾... الآية.

الثاني: إنهم عثمان بن عفان، وطلحة ابن عبيد الله، وسعيد بن زيد، وعمرو بن نفيل، وحمزة ابن عبدالمطلب، ومصعب ابن عمير وغيرهم..

الثالث: إنهم أهل العقبة السبعون أهل البيعة.

ثم إنهم انقسموا قسمين كما قال سبحانه وتعالى ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ أي قضى أجله المحتوم والنحب في اللغة النذر المحكوم بوجوبه، ثم استعمل في الموت لوجوب تحققه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ يوما فيه جهاد فيقضي نحبه فيه، ويؤدي نذره ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ما عاهدوا الله عليه بأمر آخر مخالف لذلك ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي بسبب صدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ﴾ تعذيبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن شاء ذلك فإنه تعالى قادر على كل ممكن فيمكن أن يغفر للمنافقين من الكفار لكنه أخبر بانه لا يقع منه ذلك حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ثم ذكر الباري سبحانه تتمة قصة الأحزاب فقال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجاؤا متظاهرين متعاونين على الباطل لإزهاق الحق فرجعوا خائبين خاسرين متلبسين ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ وحقدهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ بزعمهم وهو الظفر بخير البشر صلى الله عليه وسلم، ولم يؤثروا في كيان الحق والإسلام بل غلب الحق وانهزم الباطل بدون قتال ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي وقاهم وعصمهم من ذلك ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إضعاف كل قوي ﴿عَزِيزًا﴾ غالبا على كل ما أراد. ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي كما أنه تعالى رد الأحزاب إلى مأويهم الذي جاؤا منه خائبين خاسرين أنزل اليهود الذين كانوا متعاونين معهم في المجيء الى حرب الرسول وأصحابه، وهم أهل الكتاب الذي فيه نعوته ونعوتهم مع أن الواجب عليهم أن يتعاونوا معه في رد الأعداء لا أن يتعاونوا عليه في زيادة البلاء فنزلهم من صياصيهم وحصونهم المنيعة التي كانوا يتحصنون بها في المخاوف ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي الخوف الشديد من الرسول صلى الله عليه وسلم <338>

وأصحابه ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ أي تقتلون فريقا منهم وهم الرجال المقاتلون المتعاونون وتأسرون فريقا غيرهم من الشيوخ والنساء والذراري انتقاما منهم على نقض العهد والتعاون مع الأعداء الأشداء المتآمرين المتظاهرين على إبادة الرسول وأصحابه. قيل: لم لم يناسب في الجملتين المتعاطفتين بتقديم المعمولين أو العاملين؟ وأجيب بأنه: لما لم يفرق الله في الحكم عليهم بين القتل والأسر، ولم يجعل هناك واسطة لا تقتل ولا تؤسر بل يبقى بعض منهم في محله لم يفرق بين الفعلين في اللفظ، وقدم فعل القتل لأنه أهم للمسلمين في الأمان من كيدهم وعودهم مرة أخرى، وللغاية المتحققة عينها في إمحاء المقاتلين قدم المفعول على الفعل. وأما في جملة الأسر فمشى على الترتيب الواقعي من تقديم العامل على المعمول لأن الأسر هو المطلوب والمأمول ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ التي عليها مدار حياتهم من المزارع والمراتع والبساتين ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ أي دورهم السكنية وقلاعهم الأمينة ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ من الأثاث والنقود والمواشي وما إلى ذلك ﴿وَ﴾ كذلك أورثكم ﴿أَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾ لحد الآن تشمل جميع ما فتحت ووقعت تحت أيديهم. ولو لم تصر من الغنائم كمكة المكرمة التي فتحت بعد هذا التأريخ بسنتين، ولكن روي عن مقاتل ويزيد بن رومان وابن زيد أنها أرض خيبر التي فتحت بعد بني قريظة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ روي أنه بعد رجوع الأحزاب إلى أماكنهم ورجوعه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة مع أصحابه أتاه جبريل عليه السلام فقال: أتنزع لأمتك والملائكة لم يضعوا السلاح؟ ! إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عامدٌ إليهم فأذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة فحاصرها إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين حتى جهدهم الحصار، فقال: تنزلون على حكمي؟ فَأَبوا. فقال: على حكم سعد بن معاذ فرضوا به. فحكم سعد بقتل <339>

مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم. فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.
فقتل منهم ستمائة أو أكثر، وأسر منهم سبعمائة.
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآَخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ إستئناف لأمره تعالى حبيبه صلى الله عليه وسلم أن يخير أزواجه بين الدين والدنيا، بين الله ورسوله وبين طبع الإنسان ومأموله ليتبين أهل الإخلاص من غيره فيقول ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي التنعم والبطر فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي زخرفها وبهجتها من الملابس الفاخرة والمساكن العالية والأثاث وما شاكلها ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي فأقبلن عليّ حتى أسرحكن وأطلقكن طلاقا لا يعود به ضرر عليكن من طول العدة وغيرها وأعطيكن حق المتعة الثابتة بالفراق ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي رضاء الله ورسوله أي إطاعة الله في الحقوق التي أوجبها وإطاعة الرسول في أداء حقوق الزوجية ﴿وَالدَّارَ الْآَخِرَةَ﴾ أي ثواب الدار الآخرة ونعيمها الباقي أبد الابدين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ﴾ وهن من أردن الله ورسوله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا تستقصى عظمته.

روي أنهن سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة رضي الله عنها فخيرها فاختارت الله ورسوله، ثم اختارت الباقيات اختيارها، فشكر الله لهن ذلك فأنزل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ وتقديم التمتيع على التسريح وإن كانت المتعة ناشئة من التطليق من الكرم وحسن الخلق، ثم قال تعالى مؤدبا لأهل البيت ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ أي بمعصية كبيرة ظاهرة القبح ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ الحصة الأولى على ارتكاب المعصية، والثانية على تشويه سمعة بيت النبوة والرسالة وفتح الباب لجسارة أهل الضلالة ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي تضعيف العذاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ سهلا فإنه لا مانع من حكمه كيف كان.

<341>

الجزء الثاني والعشرون

<343>

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُــولِهِ وَتَعْمَــلْ صَــالِحًا نُؤْتِهَــا أَجْرَهَــا مَــرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْـتُنَّ كَأَحَـدٍ مِنَ النِّسَـاءِ إِنِ
اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَـعْنَ بِـالْقَوْلِ فَيَطْمَـعَ الَّذِي فِي قَلْبِـهِ مَـرَضٌ وَقُلْنَ قَـوْلًا
مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ
الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ إِنَّمَـا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ
الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُـوتِكُنَّ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَـةِ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ لَطِيفًـا خَبِـيرًا (34) إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ
وَالْمُسْـلِمَاتِ وَالْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ وَالْقَـانِتِينَ وَالْقَانِتَـاتِ وَالصَّـادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَـافِظِينَ فُـرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَـاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالـذَّاكِرَاتِ أَعَـدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِـرَةً وَأَجْـرًا عَظِيمًـا (
35)﴾

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي تخشع وتطع عن أدب القلب وسكينته ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي ضعفين مرة على القيام بالحسنة، ومرة على تشجيع غيرها من أمثالها على مثل تلك الطاعة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ عظيم القدر لا يناله إلا أمثالها.

ولما نصحهن الله على إطاعة الله ورسوله وعلى عدم الاعتناء بزينة الدنيا وعلى تضاعف الأجر على الطاعة والوزر على المعصية أدبهن في رعاية بعض الدقائق التي تكون سببا في رعايتها للكمال وفي الخروج عنها للاختلال فقال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال صاحب روح المعاني روَّح الله روحه: إن أحد الذي لا يستعمل إلا في النفي معناه إنسان بإجماع أهل اللغة، وأحد الذي يستعمل في الإثبات معناه الفرد من العدد، فإذا تغاير مسماهما تغاير اشتقاقهما، لأنه لابد فيه من المناسبة بين اللفظ والمعنى، ولا يكفي فيه أحدهما، فإذا كان المقصود به الإنسان فهو الذي لا يستعمل إلا في النفي، وهمزته أصلية، وإن قصد به العدد ونصف الاثنين فهو الصالح للإثبات والنفي وألفه منقلبة عن واو إنتهى. ولا يخفى أنه إذا سلم الفرق المذكور ينبغي أن تكون الهمزة هنا أصلية. وإلى أن همزة الواقع في النفي أصلية ذهب أبو حيان فقال: إن ما ذكره الزمخشري من قوله: ثم وضع في النفي العام غير صحيح لأن الذي يستعمل في النفي العام مخصوص بمن يعقل. وذكر النحويون أن مادته همزة وحاء ودال ومادة أحد بمعنى واحد أصله واو وحاء ودال، فقد اختلفا مادة ومدلولاً.

وذكر أن ما في قوله تعالى ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ يحتمل أن يكون الذي للنفي العام، ويحتمل أن يكون بمعنى واحد، ويكون قد حذف معطوف، أي بين واحد وواحد من رسله.

ثم قال: وقال الراغب: أحد يستعمل على ضـربين في النفي لاسـتغراق جنس الناطقين ويتناول القليل والكثير على الاجتماع والانفـراد نحـو مـا في الدار أحد أي لا واحـد ولا اثنـان فصـاعدا لا مجتمعين ولا متفـرقين. وهـذا المعـنى لا يمكن في الإثبـات لأن نفي المتضـادين يصح. ولا يصـح إثباتهما فلو قيل: في الدار أحد لكان إثبات أحد منفرد مع إثبات ما فوق الواحد مجتمعين ومتفرقين وهو بيّن الإحالـة. ولتناولـه مـا فـوق الواحـد صح نحـو ﴿فَمَـا مِنْكُمْ مِنْ أَحَـدٍ عَنْـهُ حَـاجِزِينَ﴾ وفي الإثبـات على ثلاثـة أوجه استعماله في الواحد المضموم إلى العشـرات كأحـد عشـر وأحـد وعشـرين واسـتعماله مضـافا أو مضـافا إليـه بمعـنى الأول نحـو ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وقوله يوم الأربعاء، واستعماله وصـفا وهـذا لا يصح إلا في وصفه تعالى شأنه. أما أصـله أعـني وحـد فقـد يسـتعمل في غيره سبحانه كقول النابغة:

كأنّ رحلي وقد زال النهار بنا بذي الحليل على مستأنس وَحَدٍ

وهو محتمل لدعوى انقلاب همزته عن واو مطلقا، ولدعوى انقلابها عنها في الإستعمال الأخير. ثم قال: ولا يخفى على المنصف أن كون المعنى في الآية ما ذكره الزمخشـري، وهـو قولـه إن المعـنى لسـتن كجماعـة واحدة من جماعات النساء.. أظهر، وتفضيل كل واحدة من نسائه صلى الله عليه وسلم على كـل واحـدة واحـدة من سـائر النسـاء لا يلـزم أن يكون لهذه الآية، بل هو لدليل آخر إما عقلي أو نص مثـل قولـه تعـالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وقيل: يجوز أن يكون ذلـك لهـا فإنهـا تفيـد بحسـب عــرف الإسـتعمال تفضـيل كــل منهن على سـائر النسـاء لأن فضــل الجماعة على الجماعة يكون غالبا لفضل كل منهـا. إنتهى مـا نقلتـه عن روح المعاني.

وإذا تأملت في ذلك بإنصاف علمت أن الحق هو ما قاله الـراغب، وهـو أن استعمال أحد في النفي لاستغراق جنس النـاطقين ويتنـاول القليـل والكثير على الاجتماع والانفراد، وذلك لأن الاحتمالات في الآية الكريمـة أربعة: نفي مساواة الجماعة للجماعة، ونفي مساواة الواحدة للواحـدة، ونفي مساواة الواحدة للجماعة، ونفي مساواة الجماعة للواحدة. وهـذا الاحتمـال الأخـير لا قيمـة لـه، إذ ليس المقصـود أن جمـاعتكن ليسـت كواحدة من النسـاء قطعـا، وتبقى الاحتمـالات الثلاثـة صـحيحة موافقـة للمقصود، لأنه إذا أريد أنـه ليسـت جمـاعتكن كأيـة جماعـة من النسـاء يلزمه غالبا أن لا تكون أية واحدة منهن كأيـة واحـدة من سـائر النسـاء. وإذا أريد أن ليست واحدة منهن كجماعة من النساء بل أشـرف منهن.. أفـاد المـدح الزائـد لثبـوت شـرف الواحـدة على الجماعـة فعلى الفـرد يكـون بـالأولى. وإذا أريـد أن ليسـت واحـدة منكن كواحـدة من النسـاء يلزمـه أن لا تكـون جمـاعتهن كجماعـة من النسـاء. وهـذه الاحتمـالات السـليمة كلهـا توافـق مـا قالـه الـراغب من اسـتعمال أحـد في النفي لاستغراق الجنس قليلا أو كثيرا، وهذا واضح.

وقوله ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ شرط وجوابه قوله تعالى ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا تجعلن قولكن ذا لين وخنث ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَـرَضٌ﴾، أي نيـة فاسدة ﴿وَقُلْنَ قَـوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي معتـادا من الحرائـر بعيـدا عن الريبـة. ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من قر يَقَرُّ من بـاب علم أصـله إقْـرَرْنَ، فحـذفت الراء الأولى، وألقيت فتحتها على ما قبلهـا، وحـذفت الهمـزة للاسـتغناء عنها بتحريك القاف أي اُسْكُنَّ في بيوتكن ولازِمْنَها. وملازمة البيوت أمر مطلوب من سائر النساء.

أخرج الترمذي عن ابن مسعود رضي الله تعـالى عنـه عن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ((أن المـرأة عـورة إذا خـرجت من بيتهـا استشـرفها الشيطان. وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها))

وأخرج البزار عن أنس قال: النساء جئن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين في سبيل الله تعالى؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ((من قعدت منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى)). وقد استثني من خروج النساء ما فرضه الشرع أو أباحه وسنه، كالخروج للحج، وزيارة الوالدين، والأولاد، وعيادة المرضى وتعزية أهل الميت، والتداوي، واشتراء ما تحتاج إليه إذا لم يكن لها من يكفيها، وزيارة من تصادقها من النساء أو الأقارب المحارم كالعم والخال ونحو ذلك. ولكنه يجب عليها غض البصر عن النظر المحرم في خارج البيت وداخله. ومن المحرمات خروجهن متعطرات ومتزينات بدون ضرورة كالسيل وخوف الحرق وأمثالها.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ والتبرج: أن تخرج فتلقاها بدون خمار على رأسها يستر عنقها وقرطها وقلائدها فيبدو ذلك منها. وقال المبرد: التبرج أن تظهر من محاسنها ما يجب عليها ستره، وقال الليث يقال: تبرجت المرأة إذا أبدت محاسنها ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما تأتِنَّ وتَذَرِنَّ، لاسيما فيما أُمِرْتُنَّ به ونهيتُنّ عنه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمره ونهيه خطاباً معكن ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي الإثم في الدنيا والعذاب في الآخرة الخالدة يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ مما صدر جهلا وغفلة ونسيانا ﴿تَطْهِيرًا﴾ بليغا مناسبا لمقام الرسول وبيته وأهله في الدنيا والدين ونصب أهل في أهل البيت على النداء أو على المدح أو على الاختصاص والمراد بأهل البيت أزواجه صلى الله عليه وسلم المخاطبات بالأوامر والنواهي الواردة قبلُ. والبيت: هو البيت

المصنوع من الطين والخشب، وذلك للقرائن الدالة على ذلك من الآيات السابقة واللاحقة مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له بيت يسكنه سوى سكناهن، روى ذلك غير واحد. فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾... الآية في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة. وأخرج ابن مردويه عن طريق ابن جبير عنه ذلك بدون لفظ خاصة وقال عكرمة: من شاء باهَلْتُه أنها نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة أنه قال في الآية ليس بالذي تذهبون إليه إنما هو نساء النبي صلى الله عليه وسلم. وروى ابن جرير أيضا أن عكرمة كان ينادي في السوق أن قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نزل في نساء النبي عليه الصلاة والسلام. وتوحيد البيت لأن بيوت الأزواج الطاهرات باعتبار الإضافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بيت واحد، وجمعه في ما سبق باعتبار الأزواج المطهرات اللاتي كن متعددات، وجمعه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ دفعا لتوهم إرادة بيت زينب التي نزلت الآية عليه صلى الله عليه وسلم في بيتها. وأورد ضمير جمع المذكر في ﴿عَنْكُمُ﴾ و﴿يُطَهِّرَكُمْ﴾ رعاية للفظ الأهل وهذا كما في قوله تعالى خطابا لسارة زوجة الخليل عليه السلام: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾. قيل المراد بأهل البيت النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات وضمير جمع المذكر لتغليبه عليه السلام عليهن، وقيل: المراد بالبيت ما يعمُّ بيته صلى الله عليه وسلم وبيتَ النسب، وكان في البيت إذ ذاك الرسول صلى الله عليه وسلم وعلي والحسن والحسين وفاطمة رضي الله عنهم.

فقـد أخـرج الترمـذي والحـاكم وصـححاه وابن جريـر وابن المنـذر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طـرق عن أم سـلمة رضـي اللـه تعـالى عنها قالت: في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الـرِّجْسَ أَهْـلَ الْبَيْتِ﴾ وفي الـبيت فاطمـة وعلي والحسـن والحسـين فجلّلهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم بكساء كان عليه، ثم قـال: هـؤلاء أهـل بيـتي فَأذْهِب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

﴿وَاذْكُرْنَ مَـا يُتْلَى فِي بُيُـوتِكُنَّ مِنْ آَيَـاتِ اللَّهِ﴾ أي القـرآن ﴿وَالْحِكْمَـةِ﴾ وهي السنة فالذكر بالنسبة إلى القرآن الكريم عبارة عن تلاوته وحفظه وفهم معناه ونشره بين المسـلمات والمسـلمين، وبالنسـبة إلى السـنة عبارة عن حفظها وفهم معناها ونشـرها بين الفـريقين من أهـل الـدين. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلم كل شيء وما يناسب كل فـرد أو فئـة مما له فيه مصلحة في الدين.

وإنما جعلت قوله تعالى: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ شـرطا لمـا بعـده لأن مـا تقدمـه ليس مقيدا به في اعتقـادي، لأن المقصـود من الآيـة الشـريفة أنكن يـا نساء النبي، يا أمهـات المؤمـنين، يـا مرجـع المؤمنـات في أخـذ أحكـام الآيات البينات والسنة السنية النبوية مقـامُكنّ غـيرُ مقـام بـاقي النسـاء المؤمنات في الدنيا فإنكنّ قدوة، وإنكن في مقام عال على المقامـات، وكيف عشتن سابقا ولاحقا فكلامي معكن كلامي مع نساء سـيداتٍ زلـةٌ صغيرةٌ منهن كبيرةٌ عند العالم، وحبة ترد عليهن قبة في نظر الناظرين، وليس كلامي مع أشخاصكن بل كلامي معكن بحسب مقـامكن من بيت الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم، فـاتركن من الأحـوال الشخصـية الاعتيادية والاجتماعية كل قول وفعل، وكـل عـادة تخـالف جلالـة مقـام الرسالة فإن اتقيتن مخالفة أمر الله ورسـوله ﴿فَلَا تَخْضَـعْنَ﴾ إلى آخـر الآيات ففضيلتهن فضيلة مكتسبة من إطاعتهن لله ولرسوله، ورعـايتهن لذلك البيت الرفيع، ولا كلام مع أية واحدة منهن في ذاتها بدون ملاحظة ذلك. وإلا فكل صالح

وصالحة في عالم الإسلام حقه محفوظ ونصيبه ملحوظ بلا إضاعة لحقوق أحد.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الداخلين في الإنقياد لحكم الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المصدقين بما يجب التصديق به إجمالا أو تفصيلا ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ أي كل من دخل في الطاعة والعبادة المفروضة والنافلة لله ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في الأقوال ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على المتاعب والشدائد والمكاره ومخالفة النفس والشيطان ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ لله تعالى في أداء العبادات، أو المتواضعين والمتواضعات للناس حياءً من الله ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ على الناس أموالهم بالصدقات المفروضة أو المندوبة، والصائمين والصائمات صياما مفروضا أو تطوعاً ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ فروجهن عما لا يرضي الله تعالى ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ بالألسنة والقلوب. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات)) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ بسبب أحوالهم السابقة ﴿مَغْفِرَةً﴾ لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بالأعمال الصالحة ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعاتهم لله مخلصين. أخرج ابن جرير عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقلن: قد ذكركن الله تعالى في القرآن وما ذكرنا بشيء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية...

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36)﴾

والآيــة، على مــا روي عن ابن عبــاس، نــزلت في زينب بنت جحش من عمته صلى الله عليه وسـلم أُميمة بنت عبـدالمطلب وأخيهـا عبـد اللـه، خَطَبَهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارِثة، وقــال « إني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة، فإني قد رضيتُه لكِ» فَأَبَتْ وقالَتْ: يا رَسُولَ الله لكني لا أرضـاه لنفسـي، وأنـا أيّمُ قـومي وبنت عمتـك، فَلَم أكُن لأفْعَلَ. وفي رِواية أنها قالت: أنا خَيْر منه حَسَباً، ووافقها أخوها عبدُ اللهِ على ذلك. فلما نزلت الآية رضيا وسلما. فأنكحهـا صـلى اللـه عليـه وسلم زيداً بعد أنْ جَعَلت أمرَها بيده، وساقَ إليها عشرة دنـانير وسـتين درهما مهرا، وخمارا وملحفـة ودرعـا وإزارا وخمسـين مـدا من الطعـام وثلاثين صاعا من تمر.

قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي ما صح وما استقام لرجــل ولا لامــرأة من المسـلمين ﴿إِذَا قَضَــى اللَّهُ وَرَسُــولُهُ أَمْـرًا﴾ أي قضـى رسول الله على وحي من الله بأمر من الأمـور ﴿أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ﴾ أي أن يختـاروا من أمـرهم مـا شـاؤا، بـل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام. والخيرة مصـدر من تخــير كــالطيرة من تطــير، ولا ثــالث لهمــا على مــا قــالوا ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ أي واضح الانحراف عن سنن الصّواب.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ الآية،... خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي اذكر وقت قولك للرجل الذي أنعم الله عليه بأن رزقه صحبتك، وألهمه اختيار بقائه عندك لما أتاه أبوه يطلب رجوعه إلى محله، وانت خيرته بين البقاء عندك وذهابه مع أبيه فاختارك، ووفقه للإسلام فأسلم وحسن إسلامه ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بتبنيه في وقته، وجعله من أفراد عائلتك، ثم عتقه وتزويجه من بنت عمتك ورعاية شئونه باعطاء مهر زوجته وتزويده بما يحتاج إليه في بيته: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينب بنت عمتك، وذلك أنها كانت ذات حِدة في الطبع، وتفخر على زيد بشرفها حسباً ونسبا، ويسمع منها ما يكره، فجاء رضي الله عنه يوما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن زينب قد اشتد على لسانها، وأنا أريد أن أطلقها. فقال صلى الله عليه وسلم: «أمْسِك عليك زوجك واتق الله» في أمرها فإن الطلاق غير محبوب عند الله، ولا تطلقها تعللا بتكبرها واشتداد لسانها عليك ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وهو على ما أخرج الحكيم الترمذي وغيره عن علي بن الحسين رضي الله عنهما عبارة عما أوحى الله تعالى به إليه أن زينب سيطلقها زوجها وتتزوجها أنت وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين كالزهري، وبكر بن العلاء، والقشيري، والقاضي

أبي بكر بن العربي وغيرهم ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أي تستحي من قولهم أن محمدا تزوج زوجة ابنه، والناس هنا هم المنافقون لأن المؤمنين الصادقين علموا أن حكم التبني قد نسخ، وأنه يعتبر الدَّعِيُّ أجنبيا ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ أي والله تعالى وحده أحق أن تخشاه في كل أمر، وتفعل ما أباحه لك وأذن لك فيه بدون مبالاة بغيره ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ أي الحاجة النفسية من الزوجة، أو أكمل وانفذ مدة الحاجة إليها وصار بحيث لم يقدر على صحبتها وطلقها وفارقها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ أي جعلناها زوجة لك وأمرناك بتزوجها ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي إثم وذنب ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ أي في تزوج أزواج أولاد أجانب وذكروا باسم أبنائهم على التوهم والعادة الجاهلية ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي إذا طلقهن الأدعياء فيكون تزوجهن أمرا مشروعا لأن تلك النساء كن زوجات لرجال أجانب عن الأب الموهوم ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ محققا لا محالة.

ثم أعلن الباري سبحانه وتعالى أن هذا الزواج كان زواجا مشروعا حكم به الحق، وأن خرق هذا الحجاب الجاهلي الموهوم على يد الرسول صلى الله عليه وسلم كان بأمر الله ووحيه وتشريعه الحق فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون عليه صلى الله عليه وسلم حَرَج وعتب فيما فرض الله له وقسم له وقرر وقدر وشرع له من تزوج زوجة دعيه بعد طلاقه لها ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ بل سنّ الله للرسول سنة كسنته في الأنبياء الذين خلوا من قبل أي من قبل هذا الزمان، فقد كانت في العهود السابقة أحكام مشروعة أو عادات متبعة، ولما جاء عهد الرسول اللاحق نسخ تلك الشريعة السابقة أو تلك العادة القديمة ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي وكان أمر الله تعالى بتشريع أيّ حادث في العالم إرادة أزلية جارية في

الأزل وواقعة في المستقبل أي تابعا لإرادة أزلية يتحقق المـراد بهـا بلا شك وشبهة. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾ صفة للذين خلوا أي الأنبيـاء والرسل الذين كـانوا يبلغـون ﴿رِسَـالَاتِ اللَّهِ﴾ إلى القـوم بـدون مبـالاة بعتـاب ولـوم ﴿وَيَخْشَـوْنَهُ﴾ أي وكـانوا يخـافون اللـه تعـالى في كـل مـا يفعلون ويـتركون ﴿وَلَا يَخْشَـوْنَ أَحَـدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ ولا يخشـون ولا يخـافون في تبليغ الوحي أحدا إلا الله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِـيبًا﴾ فـإن قلت قـد أثبت الله لنبيه خشية من الناس فكيف ينفيها هنا؟ قلنا: تلـك الخشـية الثابتـة لم تكن خوفا منهم، بل كانت اسـتحياء من انتشـار كلمـاتهم الهوجـاء أو أن الخشية المنفية الخشيةُ في تبليغ الـوحي لا خشـية وخـوف آخـر من أي ظالم أو عدو أو سبع كما سبق في قوله تعالى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِـهِ خِيفَةً مُوسَى﴾. وكان أساس ذلك الاستحياء اشـتهار بنـوة زيـد لرسـول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا يدعونـه يزيـد ابن محمـد مـع أنـه لم يكن ذلك الاشتهار ناشئا عن الواقع كما قال تعـالى ﴿مَـا كَـانَ مُحَمَّدٌ أَبَـا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ حـتى تحـرم عليـه زوجتـه ﴿وَلَكِنْ رَسُـولَ اللَّهِ وَخَـاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وبصفة رسالته السماوية وكونه خـاتم الأنبيـاء، ولا يكـون بعـده نبي أو رسـول إلى قيـام السـاعة كـان من المهم أن يزيـل الاشـتباهات الواردة المستقرة في قلوب الناس من أي باب لاسيما في باب الزواج الذي هو وسيلة التناسـل وبقـاء النـوع الإنسـاني، فقـدر اللـه تعـالى أن يطلق دعيُّه وهو زيد بن حارثة زوجته وأمرَ الله حبيبه أن يتزوجها لخرق ذلك الحجاب الموهوم. وإلا فلو كان له صلى الله عليه وسلم رغبـة في نكاحها أتزوجهـا أول الأمـر بكـل سـهولة، لكنـه تعـالى أراد أن يرفـع بـه الحجاب الموهوم ويصعد بتشـريعاته إلى أوج المقـام المعلـوم. ﴿وَكَـانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ذاتا وصفة ذاتية أو اعتياديـة فلا يغيب عن علمـه شيء من الأشياء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ من سنة الله تعالى في كتابه الكريم أنّه كلما نزلت آيات في أمور هامة تشغل القلوب بالبحث عن أخطار واردة أو أوهام باطلة عقبها بآيات تدعو المؤمنين إلى الرجوع إلى الله بذكره والإنابة. فعلى هذا المنهج عاد الباري تعالى إلى سنته في كتابه وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يشمل أحوالكم وأوقاتكم بحيث تعدون من الذاكرين لا من الغافلين فإن القلب مائدة الفوائد والعوائد، فإذا أهملت نهبت الشياطين ما عليها ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي ونزهوا ذاته وصفاته عن كل ما لا يليق وتخصيص الوقتين لأنهما محيطان بأوقات العمل وتعقيب الأمل، فإذا استعملا في الخير لا يتسرب الشر إلى ما بينهما. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالتسبيح الصلاة وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله، يعني أنه مادام الباري عز وجل يفيض عليكم الرحمة والنعمة وملائكته الكرام يدعون لكم بأمره تعالى فمن حقكم أن لا تتوانوا

دقيقة من الزمن في تسبيحه وتحميده وذكره وشكره والاشتغال بما يقربكم إليه. والصلاة إذا نسبت إلى الله تعالى فمعناها الرحمة وإفاضتها، أو إلى الملائكة فالاستغفار، أو إلى الإنس والجن فالدعاء. واستعمالها هنا في المعنيين الأولين إما مبني على جواز استعمال المشترك في معنيين أو أكثر أو بطريق هموم المجاز وهو أن يراد من اللفظ معنى مجازي عام لتلك المعاني الاعتناء بالشأن أو نحوه وذلك ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ظلمات الجهل إلى نور العلم، أو من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، أو من أنوار هي ظلمات بالنسبة إلى مقامكم إلى أنوار أخرى هي نور بالنسبة إليها كما يقال حسنات الأبرار سيئات المقربين ﴿وَكَانَ﴾ أي الباري تعالى ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ كامل الرحمة ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أي تحية المؤمنين يوم يلقون ربهم سلام منه عليهم. ورد أن الله تعالى يقول لهم يوم القيامة ووقت اللقاء: سلام عليكم عبادي أنا عنكم راض فهل أنتم عني راضون؟ فيقولون بأجمعهم: يا ربنا إنا راضون كل الرضاء. وقيل تحييهم الملئكة بذلك يوم القيامة إذا دخلوا الجنة كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي وهيأ لهم ربهم ثوابا حسنا يرضونه ويطمئنون به.

ثم توجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مركز دائرة الوصول فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على كل من بعثت إليه بإطاعته لله أو بعصيانه وخروجه عن حكمه ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمطيعين بالجنة والرضوان ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعصاة بعذاب النيران ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ جميع المكلفين من الجن والإنس ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بتسهيله وتيسيره ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ للقلوب المظلمة بما تلقيه إليها من نور الإيمان والتوحيد ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ وهو اطمئنان القلب وانشراح

الصدر في الحياة وأخذ البشرى عند الممات، وسلام الملائكة عند النشور والسير في العرصات، وسلام الله تعالى لهم في الجنات، ولقاء وجهه الكريم من زيادة الهبات ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ في اقتراحاتهم فإنك إن أطعتهم ضيعوك وإن خالفتهم سلمك الله ورفعك ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي ولا تبال ولا تهتم بأذاهم أي بإيذائهم لك أو أهلك أو أصحابك بالمعاندة والافتراءات وسوء المكالمات، فإن كل أذية توجب لكم مزية ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في كل ما تفعله لله أو تتركه لله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظا للذي يفوض الأمور إليه ويعتمد عليه في الدنيا والدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50) تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ عود إلى ذكر النساء، والنكاح هنا العقدُ أي إذا عقدتم على المؤمنات عقد الزواج الصحيح الجامع للشرائط والأركان ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تطأوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ لأن العدة، وإن كان فيها شوب التعبد، لكن الحكمة الأساسية معرفة براءة رحم المرأة، وما دامت غير موطوءة فلا احتمال للعلوق حتى توجب العدة ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي فأعطوهن مالاً تسمى المتعة لتمتعها به، ولدفع الوحشة الناشئة عن الفراق ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي أخرجوهن من منازلكم إخراجا مقرونا بكلام جميل لين موافق لدفع وحشة المفارقة. وهذا الطلاق طلاق بائن بينونة صغرى لا تحل الزوجة بعدها إلا بعقد لأنه جرى قبل الدخول. وضابط الطلاق البائن والرجعي أنه إن استوعب العدد الثلاث فبائن بينونة كبرى لا تحل للزوج إلا بعد أن تنكح زوجا غيره، وإلا فإن كان قبل الدخول مطلقا أو بعده بعوض فبائن بينونة صغرى، وترجع إليه بعقد جديد جامع لجميع الآداب، وإلا فالطلاق رجعي يجوز للزوج رجعتها في العدة بنفسه، فإن تركها حتى انقضت عدتها فبائن أيضا ويحتاج رجوعها إلى عقد جديد.

ثم انتقل المولى إلى أحكام زواج الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آَتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي أعطيتهن مهورهن، وسميت المهور أجورا لأنها في معنى الأجور على

الاستمتاع بها بوجوه التمتع المشروع في الدين، وتقييد الإحلال بإعطـاء الأجور لإيثار الوجه الأفضل لا تتوقف الحل عليه ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي من الجواري المسبيات في الجهاد التي أرجعها الله إليك وجعلها مملوكة لك، وتقييد المملوكة بقولـه ممـا أفـاء اللـه عليـك لرعايـة الواقـع لأنـه لم تكن عنـده جاريـة مشـتراة، أو لأن المشـتراة لا يعلم بدء أمرها لاحتمال أن السبي لم يكن بوجه مشروع. وما يقــال أن مارية القبطية رضي اللـه عنهـا لم تكن مسـبية بـل هديـة لـه من أمـير القبط جريج بن مينا صاحب الأسكندرية.. فيجـاب عنـه بـأن هـدايا أهـل الكفر الذين في صدر الحرب حكمها حكم السبايا. أو لأن إهـداءها كـان قبل نزول الآية الكريمة ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَـاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ أي أحللنا لـك امـرأة مؤمنـة ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَـهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْـتَنْكِحَهَا﴾ وهـذا الشــرط شرط لإفادة الوهب، أي إنما تفيد هبتها نفسها له صلى الله عليه وسلم إن أراد النبي أن يستنكحها، وإلا فلا تفيد شيئا.

واختلف في تعيين الواهبة فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها ميمونة بنت الحرث الهلالية. وعن علي بن الحسـين رضـي اللـه عنهمـا أنهـا أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية، ولكن لم يقبلها عليـه الصـلاة والسـلام فلم تـتزوج حـتى مـاتت وعن عـروة والشـعبي هي زينب بنت خزيمة من الأنصـار كـانت تـدعى في الجاهليـة أم المسـاكين لإطعامهـا إياهم، فقبلها ولم تلبث عنده صلى الله عليه وسلم إلا قليلا حتى توفيت رضي الله عنها. وعن عائشة رضي الله عنها أنها خولـة بنت حكيم وقـد أرجأها صلى الله عليه وسلم فتزوجهـا عثمـان بن مظعـون رضـي اللـه عنه بإذنه صلى الله عليه وسلم. وعلى هذه الروايات فالواهبات

المقبولات ثنتان ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة. وأنكر بعضهم وقوع الهبة وقال: إن جملة ﴿إِنْ وَهَبَتْ﴾ مصدرة بكلمة إن وكذا تنكير امرأة يؤيدان هذا الرأي، فالمراد الإعلام بالإحلال في هذه الصورة إن وقعت. وأنكر بعضهم قبوله صلى الله عليه وسلم – مطلقا.

﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وتقرر واشتهر بين الناس. والمعنى أن الله تعالى قد علم ما ينبغي من حيث الحكمة وفرضه على المؤمنين في حق الأزواج والإماء، وعلى أي حدٍّ وصفة ينبغي أن يفرض عليهم ففرضه واختصك سبحانه وتعالى بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل في دنياك حيث أحل لك جل شأنه أصناف المنكوحات، وزاد لك الواهبة نفسها من غير عوض ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق في دينك وتكون لك سَعَة فيما تشاء من موجبات راحتك ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وافر الرحمة، ولذا وسع عليك بما أباح لك. ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تؤخر من تشاء من أزواجك. وتترك مضاجعتها ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي وتضم إليك من تشاء منهن ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي ومن طلبت رجوعها إليك ممن تركت مضاجعتها فلا جناح عليك ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك التفويض إليك بأن تعاملهن حسب مشيئتك ورغبتك ﴿أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ لأن ذلك التفويض إلى اختيارك حكم كلهن فيه سواء، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا ورحمة منك، وإن رجحت بعضهن على بعض علمن أنه بحكم الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خطاب له صلى الله عليه وسلم ولأزواجه الطاهرات على سبيل التغليب، أي يعلم ما في قلوب الجميع من الاطمئنان ومحبة صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم والرضا بما يعامل به معهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما في القلوب

﴿حَلِيمًا﴾ لا يستعجل عقوبة المخالف لعله يرجع إلى الحـق. وهـذه الآيـة الكريمة، كما ترون، دليل قاطع على أن أمر القسم مفوض إليـه صـلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد اتفـق أهـل السـير على أنـه صـلى اللـه عليه وسلم لازم القسم كما هو العدل بحيث لم تظهر منه مخالفــة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ الآية... أخرج ابن سـعد عن عكرمـة قال: لما خَيَّرَ رسول الله أزواجه واخترنه أنزل الله تعالى هذه الآيــة أي لا يحل لك النساء بعد هـؤلاء الأزواج اللاتي اخترنك فحـرم عليـك تـزوج غيرهن علاوة عليهن، أو بطريق التبدل كما قـال ﴿وَلَا أَنْ تَبَـدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ صورة أو سيرة ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُـكَ﴾ وقـد أخذ جاريةً من زينب بنت عمته اسمها نفيسة وهبتها له صلى الله عليــه وسلم في شهر ربيع الأول الذي قبض فيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ أي مراقبا وعالما بكل ما يجري في العالم.

ومما يستحسن معرفته أنه كان له صلى الله عليه وسلم إحدى عشــرة زوجـة؛ سـتة من قـريش: خديجـةُ بنتُ خويلـد، وعائشـة بنت أبي بكـر، وحفصــة بنت عمــر، وأمّ حبيبــة بنت أبي سُــفيان، وأمّ ســلَمَة بنت أبي أُمَيَّة، وســودة بنتُ زَمْعَــةَ.. وأربــعٌ عربيــات: زينب بنتُ عمتــهِ أميْمــة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت خزيمة الهلالية أمّ المساكين، وجُوَيرية بنت الحارثِ المُصْطَلَقية. وواحدة غير عربية من بني إسـرائيل وهي صفية بنتُ حُيَيْ من بـني النَّضـير. ومـاتت عنـده صـلى اللـه عليـه وسلم اثنتان منهن: خديجةُ، وزينبُ أمّ المساكين. ومات صلى الله عليه وسلم عن التسع الباقيات. وأنه صلى الله عليه وسلم

اختصه الله بإباحة الزوجات زائدة على سائر المؤمنين لحكم ومصالح دينية لا لأمر آخر، فإنه صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة بنت خويلد في مكة وعمره خمس وعشرون سنة وعمرها أربعون، وبقيت عنده إلى سنة

خمسين، ولما توفيت تزوج سودة بنت زمعة، وهي كبيرة السن، لرعاية أولاده وبناته، وتزوج عائشة بنت الصديق بعد سنتين من الهجرة وعمره صلى الله عليه وسلم اثنتان وخمسون، وباقي زوجاته تزوجهن إما لمصلحة تقوية الارتباط بينه وبين الاصهار، وإما لكونها أرملة ذات صغار كأم سلمة، أو لتقريب عشيرتها إلى الإسلام كأم حبيبة بنت أبي سفيان، أو لدفع النزاع بين الناس كصفية، أو لتعليم النساء أحكام الإسلام وآداب النساء فإنها لا تمكن بامرأة أو اثنتين، فإن كلا من عائشة وحفصة وأم سلمة كن كمعلمات لنساء المسلمين، كما يعلم من كتب السيرة النبوية. وأما الجواري فكان صلى الله عليه وسلم في أمرهن مثل باقي الناس، فإن عددهن ليس محدودا في ملك اليمين لأي إنسان، وكان له منهن أربع: مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم، أهداها له المقوقس عظيم القبط في الأسكندرية. وريحانة القرظية، وماتت قبل وفاته صلى الله عليه وسلم، ونفيسة جارية زينب بنت عمته وهبتها له صلى الله عليه وسلم والرابعة أصابها في بعض السبي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آَبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ شروع في بيان بعض الحقوق الواجبة على الناس المتعلقة به صلى الله عليه وسلم إذا كان عند نسائه، والحقوق الواجبة المتعلقة بهن رضي الله عنهن. والآية نزلت يوم تزوج صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش. روي عن أنس قال: لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطَعِموا، ثم جَلَسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيّأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام، ولما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فاذا القوم جُلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئتُ فأخبرتُ النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطَلَقوا، فجاءَ حتى دخل فذهبتُ أدخُلُ، فَأَلْقى الحجابَ بيني وبينه فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾... الآية والنهي للتحريم والباء المقدرة في قوله ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ﴾ للسببية أي لا تدخلوا بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا بسبب أن يؤذن لكم، والأقرب أن تكون للمصاحبة أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال مصاحبتكم لإذنه صلى الله عليه وسلم. وقوله إلى طعام متعلق

بيؤذن. وقوله ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ حال من ضمير المخاطب، وقيد للفعل السابق أي إلا في حال عدم انتظار طبخ الطعام.

والحاصل أن دخول البيت الشريف مقيد بقيدين: الأول الإذن فيه. والثاني أن لا يكون في حال انتظار طبخ الطعام بأن تدخلوا وقت حصوله حتى لا تبقوا فيه زمانا طويلا. وقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ استدراك مما يتوهم أن الدخول بالإذن المطلق كاف في الدخول، فاستدرك ذلك بأن المراد من الإذن الدعوة إلى الطعام، أي إذا دعيتم فادخلوا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ مباشرة وقوله ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ معطوف على ناظرين أي وإلا غير مستأنسين لحديث بعضكم بعضا أو لحديث أهل البيت بالتسمع له ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ لأنه عليه الصلاة له وقت نفيس يصرفه في غير هذه الأمور التافهة التي لا تفيد ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ أن يصرح بان له شغلا يحتاج فيه إلى الفراغ ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي من بيان الواقع المفيد النافع ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي وإذا طلبتم من أمهات المؤمنين شيئا تنتفعون به مما تحتاجون إليه من المواعين وغيرها فاسألوهن من وراء حجاب أي فاطلبوه منهن وراء الستيرة حتى لا تواجهوهن الطلب وراء الحجاب ﴿ذَلِكُمْ﴾ ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي أكثر تطهرا وابتعادا لقلوب الجانبين من الخواطر النفسية. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي وما صح وما استقام لكم ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بعمل يستكرهه صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد وفاته أو من بعد فراقه لها بشرط المباشرة فإن ذلك مما يؤذي قلبه الشريف إيذاء عائداً إلى وجوب رعاية الدين لأن الإنسان ربما تجري التخيلات الفاسدة في نفسه فيتمنى موته صلى الله عليه وسلم أو فراقه لإحدى زوجاته فيتزوجها، وفي ذلك فتح الباب لعدم الاعتناء بمقامه الشريف

﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إن ذلك الإيذاء لقلبه الشريف كـان عند الله عظيما أي أمرا عظيما وخطبا هـائلا ولا يعـرف مقـدار ذلـك إلا من يعرف مقداره عند الله العظيم. ﴿إِنْ تُبْـدُوا شَـيْئًا﴾ ممـا يتجـول في قلوبكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَـإِنَّ اللَّهَ كَـانَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ﴾ خفي أو جلي ﴿عَلِيمًـا﴾ علما شاملا لا يعزب عنه ما دخل في الوجود أو بقي في ستار العدم.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آَبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْـوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ وهـذه الآيـة الكريمـة إسـتئناف لبيـان من لا يجب عليهن الإحتجـاب عنـه. روي أنـه لمـا نـزلت آيـة الحجـاب قـال الآبـاء والأبنـاء والأقــارب: أو نحنُ يــا رســولَ اللــه نكلمهن أيضــا من وراء حجــاب؟ فنزلت... ولم يـذكر اللـه العم والخـال لأنهمـا بمنزلـة الوالـدين أو لأنـه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة وأبناء الأخوات. والمعنى أنــه لا إثم عليهن في ترك الحجاب من آبـائهن وسـائر المـذكورين في الآيـة، وفي حكمهم كــل ذي رحم محــرم من نســب أو رضــاع ﴿وَلَا نِسَــائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنـات ﴿وَلَا مَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُنَّ﴾ الظـاهر أنـه يشـمل العبيـد والإماء وإليه ذهب الإمام الشـافعي ومـذهب أبي حنيفـة أنـه مخصـوص بالإماء ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ في كل ما يخالف رضـاه إيجابـا أو سـلبا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ حاضرا عالما لا تخفى عليه خافية.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَـهُ يُصَـلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا صَـلُّوا عَلَيْـهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)﴾

إستئناف لبيان شرف الرسول صلى الله عليـه وسـلم عنـد اللـه تعـالى وأنه وملائكته يصلون عليه وإشارة إلى التعليل لما سبق. يعني أن النبي الزكي الذي شرفه بالصلاة عليه وأمر ملائكتـه بـأن يصـلوا عليـه حقيـق جدّاً

بوجوب رعاية قدره واحترامه وعدم إيذائه بأي وجه من الوجوه. وذكره باسم النبي إفادة لاستحقاق الصلاة عليه بصفة الرسالة بالطريق الأولى بناء على أن درجة الرسالة أعلى من درجة النبوة.

أخرج الإمام مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ((قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)). وأخرج الإمام أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك قد علمنا فكيف الصلاة عليك؟ قال: ((قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم)). ووردت بروايات أخرى كيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بعضها أطول من بعض ويستفاد منها أن ليس المقصود الحصر في رواية واحدة وكيفية بل المقصود التوسعة في عبارات الصلوات عليه صلى الله عليه وسلم كيف كانت، بل نقل عن جمع من الصحابة ومن بعدهم رضي الله عنهم أن كيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم لا يوقف فيها مع المنصوص، وأن من رزقه الله تعالى بيانا فَأَبَانَ عَن المعاني بالألفاظ الفصيحة الصريحة التي تُعرب عن كمال شرفه صلى الله عليه وسلم وعظيم حرمته فله ذلك. واحتج له بما أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن ماجه وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا صليتم على النبي صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه. قالوا: فَعَلمنا. قال: قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك

على سـيد المرسـلين وإمـام المتقين وخـاتم النبـيين محمـد عبـدك ورسولك إمام الخير وقائد الخـير ورسـول الرحمـة، أللهم ابعثـه مقامـا محمودا يغبطه به الأولون والآخرون، أللهم صـلى على محمـد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وأفضل الكيفيـات في الصـلاة عليـه صـلى اللـه عليـه وسـلم مـا علمـه رسول الله عليه الصلاة والسلام لأصحابه بعد سؤالهم إياه لأنه لا يختـار صلى الله عليه وسلم لنفسـه إلاّ الأشـرفَ والأفضـل. ونقـل ابن عرفـة عن ابن عبدالسلام أنه لابد في الصلاة عليه صلى اللـه عليـه وسـلم أن يزيد التسليم، كأن يقول: أللهم صل على محمد وسلم تسليما، أو صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما. واستدل النووي رحمه الله تعـالى بالآيـة الكريمة على كراهة إفراد الصلاة عن السلام وعكسه لورود الأمـر بهما معا فيها. والأمر في الآية عند الأكثرين للوجوب بل ذكر بعضـهم إجمـاع الأئمة والعلماء عليه، فقيل: واجبة في التشهد مطلقا، وقيل: واجبة في مطلق الصلاة، وقيل: يجب الإكثار منها من غير تعيين عدد، وقيل: تجب في كل مجلس مـرة وإن تكـرر ذكـره صـلى اللـه عليـه وسـلم مـرارا. وقيل: تجب في كل دعاء. وقيل: تجب كلما ذكر عليه الصـلاة والسـلام. وبه قال جمع من الحنفية منهم الطحـاوي، وعبارتـه: تجلب كلمـا سـمع ذكـره من غـيره أو ذكـره بنفسـه. وجمـع من الشـافعية منهم الإمـام الحليمي والاستاد أبو إسحاق الأسفرائني والشيخ أبو حامـد الأسـفرائني وجمع من المالكية منهم الطرطوشـي وابن العـربي والفاكهـاني وبعض من الحنابلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ عام في كل من يؤذي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بأي وجه من الوجوه فمن إيذاء الله ورسوله الكفر بالله والإشراك به تعالى وقول اليهود ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أو قولهم ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وقول النصارى: المسيح عيسى ابن مريم ابن الله، وسلب أية صفةٍ كمالية عنه تعالى الله عن ذلك كله. ومن إيذاء الرسول قولهم فيه: هو ساحر، أو كاهن، أو شاعر، أو مجنون. أو إيذاؤه بإساءة الأدب مع زوجاته أمهات المؤمنين في أيّ وقت وبأي وجه من الوجوه وإساءة الأدب مع آله وأصحابه، أو نسبة الخيانة إليهم في شئون الدين ونسبةِ الضلال إلى جمهرة أمته صلى الله عليه وسلم وايذاء أولياء الله تعالى من العلماء العاملين والصالحين وغير ذلك مما هو مشروح في الكتب المعتمدة كالشفاء والمواهب اللدنية وغيرهما وخبر أهل التحقيق ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ في الدنيا والآخرة في المبتدأ والمنتهى أي طردهم وأبعدهم من رحمته بحيث لا ينالون شيئا منها ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وهذا في حق الله ورسوله مباشرة ﴿وَ﴾ أما ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾

أي بغير جناية يستحقون بها الأذية حسب الشرع الشريف ويدخل فيه طرق الإيذاء كلها من هتك الأعراض ونهب الأموال وسب الجاه والحال والسعاية فيهم والوشاية عليهم والبهتان، وما التحق بها ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ أي فعلا شنيعا يبهت عليه الرجل أو المرأة المظلومة، وذكره بعبارة البهتان إيماء إلى فظاعة البهتان بين وجوه الإيذاء ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ذكره للتأكيد على أن ذلك الإيذاء إثم واضح وفسوق فاضح.

وبعد إنزال التهديد على الناس الناسين لحقوق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمؤمنات التفت إلى الحبيب وأمره بأن يقول لأهله خاصة ولغيرهن عامة أن يدركن خطر موقفهن من الناس ويحترمن حقوقهن حتى لا يتورطن في عقوقهن، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي يقربن على أبدانهن جلابيبهن أي السترات الزائدة على الكسوة المعتادة بحيث تسترُ الرءوسَ والرقاب والنحور والصُّدور ومواقع الزينة منهن، وهذا حكم شامل لنساء النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ونساءِ المؤمنين بلا فرقٍ وتفاوت بينهن، وأما الحجاب بمعنى ستر جميع البَدَن من الرأس إلى القدم بحيث لا يظهر أشخاصهن فهذا خاص بأمهات المؤمنين وبناته رضي الله تعالى عنهن بنص قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ لأنهن عندما سُئلن متاعاً فربما تسأل إحدى الأمهات وربما تسأل إحدى البنات، لأن الكلام جرى في دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم، فرعاية احترام المقام لا تُفرق بين الأمهات والبنات. هذا إذا كان الناس سالكين مسلك السداد، وأما إذا سلكوا مسلك الفساد فلا يبقى فرق عند ذاك بين نساء المؤمنين وسائر النساء من حيث وجوب التستر وتغطية الوجوه عن أنظار الفاسدين، وإلا كان التبرز إفسادا للدين. ثم

عاد إلى تأكيد الرعاية بقوله الكريم: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْـرَفْنَ فَلَا يُـؤْذَيْنَ﴾ أي ذلك المـذكور من إدنـاء الجلابيب عليهن وانتهـاج منهج الأدب أقـرب إلى حصول نتيجـة هي أن يُعْـرفن بـأنهن من نسـاء النـبي وبناتـه أو من نسـاء المؤمـنين الحرائـر العفيفـات فيحتشـمن ولا يـؤذين من جـانب أصـحاب الأمـراض النفسـية بـالتحرش بهن، والوقـوف على طـريقهن، والنظـر إليهن، وغـير ذلـك من سـوء الآداب... ﴿وَكَـانَ اللَّهُ﴾ ولم يـزل ﴿غَفُورًا﴾ كثير المغفرة للمتجاوزين عن الحدود ﴿رَحِيمًـا﴾ كثـير الرحمـة وإلا صب على الناس العذاب صَبّاً فلم تبـق معـذرة لأي مـؤمن ومؤمنـة بأنه سيقف للمحاسبة عند الله رب العالمين.

وبعد أن سَدَّ باب الفساد بالمواعظ والإرشاد وإحكام الأحكام التَفَتَ من جانب المؤمنين الصادقين إلى المارقين المنافقين فقال مُهـددا متوعـدا لهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عما هم عليه من إثارة الفساد بين العباد ﴿وَ﴾ لم ينته ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من ضعف الإيمان أو اضطراب الحـال ﴿وَالْمُرْجِفُـونَ فِي الْمَدِينَـةِ﴾ أي المزلزلـون للقلـوب فينـا بنشـر أخبار السوء عن المسلمين الداخلين والخارجين، وهم اليهود الحاقـدون على الإسـلام وأهلـه دينـا ودنيـا بجهاتهمـا ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنأمرنـك بقتـالهم وإبـادتهم حـتى لا تنتشـر المفاسـد العائقـة عن الإسـلام ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَـكَ فِيهَـا إِلَّا قَلِيلًا﴾ لفنـائهم بـالمرة أو ابتعـادهم عن الحـرة ﴿مَلْعُونِينَ﴾ منصوب على الذم أينما كانوا وبانوا لأنهم خـانوا ﴿أَيْنَمَـا ثُقِفُوا أُخِـذُوا وَقُتِّلُـوا تَقْتِيلًا﴾ وصيغة التكثير لتأكيـد التـدمير، وليس هـذا الحكم سـنة مشـروعة في الحـال بـل ﴿سُـنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي سـن سـنته هـذه في تـدمير المعانـدين قبـل وتجـد باسـتمرار الحـال إلى الاسـتقبال ﴿وَلَنْ تَجِـدَ لِسُـنَّةِ اللَّهِ تَبْـدِيلًا﴾ فلا تغيـير لقضـائه الأزلي فيما لا يزال وهو الكبير المتعال.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (66) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68)﴾

قوله تعالى ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي عن وقت قيامها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يطلع عليه أحدا لا ملكا ولا إنسا ولا جنا. ثم خاطبَ حبيبه فيقول: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي أي شيء يعلمك بها أي لا يعلمها أحد إلا الله ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي لعلها توجد في زمان هو قريب من زمانكم هذا وكان المشركون يسألونه عن وقتها تعنتا وتعاندا واستهزاء بها وبوجود العذاب فيها ثم قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ كلهم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي نارا شديدة الاتقاد وشديدة الالتهاب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي حالكونهم خالدين فيها ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمورهم ويحفظهم ويمنعهم عن دخولها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم فيخرجهم منها وذلك ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ حتى لا نبتلي بهذا العذاب الشديد. ﴿وَقَالُوا﴾ عند ابتلائهم به: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ أي ملوكنا وأمراءنا ﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ أي وجهاء منا في المجتمع للذين كنا نستمع لهم ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ بما دعونا إليه وأغرونا به وزينوه عندنا ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي عذابين يماثل كل الآخر عذابا على كفرهم في أنفسهم،

وعــذابا على إضــلالهم لنــا ونحن جــاهلون ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًـا كَبِـيرًا﴾ أي واطردهم من بيت رحمتك وسدّ عليهم باب الرجوع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَـى فَبَـرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَـالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًـا (69) يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَقُولُـوا قَـوْلًا سَـدِيدًا (70) يُصْـلِحْ لَكُمْ أَعْمَـالَكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَمَنْ يُطِـعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ نزلت عندما سمع الرسول صـلى اللـه عليــه وســلم من المؤمــنين الضــعفاء النفــوس المختلطين بــاليهود والمنافقين بعض كلمات تافهة مؤلمة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا لَا تَكُونُـوا﴾ ضـعفاء في العقــول والنفــوس ولا تســتمعوا لأقوالهم ولا تكونوا ﴿كَـ﴾ الأسرائيليين ﴿الَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى﴾ بنسـبته إلى بعض العيوب كالأدرة، ولم تكن فيه ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَـالُوا﴾ أي فـأظهر براءته من قـولهم أو من العيب الـذي قـالوه في حقـه بـأن أظهـر على مـرأى ومسـمع منهم أنـه ليس فيـه ذلـك العيب. أخـرج الإمـام أحمـد والبخاري والترمذي من طريق أبي هريرة قال قـال رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم: ((إن موسى كـان رجلا حييـا سـتيرا لا يـرى من جلـده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسـرائيل، وقـالوا: مـا يسـتتر هذا الستر إلا لعيب بجلده إما برص وامـا أدرة وإمـا آفـة، وأن اللـه أراد أن يبرئه مما قالوا، وأن موسـى عليـه السـلام خلا يومـا وحـده، فوضـع ثيابـه على حجـر ثم اغتسـل، فلمـا فـرغ أقبـل إلى ثيابـه ليأخـذها، وأن الحجر غدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ بني إسرائيل، فرأوه عريانا أحسنَ ما خَلقَ الله وبرأه مما يقولون، وقام الحجرُ فأخذَ ثوبه فلبسـه، وطفـق بالحجر ضربا بعصاه)) ﴿وَكَانَ عِنْـدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي ذا جـاه ومنزلـة عنـد وبه تعالى.

واخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال ﴿وَجِيهًا﴾ مستجاب الدعوة. وزاد بعضهم: ما سأل شيئا الا أعطي إلا الرؤية في الدنيا. ولا يخفى أن استجابة الدعوة من فروع موافقة القدر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في كل ما تفعلون وتتركون حتى تكون سلبيات أموركم وإيجابياتها على مرضاة الله تعالى ﴿وَقُولُوا﴾ في كل ما تتكلمون به أو عنه ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ مستحكم الأساس موجبا للخلاص ومصلحا للنفس والناس ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ بالإثابة عليها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره إلا الله.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾... الآية كثرت أقوال المفسرين في بيان المراد بالأمانة في هذه الآية الشريفة على اساس روايات عديدة عنه صلى الله عليه وسلم ففسروها بالإيمان وبالتوحيد وبالصلاة والصيام والغسل من الجنابة والوفاء بالعهود وبرعاية القوى الإنسانية وبالحواس. وقال أبو حيان: والظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا، وتشمل الأمانة بهذا المعنى كل ما يجب

رعايته فعلا من الواجبات وتركـا من المحرمـات، وتخصيصـها ببعض مـا ورد في الأحاديث الشريفة ليس للحصر، وإنما هو لبيـان المهم بحسـب المقام، وكذلك تكلموا في أن عرض الأمانـات على السـماوات والأرض والجبـال مـع أنهـا جوامـد على أي وجـه يكـون، فمنهم من قـال إن المقصود من ذلك ليس العرض في الواقع بل التمثيل بمعنى أن القيـام بهذه الأمانات في درجة من الأهمية لو كان الله سبحانه وتعالى عرضها على تلك الأجرام العظيمة ما كانت تقبلها اختيارا لصعوبة القيـام بحقهـا ومع ذلك حملها الإنسان.

ومنهم من قال: إن الآيات والأحاديث أدلة متضافرة على أن كل موجود له إدراك مناسب لشخصه وعلاقة شريفة وارتباط بجـانب قدسـه، كمـا أن الإنسـان مُـزود بالعقـل الـذي يسـتتبع العلم بالضـروريات، ويصـلح لاكتساب النظريات، فهو سبحانه وتعالى لمـا خَلَـقَ هـذه الأجـرام خلـق فيها فهما وقال لها: إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها، ونـارا لمن عصـاني. فقلن: نحن مسـخرات على مـا خلقتنـا لا نبتغي فريضة ولا نبغي ثوابا ولا عقابا. ولمـا خلـق آدم عـرض عليـه مثـل ذلـك فحمله فكان الحامل لتلك الأمانة ظلوما لنفسه بتحمل مشاقها وجهـولاً بوخامة عاقبتها.

وقوله تعالى: ﴿لِيُعَـذِّبَ اللَّهُ﴾... الآيـة متعلـق بقولـه عرضـنا، واللام الام العاقبة، أي فكان عاقبة ذلك العرض وإباء الموجودات وتحمـل الإنسـان أن ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًـا﴾ حيث عفـا عن كثير من أهل العصيان وترحم وأفاض الرحمـة على عبـاده من الإنسـان والجن. ومما يجب الانتباه له ان نوع الجن من حَمَلـة الأمانـة كالإنسـان والرسل الكرام أرسلوا إليهم كما أرسلوا إلى الإنسـان، لكن اكتفى عن ذكره بذكر مقابلـه لأن الكلام في ظلم الإنسـان وجهالتـه، ولاسـيما من عاصر سيدنا محمدا خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

سورة سبأ، مكية، وهي أربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (3) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آَيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6)﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي له السماوات والأرض وما فيهما خلقا وملكا وتصرفا ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآَخِرَةِ﴾

أي له الحمد على آلائه ورحمته ونعمته في الآخرة كما له الحمدُ في الأولى. وقال بعض إن في الآية الكريمة احتباكا أي حذف شيء سابقا بقرينة موجودة في اللاحق وبالعكس. وبيانه: الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض في الدنيا، وله الحمد على ما في الآخرة من الثواب والنعيم الخالد في الآخرة. وذكر الآخرة رد على من قال: إن نعيم الآخرة من متفرعات العبادة والطاعة في الدنيا، ويجب عليه إفاضته فلا يستحق الحمد عليها. ووجه الرد أن واجب الوجود خالق لكل موجود فكل طاعة ناشئة من العباد ومن مخلوقاته تعالى إذ لو كانت من مخلوقاته لأتى كلُّ عابدٍ بعبادة تفوق سائر العبادات، على أن التوفيق على اكتسابها لا دخل لأحد فيه إلا الله تعالى ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل ما يفعله مقرونا بالحكمة ويترك ما يترك مقرونا بها ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمبادئ كل موجود وعواقبه وبسريات كل إنسان وبجهرياته، فلا تخفى عليه خافية من كائناته.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾... الآية استئناف لبيان إحاطة علمه تعالى بالأشياء أو لتفسير الخبير فيقول: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ أي يدخل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فيشمل ما يدخل بذاته من الحشرات والذرات الدقيقة التي يصعب دركُها بالعين المجردة، أو يدخل فيها بالمعالجة كالأموات، وما يسري في أَعْماقها من الأمطار والسيول ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات بأصنافه، أو من الحشرات المنبعثة منها بإرادته تعالى وإجراء سننه الكونية، فإن كل ما يكسب الوجود فهو ممكن من الممكنات ويجب أن يكون له مرجح يرجح وجوده على عدمه، وليس ذلك شيئا مثله، وإنما هو فاعل يستغني في وجوده عن غيره أو من المعادن النابعة السيالة كالماء والنفط وما شاكلهما ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والطيور

والأمطار والثلوج والبرد والصواعق والهواء، وسائر المـواد النازلـة منهـا كالمنّ النازل في مواسم معينة، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله.

ومنه ما حدث في عصـرنا من صـعود الصـواريخ والإنسـان والحيوانـات والكواكب والأقمار الصناعية الـتي تصـعد وتـنزل وتـدور في الجـوّ، ولم يخطر شيء منها ببال أحدٍ، ويمكن حدوث أشـياء أخـرى في المسـتقبل القريب أو البعيد، فإن كل ذلك مما تعلق به علمه تعالى ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بالعبـاد في الإنـزال والإصـعاد والخـروج والعـروج ﴿الْغَفُـورُ﴾ لـذنوب المؤمنين المغـترين بمكاسـبهم العلميـة غـافلين عن أن كـل مـا يجـري مشمول لعلمه تعالى ويحدث بالأمر ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللـه وعلمـه وقدرته وبخروج أنفسهم وخروج الكائنات من العدم إلى الوجـود بقـدرة واجب الوجـود. متناسـيا كـل ذلـك: ﴿لَا تَأْتِينَـا السَّـاعَةُ﴾ أي السـاعة الموعودة الواقعة بعد فناء هذا العالم وإيجاد عـالم آخـر، وبعث المـوتى من القبور للحساب والميزان والجنة والناس ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَـأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي الساعة الموعودة ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ بـدل من ربي أي عـالم كـل شـيء لاسيما الأمـر الغيب عنـدكم من السـاعة ومـا وراءهـا ﴿لَا يَعْـزُبُ﴾ أي لا يبعد ﴿عَنْ﴾ علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملـة ﴿فِي السَّـمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقولـه ﴿وَلَا أَصْـغَرُ مِنْ ذَلِـكَ وَلَا أَكْبَـرُ﴾ منـه ﴿إِلَّا فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ﴾ جملة مؤكـدة لنفي العـزوب مبتـدأ وخـبر، والخـبر، قولـه: الا في كتاب مبين.

والمـراد بالكتـابِ المـبين هـو اللـوح المحفـوظ. وقولـه ﴿لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ متعلق بقوله لتأتينكم أي لتـأتينكم السـاعة ليجـزي الـذين آمنـوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما فـرط منهم ﴿وَرِزْقٌ كَـرِيمٌ﴾ لا تعب فيـه ﴿وَالَّذِينَ سَـعَوْا فِي آَيَاتِنَـا﴾ أي ردهـا ومعانـدتها حـالكونهم ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي مسـابقين للرسـول وأصـحابه أو لنـوابهم في مسـتقبل الأزمان ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ﴾ أي من سـيء العـذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ﴾ ابتداء كلام مسوق للاستشهاد بـأولي العلم على أولي الجهل المعاندين أي ويرى الذين ﴿أُوتُـوا الْعِلْمَ﴾ من أصـحاب محمد صلى الله عليـه وسـلم ومن يـأتي بعـدهم أو من آمن من علمـاء أهل الكتاب وقوله: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ مفعول أول وقوله ﴿هُوَ الْحَـقَّ﴾ مفعـول ثـان، والمـراد بالموصـول القـرآن الفاصـل بين الحـق والباطل، وقولـه ﴿وَيَهْـدِي إِلَى صِـرَاطِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيـدِ﴾ معطـوف على الحق عطف الفعل على الاسم لأنه في تأويله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُـزِّقْتُمْ كُـلَّ مُمَـزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفْتَـرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا أَمْ بِـهِ جِنَّةٌ بَـلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّـلَالِ الْبَعِيـدِ (8) أَفَلَمْ يَـرَوْا إِلَى مَـا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَـأْ نَخْسِـفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا﴾ القـائلون هم كفـار قـريش فقـال بعضهم لبعض على وجه التعجب: والاستهزاء ﴿هَـلْ نَـدُلُّكُمْ عَلَى رَجُـلٍ﴾ يريدون به سيدنا محمدا صـلى اللـه عليـه وسـلم ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي يخـبركم بأمر مستغرب جدا، وهو أنه ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وصرتهم ترابـا في القبور ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْـقٍ جَدِيـدٍ﴾ أي إنكم إذا متم وتبـدلتم بمـادة ترابيـة فإنكم تبعثون من قبوركم وتعودون الى الصورة والسـيرة السـابقة في الدنيا ﴿أَفْتَـرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا أَمْ بِـهِ جِنَّةٌ﴾ أي أكـذب على اللـه متعمـدا بكل عقل وشـعور؟ أم كـذب عليـه وهـو متلبس بـالجنون والاختلال في العقل؟ وخلاصته: أنهم

قرروا أنه كاذب في إخباره بذلك، ولكن رَدَّدُوا بين الكـذب على التعمـد أو على الجنون والاختلال في العقل ﴿بَـلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآَخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ إبطال لما قاله الكافرون بقسـميه بمعـنى أنـه ليس ما أخبر به من الكذب لا تعمـدا ولا جنونـا، ولكن الـذين لا يؤمنـون في شـعور فاسـد يـوجب حلـول العـذاب بهم في الآخـرة وفي الضـلال البعيد عن الحـق وبعـد أن رد عليهم زعمهم الفاسـد ذَكَّرهُم بمـا يَقطَـعُ عرِقَ الضلالِ أو يقلعه من أساسه إذا نَظَـروا إليـه نَظَـر الاعتبـار فقـال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إلى الحقـائق الـتي أحـاطت بهم من كـل جـانب من السـماء والأرض، ونحن في إمكانيـة بحيث ﴿إِنْ نَشَـأْ نَخْسِـفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كمـا خسـفناها بقـارون ﴿أَوْ نُسْـقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي قِطعا كباراً ﴿مِنَ السَّـمَاءِ﴾ حـتى تهلكهم وتـدمرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التـذكير ﴿لَآَيَـةً﴾ واضـحة الدلالـة على أن الإعـادة وبعث الأمـوات عندنا كبدء خليقتهم، وأن لا صعب علينا. وهـذه الآيـة نافعـة ﴿لِكُـلِّ عَبْـدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى الله ويريد أن يكون من عباده العقلاء المتفكرين.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْـرَ وَأَلَنَّا لَـهُ الْحَدِيـدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَـهْرٌ وَأَسَـلْنَا لَـهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيـلَ وَجِفَـانٍ كَـالْجَوَابِ وَقُـدُورٍ رَاسِـيَاتٍ اعْمَلُـوا آَلَ دَاوُودَ شُـكْرًا وَقَلِيـلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّـكُورُ (13) فَلَمَّا قَضَـيْنَا عَلَيْـهِ الْمَـوْتَ مَـا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِـهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُـلُ مِنْسَـأَتَهُ فَلَمَّا خَـرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَـوْ كَـانُوا يَعْلَمُـونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي نعمة زائدة على رتبة النبوة والرسالة وهي التي تستفاد من الآيات التالية من حسن الصوت البارع، وتسبيح الجبال والطير معه، وإلانة الحديد له. قيل: وباختصاصه بولد شاركه في رتبة النبوة، واختص بملك لم يكن لأحد من الملوك بعده.

وقوله ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ بدل من فضلا بتقدير قولنا بالنصب، أو من آتينا بتقدير قلنا، أي ولقد آتينا داود منا فضلا قولنا يا جبال أوبي معه أو ولقد آتينا داود منا فضلا قُلنا ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي سبَحي معه قاله ابن عباس رضي الله عنهما. والفعل أمر للمخاطبة من التأويب، والمراد رجعي معه التسبيح وردّديه. روي أنه عليه السلام كان إذا سبح سبحت معه الجبالُ مثل تسبيحه بصوت يسمع منها. وذلك خارق للعادة خلقه الله له كتسبيح الحصى في كف الرسول صلى الله عليه وسلم. وقوله ﴿وَالطَّيْرَ﴾ بالنصب بإضمار فعل تقديره وسخرنا له الطير، أي للتسبيح معه كالجبال ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي وجعلناه في يده كالشمع والعجين يصرفه كما يشاء من غير نار ولا ضربٍ بآلة، والفعل ماض للمتكلم مع الغير من باب الإفعال مجرده لان، أجوف يائي نقل إلى بابه وأعلّ بحذف العين. وقوله: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أن مصدرية، وهي على حذف حرف الجر، أي وألنا له الحديد لعمل سابغات أي دروعٍ سابغات أي كاملات واسعات وقوله ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ معطوف على قوله أنِ اعْمل سابغات أي لتقدير السرد أي لتقدير النسج في الدّروع بحيث تكون حَلَقاتها متناسبة.

وقوله: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ خطاب لداود وآله عليهم السلام ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا أضيعُ عَملَ عامِلٍ منكم في الدين.

وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح فيقعد هو وأتباعه على الفرش المخصوص فتحركه الريح وتصعد به إلى مستوى مناسب للسير وتوصلهم إلى المكان المعين المقصود ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي حركتها بهم بالغداة مسيرة شهر وحركتها بالعشي كذلك ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ وأريد بعين القطر معدن النحاس، ولكنه سبحانه وتعالى أساله كما ألانَ الحديدَ لداود فنبع كما ينبع الماء من العين. وقال بعضهم: القطر النحاس وعين بمعنى الذات، ومعنى أسلْنا أذبنا، فالمعنى اذبنا له النحاس على نحو ما كان الحديد يلين لداود عليه السلام، فكانت الأعمال تتأتى منه وهو بارد دون نار. عن ابن عباس والسدي ومجاهد قالوا: اجريت له عليه السلام ثلاثة أيام بلياليهن وكانت بأرض اليمن، وقيل: كان يسيل له في الشهر ثلاثة أيام أي لسد حاجته بذلك.

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي أن الله تعالى سخر له الجن لأعمال مقصودة منه ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي في دار الآخرة. وقال بعض: في الدنيا وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ إستئناف لبيان نوعية أعمال الجن فقال تعالى ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ﴾ أي السليمان ﴿مَا يَشَاءُ﴾ عمله ﴿مِنْ مَحَارِيبَ﴾ جمع المحراب بمعنى القصر أي يعملون له القلاع الحصينة والقصور المنيعة. والمحراب في الأصل صيغة مبالغة اسم لمن يكثر الحرب فسمى به القصر تسمية للمكان باسم المتمكن.

ويطلق على المكان المعروف الذي يقف الإمام بحذائه في وسط الحائط، ولم يكن ذلك في الصدر الأول، وأحدثوه بعدُ إشارة إلى جهة الكعبة الشريفة زادها الله شرفا. ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ جمع تمثال والمراد بها صور الملائكة والأنبياء

والصلحاء السابقين، ولم يكن التصوير في شريعته حراما ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جفنة وهي ما يوضع فيها الطعام ﴿كَالْجَوَابِ﴾ جمع جابية بمعنى الحوض، أي جفان واسعة جدا. ﴿وَقُدُورٍ﴾ جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام ﴿رَاسِيَاتٍ﴾ أي ثابتات في أماكنها لا تنزل عنها لكبر حجمها ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ بتقدير القول أي وقلنا اعملوا آل داود شكرا كثيرا مكافئا لبعض النعم ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ لأن الشكور هو الذي يشكر ربه على كل حال. ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي على سليمان عليه السلام ﴿الْمَوْتَ﴾ وتوفيناه ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ الدابة هنا السوس والمنسأة العصا ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي سقط سليمان عند سقوط منسأته ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ أي علمت ﴿الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ كما زعموا ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي لعلموا بموت سليمان عليه السلام، ولم يستمروا على الأعمال التي سخرهم لها، وروي في القصة روايات أقومها أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الجن بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل الله تعالى أن يُعمي عليهم موته حتى يفرغوا من بناء المسجد ولتبطل دعواهم علم الغيب وكان من عادة سليمان عليه السلام أنه إذا دخل المحراب للعبادة لا يتكلم معه أحد ولا يزعجه حتى يفرغ منها، فأتى محل عبادته حسب عادته واعتمد على عصاه وبينما هو كذلك توفاه الله، وبقي كما كان على عصاه ولم يتجاسر أحد على تنبيهه أو ازعاجه حتى يعلموا بموته، فأرسل الله السوس تأكل عصاه حتى سقطت فسقط سليمان عليه السلام، وعلم بوفاته فنقلوه ودفنوه في المقبرة الخاصة، فعلمت الجن وغيرهم أن الجن لا يعلمون الغيب كما زعموا معرفتهم له وإلا كانوا يعلمون بموت سليمان قبل سقوط عصاه وسقوطه عليها وما

استمروا على العمل في بناء المسجد، ولكنهم جهلوه فعملوا حتى تم بناء المسجد والله تعالى في شئونه حِكَم لا يدرك إلا قليل منها. بقى أن في هذه الرواية أشياء.

الأول أن قوله: إن داود أسس بناء بيت المقدس معناه خطط تجديد بناء المسجد القديم الذي أسسه جدهم إبراهيم عليه السلام لما روي من أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أسس بيت المقدس بعد الكعبة بأربعين ثم خرب وأعاده داود ومات قبل أن يتمه، فتم بناؤه على يد سليمان إلا قليل منه كمل بعد موته، ولم يعلم العمال به.

الثاني من الفسطاط وهو نوع من البناء كغرفة خاصة لم يبنه موسى عليه السلام لموته في التيه وكأنه كان بناءً رمزيا بناه يوشع عليه السلام بعد فتح بيت المقدس إبقاء لاسم سيدنا موسى بينهم. وما روي من أن سليمان فرغ من بناء بيت المقدس وتعبد فيه وتجهز بعده للحج شكرا لله تعالى على ذلك.. فإن صحت الرواية فمعناه أنه قرب إتمام المسجد الأساس وصلى فيه وأعلن أنه ينوي حج بيت الله الكعبة شكرا لله تعالى، لكنه توفى قبل الوفاء بما نواه، ولله حكم في ما قضاه والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آَمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21)﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ جملة سيقت لتذكير الناس بأن جزاء من كفر بأنعم الله الابتلاء بالنقمة كقوم سبأ. وهو اسم لجد القبيلة. وفي بعض الأخبار عن فروة بن مُسَيّك قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله أخبرني عن سَبَإٍ؛ أرَجلٌ هو أم امرأة؟ فقال: ((هو رجل من العرب، وَلَدَ عشرة، تَيامَنَ منهم ستة (أي أخذوا جهة اليمين من البلاد) وتشاءم منهم أربعة (أي أخذوا جهة الشمال) فأما الذين تيامَنوا: فالأزد، وكندة، ومُذحج، والأشعريون، وأنمار. ومنهم بجيلة وأما الذين تشاءموا: فعاملة، وغسان، ولَخْم وجذام)). والسبأ بن يشجب كينصر بن يَعْرب بن قحطان. والسبأ أوّل ملوك اليمن في قولٍ، واسمه عبد شمس، وإنما سمي سبأ لأنه أول منْ سبَا السَّبْيَ مِن ولد قحطانَ فيقول اللهُ سبحانه ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أي القبيلة المشهورة باسم أبيها الأعلى ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أي في موطنهم الذي استقروا فيه ﴿آيَةٌ﴾ آية عظيمة دالة على توفير نعمة الله لهم وقوله ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي إحديهما عن يمين المسكن والأخرى عن شماله ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي فقلنا لهم على لسان نبيهم، أو بلسان الحال الذي يفهمه أهل الحكمة <386>

﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ برعاية العدل فيها، فلا يظلم أحد أحداً بالاستيلاء على حقه وتنقيص رزقه، وأدوا واجب الله منها للمستحقين واثبتوا على عبادة من أنعم عليكم بها، ولا تشركوا به أحداً ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي هذه البلدة المحفوفة بالجنتين ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ المناخ والهواء، وافرة الرزق كثيرة الفواكه، حلوة المناظر. ﴿وَ﴾ الرب الذي رزقكموها ﴿رَبٌّ غَفُورٌ﴾ كثير المغفرة لأهل الإنابة والندم والرجوع إليه. ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر وأنكروا نسبة النعمة إلى منعمها ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة أي السيل الباطش الشديد إذا أتى على شيء قلعه عن أساسه ولم يبق له أثرا. وذلك السيل حصل من انشقاق السد الذي بنوه بين الجبلين وخزنوا فيه المياه الكثيرة الكافية للجنان والمزارع والشرب وسائر الحاجيات... وبعد أن انشق السد اختل توازن الماء مع الجنان فهلكت وضاعت، ولم يبق منها إلا أشواك تعيش بلا ماء كما قال تعالى ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي ثمر مرّ لا ينجرع ﴿وَأَثْلٍ﴾ وهو ضرب من الطرفاء ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ﴾ الجزاء ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي بسبب كفرهم بالله وبنعمته ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ مثل هذا الجزاء ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ بأنعم الله الشكور. ﴿وَ﴾ كما جعلنا لهم جنتين عن يمين وشمال يسقيان بماء السدّ في الأيام والليالي كذلك ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي بين سكان البلدة ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي بكثرة الأرزاق والأمتعة وسائر الأشياء الاقتصادية، وهي دمشق وما حولها، وكانوا يتاجرون فيذهب أهل السبأ إلى الشام وأهل الشام إلى سبأ براحة ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ على خط طريق المرور كبلاد مهيأة للنزول بعد السير في النهار والاستراحة فيها. ومعنى ظهورها عمارتها وتخطيطها على الشارع العام للقوافل وتهيئته المواد الاستهلاكية شأن القرى التي على خطط الطرق ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلنا المسافة بينها <387>

على نسب محدودة متناسبة مع أهل القوافل ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ بتقدير القول، أي وقلنا لهم بلسان الحق: سيروا فيها أي في تلك القرى ليالي وأياما آمِنين عن الأذى الوارد على السابلة لرعاية الجوانب الأمنية فيها من كل جهة ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي ثم كفروا بنعمة الله الواردة عليهم داخلا وخارجا، في الحضر والسفر وبطروا واغتروا بالأوهام والاعتبارات السافلة واعتمدوا فقط على الأسباب المادية ونسوا قدرة الخالق المسبب وتيسيره للأسباب فكأنهم دعوا الله تعالى لإزالة ما بهم من النعمة فقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا أي اجعل المنازل التي كنا ننزل فيها في تجاراتنا متباعدة لا يصل الإنسان من نقطة إلى أخرى بدون تهالك وزحمة أو هذا كناية عن زوال النعمة والأرزاق وقلة ذات اليد وضيقها، بحيث لم يبق عندهم طاقة المسافرات والتجارات ﴿وَ﴾ منشأ كل ذلك أنهم ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بمقابلة النعمة بالكفران، والحقوق بالعقوق، والطاعة بالعصيان ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ فجعلنا أحوالهم، وما جرى عليهم كحكايات يتحدث بها الناس في المجالس للاستراحة ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي مزقناهم كل تمزيق أي بعدنا بعضهم عن بعض لا يعرف الأخ أين مات أخوه ولا الولد أين ذهب بنوه. وصارت قصتهم مثلا سائرا فيقال عن قوم جرت عليهم المصائب (تفرقوا أيادي سبأ).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الحادث الرهيب ﴿لَآيَاتٍ﴾ عديدة ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على الشهوات ليكف نفسه عنها حتى يفوز ببقاء النعمة وابتعاد النقمة ﴿شَكُورٍ﴾ لله على ما أنعم به عليه حتى تزيد نعمته إلى أن يرجع إليه ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي وجد ظنه بهم صادقا فإن الشيطان ظن بأكثرية الناس ومنهم أهل سبأ الفساد والغرور والعناد، فوجد ظنه مطابقا للواقع ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ أي اتبع سبأ أو الناس الشيطانَ ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من سبأ أو من باقي الناس ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾

أي وما كان لإبليس على أولئك الناس الفاسدين من سلطان وقوة فعلية يجبرهم بها على الكفر والعصيان، وما اتبعوه لعلة من العلل ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي واتبعه من اتبعه ليتعلق علمنا في ما يزال بمن يؤمن بالآخرة ويترك الشكوك والاوهام ممن هو منها أي من الآخرة في شك ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي وكيل قائم على أحواله وعالم بماضيه وحاله ومآله.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي قل يا حبيبي للمشركين الذين ضرب لهم المثل بقصة سبأ ادعوا الذين زعمتم أي زعمتموهم آلهة مِن

دُونِ اللـهِ. وقولـه ﴿لَا يَمْلِكُـونَ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ﴾ كلام مسـتأنف في موقـع الجـواب، ولم يمهلهم ليجيبـوا هم بأنفسـهم إشـعارا بـأن هـذا الجـواب متعين، فلا فـرق بيننـا وبينهم في الإتيـان بـه ﴿فِي السَّـمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في عـالم العلويـات والسـفليات ﴿وَمَـا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي في السماوات والأرض ﴿مِنْ شِرْكٍ﴾ أي شركة أي نصـيب ﴿وَمَـا لَـهُ مِنْهُمْ﴾ أي من جـانب الآلهـة المزعومـة ﴿مِنْ ظَهِـيرٍ﴾ أي معين يعينـه على مـا أصابه من العـذاب والآلام ﴿وَ﴾ إذا زعمـوا أنهم يشـفعون لهم في وقت الحاجة فاعلم أن زعمهم هذا موهوم إذ ﴿لَا تَنْفَـعُ الشَّـفَاعَةُ عِنْـدَهُ﴾ لأي شخص ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الـرحمن أن يشـفع ولا أذن لأي شـافع يشـفع لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مـا دون ذلـك لمن يشـاء ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي يتربصون وينتظرون صدور الإذن بالشـفاعة حـتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشـفوعين لهم بـالإذن ﴿قَـالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي قالوا قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وهم المؤمنون. ﴿وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْكَبِـيرُ﴾ إن كان من تتمة كلام الشفعاء فهو من جملة مـا حمـدوا بـه ربهم، وإن كان مستأنفا من الحق سبحانه وتعالى فهـو ثنـاء منـه على ذاتـه بعلـوه وكبريائه على برياته.

﴿قُـلْ مَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمـر اللـه سـبحانه وتعـالى حبيبه أن يقول لهم تبكيتا لهم ﴿قُـلِ اللَّهُ﴾ فـإن الجـواب الحـق هـو هـذا ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي وإن أحد الفريقين منـا ومنكم إمـا مهتد أو معتـدٍ. وأو للإبهـام على سـبيل إرخـاء العنـان، وإلا فـالأمر جلي لا يحتـاج إلى البيـان. ﴿قُـلْ﴾ لهم يجب على كـل عاقـل أن يعرف حاله ويطلب حسن مآله، فإنـه يـأتي يـوم الحسـاب ﴿لَا تُسْـأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَـا وَلَا نُسْـأَلُ عَمَّا تَعْمَلُـونَ (25) قُـلْ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا﴾ أي بين الفريقين ﴿رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي يقضـي بيننـا بـه ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ القاضي العليم بما

ينبغي القضـاء بـه ﴿قُـلْ﴾ لهم ﴿أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِـهِ شُـرَكَاءَ﴾ لـه بالدعوى ﴿كَلَّا﴾ زجر لهم عن اقتراف اكبر الكبـائر ﴿بَـلْ هُـوَ اللَّهُ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (27) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ الظاهر أن كافة حـال قـدم على صاحبه فيفيد بظاهره ما يفيده قوله المبين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿بَشِيرًا﴾ للمطيع بالثواب ﴿وَنَـذِيرًا﴾ للعاصـي بالعقـاب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيدعوهم الجهل إلى البقاء على ضلالهم المبين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعَـادُ يَـوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (30) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُـؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْـهِ وَلَـوْ تَـرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُـونَ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يَرْجِـعُ بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَـوْلَ يَقُـولُ الَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا لِلَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا لَـوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُـؤْمِنِينَ (31) قَـالَ الَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْـرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا بَـلْ مَكْـرُ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَـذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ (33)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي يقول المشـركون اسـتهزاء وتعنتا متى هذا الوعد أي وعد الجمع بيننا وبينكم للحساب

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي وعد يوم الجمع بيننا وبينكم للحساب ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ إذا فاجأكم ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ هاتان الجملتان المتعاطفتان ملحوظتان معا كالمتضائفين. والمعنى إن الوعد جِدّيّ وحَدّي لا يقبل التخلف ولا التغير في وقته بأن يتحقق الموعد قبل الوقت أو يتحقق بعده ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم مشركو العرب: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كالإنجيل والتوراة ولكنهم سفهاء الأحلام خفاف العقول لا يعرفون ماذا أمامهم من شدة البعث والنشور والحساب والميزان ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا رسولي ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ حالكونهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ والجواب لرأيت أمرا عجيبا ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ﴾ أي منعتمونا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بما جاء به الرسول ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ في حد ذواتكم، ولم يكن إجرامكم ناتجا عن صدنا لكم عن الهدى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ إضرابا عن إضرابهم: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي بل صدنا ومنعنا عن الإيمان مكركم بنا واحتيالكم علينا في الليل والنهار ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾ بدل من الليل والنهار ﴿أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي أن نكفر بالله الواحد. ونجعل له أندادا أي أمثالا في الألوهية أو أضدادا في الصفات والأفعال ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لأنهم بهتوا لما عاينوه ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سواء المستكبرون والمستضعفون في أصل العذاب، ولكن يختلف الأمر بمقدار تأثير الكبير في إضلال الفقير ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي أولئك الناس ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والجواب: لا، فلا يجزون إلا مثل الذي كانوا يعملونه.

﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا فِي قَرْيَـةٍ مِنْ نَـذِيرٍ إِلَّا قَـالَ مُتْرَفُوهَـا إِنَّا بِمَـا أُرْسِـلْتُمْ بِـهِ كَافِرُونَ (34) وَقَـالُوا نَحْنُ أَكْثَـرُ أَمْـوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَـا نَحْنُ بِمُعَـذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ (36) وَمَـا أَمْـوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِـالَّتِي تُقَـرِّبُكُمْ عِنْـدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَـزَاءُ الضِّـعْفِ بِمَـا عَمِلُـوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَـاتِ آَمِنُـونَ (37) وَالَّذِينَ يَسْـعَوْنَ فِي آَيَاتِنَـا مُعَـاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَـذَابِ مُحْضَرُونَ (38) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ وَيَقْـدِرُ لَهُ وَمَـا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَـيْءٍ فَهُـوَ يُخْلِفُـهُ وَهُـوَ خَيْـرُ الـرَّازِقِينَ (39) وَيَـوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُـبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَـا مِنْ دُونِهِمْ بَـلْ كَـانُوا يَعْبُـدُونَ الْجِنَّ أَكْثَـرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُـولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَـا﴾ أي أهـل الترف والراحة والنعمة فيها ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَـافِرُونَ﴾ أي لا نصـدق بالرسالة ولا بالمرسل ولا بالرسول ﴿وَقَالُوا﴾ في بيـان الحجـة على مـا قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي إنه إن كـان الإلـه موجودا فمادام أعطانا أموالا وأولادا كثيرة فقد أحبنا، والمحب لا يعـذب من أحبه،

وإن لم يكن موجودا فأموالنا وأولادنا من عند أنفسنا ومن استحقاقنا والمستحقون للكرامة في هذه الدنيا لا يعذبون في دنيا أخرى. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي وينقصه وليس زيادة الرزق دليل الكرم والإكرام ولا تقديره دليل الإهانة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإذا تستكبرون بوجود الأموال والأولاد ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ أي قربى مصدر من معنى الفعل لا من لفظه. وقوله ﴿إِلَّا مَنْ آَمَنَ﴾ استثناء منقطع أي لكن من آمن ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أي يجزيهم الله بالجزاء المضاعف. وقد قرر على الحسنة عشر أمثالها فيجزيهم عليه عشرين، ويزيد على حسب اقتضاء رحمته وحكمته وذلك ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي بسبب ما عملوه من الصالحات ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ أي غرفات الجنة ومنازلها ﴿آَمِنُونَ﴾ مما يؤذي قلوبهم ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آَيَاتِنَا﴾ أي في ردها بالطعن فيها ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ بحسب زعمهم ودعواهم أنهم يقدرون على ردها ﴿أُولَئِكَ﴾ الناس الفاسدون المفسدون ﴿فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ولا ينفعهم أيّ نافع.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي يوسعه عليه ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي ويضيقه على من يشاء منهم، فانفقوا لله ولا تنافقوا، وتقربوا اليه ولا تبتعدوا ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي يعطيكم بدله خَلفًا عنه وعوضا ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط مُنفِقا خَلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعْطِ مُمسكا تلفا)) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي المستكبرين جميعا ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أنت الذي نواليه ونحبه ولا نواليهم

ولا نحبهم فلا علاقــة بيننــا وبينهم فكيــف يعبــدوننا ﴿بَـلْ كَـانُوا يَعْبُـدُونَ الْجِنَّ﴾ أي شــياطين الجن ﴿أَكْثَــرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُــونَ﴾ ومــوالاتهم معهم ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ من كلام البـاري سـبحانه وتعالى مع أولئك الملائكة معلنـا في اليـوم المشـهود أن الملـك والنفـع والضر لله الواحد القهار ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بعبادة الملائكة أو الجن أو الإنس: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (43) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا
وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا
مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ
بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ
فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47) قُلْ إِنَّ
رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (48) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ
وَمَا يُعِيدُ (49) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا
يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50) وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ
وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ
(53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ
كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بيان لصنف آخر من أصنافِ ما عانَدوا به الكتابَ المبين بطعنهم فيمن نزلت عليه بأن ﴿قَالُوا مَا هَذَا﴾ أي هذا الرجل الذي جاءكم بها ويقصدون به الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ﴾ أي يمنعكم بشتى الوسائل للمنع ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُكُمْ﴾ ليجعلكم من اتباعه ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ الكلام المنزل عليه ﴿إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ أي كلام منحرف عن الحق لا مصداق له في الواقع، مختلق ومفترى بإسناده إلى الله العزيز ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي لأمر النبوة والرسالة ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي واضح لا شك في كونه سحرا، وذلك لأنه يدهشهم فلا يمكنهم رد معناه ومغزاه الواقع لأنه يدعو إلى الاعتراف بالخالق وبنظام الدين المعين للعقل وبوجوب تعلم العلم والاستفادة منه مع رعاية النظام، وكلامٌ يجري هكذا لا مجالَ لرده بالأباطيل.

﴿وَمَا آَتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تقتضي صحة ما يدعون ومن جملته أباطيل الشرك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يعلمهم ما يتكلمون به اليوم، وحاشا رب العباد إذا أنزل كتبا للإرشاد أن يكون فيه ما يوجب الفساد وحاشاه إذا أرسل الرسل أن يرسل غير من يوجه الناس إلى الرشاد، ولكن المراد من الجملتين أن دعاواهم ليست مبنية على كتب مدروسة معقولة ولا أقوال أنبياء منقولة، فإنكار وحدة الخالق العلّام

للغيوب ليس إلا كلاما نابعاً من قلوب مريضة تسترُ الحقائق وتُظهِرُ الأوهام وتوجبُ الريوب.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي كذب الكفار الذين كانوا من قبل كفار قريش رسلهم الذين أرسلوا إليهم ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ أي كفار مكة ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي عُشر ما آتيناهم، وقال بعض المعشار عشر العشر أي جزء من مأة جزء من الشيء، يعني أن قوتهم المالية والعددية والجوارية بالاستعانة من المجاورين كانت تفوق ما عند كفار مكة بمأة على واحد أو بعشرة عليه ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ فكذبت عاد هودا، وثمود صالحا ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بالتغرير والتدمير. فليعتبر كفار مكة بهم فإنهم مثلهم، فقياس المساواة، أو أدنى منهم فقياس الأولى لأن الأضعف يبتلى أضعاف ما يبتلى به الأقوى.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لكفار مكة: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي بخصلة واحدة هي ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي أن تجتهدوا لوجه الله ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ إثنين إثنين أو واحدا واحدا حتى تكونوا في أمان من الازدحام المشوش للأفكار ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في صفات الرسول وأعماله وأخلاقه حتى تعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي جنون واختلال عقلٍ. فكلمة ما نافية، ومن زائدة في النفي، وتقدير تعلموا إما لدلالة التفكر عليه أو أن قوله تعالى تتفكروا مجاز عن تعلموا، ولذا عمل في الجملة المعلق عنها أعني ما بصاحبكم من جنة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو عذاب الآخرة. ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولي ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ ونفع على التبليغ ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ ولا أريده وهذا كناية عن نفي السؤال بدليل قوله ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ حاضر عالم مراقب مطلع فيعلم صدقي وإخلاصي ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يرمي بالدفع المقارن للهيبة كلامه الحق وهو القرآن

إلى قلبي حتى أحفظه وأبلغه إلى المكلفين، وأسعى في سبيل الهـدف الشريف، وهـو التوحيـد للـه رب العـالمين. وهـو ﴿عَلَّامُ الْغُيُـوبِ﴾ فيعلم حيث يجعل رسالته ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلام أو التوحيد ﴿وَمَـا يُبْـدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أي الكفر أو الشـرك ﴿وَمَـا يُعِيـدُ﴾ أي ذهب الباطـل واضـمحل ولم يبق له أثر، فإن الحي قد يبدىء شيئا ويعيده أي يعمل شـيئا ابتـداء ويعيده ويكرره ثانيا. وإذا مات لا يعمل شيئا فلا يبدىء ولا يعيد. ويحتمل أن يكون الباطل عبارة عن الصنم أي جـاء الحـق أي التوحيـد، واسـتقر الإيمان بالله الواحد القادر الذي يبـدىء الخلـق في الـدنيا ثم يعيـده في النشأة الثانية. وأما الباطل وهو الصنم فقد ظهر أنـه لا يبـدىء شـيئا ولا يخلفه ابتداء ولا يعيده يوم البعث، فبين الحق والباطل بَوْنٌ شاسع.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ أي عن طريق الحق ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ ولا يرد عليكم ضرر من جانبي ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ أي إلى الحـق ﴿فَبِمَـا يُـوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ فإن الاهتداء في الواقع إنمـا يكـون من اللـه ﴿إِنَّهُ سَـمِيعٌ قَـرِيبٌ﴾ من الضال والمهتدي وإليـه ترجـع الأمـور. ثم اسـتعرض البـاري أحـوال الكـافرين في يـوم القيامـة ومـا سـيجري عليهم فقـال: ﴿وَلَـوْ تَـرَى إِذْ فَزِعُـوا﴾ أي ولـو تـرى المشـركين يـوم القيامـة إذ فزعـوا واعـتراهم الانقبـاض النفسـي والبهت ﴿فَلَا فَـوْتَ﴾ ولا خلاص لهم من عـذاب اللـه ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الملائكة المأمورين بإلقـاء القبض عليهم فيأخذونهم ويسوقونهم إلى النار ﴿وَقَالُوا﴾ هناك: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ أي بالله عز وجل وقد ابتعدوا عن الإيمان المقبـول بمسـافة مـا بين الـدنيا والآخـرة ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ أي مناوشة الإيمان وأخذه والاتصاف به بعد ذهاب وقته ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عنه فإن الإيمان كـان فاكهـة الصـيف في الـدنيا وقد وقعوا في زمهرير شتاء الآخرة.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ أي والحال أنهم كفروا به من قبل ﴿وَ﴾ كانوا ﴿يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾أي يتكلمون بالكلام الغيب أي الخفي الغير الظاهر عندهم. فكانوا يقولون: الملائكة بنات الله، والقرآن إفك مفترى، والرسول كاهن أو ساحر أو مجنون، وكل تلك الجمل التي خرجت عن أفواههم الخبيثة كانت جملا مغيبة عنهم غير ظاهرة، بل كانت أكاذيب توارثوها عن آبائهم الوثنيين واحدا تلو الآخر إلى الشيطان، فإن مصدر هذه الأباطيل هو إبليس الشيطان الرجيم. وقذفهم بالغيب كان ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ من جهة بعيدة عن حظيرة القدس الذي تكلموا عنه مثل الباري تعالى ورسوله الكريم ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي وقد وقعت الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون وهو نفع الإيمان في الآخرة أو الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا إيمانا نافعا ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كما فعل بأمثالهم من الكفار السابقين أي أنهم يؤمنون في الآخرة ولا ينفعهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي السابقين، أو اللاحقين، أو كلا الفريقين إذ كانوا أحياء في الدنيا ﴿كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ في وجود الله تعالى ووحدته وقدرته وسائر صفاته، وفي رسوله وصدقه في تبليغ الحق ﴿مُرِيبٍ﴾ ذلك الشك أي موقع للناس في ريبة وشبهة نكراء. أعاذنا الله منها رب العالمين.

سورة فاطر، مكية، وآياتها خمس واربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2)﴾

قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدهما من غير مثال، ومبدعهما بقدرته وإرادته بدون وجوب أو إيجاب وبلا واسطة في التأثير، فإن الرأي السائد في المسلمين اقتداء بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم هو أن الله خالق كل شيء بلا واسطة يتوقف الخلق عليه وبالاختيار الكامل من دون ضرورة تدعو إليه، وكل ما يكون له دخل في حصول أمر وحدوثه كالنطفة للاولاد، والبذور للنبات، والأمطار للتنمية، والاشعة للتربة إلى غير ذلك من أسباب تعلقت إرادة الباري تعالى بها مع المسببات، فليست المسببات حاصلة بها، بل حاصلة بإرادته معها، فإنكار الاسباب جهل وخرق لسنة الله تعالى في الكائنات ونسبة الآثار إليها بالفاعلية

من الأباطيل والخرافات، والمؤمن العاقل يباشر الاسباب من كل باب ويتوكل للنتيجة على الله الوهاب ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾.

والملائكة أجسام لطيفة نورانية يخلقها الله بالإبداع بدون التوقف على التناسل والتوالد، فليست الملائكة ذكورا ولا إناثا، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. والمعلوم عندنا على ضوء السنة الواردة أنها أربعة أصناف: الكروبيون، والروحانيون وحملة العرش، والمقربون. فالكروبيون مأمورون للعذاب في الدنيا والآخرة. ومنهم الملائكة المأمورون بتعذيب أهل النار ورئيسهم هناك اسمه (مالك). والروحانيون ملائكة الرحمة المأمورون بتربية ما يحتاج إليها وحفظه. يقول تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾. وحملة العرش أربعة في النشأة الأولى، ويصيرون ثمانية في النشأة الأخرى. والمقربون: جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل. وجبريل مأمور بالوحي والتنزيل أي يأتي بالآيات من الله تعالى للانبياء وبالإلهام إليهم وإلى سائر الصالحين الملهمين. وعزرائيل مأمور بقبض الأرواح لكل ذي روح. وإسرافيل مأمور بالنفخ في الصور فينفخ فيها مرتين: مرة لإماتة الأحياء، ولهدم الجبال وتمزيقها وتفشيتها كالعهن المنفوش وتسطيح الأرض. ومرة لاحياء الموتى. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107)﴾ـ ومن الروحانيين من هو مأمور في الجنة ويستقبلون أهلها بسلام، ورئيسهم رضوان. والقرآنُ الكريمُ صريح في وجود الملائكة الحافظين للاشياء والمأمور على كتابة الاعمال والمأمور على السؤال في القبر وعلى تعذيب أهله أو تنعيمه حسب الأمر، والأحاديث دالة على ذلك. وكل ما جرى مبني على سنة الله تعالى في العالم

وإلا فالعالم في قبضة قدرته، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وإذا كانت الأمور مبنية على الأسباب فلا مانع من أن تكون هناك أرواح بشرية صافية عن الكدورات منورة بالطاعات، لها مأمورية محدودة في بعض الأمور، فإن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة، ولا مانع من وجود المأمورية لهم كبعض الملائكة ومنهم من قال تعالى في حقه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ كما أنه تعالى خلق من البشر رسلا مبشرين ومنذرين. وكما قال تعالى ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي إلى الأنبياء والرسل بالوحي والإلهام، وكذا جعلهم واسطة لإلهام الصالحين كما هو معلوم لأهل الدين.

ويجوز أن يراد برسالتهم ارسالهم إلى أماكن من البر والبحر والسماء والأرض لتنفيذ ما أمروا بها، وكذلك في عالم الآخرة كما في عالم الدنيا، ولله في ملكه شئون.

وقوله تعالى: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ الظاهر أن الأجنحة جمع جناح بمعنى الجناح الجسمي، ولكن كيفية تركيبها في الجسم غير معلومة لنا، وأن قوله مثنى وثلاث ورباع صفة للأجنحة والعدد فيها ليس للحصر بل إشارة إلى الاختلاف بينها في القوة والضعف فتفسير الأجنحة بالقوى المعنوية تأويل بلا داع يدعو إليه، وقد أخرج الشيخان والترمذي عن ابن مسعود في قوله تعالى ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أنه رأى جبريل له ستمأة جناح، فهذه الرواية أيضا تدل على أن ليس المقصود من الآية الحصر بل التفاوت في الاجنحة. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي يزيد في خلق أجنحة الملئكة ما يشاء بدون الاقتصار على ما ذكر، فيجوز الزيادة عليها إلى ما شاء الله، فالجملة استئناف مقرر لما قبلها من تفاوت الملائكة في عددها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما تقرر فإن شمول قدرته لجميع الأشياء مما يوجب قدرته على خلق كل ما يشاء خلقه. ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ أي ما يرسله للناس من رحمته من أي جانب من الجوانب المتصورة عمرا وعلما ورزقا وجاها ووجاهة ودينا وأدبا وأموالا وأولادا...

وغيرها ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي فلا أحد يقدر على إمساكها ومنعها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ أي وما يمنعه منها فلا معطي له من بعده ولذلك صار وردا واردا من حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم اللهم لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت. وقوله ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد إمساكه وهو العزيز الغالب الذي لا يغالب والحكيم في تخصيص من شاء بما شاء وسلب ما شاء عمن شاء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما أنعم الله به عليكم من المال والأولاد والسكن والعقل والعلم والحواسب السليمة، ومن أهمها أنه أسكنكم حرماً آمنا ومقاما محترما ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات وسائر الأرزاق التي تحصل منهما جميعا أو من أحدهما ﴿لا إله إلا هو﴾ جملة مستأنفة مقررة للجواب المنفي المقدر فكأنهم قالوا في جواب الاستفهام لا خالق غير الله ثم أكدها بقوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي إذا تبين تفرد الباري تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك؟ ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي فلا تبتئس بتكذيبهم لك لأن ذلك أمر جار في الماضي فيجري في الحال، وقد كذبت رسل من قبلك، ولابد أن تكذب أنت أيضا أسوة بمن سبقك من الأنبياء والمرسلين ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ لا إلى غيره فيجازي كلّا منكم بما يناسبه من العذاب الأليم أو النعيم المقيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والنشور ﴿حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بأن تذهلكم عن طاعة الباري والتقرب إليه وحده ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي الشيطان المبالغ في الغرور أو أعوانه من الجن والإنس الكفور ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم له ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا نهاية له. ثم استفهم مستنكرا وقال ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ من النفس والشيطان وأعوانه ﴿فَرَآَهُ حَسَنًا﴾ أي كمن يزين له سوء عمله ولم يره حسنا، بل وفقه الله تعالى حتى عرف الحق واستحسنه وعرف الباطل واستقبحه، وفي الحقيقة إن جواب الاستفهام سلبي أي لا يتساويان ولا يتقاربان، وإذا سئلتم عن

سبب تزين العمل السيء عند الأولين واستقباحه عند الآخرين أقول في الجواب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين يرون القبيح حسنا، ولا تضيع ولا تفوت ﴿حَسَرَاتٍ﴾ لأجل تراكم حسرات على أولئك الفاسدين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)﴾

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ مبتدأ وخبر، يعني إن الله هو الذات الذي أرسل الرياح الساكنة وحركها ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي فترفع سحابا إلى مسافة محدودة من الجو العالي ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ أي ذلك السحاب الحامل للماء ﴿إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أي إلى قطعة أرض لا نبات ولا خضرة فيها كالميت الذي لا يحصل منه فائدة ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أي المطر النازل منه ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي إحياء الأموات في يوم الحساب، أي من كان له قدرة على إرسال الرياح لإثارة السحاب ثم سوقه إلى بلد ميت يابس لإحيائه بإنبات النبات فيها قادر على أن يجعل من مواد

الإنسان الممزقة هيئة اجتماعية متلاصقة وينفخ فيها الروح فيكون بشرا سويا فيسوقه إلى المحشر. وفي هبوب الرياح دليل ظاهر على الخالق الفاعل المختار، وذلك لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك الى اليمين، وقد يتحرك الى اليسار، وفي حركاته المختلفة قد ينشىء السحاب وقد لا ينشىء، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ والشرف ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فليطلبها من الله تعالى فإن الله العزة جميعا، وطريق طلبه لها من الله تعالى أن يتقرب إليه بالكلم الطيب والعمل الصالح، أي بالقول الحسن والفعل الحسن، فإذا قال قولا حسنا، أو عمل عملا صالحا يصعدان إليه، فيقبلهما فيفيض من رحمته العزة على صاحبها كما قال تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وفسروا الكلم الطيب بذكر الله تعالى، وقيل: هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وفي أثر عن ابن مسعود أنه القرآن الكريم. والحق أن الكلم الطيب عبارة عن كل قول مفيد مقبول عند الله، وإن كان أفضله كلمة التوحيد أو القرآن الكريم، وذلك لأن ناتج الإنسان القول والفعل، وكل قول حسن أو عمل حسن فهو ما يتقرب به إليه، ومن القول الحسن كلمة ترشد الضال إلى الصراط المستقيم، أو تنجي مصابا من العذاب الأليم، أو تبين الحق عند حاكم جائر ذي طبع سقيم، أو كلمة تصلح بها بين فردين أو فئتين من المتخاصمين... إلى غير ذلك من الأقوال الحسنة.

واعلم أنه ذكر في إعراب قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وجوه عديدة أرجحها عندي أن يكون العمل معطوفا على الكلم يعني إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح. وقوله تعالى يرفعه جملة

مستأنفة وفاعله ضمير راجع إلى الله تعالى، والضـمير المنصـوب عائـد إلى العمل، ووجه تخصيص الرفع بالعمل هو أن العمل فيه كلفـة زائـدة ومشقة فوق العادة، فمنـه جهـاد النفس وكبح جماحهـا بقصـد إصـلاحها وذلـك من أصـعب الأعمـال، ومنـه جهـاد الكفـار، ومنـه إسـباغ الغسـل والوضوء في الليل والنهار، ومنه صرف الأموال في سبيل اللـه تعـالى. وهذه الأعمال الشاقة منوطة بتوفيق خـاص من اللـه ولا يمكن إحـداثها إلا بلطف منه تعالى ولشـرفها نسـب رفعهـا الى اللـه فقـال يرفعـه أي يرفع الله ذلك العمل الصالح إليه أي إلى نفسه وقدسه.

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْـرُ أُولَئِكَ هُـوَ يَبُـورُ﴾ أي يفسد ويضـيع ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُـرَابٍ﴾أي خلـق أصـلكم وهـو آدم من تـراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ﴾ أي ثم خلقكم منهـا خلقـا تفصـيليا ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًـا﴾ أي أصـنافا مختلفـة في القامـة والوجاهـة والحسـن والقيافـة والاستعداد وقابلية العمل والتخلق بـالأخلاق العاليـة... ﴿وَمَـا تَحْمِـلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي وما يمـد في عمـر أحـد ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾يعني أن المـد في عمـر أي إنسـان طويـل العمـر، أو النقص الـوارد على عمـره كلـه مكتـوب في اللـوح المحفوظ.

وممـا ينبغي أن يعلم أن هـذه الآيـة الكريمـة مطـرح أنظـار العلمـاء، وفسروها بوجوه كثيرة قريبة وبعيدة، وأرجحها تفسيران:

الأول أنه ما يقرر عمر أحد زائدا كان يقرر عمـر زيـد مـأة سـنة، وعمـر شخص آخر ناقصا كأن يكون عمر خالد خمسين إلا في كتاب.

الثاني: أنه ما يزاد في عمر أحد ولا ينقص عمر ذلك الشخص عينه كـان يكـون عمـر زيـد مـأة سـنة على تقـدير أن يـداوي مرضـه، أو يتصـدق بصدقة،

أو يدعو هو نفسه أو شخص آخر لـه، أو أن يكـون عمـره خمسـين على أن يهمل التداوي، أو لا يهتم بالصدقات أو بالدعوات أو بصلة الأرحام إلا في كتاب مبين، أي في علمه الأزلي. وهذا هو الصحيح لأن الله سبحانه وتعالى ربط المسـببات بأسـبابها في كـل فصـل وبـاب، فالعامـل يأخـذ الأجور والكاسل يموت في الفقر والجوع. وعلى ذلـك جـرت سـنة اللـه في الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ولا تتوهمن أن هذا ينجر إلى تعدد الأجل لأن اللـه سـبحانه وتعـالى يعلم أن ذلك الإنسان يباشر الأسباب أولا ولا تخفى عليه خافية فالأجل عنـده واحد وموت الإنسان معلوم في ذلك ويعلم ذلك محققا بلا شبهة، وذلـك نظـير بـاقي الأمـور كـالعلم الحاصـل من التعلم، والمـال الحاصـل من الكسب، والنجاح الحاصل من السعي والغلبة الناتجة من الكفـاح. وكـل تلك الأسباب أمر الله بها وبلغها الرسول صلى الله عليه وسلم والنـاس أصـناف، منهم من يمشـي على طريـق مباشـرة الأسـباب، ومنهم من يمشـي على الكسـل والإهمـال. وإلا فلمـاذا يـأمر الرسـول بالصـدقات وبالدعاء وبالتداوي؟ ويقول: اعملوا فكل ميسرٌ لمـا خلـق لـه، أو لمـاذا يأمر الله سبحانه وتعالى بالتشـاور في الأمـور وبإعـداد العـدة؟ فـالنبي صلى الله عليه وسلم يدعو لنفسه أو لأهله أو لأمته رجاء أن يكون ذلك الدعاء سببا لذلك المأمول وأمر غيره بذلك لـذلك، فـإذا قـال رب زدني علما يدعو حسب الأمر بالدعاء من الله لأنه يعتقد أن هذا الدعاء سـبب لمزيد علم الرسول حسب جريان علم اللـه الأزلي بـه. وقـد ينهى اللـه سبحانه عن بعض تلك الأسباب لجريان علمه بأنـه أبـرم الأمـر ولا ينفـع ذلك كما في قضية دعائه على قاتلي قراء بئر معونة المشـهورة. ويـدل على ذلك بداهة العقل في الموضوع الحاكمة بـأن البركـة من الحركـة، ونص القرآن الكريم كهذه الآية وآية ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْـدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾

وأحاديث كثيرة يكاد أن يكون القدر المشترك منها متواترا لا يمكن رده قطعا. فقولك اللهم إن كنت كتبتني شقيا أو قليل العمر أو ضيق الرزق فاكتبني يا ربي سعيدا أو طويل العمر أو واسع الرزق، معناه يارب إن كانت سعادتي أو طول عمري أو وسعة رزقي مسببة عن تضرعي إليك ودعائي ومناجاتي فبدل ذلك بهذا.

ولا ينافي هذا ما روي من «أن السعيد من سعد في بطن أمه وأن الشقي من شقي في بطن أمه» أبدا لأن الإنسان عندما يكون في بطن أمه، بل قبل وجود والديه، بل في الأزل قبل حدوث العالم، تعلق علم الباري بأن فلانا الذي سيولد يكون سعيدا لأنه يتضرع إلى ربه ويتندم عن معاصيه فيغفر الله له، وهذا الدعاء هو ذلك السبب المعلوم في الأزل، وكذلك تعلق علمه بأنه يكون فلان شقيا لأنه علم منه عدم مباشرة أسباب السعادة قطعا. وكل ذلك من أجلى البديهيات. وكل حادث من الحوادث مثل السعادة والشقاوة في أنها معلومة عند الله مع أسبابها أزلاً.

وقوله ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾روي أن المراد بالكتاب هو صحيفة الإنسان، وروي أنه اللوح المحفوظ. وأما أم الكتاب فالراجح أنه علمه الأزلي الشامل لكل شيء. ويؤيد أن المراد بالكتاب اللوح ما ثبت من أن ما في اللوح قابل للمحو والإثبات كما قال تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت وأن أم الكتاب هو علمه الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل.

وحاصل الأمر أنا معاشر المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة على منهج الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومناهج خلفائه الراشدين وأصحابه الفقهاء نعتقد أن الله عالم بجميع الكليات والجزئيات، وأن علمه لا يتبدل ولا يتغير، وأن الأجل واحد، وأن مباشرة الأسباب المعنوية من الصدقات والدعاء والالتجاء إلى الله، والمادية من التداوي وسائر

الوجـوه المرعيـة في الحيـاة من أسـباب الخـير والسـعادة، وأن خلـق الأمور موكول إلى ذاته سبحانه وتعالى، وأنه سـبحانه وتعـالى إذا تقبـل دعـاء شـخص لشـفاء مـريض، أو جعـل الشـفاء في دواء يـداوي بـه المـريض، أو في صـدقة يتصـدق بهـا على الفقـراء ماشـية على الحـق وعلى السـنة الجاريـة في شـريعة اللـه سـبحانه وتعـالى، وأن علينـا مباشرتها وإن لم نعلم نتائجها ونتوكل على الله في كل الأمـور وحسـبنا الله ونعم الوكيل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ معناه إن زيـادة العمـر ونقصـه أو إن ما بعد ذلك من الإعادة والبعث والنشور كل ذلك على الله تعـالى يسير سهل لا مانع منه قطعا، فإن الإنسان إذا آمن بأن الله موجود وهو واجب الوجود ومتصف بكل كمال ومنزه عن كـل نقص، وأن مـا يجـري في ملكه عدل ومقرون بالحكمة كفاه ذلك.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)﴾

قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ المراد به ضرب مثل للمؤمن والكافر يعني تشبه الهيئة الحاصلة من ملاحظة رجلين مؤمن وكافر يشتركان في بعض المنافع والأمور العامة، ويختص كل بأمور مباركة في الأول ومشئومة في الثاني بالهيئة الحاصلة من ملاحظة بحرين يشتركان في استخراج المنافع منهما، واختصاص أحدهما بصفاء مائه وسلامته، والآخر بملوحته وحراقته للحلقوم. ويقول كما لا يستوي البحران المذكوران لا يستوي الإنسانان أيضا، فالمؤمن له حال مبارك ومآل أبرك، والكافر له حال فاسد ومآل أفسد، فيقول تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ العذب الطيب، والفرات الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يسهل انحداره، والأجاج الذي يحرق بملوحته. ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي غضا جديدا وهو السمك والطير. ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ الظاهر أنه يستخرج من كل منهما، وإن كان الاستخراج من المياه العذبة نادرا، والمستخرج من المياه الملحة اللؤلؤ والمرجان. ويحتمل أن يقال يستخرج عظام السمك من كل منهما ويصنع منها قبضات السيوف والخناجر والسكاكين وغير ذلك، ويعتبر ذلك لحسنها حلية ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي في كل من البحرين ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواق للمياه والسفن في وقت النزول كانت تجريها الرياح، واليوم تجريها المكائن القوية فتحركها وتشق الماء بقوة، ومنها ما يغوص في أعماق البحور، كل ذلك ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بسبب السير فيها على البحار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه التي لا تحصى. وما ذكر منها جزء قليل قليل.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ * وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بإضافة بعض من الأول إلى الثاني وبالعكس ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ كلا في فلكه ومداره لإضاءة العالم بالليل والنهار ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ على مداره الخاص

إلى يوم القيامة ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي القادر المقتدر الذي يفعل هذه الأمــور هو الله ﴿رَبُّكُمْ لَـهُ الْمُلْـكُ﴾ والسـلطان ﴿وَالَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ﴾ من الأصـنام والأوثـان ﴿مَـا يَمْلِكُـونَ مِنْ قِطْمِـيرٍ﴾ وهـو القشـرة على رأس النواة بينها وبين التمر ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ لجلب خير أو دفع شر ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَـاءَكُمْ وَلَـوْ سَـمِعُوا﴾ فرضـا ﴿مَـا اسْـتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ ليس فيهم قـوة النطق ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عندما تحتاجون إليهم ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فضلا عن أن يستجيبوا لكم، وأنا الله العالم بـذلك ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْـلُ خَبِـيرٍ﴾ أي ولا يخبرك بشيء فتسـتفيد منـه العلم مثـل مخـبر كـان مطلعـا وخبـيرا عليه.

﴿يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَـرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيـزٍ (17) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَـوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّـلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِـيرُ (18) وَمَـا يَسْـتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِـيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَـاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَـرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُـورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَـذِيرٌ (23) إِنَّا أَرْسَـلْنَاكَ بِـالْحَقِّ بَشِـيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ وَبِـالزُّبُرِ وَبِالْكِتَـابِ الْمُنِـيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (26)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ إرشاد للناس ودعـوة لهم إلى ربهم بأن الله غني عن العالمين، وإنما يدعوكم إليه لسعادتكم، وإلا فأنتم الفقراء المحتاجون إلى اللـه في وجـود الـذات وبقائهـا، وفي رزقكم وملابســكم ومســاكنكم، وشــفائكم من الأمــراض والأســقام، ومعونتكم عند الملمـات ﴿وَاللَّهُ هُـوَ الْغَنِيُّ﴾ عن كـل موجـود ﴿الْحَمِيـدُ﴾ المنعم ذو الإحسان والجـود ﴿إِنْ يَشَـأْ﴾ أن يـذهب بكم ﴿يُـذْهِبْكُمْ وَيَـأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فإذا أراد أن يبدل الإنسان بغيره أفنى جميـع البشـر وجـاء بالسباع في أماكنهم، أو أراد أن يبدل قومـا بقـوم فكـذلك، فقـد وجـدنا بأنفسنا إذهابه بقوم عن أرض وإتيانه بقوم آخرين، ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ الإذهـاب ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيـزٍ﴾ ولا يغـرنكم مـا تعتقـدون من أن كـبراءكم يحملـون أوزاركم فإن ذلك لا واقع له.

﴿وَلَا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى﴾ أي ولا تحمـل نفس آثمـة آثـام أخـرى بـل تحمل كل نفس وزرها ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي نفس مثقلـة بالآثـام نفسـا أخرى ﴿إِلَى حِمْلِهَا﴾ أي إلى حملها الذي أثقلهـا ﴿لَا يُحْمَـلْ مِنْـهُ شَـيْءٌ﴾ ولم تجبهـا لحمـل بعض أثقالهـا ﴿وَلَـوْ كَـانَ﴾ المـدعو ﴿ذَا قُـرْبَى﴾ من الداعي ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾أي ربهم المستور عنهم بستار الغيب أو يخشونه حالكونهم متلبسين بالغيب من النـاس أي إنهم يخشـونه سـرا كمـا يخشـونه جهـرا، أو يخشـونه بسـبب الجـزاء الغيب ﴿وَأَقَـامُوا الصَّـلَاةَ﴾ وواظبـوا عليهـا بشـرائطها وأركانهـا ﴿وَمَنْ تَـزَكَّى﴾ وتطهـر من الأوسـاخ والأدنـاس النفسـية والمعاصـي ﴿فَإِنَّمَـا يَتَـزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ لاقتصار الثواب عليه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيأخذ كل جزاءه من القليـل والكثـير ﴿وَمَـا يَسْـتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِـيرُ﴾ همـا مثلان للكـافر والمؤمن كالبحرين ﴿وَلَا الظُّلُمَـاتُ وَلَا النُّورُ﴾ أي ظلمـات الباطـل ونـور الحــق ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَــرُورُ﴾ أي ولا راحــة الفيء البــارد ولا شــدة الحرارة ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾أي الضمائر

المستنيرة بالعقل والعلم والإيمان والوجدان والضمائر الخالية عن كل ذلك لا في الإفادة ولا في الاستفادة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ حيا أو ميتا، وفي القصر أو في القبر ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يعني إن الكفار الذين تعظهم وتدعوهم إلى الله كأموات هامدين في القبور ولست بقادر على إسماعهم الكلامَ على الوجه المعروف من التكلم مع الأحياء للإفادة والاستفادة.

ولا ينافي هذا ما وقع من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مع قتلى بدر من المشركين، وجوابه لعمر رضي الله عنه بقوله: ((والله ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يطيقون الجواب)) لأن ذلك الإسماع والسماع كان إسماعاً للروح في عالم البرزخ وهو حق ثابت لكل أحد وفي كل حال. والمقصود هنا أنك لا تسمع الموتى إسماعا حسب العادة من إسماع المخاطب الحي، وإلا فالأدلة على الإدراك البرزخي للأموات كثيرة ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وحقك أن تبلغ ما نزل عليك إلى المكلفين أجابوا أولا ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾ لأهل الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأهل العصيان ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يعني وإرسالنا إياكم إلى الأمة بشيرا ليس ببدع من الأمور، بل هو جار على سنتنا في الكون حيث ما مضت أمة إلا خلا فيها نذير من رسول أو أحد نواب الرسول من العلماء المبلغين ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ أي أولئك الكفار المشركون فلا تهتم بذلك التكذيب لأنه عادة جارية والرسل صبروا أمامها ﴿فَقَدْ كَذَّبَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي كذبوا الرسل السابقين حيث ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾أي بالمعجزات الواضحة ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي الصحف كصحف إبراهيم عليه السلام ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ للقلوب كالتوراة والإنجيل ﴿) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وكذبوا بالرسل ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي نكيري بياء المتكلم، ثم الوقف عليه بحذفها.

وهذه الآية الكريمة نزلت تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبيرا لـه على معانـدة الكفـار، لأنـه ختمهـا بأنـه انتقم من الكفـار المكـذبين للرسـل السـابقين ولا شـك أنـه سـينتقم من الكفـار المعانـدين لـك بلا شبهة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَـا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَـا وَغَـرَابِيبُ سُـودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً﴾ تقريـر لوحدانيتـه تعالى بأدلـة سـماوية وأرضـية إثـر تقريرهـا بأمثـال ضـربها جـل شـأنه. والاستفهام لتقرير الرؤية، أي لا شبهة عندكم أن الله أنزل من السـماء ماء من نوع واحد وصنف واحد ﴿فَأَخْرَجْنَا بِـهِ﴾ أي بـذلك المـاء الواصـل إلى الأرض ﴿ثَمَـرَاتٍ﴾من نباتـات متعـددة ﴿مُخْتَلِفًـا أَلْوَانُهَـا﴾ إمـا من النبـات فمثـل الكمـأ بأصـنافها المختلفـة اللـون، والنباتـات الخضـرة الشديدة الخضرة والصفرة والبيض، وإما من ثمـار الأشـجار فَحـدِّثْ ولا حَـرَجَ. ومن المفسـرين من حمـل الألـوان على معـنى الأصـناف، فلـولا قـدرة البـاري وإرادتـه المتعلقـة بـاختلاف أصـناف النبـات والثمـار كـان المعقـول أن تكـون متحـدة لأن المـاء واحـد والأرض واحـدة والموسـم واحد. وقوله تعالى ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾ عطف على ما قبله بحسـب المعـنى أي ألم تر أنه من الجبال ﴿جُدَدٌ﴾ أي طرائق وخُطَط ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ كـل منها ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ فمن الأبيض ما هو نباتي ومـا هـو ثلجي ومـا هـو عـاجي، ومن الحمـر مـا هـو شـديد الحمـرة أو خفيفهـا او متوسـطها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ جمع غربيب عطف على جدد أي صخور

شديدة السواد يقال أسود غربيب كثيرا، وغربيب اسود قليلا. ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي بعض مختلف ألوانه ﴿كَذَلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف أي إختلافا كذلك أي اختلاف الثمرات والجبال. وهذه الآيات الدالة على شمول قدرة الباري إنما يعقلها العلماء المنورون بنور العناية الربانية فلا يستفيد منها إلا أولئك العلماء لأن الاستفادة من الآيات مشروطة بالخشية، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ المعهودون ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره لا يغالب ﴿غَفُورٌ﴾ لمن يتكاسل في فهم آياته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يواظبون على تلاوته حتى صارت سمة لهم وعرفوا بها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي واظبوا عليها مع رعاية شرائطها وأركانها والخشوع فيها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مصدر على وزن فعالية أي علنا، أي أنفقوا بحسب الإمكان سواء صادف السرّ أو العلن ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ في سوق طاعة الله يصرفون ما لديهم من نقد الحال والمال ويأخذون الثواب من الله المتعال فتجارتهم ﴿لَنْ تَبُورَ﴾ ولن تكسد أبدا فيبقى حق تجارتهم عند الله سبحانه ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ من حسنة إلى عشر أمثالها ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ كما يشاء بتضعيف درجات الثواب أو بشرف رؤية ذاته الكريم الوهاب ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فرط منهم و﴿شَكُورٌ﴾ يقبل ما قدموا من الطاعات ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت من كلامي ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ﴾ يعلم ما يوافق كل أمة من الكتاب لبيان الشريعة والآداب ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يؤمن به من عباده ومن يكفر ويبقى في عناده وعذابه أبد الآبدين ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني بعد ذهاب مدة الكتب المنزلة سابقا أعطينا القرآن الكريم الذين اصطفينا من عبادنا، وعلى رأسهم حبيبنا محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام وأصحابه وسائر امته الى يوم الدين، وجعلناه شريعة لهم اعتقادية وعملية ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فمن أولئك العباد من هو ظالم لنفسه يظلمها وينحرف عن ذلك الكتاب ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يعمل لا كل العمل، ويترك لا كل الترك ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾ يسبق إلى نيل الثواب ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي بسبب مباشرته للحسنات ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتوفيقه وتيسيره.

أخرج الإمام أحمد وجمع آخرون رضي الله عنهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال

في هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ إلى ﴿الْخَيْرَاتِ﴾: ((هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة))، وقوله عليه السلام وكلهم عطف تفسيري لما قبله. وعن أسامة بن زيد أنه قال في الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كلهم من هذه الأمة، وكلهم في الجنة)) وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((سابقُنا سابقٌ، ومقتصدُنا ناج، وظالُمنا مغفور له)) وأخرج الإمام أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((قال الله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين يتلقاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور)) ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك الإيراث والإصطفاء هو الفضل الكبير، لأن جزاء أهله كلهم هو الجنة ونعم المصير ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الفضل الكبير وصف بقوله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ و﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة حلى يجعل في اليدين ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ من بيانية أي تلك الأساور مصوغة من ذهب أو من جنسه ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب عطف على محل مِن أساور ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي ابريسمٌ مَحض ﴿وَقَالُوا﴾ أي ويقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ أي حزن تقلب القلب وخوف العاقبة في الدنيا، وحزن أهوال المحشر في القيامة ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي دار الإقامة الأبدية الطينية المباركة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ لا من <418>

عمله؛ لأن الخير والطاعة في بضع سنين لا يكافئ الجنة والرضوان أبد الآبدين ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي كلال وملال وفتور، والحمد لله على ذلك مر الدهور.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38)﴾

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية لما بين حسن عاقبة المؤمنين قابله ببيان سوء عاقبة الكافرين ليعتبروا ويأخذوا طريق الإيمان، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ بالابدية لا لغيرهم كذلك ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿فَيَمُوتُوا﴾ أي ويستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ المقرر لهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالغ في الكفر ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ من الصراخ وهو شدة الصياح، ويستعمل في الاستغاثة كثيرا، وذلك لأن الصوت العالي لإبلاغ الناس غالبا فيقصد وصول مدد للنجاة قائلين ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي نوحدك ولا نشرك بك أحدا ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ فيجاب عن فزعهم وصياحهم واستغاثتهم من جانب الباري أو لم نعمركم زمانا يتذكر فيه من تذكر بالاعتبار، أو تجاريب الليل والنهار في الأدوار أو بالنظر والتفكر في الآيات والآثار أو بالنظر في أخلاق الرسول المختار. أخرج

الإمام أحمد والبخاري والنسائي عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((أعْذَرَ اللهُ تعالى إلى امْرِئٍ أخّر عمره حتى بلغ ستين سنة)) ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ عطف على جملة الاستفهام أو حال بتقدير قد، أي وقد جاءكم النذير وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم علاوة على كل ما لديكم من أدلة التذكر والاعتبار، ﴿فَذُوقُوا﴾ أي العذاب ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين الذين ماتوا على الكفر ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عليم بما فيها من قصد الخير أو الشر والعزم عليه والعمل به فيجازي كلا بما هو أهله.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41)﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الخلائف جمع الخليفة، يعني هو الذي جعلكم خلفاء له في الأرض أسوة بأبيكم الأعلى آدم عليه السلام. وألقى إليكم مقاليد التصرف ليبتليكم كيف

تعملـون؟ هـل تعـدلون حـتى تنـالوا الثـواب أو تجـورون حـتى يصـيبكم العقـاب والعـذاب؟ أو هـو الـذي جعلكم خلفـاء عمن قبلكم من الأمم وأورثكم ما بأيديهم من متـاع الـدنيا ليمتحنكم هـل تطيعـون ربكم فيمـا بأيديكم حتى تنالوا الخير في الدنيا والآخرة؟ أو تعصـونه حـتى يـدمركم الله كما دمر الظالمين ممن قبلكم. والخطـاب عـام والمقصـود التنبيـه على خطـورة الموقـف حـتى لا يصـر الإنسـان على الغفلـة والجهـالات ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وعقابه ووباله ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًـا﴾ لهم واحتقـارا وهوانـا ﴿وَلَا يَزِيـدُ الْكَـافِرِينَ كُفْـرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ في الدنيا بموت ضميره وضيق صدره والحيرة في أمـره، وفي الآخرة بذوق الحميم والعذاب الشديد الأليم.

﴿قُـــلْ أَرَأَيْتُمْ شُـــرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَـــدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي آلهتكم المزعومة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أعلموني أو أبصروني أيّ جزء من أجزاء الأرض خلقـوه حـتى يسـتحقوا التقـديس والعبـادة؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي بل أَلَهمُ شراكة مع الله تعـالى في خلـق السموات والمواد العلوية ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أي بـل أآتينـا أولئـك العبـاد للأصنام كتابا ينطـق بـأن اتخـذنا أولئـك الأصـنام شـركاء لنـا ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ وحجة واضحة من ذلك الكتاب؟ ﴿بَلْ﴾ أضرب عن كل ذلـك واعلم أنه ليس لهم خلق وتصرف في الأرض ولا في السماوات، وليس عبـاده على بينة لصحة هذه الخرافات، وتلـك الأصـنام أجسـام حجريـة جامـدة كاسدة لا تساوي شيئا له قدر وما ﴿يَعِدُ﴾ أولئك الكـافرون ﴿الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بالإشـراك باللـه ومـا يبلغـون ﴿بَعْضُـهُمْ بَعْضًـا إِلَّا غُـرُورًا﴾ وبطرا من اتباع خرافات أسلافهم الجاهلين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ عن محلهما ومحورهما ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ أي أشرفتا على الزوال فرضا ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَـدٍ مِنْ بَعْـدِهِ﴾ أي من بعد إمساكه تعالى له فمن الذي

تكافئ قدرته قدرة هذا الرب القادر القاهر الحي القيوم القائم بذاته المقيم لغيره حتى يشاركهُ في الألوهية؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ لا يستعجل بعقوبة المشركين ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب المؤمنين.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يريد تذكيرهم بما عاهدوا الله عليه وهم رجال يدعون المروءة والوفاء بالعهود لعلهم يتذكرون ويوفون بها ويؤمنون، فيقول وحلفوا أي أولئك المشركون من أهل مكة ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ من الله آمنوا به إيمانا متينا ثابتا على أساس القوة والعزيمة وكانوا ﴿أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ التي لها دور في العالم كأمة اليهود أو النصارى أو غيرهما مما كان له شأن ومقام. أو معناه ليكونن أهدى من

أمة عالية نادرة الوجود يقال في شأنها أنها إحدى الأمم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو أحد الأحدين وفرد العصور ومصباح النور محمد صلى الله عليه وسلم ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ طلوع شمس قدسه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ والخفاش تنفر من الشمس، وكان نفورهم ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمال والحال والأنف والعنف والطول والعرض ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي وخداعا مع الحق ومكراً مكرَ السيء، فإن كل مكرٍ كان لغير الحق فهو المكر السيء، أو وكانوا عند مجيئه ماكرين في حقه المكرَ السيء لقتله أو فشله في دعوته ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ أي ولا يحيط ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ الماكرين ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله في الكفار الأولين بإهلاكهم في الدنيا وتعذيبهم في الآخرة ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأن يبدل التعذيب بالتنعيم ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ من محلها إلى آخر بأن ينقل عذابه من الكافرين إلى المسلمين.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أو لم يمروا على ديار عاد وثمود في متاجرهم الصيفية أو الشتوية لينظروا إلى تلك الديار المغضوب عليها بالدمار حتى يعلموا كيف كان عاقبة الذين كانوا مكذبين للرسل من قبلهم حتى يعلموا أنهم سيبتلون إذا لا يتوبون ﴿وَكَانُوا﴾ أي الكفار الذين كانوا من قبلهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي من كفار مكة ﴿قُوَّةً﴾ بالعَدَد والعُدَد ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ كامل العلم والقدرة وشاملهما ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من السيئات ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ تدب وتمشي على الأرض إما لعصيانه أو ابتلائه بشؤم المعاصي كما في قوله تعالى ﴿) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ وشمول شؤم المعاصي للصالحين ليس لاستحقاقهم للدمار بل لجريان سنة الله تعالى في الكائنات،

فإنه إذا أراد خسف إقليم انخسف بمن عليه وما عليـه ومـا فيـه للـزوم وجود الحال بوجود المحل، فالمحـل إذا علا يعلـو معـه الحـال وإذا نـزل ينزل معه، والمكلفون العصاة يأخذون حقهم واسـتحقاقهم من العـذاب والمطيعـون يأخـذون أجـورهم بغـير حسـاب. وكـان هـذا العمـل يشـبه خطـاب الوضـع الجـاري على المكلـف وغـير المكلـف وليس كخطـاب التكليف المختص بالعقلاء البالغين ﴿وَلَكِنْ يُـؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى﴾ أي لكنـه لا يؤاخـذهم بمـا كسـبوا بـل يـؤخرهم الى أجـل ووقت معين لتعذيبهم ولا يبـالي البـاري بتعـذيب المسـتحق في الحـال أو الاسـتقبال فإن الزمان بالنظر إليه لا قيمة له ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيفرق بين درجات عذابهم، ويعذبهم على حسابهم. أعاذنـا اللـه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنـا وجعـل مآلنـا خـيرا بمنـه حالنـا بمنـه وفضله وكرمه آمين.

سورة يس، مكية، وهي ثلاث وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يس (1) وَالْقُـرْآَنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَـلِينَ (3) عَلَى صِـرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًـا مَـا أُنْـذِرَ آَبَـاؤُهُمْ فَهُمْ
غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَـوْلُ عَلَى أَكْثَـرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُـونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَـا
فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُـونَ (8) وَجَعَلْنَـا مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدًّا فَأَغْشَـيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِـرُونَ (9) وَسَـوَاءٌ
عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنْـذِرُ مَنِ اتَّبَـعَ الـذِّكْرَ
وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَـرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَـيْءٍ أحْصَـيْنَاهُ فِي إِمَـامٍ مُبِينٍ (
12)﴾

قوله تعالى ﴿يس﴾ الكلام فيه كالكلام في الم ونحوه من الحروف المقطعة ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ الواو للقسم أي أقسم بالقرآن الموصوف بالحكمة في تنزيله وفي مدلوله، أو للعطف على يس إذا كان مقسما به. وجواب القسم قوله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي إنك لمن المختارين من العباد المرسلين للإرشاد وقوله ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثان لحرف التأكيد وقوله ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ بالرفع خبر لمبتدأ محذوف أعني هو راجع إلى القرآن أو الصراط، والتنزيل بمعنى المنزل اسم مفعول أي القرآن هو المنزل من العزيز الرحيم، أو الصراط المستقيم هو الكلام المنزل من الله العزيز الغالب على أمره الرحيم بكل ذي روح في عُسرهِ ويُسره. وبالنصب على المدح، أي أعني بالقرآن أو بالصراط المستقيم ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ على الوجه المذكور، وبالجر بدل من القرآن أو الصراط كذلك. وقوله ﴿لِتُنْذِرَ﴾ متعلق بأرْسِلْتَ المستفاد من قوله لمن المرسلين، أي لتنذر بعذاب الدنيا والآخرة على الإشراك بالله ﴿قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ الأقربون ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن وجوب التوحيد.

ومما ينبغي الانتباه له أنه طيلة المدة الواقعة بين وفاة اسماعيل عليه السلام وبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لم يرسل الله رسولا إلى أمة العرب وقد اندرست شريعة إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام في القسم الأخير من هذه المدة، فلم يكن هناك صحيفة بين العرب تدرس وتؤخذ منها أحكام الدين، لا أصولها ولا فروعها، وبالخاصة لما ذهب عمرو بن لُحَى إلى الشام وجاء بالصنم إلى الكعبة الشريفة، ولوثها بالإشراك لم تبق شريعة إسماعيل بين الناس إلاّ بنوع من الحكاية عن الماضي البعيد، ولذلك قسم العلماء تلك المدة الى أقسام ثلاثة: القسم الأول منها كانت شريعة إسماعيل فيه واضحة والناس

كانوا على بصيرة منها ويعملون بها. والقسم الثاني ابتعد الناس فيه عن أخذها وفهمها ولم يبق منها إلا شيء قليل. وأما القسم الثالث ولا سيما ما وقع منه مقارنا لوجود الأصنام في الكعبة الشريفة وانتشار عبادتها فيه، فقد كان الناس جاهلين بالأحكام فيه وغافلين عن وجوب التوحيد والتزام أحكام الدين وسموه عهد الفترة.

وبعد نص الباري تعالى على أنهم لم ينذروا بقوله في سورة القصص: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفي سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ونصه على أن من لم ينذر فهو غافل بقوله في هذه السورة ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ وبعد نصه على أن الفاعل بسبب عدم مجيئ الرسول إليه لا يعذب بقوله الكريم في سورة الإسراء وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا. ولمفهوم قوله في سورة النساء: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.. وجب الاعتقاد بأن أهل الفترة ناجون من عذاب النار، وأن حكمهم دخول الجنة، إذ لا منزلة بين المنزلتين ولا واسطة بينهما عند جمهور المسلمين. وإذا تقرر ذلك ظهر أن كل ما روي من الأخبار الدالة على عذاب أهل الفترة وهم منهم بنص قوله الكريم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ إن كانت من الأحاديث الضعيفة فلا مجال للاستدلال بها، وإن كانت من الأحاديث الحسنة أو الصحاح وجب تأويلها بحملها على من كان من غير القسم الثالث، أو على من كان فيه وقد بقي إلى أن أدرك بعث الرسول صلى الله عليه وسلم أو على من سافر إلى بلاد النصارى، وعلم من الدين ما ألزمه برعاية الأحكام والآداب، وإلا فلا وجه للاستدلال به واعتباره في مقابل تلك الآيات الصريحة في أنهم لم ينذروا حيث ما أتيهم الرسول وكانوا غافلين عن أحكام الدين.

وقولـه ﴿لَقَـدْ حَـقَّ الْقَـوْلُ عَلَى أَكْثَـرِهِمْ﴾ أي ثبت قـول اللـه تعـالى في مقابل إبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين على أكـثرهم وهم عبارة عمن سبق في علمه تعالى أنـه بسـوء اختيـاره ينحـرف عن الصراط المستقيم، فإذا كـان كـذلك ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُـونَ﴾ بإنـذارك إيـاهم ولقد أعذر من أنذر، فليس عليك إلا تبليـغ مـا أنزلنـاه إليـك وقـد بلغتَ. ولمـا كـان الكفـار على سـوء حـال منعهم عن النظـر الى الحـال أو الاسـتقبال، وأصـروا على عنـادهم واسـتمروا في فسـادهم وإفسـادهم بحيث لا ينفـع فيهم الوعـظ والإرشـاد، وصـمموا على ذلـك مثلهم اللـه تعـالى بالـذين جعلت في أعنـاقهم الأغلال الغليظـة بحيث اسـتوعبت المسافة من صفحة الرقبة الى الذقن، ولم يقدروا على تحريك رؤسهم إلى جانب الصدر وما أمامـه، فقـال ﴿إِنَّا جَعَلْنَـا فِي أَعْنَـاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ من خيوط أوهامهم الفاسـدة وأحـوالهم الكاسـدة بحيث ملأت الخلاء ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ فهي أي تلك الأغلال واصـلة إلى الأذهـان جمـع ذقن وهـو مجتمع اللحيين وقوله ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ كالنتيجة للجعل السـابق، يعـني أنــه لمــا وصــلت الاغلال إلى الأعنــاق فهم مرفوعــو الــرؤس بحيث لا يسـتطيعون النظـر الى الأمـام وكـذلك مثلهم بالـذين أحيطـوا بالسـدود بحيث لا يستطيعون التجاوز الى الحدود فقال: ﴿وَجَعَلْنَـا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَدًّا﴾ أي سدا عظيما لا يعرف كمه وكيفـه ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدًّا﴾ كـذلك ﴿فَأَغْشَــيْنَاهُمْ﴾ يعــني فغطينــاهم بالســدين ﴿فَهُمْ﴾ بســبب ذينك ﴿لَا يُبْصِـرُونَ﴾ أي لا يقـدرون على إبصـار مـا وراءهم من الجهـتين بـل من الجهات.

فصار ما سيأتي كالنتيجة لهذا التمثيل وهو قولـه تعـالى ﴿وَسَـوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فـإن قومـا لم يقومـوا إلا على قـدم الضـلال والجهالـة ولم يعيشـوا إلا على زاد العنـاد والاسـتكبار فعميت قلوبهم قبل الأبصار وتمرضت أبصارهم برمد خائنة الأعين وسوء النظـر الى أدلة

الاعتبار.ـ كيف يؤثر فيهم الإنـذار؟ فالإنـذار وعدمـه متسـاويان بالنسـبة إليهم. وأما بالنسبة الى الرسـول الأمين صـلى اللـه عليـه وسـلم فكـل إنذار يجلب أوقاراـ من الأجور، وكل اصطبار في مقابل استكبارهم يفيـد مزيد الدرجات ليوم النشور.

وحاصل ما هنا أن من آمن برب العالمين وإرسـاله الأنبيـاء والمرسـلين يعلم أن العبـاد لهم شـأن وقابليـة للتكليـف واسـتطاعة العمـل إيجابـا وسلبا، وإلا كان التشريع عبثا، وحاشاه أن يجعل عبثا في الكائنات، وهو تعالى مع أنه له قدرة على هداية الناس جميعا قرر نظاما شـاملا يتمـيز به العاصي والمطيع والوضيع والرفيـع، وهـو الخـوف من مقامـه تعـالى ومنعه نفسه عن الهوى، فمن خاف مقام ربـه ونهى النفس عن الهـوى فإن الجنة هي المأوى، واما من تكبر واستغنىـ وطغى على الحق وبغى فجـزاؤه النـار جـزاء وفاقـا جـزاء الأبـد على القصـد ونيـة الإطاعـة أو العصيان إلى الأبد.

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن بتلاوته وتدبر معانيـه والعمـل بمـا يقتضيه أو أخـذ زبدتـه من المبلغين وعمـل بمـا قـرره إلى يـوم الـدين. ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي عقابه على العصيان ورجـا رحمتـه على الطاعـة والإحسان. وقوله ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي متلبسا ذلك العقاب بالغيب والخفاء لأنه في دار الجزاء أو متلبسا ذات الرحمن إذ لا تـرى ذاتـه وإنمـا تـرى آثـار خلقـه وآياتـه، أو متلبسـا ذلـك الخاشـي بـالغيب عن أعين المراقـبين ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ من هباته وكرامته. ثم جاء بآية من الآيـات البينـات على وجـه التـذييل للفـريقين من أهـل الكفـر والمعاصـي أو من أهـل الإيمـان والطاعـات. فقـال ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَـوْتَى﴾ في وقت البعث والنشـور لمـيزان الأعمـال وحسـاب الأجـور ﴿وَنَكْتُبُ﴾ بأيـدي الكـرام الكـاتبين ﴿مَـا قَـدَّمُوا﴾ من الأعمـال الصـالحة والظاهرة والباطنة، أي اسلفوها لنيل الجزاء في دار

البقـاء من المؤمـنين وبطـرا وعبثـا من الكـافرين ﴿وَ﴾ نكتب ﴿آَثَـارَهُمْ﴾ الـتي أبقوهـا بعـدهم من الحسـنات والسـيآت، ويـدخل في ذلـك علم علموه، أو كتاب ألفوه، أو ملك وقفوه، او مسـجد أو جـامع بنـوه، وغـير ذلك من وجوه البر والخير... وكذلك ما تركوه من الآثار السيئة والسنن المـذكورة، كتأسـيس مبـادئ الكفـر والظلم والبغي والعـدوان، وسـوء الجوار، وسوء الظن بالأخيـار الى غـير ذلـك... أخـرج الإمـام أحمـد في الزهد عن ابن عباس قال: كـانت الأنصـار منـازلهم بعيـدة من المسـجد فـأرادوا أن ينتقلـوا قريبـا من المسـجد فـنزلت ﴿وَنَكْتُبُ مَـا قَـدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ﴾ فقالوا: بل نمكث مكاننا. وعلى تلـك القصـة ورد قولـه صـلى الله عليه وسلم ((إنه تكتب آثـاركم)) ﴿وَكُـلَّ شَـيْءٍ أحْصَـيْنَاهُ فِي إِمَـامٍ مُبِينٍ﴾ أي وأحصينا كل شيء من الأشياء صغيرا أو كبـيرا سـرا أو جهـرا سيئة أو حسنة في إمام مبين أي في أصـل واضـح عظيم الشـأن. وهـو دفاتر الأعمال أو هـو اللـوح المحفـوظ. أو معنـاه إنـا كشـفناه وعلمنـاه بعلمنا الأزلي الواسع الجامع.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَـلُونَ (13) إِذْ أَرْسَـلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَـذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَـا بِثَـالِثٍ فَقَـالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَـلُونَ (14) قَـالُوا مَـا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُنَـا وَمَـا أَنْـزَلَ الـرَّحْمَنُ مِنْ شَـيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْـذِبُونَ (15) قَـالُوا رَبُّنَـا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَـلُونَ (16) وَمَـا عَلَيْنَـا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَـــالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَـــا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُـــوا لَنَـــرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)﴾

قوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ عطف على ما قبله عطف القصة على القصة، والمعنى واجعل لهؤلاء المشركين أصحاب القرية مثلا. فأصحاب القرية مفعول أول، ومثلا مفعول ثان. وإنما أخر المفعول الأول ليتصل به ما هو شرحه وبيانه. وقوله ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ يدل من أصحاب القرية بدل اشتمال، لأن المقصود ذكر مجيء المرْسلين إليهم ومعاندتهم لهم، والقرية (أنطاكية) والمرسلون رُسُلُ عيسى عليه السلام من الحواريين، لكن نسب الله إرسالهم إلى نفسه في قوله ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ لأن إرسال عيسى لهما كان بأمر الله تعالى، وهما يوحنا وبولس، أو سمعان ويُوحَنا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي فلما وصلا إلى أصحاب القرية كذبوهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي فقويناهما وشددناهما بثالث وهو شمعون ﴿فَقَالُوا﴾ أي ثلاثتهم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ أو واحد منهم مع موافقة الباقين ﴿قَالُوا﴾ أي أصحاب القرية خطابا للثلاثة ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ولا مزية فيكم توجب اختصاصكم بالرسالة ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ تدعون أنه وحي من الله ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ فيما تدعون، فلما رأوا شدة إنكارهم عليهم زادوا التأكيد في الجواب. و﴿قَالُوا﴾ أي المرسلون: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ واستشهدوا بعلم الله تعالى بذلك وهو جار مجرى القسم، والإتيان به فيما يخالف الواقع كفر لأنه نسب إليه العلم بخلاف المعلوم، وذلك نسبة الجهل اليه تعالى، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

﴿قَالُوا﴾ أي أصحاب القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا بكم جريا على حال الجهلة حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وإن كان جالبا للشر ويتشاءمون بكل ما يخالفها وإن كان وسيلة إلى الخير. وتطيرهم كان من حبس المطر عليهم مدة، أو بظهور الجذام فيهم. والله ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾

عن مقالاتكم ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل هددوهم بالحرق ﴿قَالُوا﴾ أي المرسلون في جوابهم ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي شؤمكم معكم لبقائكم على الكفر والضلال ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي أإن وعظتم وذكرتم بما فيه خيركم وسعادتكم تتطيرون أو تتوعدون؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أي بل أنتم عادتكم الإسراف في الإفساد وتجاوز الحدود.

روي أن أصحاب القرية (أنطاكية) كانوا عبدة أصنام، فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين، فلما قربا من المدينة رأيا حبيب النجّار يرعى غنما فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ قالا: نشفي المريض بإذن الله، ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض فمسحاه فبرئ، فآمن حبيب وفشا الخبر، فشفي على أيديهما خلق كثير، وبلغ حديثهما إلى الملك فدعاهما، وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قال: نعم من أوجدك وآلهتك. قال حتى أنظر في أمركما فحبسهما.

ثم بعث عيسى شمعون فدخل متنكرا وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به وأوصلوه إلى الملك فآنس به. فقال له يوما: سمعتُ أنك حبست رجلين. فهل سمعت ما يقولانه؟ قال: لا، فدعاهما: فقال شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك. قال: صِفاهُ وَأوْجِزا. قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال وما آتاكما قالا: ما يتمنى الملك، فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصر، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما. فقال: شمعون أرأيت لو سألت آلهتك حتى تصنع مثل هذا حتى يكون لك ولهما الشرف. قال: ليس لي عنك سِرٌّ آلهتنا لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع. ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به، فأتوا بغلام مات منذ سبعة أيام فدعوا الله فقام. وقال: إني أدخلت في سبعة أودية

من النــار، وأنــا أحــذركم مــا أنتم فيــه، فــآمنوا. وقــال: فتحت أبــواب السماوات فرأيت شابا حسنا يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وهذين. فلمــا رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن في جمـع، ومن لم يـؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَـا قَـوْمِ اتَّبِعُـوا الْمُرْسَـلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُـرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِـرَبِّكُمْ فَاسْـمَعُونِ (25) قِيـلَ ادْخُـلِ الْجَنَّةَ قَـالَ يَـا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)﴾

قوله تعالى ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَـةِ﴾ أي من أبعـد مواضـعها ﴿رَجُـلٌ﴾ وهو حبيب ﴿يَسْعَى﴾ أي يسرع في مشيه حرصا على نصح قومه ﴿قَـالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَـدُونَ﴾ أي ثابتون على الحق والاهتداء ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَـرَنِي﴾ تلطـف في إرشاد قومه بايراده الكلام في معرض المناصحة ﴿وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ﴾ مبالغة في تهديدهم بتخويفهم من الله الـذي يرجعـون اليـه وهـو شـديد العقــاب ﴿أَأَتَّخِـذُ مِنْ دُونِـهِ آلِهَـةً إِنْ يُـرِدْنِ الـرَّحْمَنُ بِضُـرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا﴾ أي إذا اتخذت من دونــه آلهــة ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي

واضح فإن إشراكه ما لا يحصل منه خير ولا دفع شر ضلال، وإذا كان جامدا هامدا فالضلال مبين والعلم به يقين ﴿إِنِّي آَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي فاسمعوا قولي فإني أعلن ذلك ولا أبالي بأي حادث هنالك. وبعد أن قال ما قال وبرّأ ذمته عند الله المتعال قتلوه، فقيل: رموه بالحجارة حتى مات وقيل: ألقوه في بئر. وقيل: قاموا عليه بالأرجل والأقدام وغير ذلك. و﴿قِيلَ﴾ أي من جانب الملك الآمر المتعال أو الملك المأمور بذلك المقال: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ وإنما تمنى ذلك ليكسبهم الإيمان كإيمانه فينالوا الأمان كأمانه.

الجزء الثالث والعشرون

<435>

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29)﴾

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد إهلاكه ﴿مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ للانتقام منهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ وما صح في حكمتنا إذ ذاك أن ننزل جندا، لإهلاكهم لأن أمورنا مقررة على الحِكَم ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي ما كانت الأخذة أو العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بها جبريل بأمر الجبار الجليل، ولو فرض أن الصيحة منه كانت موجبة لبركان ناري من أعماق الأرض في تلك البلدة بالطول والعرض ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ميتون.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32) وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ الحسرة الغم على ما فات، كأن المتحسر انحسرت قواه النفسية والبدنية من فواته، فيقول: يا حسرة على العباد وعقولهم ونور فطرتهم وشعورهم! كيف ذهبت وفاتت وما استفادوا منها فوصلوا إلى مرحلة من الجهالة والغباوة؟ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي ما يأتيهم أي رسول في أي حال من الأحوال إلا حال استهزائهم به وضحكهم عليه، وما يتفكرون فيما لديه من التعاليم القيمة التي في العمل بها سعادة الدارين. ألم يتفكروا في أخلاق الرسول الذي هو وسيلة الوصول؟ ألم يتفكروا في أنفسهم وهم أصحاب عقول ومسئوليات وأن وراء هذه الحياة حياة وجزاءٌ وثوابٌ وعقابٌ؟ ألم ينظروا إلى غضب الله وانتقامه منهم؟ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي كم أهلكنا قبلهم من الأمم في القرون الماضية من الذين تكبروا على الأنبياء والمرسلين ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل اشتمال لقوله كم أهلكنا قبلهم من القرون، يعني ألم يروا أهل القرون التي مضت قبلهم هالكين؟ ألم يروا أنهم لا يرجعون إلى أهل مكة كما زعم الخرافيون أن الأموات بعد مدة من مماتهم يرجعون الى الدنيا؟ ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ إن نافية، وكل مبتدأ، ولما بمعنى إلا، أي وما كل منهم إلا جميعهم لدينا مُحضرون للحساب والميزان ونيل جزائهم بالإتقان.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ أي الأرض اليابسة الجامدة التي لا تنبت شيئا آية عظيمة لهم دالة على قدرتنا على الإحياء والإماتة ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالأمطار، وخلقنا فيها قوة الإنبات

للنبــات والأشــجار ﴿وَأَخْرَجْنَـا مِنْهَـا حَبًّا﴾ أي جنس الحب من الأقــوات المختلفة ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ للاقتيات أو التنعم والتلـذذ ﴿وَجَعَلْنَـا فِيهَـا﴾ أي في الأرض ﴿جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيـلٍ وَأَعْنَـابٍ﴾ أي ومن تين وزيتــون ورُمــان وعناب وغيرها من الأشجار المثمـرة بلا حـد وحسـاب... ﴿وَفَجَّرْنَـا فِيهَـا مِنَ الْعُيُونِ﴾ تجري على مـر الليـل والنهـار، وفي كـل المواسـم، أو في بعضها حسب الأسباب المودعـة لتفجيرهـا ﴿لِيَـأْكُلُوا مِنْ ثَمَـرِهِ﴾ أي من المذكور كله بلا معالجة لذواتها أو بها لعصيرها وما يستحصل منها ﴿وَمَـا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي الحال أنه ما عملته أيديهم، لأن الجعل من الله لا من العباد، أو ليـأكلوا ممـا عملتـه أيـديهم ممـا لهم فيـه صـنعة وعلاج ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي أبَعد إفاضـة هـذه النعم الجسـيمة من الأقـوات والفواكـه والنباتــات للاســتهلاك والتصــدير والعيش عليهــا بــالكثير واليســير لا يشكرون الخالق القدير؟

وليس الخلق محصـورا في ذلـك بـل يوجـد مـا لا يـدخل تحت الإحصـاء هنالك في ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَـقَ الْأَزْوَاجَ﴾ أي الأصـناف أو الـذكر والأنـثى ﴿كُلَّهَـا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِـهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُـونَ﴾ وذلــك لعــدم إطلاعهم عليـه لحـد الآن، أو لأنـه يخلقهـا تعـالى في مسـتقبل الأزمـان والحمد لله رب العالمين.

﴿وَآَيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْـلَخُ مِنْـهُ النَّهَـارَ فَـإِذَا هُمْ مُظْلِمُـونَ (37) وَالشَّـمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَـازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُـدْرِكَ الْقَمَـرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْـبَحُونَ (40) وَآَيَـةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَـا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْـحُونِ (41) وَخَلَقْنَـا لَهُمْ مِنْ مِثْلِـهِ مَـا يَرْكَبُـونَ (42) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَـةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (44)﴾

قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ جرت سنة الله في كتابه المنزل على توجيه العباد إلى الله وتذكيرهم بنعمه السماوية والأرضية التي فيها العبر عبر الأزمان على مستويات مختلفة ظاهرها ومباديها للعامة، واسرارها وحقائقها ودقائقها الخاصة، وكلما زادت الطبقة علما وعقلا زادت الأسرار فيها دلالة وبيانا. وقد ذكر الله تعالى في آياته السابقة نعمة الأرضية التي تظهر من الأقوات وغيرها. وهنا يذكرهم بالنعم الزمانية من الليل والنهار وأسباب تكونهما. فقال وآية لهم الليل أي والليل آية عظيمة للمعتبرين في تكونه وتحققه فهو زمان مظلم كجسد حيوان جسيم نسلخ منه النهار الذي يشبه جلد الغنم فإذا هم مظلمون واقعون في ظلام دامس.

وقوله ﴿وَالشَّمْسُ﴾ معطوف على الليل أي وآية لهم الشمس وقوله: ﴿تَجْرِي﴾ استئناف لبيان أحوالها الدالة على قدرة خالقها، وهي أنها ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي إلى وقت استقرار وسكون لها ﴿ذَلِكَ﴾ الجريان الى المستقر، ثم الاستقرار ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي تقدير الرب القادر على إجرائها وحركتها العليم بكمية تلك الحركات وكيفيتها ودوامها وانقطاعها. وفي الحقيقة إن الإنسان إذا فتح عينه على الأفق ورأى الشمس تطلع من الأفق فتنور نصف الكرة تهتز مشاعره لو كان له نور الشعور، ولكن العادة والاستمرارية تؤثر فيه فتجعل العجيب غير عجيب والعظيم غير عظيم. وقوله تعالى تجري ظاهر في جريانها وحركتها. وأهل الرياضيات القديمة كانوا يقولون بدورانها حول الأرض. وفي العهد الأخير تغيرت الآراء والأفكار بسبب اختراع المجاهر واستحصال الأصول الهندسية، وقرروا

أن الكواكب في الكون، ومنها الارض وكوكبها التابع لها أعني القمر هي التي تتحرك حول الشمس، فالسيارات منهـا، والمكشـوفات منهـا لحـد الآن ثلاثة عشر تدور حول الشمس، والارض منها تدور حول نفسها في كل يوم وليلة مرة، وحول الشمس في كل سنة شمسـية أعـني ثلثمـأة وستة وستين يومـا مـرة. والآن نسـمع بوجـود اكتشـافات تـدل على أن الشمس أيضـا تجـري حـول نفسـها وذلـك تحقيـق معـنى قولـه الكـريم ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ويحتمل أن تكون حركتهـا في الكائنـات على مدار خاص تقطعها في زمان عينه الله تعالى لها.

وقوله تعالى ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أي وقدرنا سير القمـر في منـازل متعددة من مدار حركته. وبما أنه يستفيد النور من الشمس ويستضـيئ أكـثر من نصـفها في مقابلتهـا دائمـا، ولكن يختلـف مقابلتـه لمن على الأرض بحيث يرى في أول الشهر مقدار هلال منه، ثم في الدور الثـاني يزيد اتساع المقابـل منـه إليـه، فـيرى منـه أزيـد من الأمس إلى الليلـة الرابعة عشرة من الشهر، فيقابل نصفه الكامـل لنـا ويتكامـل نـوره ثم في اليوم الخامس عشر يبدأ بالتناقص على عكس ما سبق في النصف الأول من الشـهر الى أن ينتهي الى المحـاق، وهـو أن يكـون وجهـه المظلم إلينا تمامـا ثم ينكشـف في الـدور الآتي بمقـدار هلال منـه كمـا قال تعالى ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ والعرجون عـود عـزق النخلـة من بين الشـمراخ الى منبتـه منهـا، ووزنـه فعلـول من الانعـراج وهـو الإعوجاج. وهـذا الوضـع هـو الـذي نـراه بطـول الزمـان، وجعلـه كـذلك لمعرفة أوقات المعاملات والمزارعات وسائر الأمـور المؤقتـة بالأزمنـة كما قال تعالى ويسألونك عن الأهلة، قـل: هي مـواقيت للنـاس والحج. وهذا المقدار هو الذي ينفعنا معرفته بصورة عامة، وأما أسماء المنـازل والفرق بين الشمالية والجنوبية منها ومدة بقائه في كل منها فراجع

الى علماء علم الهيئة. ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ مما لا يخفى أن الشمس والقمر كوكبان مخلوقان لله عليهما مدار تحديد الأزمنة بالساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنين والقرون، فالشمس آية النهار أي أنها آية من آيات الله إذا طلعت من الأفق فذلك الوقت يسمى بالنهار إلى غروبها.

والقمر آية الليل أي أنه هو الذي يظهر سلطانه بعد الغروب على الأرض ويستفيد أهلها منه وهاتان الآيتان موجودتان في الفلك على مر الزمن، ولا يفارق وجود أحدهما وجود الآخر. فمعنى قوله تعالى ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ الآية.. انه في وقت ظهور نور القمر وسلطانه على الأرض ليست الشمس ظاهرة، وإلا فلو كانت ظاهرة لانمحى نور القمر تحت شعاع الشمس، ومعنى ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ ولا آية الليل أعني القمر سابق وغالب على آية النهار وأعني الشمس لأنه اذا طلعت الشمس وظهر نورها فالقمر، وإن كان موجودا في مقابل الارض وأهلها لا يظهر نوره ولا يستفاد منه. ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي وكل من الشمس والقمر في مدار خاص به يسيرون سير السابح في الماء. يعني أن الله تعالى سخر الممر لهما بحيث يمران فيه مر السابح في الماء، وإنما جاء بصيغة جمع المذكر العاقل لأن السباحة عمل العقلاء على الأغلب. وفي قوله تعالى ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ صنعة بديعة تسمى القلب، وهو أن تساوي قراءة اللفظ من أوله إلى آخره قراءته من آخره إلى أوله. وفي هذه الصنعة إشارة إلى أن حركتهما بالاستدارة لا على الإستقامة.

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يعني كما أن الليل والنهار والشمس والقمر كل منها آية من آيات الله تعالى تدل على عظيم قدرته، كذلك آية عظيمة لهم أنا علمناهم صنع السفن فصنعوها، فحملنا

ذريتهم في الفلك المشحون أي المملوء بالإنسان وغيره، وذلك عند طوفان الماء في عهد سيدنا نوح عليه السلام. أو في الأسفار الواقعة في البحار فإنه لولا إلهامي للأنام لم يكونوا متمكنين من صنعها وتسييرها على البحار. والفلك السفينة، ويستوي فيه المفرد والجمع، والمشحون المملوء.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي وخلقنا لهم مثل الفلك ما يركبونه في الصحارى القفار الفاقدة المنار أعني الإبل، ولكن المماثلة بعيدة بينهما جدا فيجوز أن يفسر بأنواع أخر من الغواصات البحرية أو الطيارات الهوائية أو الطيارات البرمائية التي تركب وتستعمل في البر والبحر، والله قادر على ذلك وأمثالها.

كتب صاحب نور الأنوار في تأريخ ألف وستين هجرية أنه كان في مجلس شيخه شهاب الدين الحسني الشاذلي الكاكو زكريائي، فقرأ أحد القراء آيات من سورة يس حتى وصل إلى هذه الآية والشيخ رفع رأسه وقال: سبحان الله رأيت الآن كثيرا من المركوبات البرية والبحرية التي لم نرها سابقا.

﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أي الناس الراكبين في الفلك ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي فلا صوت لهم يصل إلى أحد ينجيهم أو لا مغيث لهم بناء على أن الصريخ جاء بمعنى المغيث ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ بأنفسهم بأي سبب من الأسباب ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ كسفينة أخرى تصلهم أو سباحين ينجونهم ﴿وَمَتَاعًا﴾ أي تمنيعا لهم ببقاء الحياة إلى حين الأجل المسمى لهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ يعنى وإذا قيل لهم اتقوا عذاب الأمم التي قبلكم وعذاب الآخرة التي يأتيكم في المستقبل ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والجواب محذوف أي أعرضوا بقرينة قوله تعالى ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي وما نزل الوحي بآية من الآيات الناطقة بوجوب التوحيد ورفض الإشراك في حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين أي إلا في حال إعراضهم عنها وعدم قبولهم لها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ على ذوي قرابتكم المحتاجين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي خطابا لهم ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ قيل: لما أسلم حواشي الكفار من أقربائهم ومواليهم من المستضعفين، قطعوا عنهم ما كانوا يواسونهم به، وكان ذلك بمكة قبل نزول آيات القتال، فدعاهم المؤمنون إلى صلة حواشيهم، فقالوا: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه؟ ! وكانوا يتكلمون بذلك الكلام استهزاء، لأنهم كانوا يسمعون من المؤمنين تعليق الأفعال

بمشيئة الله تعالى. وقوله تعالى ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يجـوز أن يكون من كلام المشركين للمؤمنين الـذين ينـدبونهم إلى الإنفـاق. كمـا يجوز أن يكون من كلامـه تعـالى خطابـا للمشـركين المسـتهزئين، وفي الحقيقـة إن جـوابهم بـذلك يـدل على غايـة ضـلالهم وجهلهم حيث لم يعلموا أنه تعالى يطعم بأسباب منها حث الأغنيـاء على إطعـام الفقـراء ﴿وَيَقُولُـونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْـدُ﴾ أي وعـد البعث والنشـور ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تعدون به ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي أولئـك الكفـار المسـتعجلون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي النفخة الأولى في الصور التي يموت بهـا أهـل الأرض ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿هُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يختصمون في مـا بينهم على المعاملات والمتاجرات وغيرها.

أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قـال قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لتقومن الساعة وقد نشـر الـرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة والرجـل يليـط حوضه فلا يسقى منه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته الى فمه فلا يطعمها))

﴿فَلَا يَسْـتَطِيعُونَ تَوْصِـيَةً﴾ في شـيء من أمـورهم بين الأهـل ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ في الخارج ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ مرة ثانيـة، وبينهـا وبين الأولى مـدة أربعين سـنة ﴿فَـإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْـدَاثِ﴾أي من القبـور ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ أي يسرعون بسوق ملائكـة الحشـر وإجبـارهم ﴿قَـالُوا﴾ أي المبعوثون في ابتـداء بعثهم من القبـور ﴿يَـا وَيْلَنَـا﴾ أي احضـر فهـذا أوانـك ﴿مَنْ بَعَثَنَـا مِنْ مَرْقَـدِنَا﴾ أي من الـذي بعثنـا ونبهنـا وأقامنـا من مرقدنا أي من محل رقودنا يريدون بها القبور، ولمـا انتبهـوا وعلمـوا أن هذا هو البعث الموعود قالوا ﴿هَذَا مَـا وَعَـدَ الـرَّحْمَنُ﴾ أي وعـد بـه اللـه ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ في وقوعه وتحققه ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَـيْحَةً وَاحِـدَةً﴾ أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة

من الأمــور المختص إســرافيل عليــه الســلام ﴿فَــإِذَا هُمْ جَمِيــعٌ لَـدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فإذا هم مجموع لدينا محضرون أي عندنا وفي محل حكمنــا محضرون للحسـاب ﴿فَـالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ أي من النفـوس المكلفـة شيئا من الظلم فـإن اللـه لا يظلم مثقـال ذرة ﴿وَلَا تُجْـزَوْنَ إِلَّا مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وما تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملونه.

﴿إِنَّ أَصْـحَابَ الْجَنَّةِ الْيَـوْمَ فِي شُـغُلٍ فَـاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَـدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُـونَ (59) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُـدُوا الشَّـيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُـدُونِي هَـذَا صِـرَاطٌ مُسْـتَقِيمٌ (61) وَلَقَـدْ أَضَـلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِـيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَـذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ (63) اصْـلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْـوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَـا أَيْـدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) ﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين لزيادة تحسر الكافرين واغاظتهم فيقول انهم اليومَ متلذذون وفي أنواع النعمة متنعمون ولذلك نكر الشغل وأبهمه ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظل لإفادة أن مالهم من الظل أصناف، فمنه ظل رحمة الله تعالى بسبب تحاببهم مع إخوتهم وأصدقائهم، ومنه ظل حصل لهم من إيواء الناس الفقراء في ظلال خيامهم في البدو، أو بيوتهم في الحضر. وعلى كل فالمراد بهذا الظل <446>

أنهم تحت ستار الرحمة والكرم والإحسان من الله المنان، وإلا فالآخرة ليس فيها شمس، والجنة ليس فيها حرارة حتى يحتاج الناس فيها إلى الظل ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة بمعنى السرير ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ معتمدون اعتزازا واستراحة ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿فَاكِهَةٌ﴾ جليلة الشأن عديمة النظير في الدنيا والتنكير للتنويع ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ أي يطلبون من المشتهيات مادية أو معنوية ﴿سَلَامٌ﴾ بدل من ما في ما يدعون ﴿قَوْلًا﴾ مفعول مطلق أي قيل قولا ﴿مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ صفة أي ذلك السلام مقول لهم من جانب رب عظيم الشأن جسيم العطاء. ويحتمل أن يكون السلام منه تعالى مباشرة، تشريفا لهم أو من بعض الملائكة بأمر من الله تعالى وبينما يقال لهم السلام لمزيد الإكرام يقال للكافرين من الرب المنتقم ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي انفردوا عن المؤمنين ليتميز الخبيث من الطيب ويقال زيادة على ذلك لزيادة التقريع ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ ولا تطيعوه في عبادة الأصنام ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فلم خالفتم أمري وأطعتم الشيطان اللئيم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام أصله جبلل كزبرج الجماعة العظيمة أو الأمة ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أبعد أن علمتم بآثار عقوباتهم الناشئة عن إضلاله لهم ما كنتم تعقلون أن إطاعته شرّ لكم في الدارين. ﴿هَذِهِ﴾ أي ما أمام أعينكم ﴿جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بدخولها على ألسنة الرسل المنذرين ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ أدخلوها اليوم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالأمس ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ ونمنعهم عن التكلم لئلا يأتي بالباطل على وجه الجدال ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلا يبقى مقام شبهة لأي عاقل منصف في جرائمهم والاكتفاء بشهادة الأيدي والأرجل في مقام لا ينافي وجود شهادة <447>

السمع والأبصار والجلود بما كانوا يعملون في مقام آخر، ويجوز أن تكون هناك شهادات أخرى من أعضاء أخر ومن غيرها لزيادة الخزي وتوفيره عليهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70)﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا﴾ تهديد للمشركين بأنهم اليوم في قبضة قدرتنا ونقدر أن نسلبهم حواسهم ومشاعرهم والطمس: إزالة الأثر بالإمحاء أي لو نشاء الطمس على أعينهم وإزالة صنوفها لفعلنا فعموا ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي فأرادوا الإستبقاء الى الطريق ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ وهم عُمْى ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي لحولنا صورهم الى صور أخرى قبيحة مغايرة بالنوع بأن نجعل الإنسان حيوانا آخر، أو بالصنف بأن نجعل اللون الأبيض أسمر أو أسود. وقوله ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي على مقامهم الذي فيه، أو على مكانتهم وشرفهم الذي هم عليه بأن نغير صورة الإنسان الشريف إلى صورة حيوان رديء ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ بواسطة المانع العارض ﴿مُضِيًّا﴾ أي ذهابا إلى مقاصدهم ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى أماكنهم لو جرى ذلك عليهم وهم خارجون على الموطن والمقام، وما دامت هذه الأحوال داخلة في قبضة قدرتنا فكيف يستمرون على المعاندة معنا ومع رسولنا، أفلا يتنبهون؟

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ ومن نطل عمره ننقص ونغير في أعضائه وأعصابه ودمه ولحمه بحيث تنقلب ألف القامة نونا، والرجل العاقل العارف مخبلا مجنونا، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن من قدر على التصرف في هيكل الإنسان بالزيادة والنقصان قدر على طمس الأعين والمسح على المكانة، فما بالهم لا يرجعون إلى الطاعة ولا يؤمنون؟ وكيف ترمون الرسول الجليل بالشاعر وكتابه الجميل بالشعر ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ لا سليقة ولا اكتسابا ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ الشعر وصياغته وقراءته وصنعته ﴿لَهُ﴾ لأنه غالباً يدور حول الشهوات النفسية والخطابات القصصية والهجاء والمدائح المبالغ فيها حسب النزعات الوطنية والجنسية، وهو رسول أرسل لتخلية النفوس عن الرذائل، وتحليتها بالفضائل، وإبعادها عن جهات النقص وتقريبها إلى جناب القدس.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي ما القرآن إلا ذكر يذكر به المكلفون وينتفع به المؤمنون، وقرآن منزل من الله جامع لأحكامه الأصلية والفرعية واضح مبين ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ في الشعور ومحبا للنور وقابلا للدستور ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76)﴾

قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي أو لم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي لأجل انتفاعهم ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي مما خلقناه بقدرتنا الشاملة ﴿أَنْعَامًا﴾ والمراد بالأنعام الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي متملكون لها ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي وجعلناها مذللة مسخرة لهم لانتفاعهم بها بالركوب في الأسفار للتجارات وغيرها، والاستفادة من أحمالها وأشعارها وألبانها وأوبارها وأدهانها ولحومها كما قال تعالى ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله الذي أولاهم هذه النعم العظام، وإذ لا يشكرون نعماءه فَلِماذا يُشرِكُونَ به؟ ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً﴾ أي لا لجلب خير نافع، ولا دفع شر وارد، بل ليستمروا على قضاء شهواتهم بطرقها المتنوعة، وإذا قضوا أعمارهم وجدوا عالما آخر وأحاط بهم جزاء سيء لأعمالهم السيئة ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أو أنهم إذا أصابتهم مصائب دنيوية ينصرون من جانبهم، ولا يعلمون أنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ﴾ أي هؤلاء المشركون ﴿لَهُمْ﴾ أي لحراسة تلك الهياكل الجامدة ﴿جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ من قبل الشيطان وأعوانه من الجن والإنس، ومنها قوى الرذائل الفاسدة المفسدة ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ إنه مجنون، أو كاهن، أو ساحر، أو شاعر، فإن الناقد البصير يعلم أن إنساناً مثلك بعيد من تلك الرذائل وسعيد بالاتصاف بالفضايل. ومن جهة أخرى ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من العقائد الفاسدة، ومن معاندتهم لك ولكتابك وأصحابك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بين الأنام من الأقوال والأفعال المخالفة، ولا شك أنهم لا يفوتوننا ويرون الجزاء الموافق في عالم الجزاء.

﴿أَوَلَمْ يَـرَ الْإِنْسَـانُ أَنَّا خَلَقْنَـاهُ مِنْ نُطْفَـةٍ فَـإِذَا هُـوَ خَصِـيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَـلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْـهُ تُوقِـدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)﴾

قولـه تعـالى ﴿أَوَلَمْ يَـرَ الْإِنْسَـانُ﴾ إسـتئناف لبيـان حـال من أحـوالهم الفاسـدة، وهي أفسـد ممـا بينـه آنفـا بين هنـاك أن الإنسـان الكـافر المشرك يشرك بربه مع إفاضة النعم عليـه، وبين هنـا أنـه نسـي خلقـه وأنكر بعثه يوم القيامة فيقول ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَـاهُ مِنْ نُطْفَـةٍ﴾ فجعلنا فيها صورة إنسان وأعضـاءه الكاملـة، وروحـا مدركـة للحقـائق، وصفات بها قابلية التطور والوصول الى أعلى مدارج الرقي والكرامـة. ومع هذه الآثار العجيبـة الناشـئة من قـدرتنا نسـي كـل ذلـك ﴿فَـإِذَا هُـوَ خَصِـيمٌ﴾ أي مبـالغ في الخصـومة والجـدال الباطـل ﴿مُبِينٌ﴾ ظـاهر ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ وأورد في شأننا قصة عجيبة تشبه المثـل في الغرابـة هي إنكار إحيائنا له بعد موته ﴿وَنَسِيَ خَلْقَـهُ﴾ الأولي من جانبنـا و﴿قَـالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ممزق مفتت، لم يقل رميمة لحمله على فعيل بمعنى مفعول، ويستوي فيـه المـذكر والمـؤنث ﴿قُـلْ﴾ يـا حبيـبي تبيكتا له بتذكير ما نسيه ﴿يُحْيِيهَا﴾ أي تلك العظام الرميم الخالق القادر ﴿الَّذِي أَنْشَـأَهَا أَوَّلَ مَـرَّةٍ﴾ أي بـادئ بـدء عنـدما لم يسـبقه شـيء من الوجود ﴿وَهُوَ بِكُـلِّ خَلْـقٍ﴾ أي مخلـوق ﴿عَلِيمٌ﴾ واسـع العلم يعلم جميـع أجزائه المفتتة لكل شخص من الأشخاص ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّـجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾

وهو صفة للشجر وقرئ الخضراء. وأهل الحجاز يؤنثون الجنس المميز واحده بالتاء مثل الشجر إذ يقال في واحده شجرة. وأهل نجد يذكرونه. والمشهور أن المراد بهذا الشجر المَرْخُ والعَفارُ يتخذ من المرخ وهو الذكر الزند الأعلى، ومن العفار بفتح العين وهو أنثى الزندة السفلى ويسحق الأول على الثاني وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار بإذن الله ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي فاذا أنتم من ذلك الشجر الأخضر توقدون النار في الواقع.

ثم انتقل الباري سبحانه وتعالى إلى الاستدلال بخلق شيء لا يكون للإنسان قيمة بالنسبة إليه أعني السماوات والأرض وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى﴾ هو قادر، وبلى جواب للنفي فتفيد الإثبات أي هو قادر على ذلك ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ المبالغ في الخلق لكل ما يريد أن يخلقه ﴿الْعَلِيمُ﴾ الوافر العلم بكل شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ أي شأنه تعالى ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أي أراد إيجاده ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ﴾ أي لذاته في حضرة العلم ﴿كُنْ﴾ أيها الموجود بالوجود العلمي عينا خارجيا عينيا ﴿فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون موجودا عينيا تترتب عليه الآثار ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي الملك التام والتصرف الكامل في كل شيء بالإيجاد والإعدام، والإيجاب والسلب ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي الفاهمون لخطاب الحق جل جلاله. وفي ذلك وعيد للمجرمين المبعدين ووعد للمؤمنين المقربين. قربنا الله تعالى منه بفضله وكرمه إنه ارحم الراحمين.

سورة الصافات، مكية وهي مائة واثنتان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّـافَّاتِ صَـفًّا (1) فَـالزَّاجِرَاتِ زَجْـرًا (2) فَالتَّالِيَـاتِ ذِكْـرًا (3) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَـارِدٍ (7) لَا يَسَّـمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْـذَفُونَ مِنْ كُـلِّ جَـانِبٍ (8) دُحُـورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِـفَ الْخَطْفَـةَ فَأَتْبَعَـهُ شِـهَابٌ ثَـاقِبٌ (10)﴾

قوله تعالى ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ أقسامٌ من الله سبحانه وتعالى بالملائكـة عليهم السلام أي أقسم بالملائكة ﴿الصَّافَّاتِ﴾في مقامهـا المعين صـفا ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ أي الملائكة الزاجرات الفـاعلات للزجـر فيمـا نيـط بهـا زجـره من الأجـرام العلويـة او السـفلية، ففي السـماء للشـياطين المسـترقات، وفي الأرض لمن أراد إلقـاء الفتن بين عبـاد اللـه تعـالى بإلقاء الملائكة المخاوف الى قلـوبهم. وقيـل: المـراد بـالزاجرات آيـات القرآن لزجرها النفوس عن المنهيات الشرعية

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ أي أقسم بالملائكة التاليات للذكر أي آيات الوحي على قلوب الرسل عليهم السلام. أو الملائكة التاليات لذكر الله تعالى من التسبيح والتحميد والتقديس وغيرها لقوله تعالى في آخر هذه السورة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ وجواب القسم قوله تعالى ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ولا شريك له ذاتا ولا صفة ولا فعلا وذلك ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ وهي المطالع المتعددة للشمس في أيام السنة فإنها في كل يوم تشرق من مشرق وتغرب من مغرب، فالإله القادر على خلق السماوات والأرض وما بينهما والمحرك للشمس كل يوم من درجة لا يقبل وجود الشريك لأن ذلك الخالق واجب الوجود، ووجوب الوجود منبع كل كمال ولا يحتاج إلى غيره أبدا. وليست قدرتنا منحصرة في إبداع ما مر بل لها تعلقات أخرى.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي أقرب السماوات من أهل الأرض ﴿بِزِينَةٍ﴾ تقرأ غير منونة بالإضافة إلى ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ إضافة بيانية وبالتنوين على أن تكون الكواكب بدلا منها. وقوله ﴿وَحِفْظًا﴾ نصب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف معطوف على زينا أي وحفظناها حفظا ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ أي متعرٍّ عن الخير وقوله ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديد السين والميم جملة مستأنفة بيان لأحوال تلك الشياطين المرَدَة أي لا يستمعون ﴿إِلَى﴾ كلام ﴿الْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾ بعد حفظ السماء عنهم، والملأ الأعلى أشراف الملائكة المختصون بجهة العلو في مقابل ملائكة الأرض المختصين بها للوفاء بمأموريتهم هناك ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي يُرْمَون ويرجمون أي أولئك الشياطين ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها وقوله ﴿دُحُورًا﴾ مفعول له يقذفون لدحرهم وطردهم وإبعادهم منها ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي ولتلك الشياطين في الآخرة عذاب دائم ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

اسـتثناء متصـل من فاعـل يسـمعون، أي إلا من اختلس كلام الملائكـة مسارقة فتبعه شهاب أي مـادّة ناريـة مضـيئة فتحرقـه وهـو في الأصـل الشعلة الساطعة من النّار.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَـدُّ خَلْقًـا أَمْ مَنْ خَلَقْنَـا إِنَّا خَلَقْنَـاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (
11) بَـلْ عَجِبْتَ وَيَسْـخَرُونَ (12) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَـذْكُرُونَ (13) وَإِذَا رَأَوْا
آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِـحْرٌ مُبِينٌ (15) أَئِذَا مِتْنَـا وَكُنَّا
تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُـونَ (16) أَوَآبَاؤُنَـا الْأَوَّلُـونَ (17) قُـلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ
دَاخِرُونَ (18) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُـرُونَ (19) وَقَـالُوا يَـا
وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْـلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِـهِ تُكَـذِّبُونَ (21)
احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَـا كَـانُوا يَعْبُـدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ
فَاهْـدُوهُمْ إِلَى صِـرَاطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُـوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْـئُولُونَ (24) مَـا
لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَـوْمَ مُسْتَسْـلِمُونَ (26) وَأَقْبَـلَ بَعْضُـهُمْ
عَلَى بَعْضٍ يَتَسَــاءَلُونَ (27) قَــالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَــا عَنِ الْيَمِينِ (28)
قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَمَـا كَـانَ لَنَـا عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ بَـلْ
كُنْتُمْ قَوْمًـا طَـاغِينَ (30) فَحَــقَّ عَلَيْنَـا قَــوْلُ رَبِّنَـا إِنَّا لَـذَائِقُونَ (31)
فَأَغْوَيْنَـاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـاوِينَ (32) فَـإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَـذَابِ مُشْـتَرِكُونَ (
33)﴾

قوله تعالى ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ الاستفتاء في الأصل الاستخبار عن أمر حدث. والآية نزلت في أبي الأشَدّ بن كلدة الجمحي وكني بتلك الكنية لشدة بطشه وقوته، واسمه أسيِّد. والفاء فصيحة. أي إذا كان لنا من المخلوقات ما سمعت فاستفتهم أي مشركي مكة واستخبرهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي أقوى جسما وبنية ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ من السماوات والأرض وغيرها ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ أي أولئك الناس المشركين ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ أي ملتصق بعضه ببعض التصاقا قويا.

قال الطبري: خلق آدم عليه السلام من تراب وماء وهواء ونار. وهذا كله إذا خُلِّط صار طينا لازبا يلزم ما جاوره. واللازب قريب من اللازم.

﴿بَلْ﴾ إضراب عن عدم إقرارهم بالله. أي أضرب عن ذلك فإنه ليس بمهم وانظر إلى أنك ﴿عَجِبْتَ﴾ من إنكارهم للبعث ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ بتعجبك من ذلك يعنى أنهم لا يعترفون بمنزلة ومقام للرسول ولتبليغاته ودائما في حال العناد والاستكبار والسخرية بأقوال الرسول وأفعاله ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ بالله وأرشدوا إلى معرفة الله تعالى وتوحيده ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي لا يتعظون ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أي معجزة تدل على صدقك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي يبالغون في السخرية ويحقرونها ويشوهونها أمام الناس حتى لا يجعلوها ذريعة للإيمان ﴿وَقَالُوا﴾ في ردها ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي سحريته واضحة جلية ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي صرنا أجزاء مختلطة من تراب وعظامٍ مُفَتتَةٍ ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي مبعوثون ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون أذلاء تحت قدرة الصانع المقتدر الحكيم ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي وليس ذلك الأمر من البعث شيئا بعيدا عن قدرتنا فإنما تلك البعثة والنشور من القبور إثر

زجـرة واحـدة أي نفخـة واحـدة هي النفخـة الثانيـة ﴿فَـإِذَا هُمْ﴾ قيـام ﴿يَنْظُرُونَ﴾ أي ينظر بعضـهم إلى بعض أو ينتظـرون مـا يفعـل بهم بعـد البعث.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يوم جزاء الأعمال ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْـلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وهذا تتمة كلام المبعوثين بعضهم لبعض أي هـذا يوم فصل القضاء الذي كنتم لا تعترفون بـه، فيخـاطب البـاري سـبحانه وتعالى ملائكته المأمورين هناك ويقول الباري للملائكة ﴿احْشُـرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشـركوا باللـه ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي وأمثـالهم من المشـركين أو أزواجهم اللاتي عاشروهن ووافقنهم في الإشراك ﴿وَمَا كَـانُوا يَعْبُـدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي أحبسـوهم في الموقـف ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ وفي الحـديث الشـريف: ((لا تـزول قـدما عبـد حـتى يسأل عن أربع عن شبابه فيم أبْلاه، وعن عمـره فيم أفنـاه، وعن مالـه مم كسـبه وفيمـا أنفقـه، وعن علمـه مـاذا عمـل بـه)) ﴿مَـا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي ويقال لهم من جهة الملائكة المـأمورين: مـالكم لا ينصـر بعضكم بعضا ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي أعرض عن سؤالهم لم لا ينصر بعضكم بعضا فإنهم في ذلك اليوم أذلاء منقادون لحكم الله تعالى وعاجزون غاية العجز فلا مجال لذلك السؤال.

﴿وَأَقْبَـلَ بَعْضُـهُمْ﴾ وهم المشـركون الضـعفاء ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ وهم المشـركون الكـبراء ﴿يَتَسَـاءَلُونَ﴾ يسـأل بعضـهم الأولـون عن بعضـهم الآخـرين قـالوا لهم ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَـا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي عن جهـة القـوة والرئاسة وتتكلمون معنا لصدنا عن الإيمان باللـه ورسـوله ﴿قَـالُوا﴾ أي الكبراء جوابا لهم ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ في حد ذاتكم ﴿وَمَا كَـانَ لَنَـا عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ﴾ وقـوة وتسـلط عليكم حـتى نسـلبكم الاختيـار ونجبركم على الكفر ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ اضرب عن عـدم تسـلطنا عليهم فإنكم في ذاتكم كنتم قوما طاغين مجاوزين الحـد في العصـيان: وكنتم اخترتم الكفر بطغيانكم

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ أي فثبت علينا قول ربنا في حقنا بدخولنا جهنم، أو قوله الذي خاطب به إبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك فلابـد لنـا من العـذاب ﴿إِنَّا لَـذَائِقُونَ﴾ العـذاب ﴿فَأَغْوَيْنَـاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـاوِينَ﴾ أي والحقيقة إنا تكلمنا معكم ودعوناكم إلى الغواية لأنا كنا غاوين، والغـاوي يحب غواية الناس كلهم حـتى تـزداد زمرتـه ﴿فَـإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَـذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لاشتراكهم في أس الفساد وهو العناد مـع صـاحب الرشـاد صلى الله عليه وسلم.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيـلَ لَهُمْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِـالْحَقِّ وَصَـدَّقَ الْمُرْسَـلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَـذَائِقُو الْعَـذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَـا تُجْـزَوْنَ إِلَّا مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (39) إِلَّا عِبَـادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِـينَ (40) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُـومٌ (41) فَوَاكِـهُ وَهُمْ مُكْرَمُـونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى سُـرُرٍ مُتَقَـابِلِينَ (44) يُطَـافُ عَلَيْهِمْ بِكَـأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَـاءَ لَـذَّةٍ لِلشَّـارِبِينَ (46) لَا فِيهَـا غَـوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَـا يُنْزَفُـونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قَاصِـرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَـأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُـونٌ (49) فَأَقْبَـلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي إنا مثل ذلك الفعل الذي تقتضيه الحكمة ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي بالمشركين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إنهم كانوا يستكبرون ويستنكفون عن توحيد الباري سبحانه وتعالى ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أي إنه <458>

لسرد عبارة كتابه المكنون بكل لطافة بحيث تجلب قلوب
الناس إليه لا شك شاعر ولاختلال كلامه لخرقه نظام عبادة
الأصنام لمجنون، ﴿بَلْ﴾ اضربوا عن تلك التهم الباطلة فإنه
﴿جَاءَ﴾ بأمر الله ورسالته متلبسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ من النبوة والرسالة
﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ السابقين عليه من أبيه آدم إلى أن يصل
عيسى عليهم السلام. ثم التفت الحق سبحانه إلى المشركين
المعاندين وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ لاستكباركم
ومعاندتكم الرسول الرءوف الرحيم ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ ولا يُزاد على ما تستحقونه مثقالَ ذرة. وقوله ﴿إِلَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء من فاعل ذائقوا، وما بينهما
اعتراض، والاستثناء منقطع، لأن العباد المخلصين ليسوا داخلين
في المشركين الذائقين للعذاب الأليم أي فإنهم لا يذوقون
العذاب لوجود الإيمان والإخلاص فيهم ﴿أُولَئِكَ﴾ العباد
المخلصون ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ من الله تعالى ﴿فَوَاكِهُ﴾ بدل
من رزق، والمراد بها ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات،
وكذلك جميع ما يأكله أهل الجنة وكذا جميع ما يشربونه ليس
إلا للتلذذ، فإنه لا جوع ولا عطش فيها ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ عند
الله تعالى لا يلحقهم هوان ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي في جنات لا
تضاف إلّا إلى النعيم ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ أي وهم على سرر وقوله
﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حال من المستكن عن المرفوع المستتر في
مكرمون أي ويقابل بعضهم بعضا للتلذذ بالمواجهة الكاملة
﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ﴾ أي بخمر ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ أي من منبع
ظاهر للعيون ﴿بَيْضَاءَ﴾ كالفضة أشد بياضا من اللبن ﴿لَذَّةٍ
لِلشَّارِبِينَ﴾ وكفى بحمل المصدر على المسند إليه مبالغةً ﴿لَا
فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي غائلة من أي نوع من الأضرار الواردة من شربها
على الإنسان ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي ولا هم يسكرون
وتذهب عقولهم من أجل شربها. وأصل النزف نزع الشيء
وإذهابه وإفناؤه ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ أي وعندهم
أزواج من حور قصرن البصر على النظر إلى <459>

أزواجهن محبة لهم وجذبا لقلوبهم إلى أنفسهن وهن بيض، وعين جمع عيناء وهي الواسعة العين، وجمعت على فُعْلٍ بوزن قُفلٍ فكُسِرَت العينُ لمناسبة العَين ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ البيض معروف وواحده بيضة، والمكنون المستور بالريش لم يصبه غُبار ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يشربون فيتحادثون على الشرب كما هو عادةُ الناس المجتمعين المتمتعين، وذلك التحادث والتواجه ألذ من الشرب.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُـولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَـدِّقِينَ (
52) أَئِذَا مِتْنَـا وَكُنَّا تُرَابًـا وَعِظَامًـا أَئِنَّا لَمَـدِينُونَ (53) قَـالَ هَـلْ أَنْتُمْ
مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَـالَ تَاللَّهِ إِنْ كِـدْتَ
لَتُـرْدِينِ (56) وَلَـوْلَا نِعْمَـةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَـرِينَ (57) أَفَمَـا نَحْنُ
بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَـوْزُ
الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61) أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ
الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَـا فِتْنَـةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَـا شَـجَرَةٌ تَخْـرُجُ فِي
أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَـا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّـيَاطِينِ (65) فَـإِنَّهُمْ لَآَكِلُـونَ
مِنْهَا فَمَـالِئُونَ مِنْهَـا الْبُطُـونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَـا لَشَـوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (
67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آَبَـاءَهُمْ ضَـالِّينَ (69)
فَهُمْ عَلَى آَثَـارِهِمْ يُهْرَعُـونَ (70) وَلَقَـدْ ضَـلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَـرُ الْأَوَّلِينَ (71)
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْـذَرِينَ (73)
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74)﴾

قولـه تعـالى ﴿قَـالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ أي قـال قائـل من أصـحاب الجنــة المتقابلين أثناء المحاورات ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي في الدنيا ﴿يَقُـولُ﴾ على طريـــق الاســـتنكار بمـــا كنت عليـــه من الإيمـــان: ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث والنشور ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَـدِينُونَ﴾ أي لمجزيون أي أئنا لمبعوثون للجزاء ﴿قَالَ﴾ أي ذلـك القائـل لزملائـه: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ أي على أهل النـار للتفـتيش عن ذلـك القـرين في الـدنيا لعلنـا نجـده؟ ﴿فَـاطَّلَعَ﴾ أي على أهـل النـار ﴿فَـرَآهُ فِي سَـوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي في وسطها ﴿قَالَ﴾ هـذا المطلـع لقرينـه: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِـدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ أي إنه كاد أن تهلكني في الدنيا بأن أكفر باللـه مماشـاة معـك فأدخـل في عـذاب السـعير ﴿وَلَـوْلَا نِعْمَـةُ رَبِّي﴾ ورحمتـه ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للعذاب في المعذبين، ثم رجع إلى كلامـه مـع جلسـائه في الجنة، وقـال ﴿أَفَمَـا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَـا الْأُولَى﴾ أي هـل لسـنا بميـتين إلا موتتنـا الأولى عنـد إتيـان الأجـل ﴿وَمَـا نَحْنُ بِمُعَـذَّبِينَ﴾ أي بمبعـوثين للحسـاب والعـذاب حسـب الاسـتحقاق ﴿إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي إن هذا النعيم الحاصل في الجنة واستقرارنا على كراســي متقابلين لهو الفوز العظيم و﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ الفوز ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا﴾أهذا النعيم خير من جهة كونـه معـدا لأهـل الجنـة ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ وهذا من كلامه تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَـةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أي محنة وعـذابا لهم في الآخـرة، أو جعلناهـا من أسـباب الفتنـة والضـلال للظالمين المشـركين المستسـخرين بهـا والمنكـرين لهـا ﴿إِنَّهَـا شَـجَرَةٌ تَخْـرُجُ فِي أَصْـلِ الْجَحِيمِ﴾ أي في قعـر نـار جهنم ﴿طَلْعُهَـا﴾ أي ثمرهـا ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّـيَاطِينِ﴾ أي في قبح المنظـر. والعـرب تشـبه الشـيء القبيح بالشيطان أو

وجهه أو رأسه ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أهل النار ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي من ثمرها ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ لغلبة الجوع أو لإجبارهم على أكلها ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي لشرابا ممزوجا بماء شديد الحرارة ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد الأكل والشرب ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي يعادون بل يساقون اليها إجبارا وسر ذلك ما في قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿ضَالِّينَ﴾ فأعجبهم ضلالهم وفساد أحوالهم ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي يسرعون ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي رسلا منذرين لهم من عذاب يوم القيامة ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ من العذاب الشديد ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي الذين أخلصوا دينهم لله، وهذا الاستثناء كالسابق منقطع لمثل ما تقدم هناك.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ شروع في تفصيل ما أجمله قبلُ، أي ولقد دعانا حينَ أيسَ مِنْ قومِهِ ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي فأجبناه أحسن الاجابة: فوالله لنعم المجيبون نحن ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وأهله من آمن به، والكرب الغم الشديد وهو الغرق هنا ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا.

وروي أنه مات كل من في السفينة ولم يعقبوا عقبا باقيا غير أبنائه الثلاثة: سام، وحام، ويافث. وهذا هو المعتمد. وقيل: كان لغير ولد نوح أيضا

نسل ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي وأبقينا عليه ثناء حَسَنا في الآخرين من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي سلام من الله وارد على نوح في ما بين العالمين، أو سلام على نوح وذلك السلام مستقر في العالمين من الملائكة والإنس والجن، أي كل من آمن وأسلم يسلم عليه ويدعو له ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان بعبادة الله والدعوة إليه والصبر على أذى أعداء الدين. وقوله ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لكونه من المحسنين. وقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ كلمة ثم للتراخي الذكري لأن إغراق من لم يؤمن به كان قبل بقائه عليه السلام مع من معه.

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي وإن ممن شايع نوحا وتابعه في أصل الدين لإبراهيم أو ممن شايعه في التصلب في الدين ومصابرة المكذبين، وكان بينهما ألف ومائة واثنتان وأربعون سنة. وقيل ألفان وستمائة وأربعون سنة وبينهما هود وصالح ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي سالم من آفات الارتباط بالغير والعلائق الدنيوية والظرف منصوب باذكر وقوله ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدل من إذ الأولى ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله إفكا وكذبا ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أيّ شيء ظنكم بالله رب العالمين؟ وكيف تتركون هذا الرب المؤثر والمربى في عالم الوجود ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي فتأمل نوعا من التأمل في أحوالها وهو على طراز تأمل الكاملين في خلق السماوات والارض ليعتبر بها ويجعلها أدلة على وجود الباري تعالى ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي وأراهم أن نظره إلى النجوم لم يكن للاستدلال على وجود الباري تعالى ووحدته، وإنما كان لمعرفة حاله من الصحة والسقم وأنه ظهر له أنه

سقيم، وذلك لأنه أراد أن لا يأخذوه معـه إلى عيـدهم الرسـمي ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي أعرضوا عنه وتركوا قربه.

﴿فَرَاغَ إِلَى آَلِهَتِهِمْ﴾ أي ولمـا تركـوه وبقي وحـده راح وذهب الى آلهتهم ﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي من الطعام الذي عندكم وكان المشركون يضعون في أيام أعيادهم طعاما لدى الأصنام للتبرك عليـه ثم قـال لهم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُـونَ﴾ بجـوابي ﴿فَـرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَـرْبًا بِـالْيَمِينِ﴾ أي فمـال عليهم بالضرب وضربهم ضرباً باليمين أي باليد اليمنى بـالقوة ﴿فَـأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي يسرعون.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُـونَ﴾ أي أصـناما أنتم تنحتونها بأيديكم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وما تعبدون اللـه الـذي خلقكم وعملكم فهل هـذا المعمـول الـذي خـرج من أيـديكم يليـق بـأن يعبد؟ أم ذلك الإله الـذي خلقكم وخلـق أعمـالكم ومن جملتهـا الاصـنام التي تركبونها بالنحت والربط، ولما نـازعهم في عبـادة الأصـنام ووصـل الكلام بينهم الى ذلك المقام ﴿قَالُوا ابْنُوا لَـهُ بُنْيَانًـا﴾ أي حائطـا توقـدون عليه النـار أو منجنيقـا ترمونـه بـه إلى جهنم ﴿فَـأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي في النار التي لشدة لهيبها كأنها الجحيم ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ أي سوء وهو التعذيب بالنار وإهلاكه بهـا ﴿فَجَعَلْنَـاهُمُ الْأَسْـفَلِينَ﴾ الأذلين وذلـك بنجـاة إبراهيم وإهلاك أولئك المتمردين.

ولما نجيناه من ذلـك الجحيم ﴿وَقَـالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ أي الى حيث أمـرني ربي ﴿سَـيَهْدِينِ﴾ الى مـا فيـه صـلاح العبـاد ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ولما ذهب الى تلك الدار التي أرادها واسـتقر عنـد ذلـك قـال للـه سـبحانه: رب هب لي من الصـالحين قـرة عين لي ولوالدتـه ﴿فَبَشَّـرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهـو إسـماعيل عليـه السـلام ﴿فَلَمَّا بَلَـغَ مَعَـهُ السَّعْيَ﴾ أي فوهبناه له فنشأ نشأة

حسـنة، فلمـا بلـغ رتبـة أن يسـعى معـه في أشـغاله وأعمالـه ﴿قَـالَ﴾ إبـراهيم ﴿يَـا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَـامِ أَنِّي أَذْبَحُـكَ﴾ ورؤيـا الانبيـاء حـق واجب التطبيق ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَـرَى﴾ من الـرأي هـل توافقـني فيـه أولا؟ ﴿قَالَ﴾ اسماعيل في جوابه ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي الـذي تـؤمر بـه ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي على قضاء اللـه تعـالى ذبحـا كان أو غيره ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي استسلم إبـراهيم وإسـماعيل لأمـر اللـه ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي وصرَعه على شقه فوقـع جبينـه على الأرض. وأصـل التل الرمي على التل، وهـو الـتراب المجتمـع، ثم عمم في كـل صـرعٍ، والجبين أحد جانبي الجبهة.

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَـا إِبْـرَاهِيمُ (104) قَـدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ بـالعزم ومباشـرة مقدمات المقصود. وقيل: أنه أمرَّ السكين بقوته على حلقـه مـرارا ولم يقطعه. وجواب لما محذوف أي كان ما كـان من الفديـة واستبشـارهما بفضـل اللـه ورحمتـه. وقولـه تعـالى ﴿إِنَّا كَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ﴾ إستئناف وتعليل لإفراج تلك الشـدة. وقولـه تعـالى ﴿إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ كأنه بيان لإحسانه حيث أدى ما كـان عليـه من تطـبيق الرؤيـا، ولكن الله بدله بمـا شـاء كمـا قـال تعـالى: ﴿وَفَـدَيْنَاهُ بِـذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي بحيوان يذبح بدلـه وهـو عظيم الجثـة وسـمين وكـان كبشـاً أبيض أقـرنَ أعيْن، أو عظيم القدر حيث كان مختصـا بجـانب الغيب والقـدس ومـددا في حالة الشدة. وعن الحسن أنه وَعَلٌ أهبط عن جبل ثبير.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآَخِرِينَ﴾ أي وأبقينا عليه الثنـاء في النـاس الآتين في الجيل الآخرين والمقصود استمرار الثنـاء عليـه في الـدنيا ﴿سَـلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ من الله العلي العظيم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلـك الجـزاء المـادي والمعنوي ﴿نَجْزِي الْمُحْسِـنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَـا الْمُـؤْمِنِينَ﴾ إيمانـا كاملا واصلا درجة الحق واليقين.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من كبارهم ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ أي أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وجعلنا في أعقابهما دعوة الثقلين الى الله رب العالمين. هذا جناح اسماعيل الواصل الى خاتم الانبياء والمرسلين محمد المبعوث الى الجن والإنس رحمة للعالمين. وذلك إسحاق ويعقوب والأسباط، ومنهم موسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى وسائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ المحسن مع النفس بالإيمان والاعمال الصالحة والأخلاق الحسنة ومع غيره بالأخيرين، والظالم بالكفر والاعمال السيئة والأخلاق السافلة ظاهر خيره وشره وأحسن المحاسن الخير الساري وأسوأ المساوئ الشر الساري وما بينهما على تفاوت الدرجات.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)﴾

قوله ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ قدم ذكرهما على من بعدهما لمناسبتهما مع من سبق في الابتلاء بمعاندة الجبابرة العظام. وقد عد موسى عليه السلام من الرسل أولي العزم، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام. فيقول الباري تعالى مؤكدا: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أي بالنبوة والرسالة والانتصار

على الجبار وإنجاء قومهما من عذاب الأشرار كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ في الدين وهو الدعوة الى ألوهية فرعون، وفي الدنيا وهو ذبح البنين وترك البنات وتركهن كخادمات ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ أي موسى وهرون وقومهما ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ على فرعون بذلك النصر والعون ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ البالغ أحسن درجات البيان ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الواصل إلى الله الواحد الأحد الصمد العظيم ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ كما تقدم ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال الطبري: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزاز بن هارون أخي موسى عليهم السلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وهم سبط من بني إسرائيل أسكنهم يوشع لما فتح الشام المدينة المعروفة ببعلبك، وبعل اسم صنم لهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ لقضاء حوائجكم ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي أحسن وأقدر من كل من تتصورونه خالقا لأنه خالق بالحق، وأولئك خالقون بالوهم ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ بالنصب على البدلية من أحسن ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلهاً واحدا في العالمين ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما اقتضاه كلامه وهو أن لا إله إلا الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ في العذاب بسبب ذلك ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ الثناء ﴿فِي﴾ القوم ﴿الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132)وَإِنَّ لُوطًا﴾ ابن أخي إبراهيم عليهما السلام ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الى قرى سدوم في الأردن ﴿(133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ من العذاب النازل على القوم الفاسقين ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي زوجته كانت ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ الفائتين ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ﴾ في أسفاركم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ أوله لأنه زمان السير ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن تلك الديار أصابها الدمار من غضب الجبار على العصاة الأشرار.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يروى أنه عليه السلام نبئ وهو ابن ثمان وعشرين سنة. واشتهر أنه ابن متي، والأصح عند ابن حجر

أنه اسم أبيه. ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي هرب وأصله الهرب من السيد، وكـان عليـه السلام هرب من قومه بغير إذن ربه سبحانه وتعـالى، أي لم يصـبر في ضيق صدره حتى ينزل عليه الوحي في أمـره ﴿إِلَى الْفُلْـكِ الْمَشْـحُونِ﴾ أي المملوء ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع عليه السلام الناس الذين فيه ﴿فَكَـانَ مِنَ الْمُدْحَضِـينَ﴾ أي المغلـوبين في القرعـة، فـألقوه في البحـر ﴿فَالْتَقَمَـهُ الْحُوتُ﴾ أي ابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي يلوم نفسه على أن الهمزة للتعديـة، فأخذ يسبح ربه ويقول: لا الـه إلا أنت سـبحانك إني كنت من الظـالمين أو ما يؤدي معناه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِـهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي إلى أن يموت ولا يبقى له لبث في الـدنيا إلى يـوم يبعثون أي هو وغيره، ولكنه سبح فأنجاه ربه كمـا قـال تعـالى ﴿فَنَبَـذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ أي بالمكان الخـالي عمـا يغطيـه من السـتار والأشـجار ﴿وَهُـوَ سَقِيمٌ﴾ من الأذى وحرارة بطن الحوت وغير ذلك ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْـهِ شَـجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ أي أنبتناها مطلة عليه مُظِلـة لـه كالخيمـة ﴿وَأَرْسَـلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، أي فأمرناه وأكدنا إرساله إلى قومه الذين أرسـل إليهم ﴿فَآَمَنُوا﴾ هذه المرة ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ بالحياة ولم نهلكهم ﴿إِلَى حِينٍ﴾ الأجـل المسـمى. روي انـه كـان من بـني اسـرائيل ومن السـاكنين في فلسطين، فأرسل إلى أهل (نينوى) بـالعراق ودعـاهم إلى التوحيـد فلم يؤمنوا به فوعد قومه بالعذاب وخـرج من بينهم قبـل أن يـأمر اللـه بـه، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: ههنا عبد آبق، فخـرجت القرعـة عليـه، فقال: أنا الآبق، ورمى بنفسه في الماء وروي في قصته غير هذا.

﴿فَاسْـتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَـاتُ وَلَهُمُ الْبَنُـونَ (149) أَمْ خَلَقْنَـا الْمَلَائِكَـةَ إِنَاثًـا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـاذِبُونَ (152) أَصْـطَفَى الْبَنَـاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) مَـا لَكُمْ كَيْـفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتَـابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (157) وَجَعَلُـوا بَيْنَـهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَـبًا وَلَقَـدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَـرُونَ (158) سُـبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِـفُونَ (159) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُـدُونَ (161) مَـا أَنْتُمْ عَلَيْـهِ بِفَـاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُـوَ صَـالِ الْجَحِيمِ (163) وَمَـا مِنَّا إِلَّا لَـهُ مَقَـامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَـبِّحُونَ (166) وَإِنْ كَـانُوا لَيَقُولُـونَ (167) لَـوْ أَنَّ عِنْـدَنَا ذِكْـرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)﴾

قوله تعالى ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ معطوف على مثله في أول السورة. أمر اللـه رسـوله أولا باسـتفتاء قـريش عن وجـه إنكـارهم البعث، وأمـره ثانيـا بالاستفتاء عن وجه نفيهم للنسل بينهم وبين الله تعالى، مـع أنـه بـريء من قاعدة التناسل ﴿لَمْ يَلِـدْ وَلَمْ يُولَـدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ كُفُـوًا أَحَـدٌ﴾ ثم لماذا اختاروا لأنفسهم البنين ولله تعـالى البنـات؟ ﴿أَمْ خَلَقْنَـا الْمَلَائِكَـةَ إِنَاثًا﴾ أي بل أخلقنا الملائكة إناثا حتى تجعل بنات الله مع أن الملائكة لا توصف بذكورة ولا أنوثـة، وليس وجـودهم إلا بـالأمر الإبـداعي من اللـه سبحانه وتعالى وهل هم شاهدون على أنـوثتهم؟ وفي ذلـك تجهيـل لهم وتضليل ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَـدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـاذِبُونَ﴾ فيما يقولون ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ بهمـزة مفتوحـة اسـتفهامية وحذف همزة الوصـل للاسـتغناء عنهـا، يعـني هـل اختـار البـاري تعـالى البنات على البنين؟ وما وجـه اختيـاره لهن؟ ﴿مَـا لَكُمْ كَيْـفَ تَحْكُمُـونَ﴾ بهذا الحكم الذي تقضي البداهة بطلانه؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بطلان

ما تعتقدونه أو تتكلمون به ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ وبرهان مفيد لليقين بوجود كتاب منزل يحكم بذلك ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الناطق بصحة ما تدعونه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾ أي الشياطين ﴿نَسَبًا﴾ أي علاقة انتساب بالمصاهرة، حيث قالوا إن الله صاهر الجن وتزوج منهن وخرجت الملائكة إلى غير ذلك من الخرافات... ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي ولقد علمت الشياطين أن الله يحضرهم للعذاب في النار، ولو كان بينهم وبينه علاقة ما عذبهم ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من المزاعم الباطلة من نسبة الأولاد اليه. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من نائب فاعل محضرون، ثم عاد الباري تعالى إلى خطابهم على سبيل الالتفات فقال ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الله ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ أي بمفسدين وجاعلين في الفتنة ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي إلا من سبق في علمه تعالى أنه داخل في نار الجحيم ومعذب بها فيها ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ حكاية الاعتراف الملائكة بالعبودية لله تعالى للرد على من يزعم خلافها فيهم، فهو من كلامه تعالى لكنه حكى بلفظهم، وأصله وما منهم إلاّ لَهُ مقام معلوم، وكذلك باقي الآيات على ميزان هذه الآية. ويجوز أن تكون الجنة المذكورة سابقا بمعنى الملائكة لاستتارهم عن الأعين، فيكون المعنى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي وجعل المشركون بين الله وبين الملائكة نسبا وانتسابا وعلاقة، وزعموا أن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي الملائكة ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي إن المشركين لمحضرون للعذاب جزاء لهذه العقيدة الفاسدة والزعم المردود ويقولون ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يذكر المشركون من نسبة الولد إلى الله تعالى ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

استثناء من نائب فاعل لمحضرون فإن المخلصين لا يحضـرون للعـذاب أو عن فاعل يصفون فإن العباد المخلصـين لا يصـفونه بـذلك ﴿فَـإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَـاتِنِينَ﴾ أي مفسـدين النـاس عليـه ﴿إِلَّا مَنْ هُـوَ صَـالِ الْجَحِيمِ﴾ أي من سـبق في علمه أنه يدخلها. ثم عادوا للاعـتراف بالعبوديـة وقـالوا ﴿وَمَـا مِنَّا إِلَّا لَـهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ أي وما منا أحد إلا له مقـام معلـوم في العبـادة والطاعـة والانتهاء إلى أمر الله في تدبير العالم ولا نستطيع الانحـراف عنـه ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّـــافُّونَ﴾ أنفســـنا أو أقـــدامنا في أداء الطاعـــة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المنزهون لله تعالى عما لا يليق به.

وقد أخرج الترمذي وحسنه عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى اللـه عليه وسلم ((إني أرى مـا لا تـرون وأسـمع مـا لا تسـمعون إن السـماء أطَّتْ وحَقٌّ لها أن تَئِطّ؛ ما فيها موضع أربع أصـابع إلا وفيـه ملـك واضـع جبهته ساجدا لله)).

وقوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ إن هي المخففة، واللام هي الفارقة، والضمير لكفار قريش أي وإنهم كانوا يقولـون قبـل مبعث النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ﴿لَـوْ أَنَّ عِنْـدَنَا ذِكْـرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي كتابـا من جنس الكتب التي نزلت عليهم من عند اللـه ﴿لَكُنَّا عِبَـادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِـينَ﴾ مـع أنه لما جاءهم كتاب كما وصـفوا عانـدوا كمـا قـال تعـالى ﴿فَكَفَـرُوا بِـهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم كيف يكون.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَـا الْمُرْسَـلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُـورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْـدَنَا لَهُمُ الْغَـالِبُونَ (173) فَتَـوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَـاءَ صَـبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَـوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179) سُـبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِـزَّةِ عَمَّا يَصِـفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وبالله لقد سـبق وعدنا لعبادنـا المرسـلين ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُـورُونَ(172) وَإِنَّ جُنْـدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ في تحقيق النصـر النهـائي والـدعوة إلى اللـه رب العـالمين. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عن المشركين واصــبر ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ إلى وقت انتهاء مدة الكف عن القتال ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي أنظر إليهم في ذلك الحين ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما يَلْقَونـه في وقتـه ﴿أَفَبِعَـذَابِنَا يَسْـتَعْجِلُونَ﴾ تـوبيخ لهم على استعجالهم للعذاب ﴿فَـإِذَا نَـزَلَ﴾ أي العـذاب ﴿بِسَـاحَتِهِمْ﴾ أي بأطراف دورهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَـوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِـرُونَ (179) سُـبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِـزَّةِ﴾ تنزيـه للــه العظيم ﴿عَمَّا﴾ كــل ﴿يَصِــفُونَ (180) وَسَــلَامٌ عَلَى الْمُرْسَــلِينَ﴾ تشــريف لهم من أولهم إلى آخــرهم ﴿وَالْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ﴾ في البداية والنهاية وبه العون والعناية.

سورة ص، مكية، وهي ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ص وَالْقُرْآَنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ
أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوا أَنْ
جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآَلِهَةَ
إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا
وَاصْبِرُوا عَلَى آَلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ
الْآَخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7) أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي
شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ
الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا
فِي الْأَسْبَابِ (10) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (11)﴾

قوله ﴿ص﴾ هو بالسكون على الوقف عند الجمهور، ومعناه مفوض إلى العليم الخبـير ﴿وَالْقُـرْآنِ ذِي الـذِّكْرِ﴾ الـواو للقسـم والــمُقَسم عليـه محذوف بقرينة الآية الآتية. أي والقرآنِ ذي الذكر إنكَ نـذيرٌ مـبين، وذي الـذكر صـفة للقـرآن، وإضـافته تفيـد القـوة في إفادتـه الـذكر بـالمعنى الواسع أي إنه صاحب ذكر العقل وإدراكه للحقائق بمعنى أن من حفـظ هذا القرآن أو حفظ شأنه ورعاه هو صاحب التذكر والإدراك، أو بمعــنى أنه مشتمل على آيات الترغيب في الذكر والأمر به والمداومة عليـه، أو أنه يوجب ذكر صاحبه وهو الله، أو من نزل عليه وهـو الرسـول، أو من نزل فيهم وهم أمة الإسلام المتمسكون بـه. وقولـه تعـالى ﴿وَإِنَّهُ لَـذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ شاهد صـدق على ذلـك. وإذا قلنـا: إن المـراد بـالقوم من قام برعاية مقـام محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم ورسـالته وأعانـه في تبليغاته وأداء رسالته وتنوير النـاس بهـا، فقـد أتينـا بحـق يـتزلزل عنـده الباطل، ويفهم هذا المعنى كل منصف كامل. وقولـه تعـالى ﴿بَـلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضراب عن القسـم والمقسـم بـه وعليـه إلى بيان أن الكافرين في استكبار وتعزز مبـني على الهـوى وشـقاق وعنـاد مع الرسـول وكتابـه، وصـاحب الكتـاب بحيث لا يكتنـه كنهـه، ولا يـدرك غوره، فإن تنكير المتعاطفين يفتح الباب للقلب والعين، ترى بـأم العين ما يصدر من الكافرين، وتدرك بالقلب عنادهم المُشين.

ولما أفاد شدة اعتزارهم وشقاقهم أجاد في تهديدهم بقوله ﴿كَمْ أَهْلَكْنَـا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أهل قرن مئوي لهم قرنان في النطاح مـع أهل الخير والصلاح أهلكنـاهم بعـد أن أنـذرناهم، ومن أنـذر فقـد أعـذر، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الهلاك ﴿فَنَادَوْا﴾ عنـد حلولـه كـل من ينـادي من القريب والبعيد، أو نادوا ورفعوا أصـواتهم بالتوبـة والإنابـة إلى اللـه المجيب المجيد. ﴿وَ﴾ الحال ﴿لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ولات حين النداء

حين مناص وخلاص لهم، إذ جرت السنة أنه لا فائدة في التوقي بعدَ جَرح الأسِنة. ﴿وَ﴾ أساس عزتهم وشقاقهم أنهم ﴿عَجِبُوا﴾ من بعث هذا الرسول الكريم ومن ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ وكلمة منهم نيلٌ منهم وأيُّ نيلٍ، لأن وجود الرسول العظيم المنذر الثابت من بني جلدتهم شرف لهم، وبعث الرسول ليس بشيء غريب منهم، فإذا تعجبوا من هذا الشيء القريب فمعناه أنهم في بعد متناه عن العقل والإدراك. ﴿وَ﴾ لم يتوقفوا عند هذا التعجب الذي لا سبب له معقول بل ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ المتجاسرون: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ولم يعلموا أنهم هم الكذابون فإن نسبة عمل المعوج الى من لم يدركوا منه إلا الأمانة والاستقامة، ونسبة الكذب الى من اشتهر بالصادق والمبالغة فيه، يفيد المبالغة في كذبهم أنفسهم. وعللوا ذلك بدليل عليل يعرف كل سليم العقل علته. وقالوا مستنكرين ﴿أَجَعَلَ الْآَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي يبالغ في التعجب منه مع أن جعل الإله الواحد آلهة متعددة هو الذي يتعجب منه، لأن الإله الواحد إذا كان قادرا على التصرف في الكائنات فذلك كاف وماعداه مستغن عنه، ولا يناسب الألوهية الاستغناء عنه بأي وجه من الوجوه.

﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي أشرافهم بعد أن ذهبوا إلى عمه صلى الله عليه وسلم أبي طالب وطلبوا منه إسكات أبن أخيه من الدعوة إلى التوحيد ووعده بأنواع الخير ومع ذلك رفض الرسول كل ذلك وأبى إلا الله الواحد الاحد ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾ أن للتفسير وليس المراد بالمشي المشي على الأقدام في المسيرة، بل المراد الاستمرار على أخلاقهم وآدابهم، وإن كانت باطلة فارادوا بقاء ما كانوا عليه، فكأنهم قالوا استمروا وأصروا واصبروا ﴿عَلَى﴾ عبادة ﴿آَلِهَتِكُمْ﴾ وقالوا ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الأمر الذي يدعيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ إثباته وإقراره في العالم.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـذَا فِي الْمِلَّةِ الْآَخِـرَةِ﴾ أي مـا سـمعنا بهـذا التوحيـد الـذي يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسـلم في عهـد الملـة الآخـرة والـدين الآخر وهو دين النصارى حسب اعتقـادهم، لأنهم كـانوا يـدعون التثليث، وكان كلامهم هذا تجاهلا عما اشتهر بين الناس أنه سيأتي نبي يدعو إلى توحيد الباري عز وجل. ويجوز أن يكون مرادهم بالملة الآخرة ما استقر عليه دأب العرب المشركين، فإنهم كانوا على ثقـة واعتمـاد بـه وعليـه، وكانوا يرونه حقا ومخالفه باطلا لجهلهم وغباوتهم واستمرار آبائهم على الإشراك، وإلا فهم ما كانوا يؤمنون بدين النصـارى حـتى يعتمـدوا عليـه ويجعلـوه أساسـا لمعتقـداتهم ﴿إِنْ هَـذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي مـا هـذا الـدين الــداعي إلى التوحيــد الا افــتراء وكــذب، ولكنــه هم الكــاذبون وهم الجاهلون، ويـدل على جهلهم انتقـالهم من إنكـار التوحيـد إلى اسـتنكار الرجل الذي جاء به، يعنى أنه لو كان غيره يأتي به لكان مقبولاً.

وقالوا: ﴿أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي القرآن ﴿مِنْ بَيْنِنَـا بَـلْ هُمْ فِي شَـكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أي من القرآن الذي أنزلته على رسولي، لأنه لـو كـان لهم علم وإيمان بالدين لقبلوه من أي إنسان يأتي به لكنه ليس لهم علم به ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ إضراب عن مجموع الأمرين السابقين حديث الحسد وحديث الشك، ويقول سر هذا البطر وهذا الفسـاد هـو أنـه إلى الآن لم يذوقوا عذابي الذي أذقتـه المعانـدين السـابقين، فـإذا أذقنهم ذلـك زال شـكهم وخفت شـكيمتهم. قـال تعـالى ﴿أَمْ عِنْـدَهُمْ خَـزَائِنُ رَحْمَـةِ رَبِّكَ الْعَزِيـزِ الْوَهَّابِ﴾ ويتصــرفون فيهــا حســب إرادتهم حــتى يعطوهــا لمن شـاءوا ويمنعوهـا عمن يشـاؤن ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَا﴾ أي العوالم العلوية والسفلية حتى يتصرفوا فيها، أو يتكلمـوا في الأمــور الربانيــة ويتحكمــوا في التــدابير الإلهيــة، فــإذا كــان لهم ذلــك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي فليصعدوا

على المعارج التي يصلون عليها إلى السماء فيتصرفوا فيها ويدبروا أمرها إن كانوا صادقين ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ هذه جملة ذات جهتين: الأولى أن أولئك المشركين الذين يقولون تلك الأقوال الباطلة ليست لهم أهمية، أي هم جندما هنالك، والجهة الثانية تستفاد من قوله مهزوم الواقع صفة للجند يعني وذلك الجمع من الناس قوم مهزوم من أحزاب المشركين وجماعاتهم ستقع عليهم الهزيمة والفضيحة والخزي والعار.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16)﴾

قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.. الآية جملة مستأنفة موضحة ومبينة لوجود كثيرين من العصاة العتاة المتمردين الـمُعاندين قبل أولئك المشركين من أهل مكة، ومثالهم قوم نوح في العراق، ﴿وَعَادٌ﴾ أي وقوم عاد في الأحقاف من اليمن، ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ مع قومه في مصر ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ التي كان يستحكم بها المخيمات في الصحراء للاستيناس والترف والتفرج، أو المراد بها الأوتاد التي كان يغرزها ويشد بها اليدين والرجلين من المظلوم الذي يريد تعذيبه فلا يقدر على الحركة حتى يموت تحت العذاب ﴿وَثَمُودُ﴾ اي وقومه ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ كلاهما في مملكة الأردن ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي الغيضة التي أرسل إليها شعيب عليه السلام كما أرسل إلى عاد هود والى فرعون موسى وهارون وقوله ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ مبتدأ وخبر

﴿إِنْ كُلٌّ﴾ أي ما كل منهم ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي عقابي، والمعنى فاستحقوا التعذيب فثبت تعذيبي ومعاقبتي لهم على إرادتي.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ والفواق بفتح الفاء اسم مصدر على وزن ذهاب بمعنى الإفاقة والرجوع إلى الصيحة، وبالضم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع عبارة عن زمان قليل. ومعنى الآية الكريمة إن الكافرين السابقين نالوا عذابهم وما ينظر هؤلاء المجرمون في عصرك يا حبيبي إلا صيحة واحدة هي الصيحة الناشئة من نفخ الصور، أي إلا زمان الآخرة فيعذبون فيها، أو إلا صيحة كالصيحات الواردة على الكفار السابقين ما بعد تلك الصيحة راحة وخلاص ﴿وَقَالُوا﴾ أي لما سمعوا أن لهم عذابا أُجِّلَ إلى حلول الآخرة ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا﴾ وقدم لنا ﴿قِطَّنَا﴾ أي قسطنا ونصيبنا من العذاب ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾وأساس هذا أنهم لا يؤمنون بالآخرة ويقولون إذا كان هذا الوعد صادقا وهناك قادر على تحقيقه فليأتنا في الدنيا قبل ذلك اليوم، وقد أتاهم في بدر وفي سائر المواقع التي شتت الله فيها شملهم، وهو العزيز ذو الانتقام.

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26)﴾

قوله تعالى ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعني اصبر يا حبيبي على ما يقولون من تلك الأقوال الباطلة الناشئة عن الغفلة والهوى والابتعاد عن الحق والهدى، واذكر لهم جميعا عبدنا داود وأحواله من بدء نشأته إلى أيام شبابه وقوته، فإن الأيد مصدر بمعنى القوة، واذكر لهم أن الغفلة ساعة واحدة تبعد الإنسان عن الإحسان زمانا طويلا، واذكر لهم أن الله بصير بأحوال العباد في الغفلة وحال التوبة لعل المشركين يتوبون إلى الله والمسلمين يزيدون في طاعته، واذكر لهم أن داود مع ملكه ونبوته وقوته وفتوته كان أواباً رجاعا إلى الله حتى ينال المثوبة الحسنى والقرب إليه في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ استئناف لبيان قصته وكرامته عند الله بحيث سخر الجبال للتسبيح مع تسبيحه كواحد يوافق واحدا ويقارنه فيما يقوله، أو كمرجع يرجع الكلمات بعد قرينه. فهن ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ معه

﴿بِالْعَشِـيِّ وَالْإِشْـرَاقِ﴾ قيـل يسـبحن بلسـان الحـال أو بلسـان مقـال لا يفهمه إلا أولو الكمال. والظـاهر أن تسـبيحهن كـان بعين عبـارة سـيدنا داود عليه السلام وبلسـانه ولغتـه، كتسـبيح الحصـى في كـف الرسـول محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربيـة المسـموعة المفهومـة فـإن التشريف الاختصاصـي إنمـا يظهـر بـذلك واللـه على كـل شـيء قـدير. ويجـوز أنـه كـان بحيث يسـمعه النـاس الموجـودون عنـده، أو بحيث لا يسمعه إلا من اختص بفضل منه تعالى. وكان ذلك التسبيح والتسخير له فيه بالعشي والإشراق أي مساء وصـباحاً. ووقت الإشـراق وقت طلـوع الشمس وإضاءتها وصفائها وذلك من ارتفاعها كـرمح. فمنهم من يقـول أن ما بعـد ذلـك الـوقت إشـراق إلى الـزوال، وبهـذا يـدخل وقت صـلاة الإشراق في الضحى، ومنهم من يفرق ويخص الإشراق بمـا ذكرنـا أولا. ومـا بعـد ذلـك الى الـزوال يجعلـه ضـحىً فيختلـف الإشـراق والضـحى وصلاتهما وتفصيله في الفقه. والجمع بينهما أحوط بفعل صلاة الإشراق بعد ارتفاعها كرمح، وصلاة الضحى بعد ذلك، والصلاة خير موضوع أقْلِلْ منهـا أو أكـثر. ﴿وَالطَّيْـرَ مَحْشُـورَةً﴾ أي وسـخرنا لـه الطـير محشـورة مجتمعة فوقه.

عن ابن عبـاس رضـي اللـه عنهمـا كـان عليـه السـلام إذا سـبح جاوبتـه الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرُها.

وقوله ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي وكل واحد من الجبـال والطـير لأجـل تسـبيحه رجّاع إلى التسبيح ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَـهُ﴾ أي قوينـاه بالهيبـة والنصـر ودخـول الـرعب في قلـوب أعدائـه ﴿وَآَتَيْنَـاهُ الْحِكْمَـةَ﴾ النبـوة والعلم الصـحيح والعمل الصالح ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ أي فصل الخصـام بتميـيز الحـق عن الباطل.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ أي نبأ الرجلين المتخاصمين ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي عَلَوا سور المحراب ونزلوا اليه ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ <482>

أي فخاف منهم قصد الاغتيال إذ كان له أعداء وخصوم في الداخل والخارج. ولما علما بفزعه واستعداده للدفاع عن نفسه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ فإنا لسنا بأعداء لنقصدك بسوء ولكنا ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وطلب منه غير ما ينبغي له ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي ولا تتجاوز عنه ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي الصراط السوي أي المستوي. فلما هدأ داود وتهيأ لسماع الكلام قال المدعي ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الرجل الذي تسور المحراب معي هو ﴿أَخِي﴾ أي في النسب أو في الحسب ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي اجعلها كفلا لي ونصيبا. والظاهر أنه أراد نصيبا لي بالقوة والعدوان، وإلا فإذا أراد الاستيهاب أو الاشتراء فلا داعي لأخذه وجلبه إلى الحاكم ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني في الكلام والطلب بلا موجب شرعي، وقد جئنا إليك للمحاكمة ورفع الغدر عني وتعزيره ودفعه فهل هذا الطلب والإلحاح حق له أو ظلم ارتكبه ﴿قَالَ﴾ داود عليه السلام ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ وتعدى عليك ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ وضمها إليهن ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ أي الشركاء في الأموال ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم يتحاشون عن البغي ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ أي وهم قليل جدا وما زائدة لتأكيد القلة. وروي أنه لما جاوبهما غابا من عنده غيبة غير اعتيادية ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ﴾ أي وعلم داود عليه السلام من تسورهما المحراب على خلاف الأصول المعمولة وغيابهما، وقوة عبارة القائل فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط.. أنهما كانا من الملائكة و﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي ابتليناه وأرسلنا الملكين إليه لانتباهه فانتبه لعمل جرى منه غير مناسب لمقام الأنبياء الكرام فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ﴿فَاسْتَغْفَرَ﴾ داود ﴿رَبَّهُ﴾ عن ذلك ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي ساجدا على أن الركوع بمعنى السجود مجازا مرسلا بعلاقة السببية أو استعارة لتشابه الأمرين <483>

بخروجهما عن الاعتدال وأناب إلى ربه ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ العمل ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ في الجنة.
وفي بيان ما جرى منه أقوال وأقربها أنه مر ببستان أحد رعاياه، وأعجبه من حيث كثرة الأشجار والثمار والأنهار والأوراد والأزهار، فعزم على اشترائه من مالكه وقد تعلق قلبه به ولا يعجبه وتعلل عن ذلك، وبينما الأمر جار في البين أي يحب سيدنا داود اشتراءه وصاحبه على إبائه إذ دخل داود في محل خلوته للعبادة على عادته، ووقع تسور المحراب فانتبه وتفطن أن الله سبحانه وتعالى أرسل الملكين لانتباهه، وترك الطلب واستراح المالك.

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ مقول لقول مقدر معطوف على قوله تعالى فغفرنا له أي فغفرنا له وقلنا يا داود إنا جعلناك خليفة لنا في الأرض كما جعلنا آدم، وكذلك كل رسول من بعده خليفة لي في تطبيق الحق والعدل، أو خليفة عمن سبقك فيها ولاسيما قد جمعت بين الملك والنبوة في بني إسرائيل ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ المطابق للبينة والشهود ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ أي ما تهواه النفس من محبة رجحان جانب على آخر بدون حجة واضحة ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ اتباعه ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي بسبب نسيانهم يوم الحساب وما يجري قبله من موجباته، وما يقع فيه من تبعاته، وما يقع بعده من العذاب.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)﴾

قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ أي وما خلقناها خلقا باطلا لا حكمة فيه، بل خلقناها خلقا مقرونا بالحكمة، ومنها ظهور عظمة ذات واجب الوجود والاعتراف به والعبودية والخضوع له، وكون المخلوقات على نظام ومسئوليات وكون العدل مطبقا عليه، وليس ذلك على جهة الاحتياج تعالى عنه بل لإرادة ظهور النور والطاعة من الشعور إلى القبور والمسئولية عن تطبيق الدستور. ﴿ذَلِكَ﴾ أي خلقها باطلا ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مظنون الذين كفروا ومعتقدهم، فإن الكافر لا يعترف بوجود الخالق الفاعل المختار حتى يكون هناك نظام وفيه مسئوليات في الدنيا أو في الآخرة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ إما بيانية أي أن الويل نار على ضرب من المبالغة، أو ابتدائية أي ذلك الويل ناشئ من عذاب النار ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين في الأرض ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين هم صفوة المؤمنين ﴿كَالْفُجَّارِ﴾ المباشرين للأعمال الفاسدة المخزية علاوةً على الاعتقاد الفاسد ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ أي هذا كتاب انزلناه اليك مبارك لفظا ومعنى وتطبيقا، فمن أخذه بحقه نال السعادة على وفقه وإنما أنزلناه إليك ﴿لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ﴾ المعربة عن أسرار التكوين والتشريع ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وليتعظوا به.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآَخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ (40)﴾

وقوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ هذه الآية تدل على موهبة أخرى من الله تعالى لعبده داود بعد أن سخر الجبال والطيور له يسبحن معه، وبعد أن جمع له الملك والنبوة وجعله خليفة في الأرض، فقد وهب له ولدا ماجدا قرت به عيون الآباء والأجداد حيث كان جامعا للملك والنبوة ونشر الحق في العباد ويمدحه الله تعالى بقوله ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي نعم العبد سليمان ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى بحيث لم يكن ملكه وشغله بإدارته مانعا له عن طاعته واستغراقه في عبوديته ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ أي أواخر النهار ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ والصافن من الخيل هو الذي يرفع احدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافره. وقال أبو عبيدة هو الذي يجمع يديه ويسويهما. وأما الذي يقف على طرف الحافر هو المتخيم.

والجياد المتصفة بالجودة في المشي والركض ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ الخير هو المال وهنا بمعنى الخيل، وكانت ألف فرس، وكان عليه السلام تعرض عليه أفراس الحرب والمعدات الحربية، وجيء بتلك الأفراس يوماً من الأيام بعد

الزوال فاشتغل بها حتى فاتته أوراده اليومية في ذلك اليوم لغياب الشمس، فلما تنبه لذلك استاء. ومعنى الآية الكريمة إني أحببت الخير حبا أشغلني عن ذكر ربي ووردي في يومي المعتاد في يومي حتى توارت الشمس واستترت بحجاب الأفق. وعلى ذلك أمر برد الأفراس وقال ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فردوها عليه ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فشرع يمسحها بالسيف البتار على سوقها وأعناقها فعقرها وذبحها وجعلها قربةً وإطعاماً للفقراء، وكان أكل لحوم الأفراس معتادا إذ ذاك. ونسبة المسح إليه عليه السلام على الإسناد المجازي كما في قول الناس هزم الأمير جيش الأعداء.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي ألقينا على قلبه فتنة هي الغفلة عن الاستثناء بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل ان شاء الله، فطاف عليهن ولم تحمل منهن إلا واحدة ولدت ولدا ناقص الهيكل، وتعجبت منها القابلة، وجاءت به وألقته على كرسيه ليعلم به النبي سليمان عليه السلام. وذلك معنى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ وبعد إطلاعه على ما ألقي على كرسيه انتبه لغفلته وأناب إلى الله تعالى كما قال تعالى ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى ربه بالمعذرة وطلب السماح والعفو عن غفلته وقال رب اغفر لي فغفر له ربه، وتجلى عليه بالرحمة بحيث انشرح صدره، وتنور قلبه، وعلم أنه غفر له ربه. وفي هذا المجال المبروك ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ حتى يكون معجزة له ويسدّ أفواه الأعداء والحاسدين عليه من نسبة أعماله إلى أسباب مادية معتادة في العالم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ فسخر له الريح لطي البر والبحر، والجن للغوص في البحر، والعمل الشاق في البر، والشياطين المَرَدَة حتى قيدهم وأمن من شرهم، وذلك قوله تعالى ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ يعني فجعلنا له الريح

مسخرة منقـادة حيث أراد، وكلمـا شـاء الوصـول إلى محـل حضـر هـو وأتباعـه في السـفر على بسـاطه فرفعتـه الـريح إلى مسـتوى رفيـع وأوصله إلى مقصده فتنزل بهم بكـل لين وسـهولة وكـان غـدوها شـهرا ورواحها شهرا. ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي وسخر له الشـياطين الـذين كـان لهم العلم بصـفة البنـاء للـدور والقلاع، والشـياطين الـذين يغوصون في البحـر لإخـراج اللؤلـؤ والمرجـان ومـا شـاكلهما ﴿وَآخَـرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي وسـخر لـه شـياطين آخـرين من ألـدّ الأعـادي فقرنهم في الغل الجامع الذي يسمى بالصفد، وهو غل يرتبـط بـه جمـع من العصاة في موقف واحـد، وتقييـده للجن كـان بقـوة ربانيـة لم تكن عند غير سليمان عليه السلام، حتى تكون هبة خاصة وهيبة لـه وتـوجب رهبة الأعداء منه، وكيفية ذلك وأنه كان الشـياطين بـالمرءى والمسـمع من الناس أو غائبين عنهم، سكتت عنه الآية الشريفة ونحولهـا إلى اللـه تعالى ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي وأوحينا إليه وقلنا له هذا المذكور من المسخرين عطاؤنا لك فخـذه وانتفـع بـه وأعـط مـا نشاء لمن نشاء وأمسك ما نشاء عمن نشـاء. ﴿وَإِنَّ لَـهُ عِنْـدَنَا﴾ أي وإن لسليمان عندنا ﴿لَزُلْفَى﴾ لقربة وكرامة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ في الجنة.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّـيْطَانُ بِنُصْـبٍ وَعَـذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِـكَ هَـذَا مُغْتَسَـلٌ بَـارِدٌ وَشَـرَابٌ (42) وَوَهَبْنَـا لَـهُ أَهْلَـهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْـرَى لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (43) وَخُـذْ بِيَـدِكَ ضِـغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْـدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) وَاذْكُـرْ عِبَادَنَـا إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ أُولِي الْأَيْـدِي وَالْأَبْصَـارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْـنَاهُمْ بِخَالِصَـةٍ ذِكْـرَى الـدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْـدَنَا لَمِنَ الْمُصْـطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُـلٌّ مِنَ الْأَخْيَـارِ (48) هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَـدْعُونَ فِيهَـا بِفَاكِهَـةٍ كَثِـيرَةٍ وَشَـرَابٍ (51) وَعِنْـدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (52) هَذَا مَا تُوعَـدُونَ لِيَـوْمِ الْحِسَـابِ (53) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54)﴾

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو من أنبياء بني إسرائيل ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ النصب الألم في الجسد، والعذاب في الأهل والمال، يشكو مرضه ووفيات في أهله وقلة في ماله ومس الشيطان له إلقاء وساوس إليه، وهي وإن لم تؤثر في قلبه عليه السلام حقيقة لكنها تؤذيه كبعض الذبان تؤذي ولا تعضّ ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي فقلنا له وحياً أو إلهاما: اركض برجلك في المكان الفلاني فركض بها فنبع ماء، وقلنا له اشرب من ذلك الماء فشرب منه وبرأ جوفه من أساس المرض، ثم قلنا له اغتسل به فاغتسل وبرأ ظاهره منه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ بإحيائهم بعد إهلاكهم ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ فكان له ضعف ما كان ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي لرحمة عظيمة منا ﴿وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وتذكيرا لهم بذلك ليصبروا على الشدائد.

روي عن قتادة أنه ابتلي سبع سنين وأشهرا فصبر ففرج الله عنه وأعظم له أجرا، وعن ابن عباس أنه صار ما بين قدميه إلى رأسه قرحة واحدة، وألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه، فكانت امرأته تسعى إليه، فقالت يوما: أما ترى يا أيوب قد نزل بي والله من الجهد والطاقة ما أن بعت فروتي

برغيف فَاطَعمتك فادع الله تعالى أن يشفيك ويريحك! فقال: ويحك كنا في النعيم سبعين عاما فاصبري حتى نكون في الضر سبعة أعوام! فكان في البلاء سبع سنين ودعا فجاء جبريل عليه السلام فأخذ بيده ثم قال: قم. فقام عن مكانه. وقال أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فاغتسل وشرب فبرأ وألبسه الله تعالى حلة من الجنة، فتنحى فجلس في ناحية من بيته، وجاءت امرأته فلم تعرفه. فقالت يا عبدالله أينَ المُبتلى الذي كان ههنا؟ وجعلت تكلمه ساعة فقال: ويحك أنا أيوب قد ردّ اللهُ علي جسدي. ورد الله تعالى عليه ماله وولده ومثلهم معهم، وأمطر عليه جرادا من ذهب فجعل ياخذ الجراد بيده، ويجعله في ثوبه وينشر كساءه فيجعل فيه، فأوحى الله تعالى إليه يا أيوب أما شبعت؟ قال: يا رب من الذي يشبع من فضلك ورحمتك؟ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وهو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان ﴿فَاضْرِبْ بِهِ﴾ زوجتك رحمة بنت أفرائيم ابن يوسف عليه السلام ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ بيمينك فإن البر يتحقق به ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمة عليه. وذلك أنه صدر منها جملة عن الكلام فغضب عليها، وحلف ليضربنها إن برئ منه ضربة، فأمره الله تعالى بذلك حتى لا يحنث في يمينه ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجاع الى الله.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ أي بسبب خصلة خالصة جليلة الشأن لا شوب فيها وهي ذكرى الدار الآخرة ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي المختارين من بين أبناء نوعهم، وأصل المصطفين بياءين على وزن المجتمعين جمع مذكر لاسم مفعول باب الافتعال فقلبت الياء الأولى ألفا وحذفت لالتقاء الساكنين.

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبئ، ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ وهو ابن أيوب. وعن وهب أن الله تعالى بعث بعد أيوب شرف بن أيوب نبيا وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده، وكان مقيما بالشام حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48) هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدل اشتمال عن حسن مآب ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ من أصناف الفواكه من أنواعها ﴿وَشَرَابٍ﴾ طهور ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي حور قاصرات الطرف على الأزواج ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي لِداتٌ على سِنٍّ واحد ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53) إِنَّ هَذَا﴾ أي ما ذكر من أنواع النعم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ أي انقطاع ونهاية.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (56) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70)﴾

قوله تعالى ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآَبٍ﴾كلمة هذا فصل الخطاب، أي خذوا هـذا، أو الأمـر هـذا، أو هـذا جـزاء المؤمـنين. ثم يقـول في جـزاء الكافرين ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآَبٍ﴾أي وإن للذين طغوا في الدنيا على أوامـر اللـه ورسـوله وعانـدوها لشـرّ مرجـع، من إضـافة الصـفة الى الموصوف أي مرجعـا شـرا. وقولـه ﴿جَهَنَّمَ﴾ بـدل حـالكونهم ﴿يَصْـلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَـادُ﴾ أي الفـراش جهنم ﴿هَـذَا﴾ مثـل هـذا الـذي ذكرنـاه ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ جملة مرتبة على الجملة السابقة وقوله ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّـاقٌ﴾ أي هو حميم وغساق. وقوله ﴿وَآَخَرُ مِنْ شَـكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أي ومـذوق آخـر من شـكل الحميم، أو عـذاب آخـر من شـكله وقولـه ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أي هـذه أصناف من المذوق والحميم الماء الشديد الحرارة، والغسـاق عين مـاء يسيل في جهنم منتن جدا وقوله تعـالى ﴿هَـذَا فَـوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ من مقول ملائكة العذاب لأهلـه فتقـول لهم: هـذا فـوج، أي جمـع كثـير من أتباعكم في الضلال مقتحم معكم أي داخل في الشدة والعـذاب معكم. وقوله تعـالى ﴿مَرْحَبًـا بِهِمْ﴾ دعـاء من رؤسـاء الضـلال المتبـوعين على أتباعهم، يعـني لمـا قـالت الملائكـة للمتبـوعين ورؤسـاء الضـلال الكلام المذكور، قال الرؤساء في الجواب لا مرحبا بهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي لا أهلا بهم ولا مرحبا لأنهم ليسوا أناسـا طيـبين، فـإنهم صـالوا النـار أي داخلون في نار جهنم. ولما سمع الأتباع. ذلك ﴿قَـالُوا بَـلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًـا بِكُمْ﴾ أي أنتم أحق بمـا قيـل لنـا ﴿أَنْتُمْ قَـدَّمْتُمُوهُ﴾ أي العـذاب ﴿لَنَا﴾ إذ لولا أنتم لكنا مؤمنين، ولكنكم ورطتمونا في الكفر وقدمتم ذلك العذاب لنا جميعا. ﴿فَبِئْسَ الْقَـرَارُ﴾ أي فـبئس المقـر جهنم ﴿قَـالُوا﴾ أي الأتبـاع أيضا:

﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَـزِدْهُ عَـذَابًا ضِـعْفًا فِي النَّارِ﴾ لأن من سـنّ سـنة سيئة تحمل وزرها ووزر مَن عمِل بها.

﴿وَقَالُوا﴾ أي الكفار الطاغون بعضهم لبعض: ﴿مَا لَنَا لَا نَـرَى رِجَـالًا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْـرَارِ﴾ أي من الفاسـدين المفسـدين. وقولـه تعالى ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ إن كـان بكسـر الهمـزة كـانت الجملـة صـفة ثانية لقوله ﴿رِجَالًا﴾ فيكون قوله ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ مقابلا لقولـه مالنا لا نرى رجالا. والمعنى مالنـا لا نـرى الرجـال الـذين كنـا في الـدنيا نعدهم من الأشرار وكنا اتخذناهم سخريا نسخر بهم، أليسوا فيها فلذلك لا نراهم، أم زاغت عنهم أبصارنا وما رأينـاهم وهم فيهـا، وإن كـان بفتح الهمـزة أي الاسـتفهامية الداخلـة على همـزة الوصـل فيكـون قولـه أم زاغت عنهم مقابلا لقولـه اتخـذناهم سـخريا. وأم متصـلة يعـني مالنـا لا نرى اليوم في جهنم رجالا كنا نعدهم في الـدنيا من الأشـرار. هـل علـة عدم رؤيتهم اليـوم هـو أننـا اتخـذناهم سـخريا في الـدنيا أو أن أبصـارنا كانت تعلو وتتكبر عن النظر إليهم، ولـذلك جـزاهم اللـه تعـالى بـدخول الجنة فلا نراهم بين أهل النار؟ ويجوز أن تكون أم منقطعة على معـنى مالنا لا نرى رجالا كنـا نعـدهم من الأشـرار؟ هـل علـة عـدم رؤيتهم أنـا اتخذناهم سخريا في الدنيا فأكرمهم الله تعالى اليوم بـدخول الجنـة، أو شيء آخر؟ بل ليس علة عـدمها الاسـتخار بهم في الـدنيا واضـرب عن ذلك حيث زاغت عنهم الأبصار وما كنـا ننظـر إليهم اسـتكبارا. فـاليوم لا نراهم لدخولهم الجنة. وقوله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ أي إن مـا ذكـر من أقوال الكفار بينهم بعضهم لبعض ﴿لَحَقٌّ﴾ وهو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لمشركي مكة ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ أنذركم بعذاب اللـه يـوم القيامة ولست مسيطرا عليكم أو أنا منذر ولست بساحر ولا كذاب

ولا كـاهن ولا مجنـون، وإن كلامي حـق وصـدق وليس شـيئا مبنيـا على التنبؤ، ولا كلاما يشوبه اختلال العقل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ يعبـد بحـق ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الذي لا يقبل الكثرة في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله على معنى أن كل صفة منها مختصة به تعالى لا يشاركه فيها غيره، وأن كـل فعل من أفعاله هو الذي ينفرد به وليس مما يعاونه فيه غـيره ﴿الْقَهَّارُ﴾ المسـيطر على كـل شـيء ﴿رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا﴾ من الموجودات ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ المبالغ للمغفرة يغفر كل ذنب سوى الكفر ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي أن ما أخبرتكم بـه وهـو إنمـا أنـا نـذير نبـأ عظيم وخـبر خطـير أنتم مسـتمرون في الإعـراض عنـه، والـدليل على أني أنـا النـذير المـبين أنـه ﴿مَـا كَـانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِـالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي الملائكـة الكـرام المتكلمين بينهم في مسـائل تكلما يشبه التخاصـم وليسـوا متخاصـمين بـل متقـابلون في الكلام ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾. ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ واضح الإنذار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)﴾

قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ ظرف لما قبله أو متعلق بـأذكر المقدر أي واذكر إذ قال ربك ﴿لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ والبشر هو الجسم الكثيف الذي يمسك ويباشر أو يبدو بشرته للعين، ومعنى خلقه منه أن اغلب مادته ذلك فلا ينافي وجود الماء وغيره ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي صورته بالصورة الإنسانية على أحسن تقويم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ أي أفضت عليه الروح الانسانية التي هي من أمري بسهولة كنفخ في شيء، وصار إنسانا حيا له مقامهُ ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي فضعوا جباه الكرامة على أرض الخدمة تحية وتشريفا له لا عبادة وتقديساً ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي ولما خلقه وسواه ونفخ فيه الروح سجد الملائكة حسب الأمر ﴿كُلُّهُمْ﴾ بكل احترام ﴿أَجْمَعُونَ﴾ لم يبق منهم أحد ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ إما استثناء متصل على التغليب لأن إبليس كان مغمورا بينهم وموصوفا بصفاتهم، أي موظفا بوظائفهم ومعدودا منهم، فكأنه من أفراد نوعهم، فيكون قوله تعالى استكبر استئنافا لبيان كيفية إبائه عن السجود، وإما استثناء منقطع، وإلا بمعنى لكن، فيكون قوله استكبر خبرا، أي لكن إبليس استكبر، والاستثناء المنقطع في القرآن الكريم كثير ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ من السجود لآدم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ لاستكباره عن تلبية أمره تعالى وعناده لا لنفس ترك السجود، فإن تارك المأمورات كثير ولكن لا نكفر أحدا منهم بمحض ذلك.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿يا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي بقدرتي المؤثرة إيجابا وسلبا سويته على ما أردت ومنعت دخول شيء في طينة خلقه مخالفا لما قررت ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ وعددت نفسك كبيرا من غير استحقاق ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ واقعا وذاتا ومستحقا للعظمة ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ذاتا وحقيقة، فأنا من العالين في الواقع بالنسبة إلى آدم وسره أنه ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ وهي جوهر لطيف ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وهو عنصر كثيف ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مرجوم ومطرود ومبعد عن الرحمة حيث اعترفت بأنك مخلوق لي وأنا خالق لك، واخترت جوهرا لطيفا لذاتك مع أنك عصيتني وخالفت أمري على ملأ عظيم من ملائكة التكريم ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي وإن طردي وإبعادي لك من رحمتي باقية ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ لأنك عارضتني وعارضت حكمتي في خلق ما أردت خلقه ومعارضة الحكمة توجب الابتعاد عن الرحمة.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي مادام قد أبعدتني عن ساحة الرحمة إلى الأبد فأمهلني لإغواء العباد وإبعادهم عن الرشاد ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الذي قدرته للإمهال ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ باتباع هواهم بحيث يضلون عن طريق هداهم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله عن غشاء الهوى، أو الذين أخلصوا قلوبهم لاتباع سبيل الهدى. ﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فَالْحَقُّ﴾ مبتدأ أي فالقول الحق الثابت المطابق للواقع ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ حال أي وأنا لا أقول إلا الحق والخبر ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ أي من جنسك من مردة الشياطين ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من الإنس والجن التابعين له ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بلا استثناء.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لكفار مكة وسائر الكافرين: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على هذا القرآن الكريم المرشد إلى الصراط المستقيم وتبليغه إليكم وبيانه بحيث يتضح لكم ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جليل أو قليل، وليس أجري إلا على الله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي من الذين يتصنعون بغير ما في صنعهم، ويتحلون بما ليسوا من أهله حتى آتي بهذا القرآن من عندي ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ جليل باللسان تهليلا وتحميدا وتسبيحا وتقديسا، وبالقلب إيمانا وشكرا واعترافا وانقيادا وبسائر جوارحي فيما كلفت به من إطاعة رب العالمين، وليس بالذكر الخاص بنوع أو بصنف أو فرد بل هو ذكر عام ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من العقلاء المطيعين لرب العالمين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي ولا شك أنكم تعلمن نبأه أي نبأ نفوذه في العالم، واستفادة المكلفين منه، أو ما أخبر به من الثواب للمطيعين والعقاب للعصاة المجرمين، وذلك ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ من الزمان، أي في الدنيا أو في الآخرة في موقف الحساب عند احكم الحاكمين.

سورة الزمر

مكية، وهي خمس وسبعون آية، نزلت بعد سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)﴾

قوله تعالى ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ مبتدأ مضاف وقوله ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ خبره أي هذا التنزيل الجليل المزيل لغشاوة الجهل والكفر

<498>

والرذائل عن القلوب لمن يداويه، نازل من الله العزيز الذي لا يقهـر ولا يغالب الحكيم في شئونه كلها ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَـابَ﴾ وهـو القرآن بالحق أي متلبسا بالحكم الحق وهو أن الله هـو المعبـود لا غـير ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ وحده لا شريك له ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ عن شوائب فاسدة مفسدة خفية وهي الإشراك بالله والريـاء وإرادة غـير اللـه تعـالى بهـا، وعن المبطلات في آدابها وشروطها وأركانها، وإذا عبدته كذلك سـعدت في الدارين وصعدت إلى الكرامة ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي إن العمل والطاعـة للـه وحـده لا شـريك لـه فيـه، فلا يمكن أن يعمـل أحـد عملا ويتوجه إلى الله به ّإلا إذا كان مجرداً عن شـوائب اختلاط الغـير، سـواء كـان بطريـق الشـرك الجلي أو الخفي، ولكن الشـرك الجلي كفـر، والشرك الخفي مكر سيء ولا يحيـق المكـر السـيء إلا بأهلـه، ومعـنى إحاطة هذا المكر بأهله إما حبوط العمل المقرون به كما هـو المشـهور من أن العمل مع الرياء ساقط بالـذات أو نقص مـا يسـاويه من الجـزاء كما هو الظاهر وأشـار إليـه بعض المحققين. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَاءَ﴾ من الأصنام الذين يعبدونها معه حالكونهم قـائلين: ﴿مَـا نَعْبُـدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَـــا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي قريـــة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وبين خصومهم الموحدين ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ويأمر بإهانة المشـركين بالتعذيب وإكرام الموحـدين بـالتنعيم؛ فالموصـول مبتـدأ وهـذه الجملـة خبره. أو ما دام أولئك المتخذون من دون الله أولياء باقين على مـا هم عليه من الكذب في الكلام وتكذيب رسول الإسلام والكفر بالله الواحـد العلام فلا ينظر إليهم اللـه تعـالى ولا يهـديهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي مَنْ هُـوَ كَـاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ وهـذه الـدعاوى الفارغـة الـتي عنـدهم من أن اللـه اتخـذ أولاداً، وأنّ الملائكـة بنـات اللـه، وأن عيسـى ابنـه إلى غـير ذلـك من الأشياء... خرافات لا أصل لها.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ والمخلوق أثـر حادث لا مناسبة له مع ذات واجب الوجود حتى يمكن أن يصير ولدا لــه قطعا فيمتنع تحقق ولد له في الواقع، فآل الكلام إلى أنـه لـو أراد اللـه أن يتخذ ولدا له لزم أن يكون الولد الحادث واجبـا من نـوع أصـله، لكن التالي باطـل فالمقـدم كـذلك. ولـذلك نـزه اللـه سـبحانه وتعـالى ذاتـه المقدس عن مثل ذلك الدنس، وقال ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي ننزهـه تنزيهـا بليغـا عن ذلك ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي هو الذات الواجب الوجـود الجـامع لكماله الواحد في الخلق والمعبودية الغالب على كل شيء.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي متلبسا بإرادة الحق وهو العرفـان والإيمان والإحسان من مخلوقه المكرم ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَـوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ وتصرفه المبدئي الإجمالي الاستمراري هـو أنـه يلـف الليل على النهار فيستر ضياءه ويكور النهـار على الليـل فيسـتر ظلامـه بالضياء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لتطـبيق هـذا التكـوير ﴿كُـلٌّ يَجْـرِي﴾ على مـدار خـاص ومـيزان خـاص مضـبوط لا يختلـف على مـر العصـور والدهور ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلى نهاية مدة محـدودة معينـة لهـذا التصـرف ﴿أَلَا﴾ تنبهوا يا أصحاب العقـول ﴿هُـوَ الْعَزِيـزُ﴾ القـادر على كـل مـا يريـد ﴿الْغَفَّارُ﴾ لكل عاص لا يكفر بربه المجيد.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَأَنْـزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَـامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَـاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَـهُ الْمُلْـكُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ فَـأَنَّى تُصْـرَفُونَ (6) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْـكُرُوا يَرْضَـهُ لَكُمْ وَلَا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَـرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)﴾

ثم أتى بدليل آخر على وحدته بقوله ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي بعد أن خلق العالم أحبّ أن يخلق فيه من يعرف خالق الكون فيعبده فخلقكم أيها البشر من نفس واحدة، أي آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء فإنها خلقت من أسفل أضلاعه اليسرى على معنى أنها خلقت من جزء منها وبقي الباقي لصاحب الأصل ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ أي لمعيشتكم ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ من الإبل والبقر والضأن والمعز الذكر والأنثى، فإذا خلي البشر ونفسه وكان مع هذه الأزواج عاش بالابتهاج يلبس من الجلود والأشعار والأوبار والصوف ويشرب من الألبان، ويأكل من اللحوم فإذا اعتادها استغنى عن كثير من الأتعاب. وقرر بعض الناس أن هذه الفقرة دليل آخر على وجود الباري، ولكن النفس تتحاشى عن ذلك ويؤخذ منها أدلة جليلة على ذاته وصفاته.

ثم أخذ يبين كيفية خلق ما ذكر عما ذكر إنسانا أولا وقال ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ أي أنتم والأنعام معكم ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ من نطفة تنزل من آبائكم تمتزج بماء أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ إنسانا سويا أو حيوانا بهيا بعد المضغة، وخلقها بعد العلقة، وخلقها من النطفة ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة المشيمة بعد ظلمة الرحم، بعد ظلمة البطن ﴿ذَلِكُمُ﴾ الخالق الباري المصور ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ والسلطنة على الاطلاق ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته مع كثرة موجباتها ودواعيها وانتفاء موانعها إن كنتم تتفكرون؟

ثم وعظ الباري عباده ببيان استغنائه عنهم، وإنما يعظهم لنفعهم ورفع درجاتهم وقال ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ أيها الناس مع مشاهدة جميع هذه الأدلة النفسية والأفقية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ ولا يعود ضرر كفركم إليه تعالى ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لما فيه من موافقة الأمر ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا تحمل نفس قابلة لحمل الأثقال أثقال النفس الأخرى ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنه عليم بذات الصدور فضلا عما يجري علنا من الأمور.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8) أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)﴾

قولـه تعـالى ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَـانَ﴾ بيـان لحـال النـوع المتذبـذب الغـير المستقر فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ أي من خـوف أو فقـر أو مذلة أو هوان ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي تضرع إلى ربه ودعاه لكشـف ضره، راجعا إليه ونادما مما كان يعتمد عليـه سـابقا ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَـهُ﴾ أي أعطاه ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ أي نعمة عظيمة لها قدر ﴿نَسِيَ مَا كَـانَ يَـدْعُو إِلَيْـهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو اللـه من قبـل لكشـفه ودفعـه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ الأنداد من الأضداد يسـتعمل بمعـنى المثـل والضـد، وكلاهما يجوز اعتباره هنا أي وجعل لله شركاء زعمهم مساوين مماثلين له تعالى، ليضل بـذلك الجعـل النـاس عن سـبيله ﴿قُـلْ﴾ لهـذا الإنسـان البعيـد عن الإحسـان ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْـرِكَ قَلِيلًا﴾ أي متاعـا قليلا أو زمانـا قليلا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـابِ النَّارِ﴾ أي من المعـذبين بهـا والمـداومين فيهـا على الاستمرار.

ثم ذكر التباين بين هذا الصنف الفاسد وصنف آخر من الإنسـان الماجـد فقال ﴿أَمْ مَنْ هُـوَ قَـانِتٌ آنَـاءَ اللَّيْـلِ﴾ أي عابـد في أوقـات الليـل بـأداء الفرائض والواجبات وغيرها من صلاة الليل ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ حـالان من فاعـل الوصـف، أي حالكونـه جامعـاً بين الوصـفين المحمـودين ﴿يَحْـذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فينجـو بـذلك ممـا يحـذره ويفـوز بمـا يرجـوه ﴿قُـلْ﴾ لـه أيضـا بيانـا للحـق: ﴿هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُـونَ﴾ فيعملـون بمقتضـى علمهم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُـونَ﴾ الأحكـام فيعملـون على الجهـل. وكذا الذين يعلمون ولا يعملون على مقتضى العلـوم ﴿إِنَّمَـا يَتَـذَكَّرُ أُولُـو الْأَلْبَابِ﴾ جملة مستأنفة

لبيان الواقع وحصر التفكر السليم والتذكر المستقيم في أولي الألباب والعقول الخالصة.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي احذروا مخالفة أمر ربكم ونهيه لتكونوا من المحسنين، فإن ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ بأن أطاعوا الله ورسوله وامتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهي بإخلاص ﴿حَسَنَةٌ﴾ عظيمة لا يقدر قدرها ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ جدا فإن لم يمكنكم الإحسان في أرض ووجدتم سبيلا إلى أرض أخرى أوفق له فتحولوا إليها، وإذا أتعبتكم موانع فاصبروا ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي أجرا لم يكن في حسبان المأجور أو أجرا لا يعد ولا يحسب بسهولة.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ فمن تبعني فليعبده موحدا مخلصا ليكون من الناجين ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ في هذه الرسالة، أو أكون أول وأرقى مسلم من المسلمين لأن حق المتبوع أن يكون رفيع القدر على اتباعه وعظيم الجاه. وجاهدوا حتى تكونوا من الأقربين إلى الأوائل ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ أي عملي وطاعتي ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ إن أردتم أن تكونوا من الخاسرين.

﴿قُلْ﴾ يا رسولي ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي الناس الكاملين في الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ باختيارهم الكفر والضلال والإشراك بالله الواحد المتعال ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أي وخسروا أهليهم أي أولادهم وأتباعهم حيث عرضوهم للعذاب السرمدي ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الواضح ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ من النار يعني تعلو على رءوسهم لهيب النار كالمظلة

فوق الرءوس ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي أطباق من اللهيب وتسميتُها ظللاً للمشاكلة ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب والظلل المحيطة بالجوانب ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ في الدنيا لعلهم يتعظون، ثم يناديهم تأكيدا على حفظ مبادئهم ويقول: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ بالدخول في الإطاعة الكاملة لنيل المثوبة الحسنى يوم الدين.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)﴾

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾.. الآية والطاغوت مصدر طغى يطغى، وأصله طغووت على وزن فَعَلوت كالجبروت والملكوت، فقلب اللام إلى محل العين صار طوغوت، ثم قلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها. وقال ابن زيد: إن الآية نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلاّ الله: زيد بن عمرو بن نفيل، وسلمان، وأبو ذر. وقال ابن إسحاق: أشير بها إلى عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، والزبير. وذلك لما أسلم أبو بكر سمعوا ذلك فجاءوه وقالوا: أسلمت؟ قال: نعم، فآمنوا بأجمعهم، فنزلت فيهم. وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة.

والطاغوت وإن كان مصدرا بمعنى الطغيان فهو كناية عن الشيطان، والمراد هنا الأصنام الذين أمر الشيطان أولئك الكفار بعبادتهم. وحاصل

المعنى والمؤمنـون الـذين اجتنبـوا الطـاغوت أي الأصـنام ﴿أَنْ يَعْبُـدُوهَا وَأَنَـابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وأقبلـوا إليــه سـبحانه وتعـالى ﴿لَهُمُ الْبُشْـرَى﴾ من الملائكة عند حضور المـوت وحين يُحشـرون، وبعـد ذلـك أيضـا ﴿فَبَشِّـرْ عِبَادِ﴾ ي ﴿الَّذِينَ يَسْـتَمِعُونَ الْقَـوْلَ فَيَتَّبِعُـونَ أَحْسَـنَهُ﴾ وهنـا ثنـاء جميـل بأنهم مميـزون بين الحسـن والأحسـن ويختـارون الأفضـل بالنسـبة إلى الثـواب في الآخـرة، فـإذا سـمعوا أمـرا بشـيء واحتمـل الأمـر النـدب والوجوب حملوه على الثاني للخروج عن العهدة بيقين وأخذ المزيد من الأجر. وإذا دار الحال بين العفو والقصـاص اختـاروا العفـو، وإذا اختلـف في مقـدار الـدين الـواجب عليهم بين النـاقص والزائد اختـاروا الزائـد لـبراءة الذمـة، وهكـذا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَـدَاهُمُ اللَّهُ﴾ إلى سـعادة الـدارين ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾أي العقول السليمة.

ثم ذكر اللـه تعـالى أضـداد المـذكورين وقـال: ﴿أَفَمَنْ حَـقَّ عَلَيْـهِ كَلِمَـةُ الْعَذَابِ﴾كـأبي جهـل وأمثالـه، والكلمـة قولـه تعـالى لأملان جهنم منـك وممن تبعك منهم أجمعين ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِـذُ﴾ وتخـرج ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ وفي الآية استعارة مكنية تمثيلية؛ حيث شبهت الهيئة المنتزعة من اسـتحقاق جمع من المشركين في الدنيا لعذاب الآخرة، وجهد الرسول صلى اللــه عليه وسلم في إرشادهم وزجرهم عن الإشراك، وعدم وجود النفـع في ذلـك بهيئـة منتزعـة عن جمـع واقعين في نـار جهنم معـذبين، وسـعي الرسـول الشـفيع لإخـراجهم عنهـا، وعـدم الاسـتفادة من ذلـك لعـدم استجابة الباري جل شأنه لذلك لصدور إرادته بعدم المغفرة لمن أشرك به والقرينة هي أفأنت تنقذ من في النـار. وحاصـل المقصـود أن أولئـك المشركين المصرين على الإشراك صـدرت الإرادة بـدخولهم نـار جهنم فجهدك في إرشـادهم كجهـدك في إخـراج من في نـار جهنم عنهـا بعـد صدور إرادة الله تعالى ببقائه فيها.

وقولـه تعـالى ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَـوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُـرَفٌ مِنْ فَوْقِهَـا غُـرَفٌ﴾ اسـتدراك ودفـع لمـا يتـوهم من قلـة الفـرق والتفـاوت بين القـبيلين: المتقابلين أعني المؤمنين والكافرين على اعتبار أن الفرق كبـير جـداً لا يدخل تحت التقرير، وهو مـا أفـاده بقوله،: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَـوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُـرَفٌ مِنْ فَوْقِهَـا غُـرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ وَعْـدَ اللَّهِ﴾ أي وعدهم الله بذلك وعدا صادقا ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَـرَاهُ مُصْـفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُـهُ حُطَامًـا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (21) أَفَمَنْ شَـرَحَ اللَّهُ صَـدْرَهُ لِلْإِسْـلَامِ فَهُـوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُـوبُهُمْ مِنْ ذِكْـرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًـا مُتَشَـابِهًا مَثَـانِيَ تَقْشَـعِرُّ مِنْـهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُـوبُهُمْ إِلَى ذِكْـرِ اللَّهِ ذَلِـكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَقِيـلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُـوا مَـا كُنْتُمْ تَكْسِــبُونَ (24) كَــذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَــاهُمُ الْعَــذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِـزْيَ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَلَعَـذَابُ الْآَخِـرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (26)﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ استئناف لبيـان آثـار قدرته تعالى من حيث إنزال الماء منَ السماء وجعلهِ من أسباب تَكَـوُّنِ اليَنابيع في الأرض سهولها وجبالها، وإنبات الأشجار والنبـات منهـا، وفي الوقت عينه لإفادة أن الحيـاة الإنسـانية الباديـة أولاً بنضـارة وبهجـة، ثم عروض العوارض عليها كنبات ينبت بمـاء السـماء ثم يصـير حطامـا، أي أن الدنيا متاع مُؤقت والآخرة خيرٌ وأبقى، يعني ألم تَرَ يا من تمكن منـه الرؤية أن الله انزل من السماء ماء ﴿فَسَـلَكَهُ﴾ أي أدخلـه في ﴿يَنَـابِيعَ﴾ وعيون كائنة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كـالعروق في الأجسـاد ﴿ثُمَّ يُخْـرِجُ بِـهِ زَرْعًـا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي أن الأرض أرض واحدة بالصـنف، وكـذلك المـاء ومـع ذلك يخرج الله تعالى حسب إرادته زروعها مختلفـة الألـوان ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي ييبس ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ من بعد الخضرة ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أي فُتاتاً مُتكسِّـرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ﴾ العمـل المـذكور ﴿لَـذِكْرَى﴾ لتـذكيرا ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾بخالق قادر مريد مـراقب عـالم بالجزئيـات والكليـات إلى غـير ذلك مما يبدو للعاقلين.

وقوله تعالى ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْـلَامِ فَهُـوَ عَلَى نُـورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ إفادة واضحة لانقسام المكلفين الى قسمين فقسم شـرح اللـه صـدره للإسلام بعنايته ورعايته على حسب السعي والميل والرغبـة الذاتيـة لـه نحو الخير ﴿فَهُوَ﴾ أي ذلك القسم مستقر ﴿عَلَى نُـورٍ﴾ روحي آتـاه ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ إفاضة من رحمته على حسب علمـه بحسـن نيتـه وجـودة عطفـه وعنايته، وخبر الموصول محذوف مفصول مدلول عليه بمـا يـأتي بقولـه ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُـوبُهُمْ مِنْ ذِكْـرِ اللَّهِ﴾ أي ليس من شـرح اللـه صـدره وصرف عمره في إطاعة مولاه كمن قسـا قلبـه وكسـلت جوارحـه عن أداء واجباته.

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلنا: يا رسول الله كيف انشراح الصدر؟ قال:

((إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح)) قلنا: فما علامة ذلك يا رسـول الله؟ فقال: ((الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للمـوت قبـل نزولـه)). وإذا تقـرر أن القسـمين متباينـان وأن الفـريقين متخالفان أتى بما يناسب القسـم الأخـير فقـال ﴿فَوَيْـلٌ﴾ وعـذاب هائـل ﴿لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي للفرقة القاسـية قلـوبهم عن ذكـره تعـالى ﴿أولَئِكَ﴾ النـاس القسـاة قلبـا ﴿فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ﴾ عن الصـراط المستقيم، وفي نكال ووبال وفي العذاب المقيم.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَـعِرُّ مِنْهُ جُلُـودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهمـا أن قومـا من الصـحابة قالوا: يا رسول الله حدثنا بأحاديث حِسانٍ وبأخبار الدهر، فـنزلت. وعن ابن مسعود أن الصحابة ملوا ملَّةً فقالوا له عليه الصلاة والسلام: حدثنا فَنَزَلت. أي إرشاداً لهم الى ما يزيلُ مَلَلهم وهو تلاوة القرآن واسـتماعه منه غضاً طرياً. بنى الله الكلام على اسم الجلالة إجلالاً للخـبر، وتكثـيراً لخـيره، واهتمامـاً بـالحكم. وفي صـيغة التفعيـل بيـان لـدفعات نزولـه التـدريجي المفيـد للحكم والمصـالح المخصوصـة المنصوصـة. وقولـه ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ بيان لتفوقه على جميع الكتب السماوية من حيث أنه تعبـد بتلاوتـه، وتحـدي ببلاغتـه، وأديم بشـريعته مُفصـلاً ببيـان الأحـاديث لاسيما الأحاديث الصحاح الواردة من حضرة صاحب الرسالة التي تخلـو من العيوب والريوب. وأبدل عنه ﴿كِتَابًا﴾ لبيان أنه كتاب من كتبه تعـالى الذي يجب الإيمان به واعتبر ركنا من إيمان المؤمن وقولـه ﴿مُتَشَـابِهًا﴾ معنـاه أنـه يشـبه بعضـه بعضـا من حيث الصـحة والصـدق والفصـاحة والبلاغـة والاشـتمال على الأحكـام الأصـولية والفروعيـة وغيرهمـا من القصـص والمواعـظ والإرشـادات ﴿مَثَـانِيَ﴾ مكـررة في التلاوة وفي الصلوات وفي إفادة الأحكام ومكررة في التأثير

للقلوب، فإن آياتـه الجليلـة كالسـيوف المسـلولة كلمـا تليت أثـرت في القلوب وساعدت في تفريج الكـروب بحيث ﴿تَقْشَـعِرُّ مِنْـهُ جُلُـودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لتأثير خاص فيها بالرهبة والهيبة الربانية ﴿ثُمَّ﴾ بعد برهـة من الوقت ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ ساكنة راغبة ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ذلـك هـدى اللـه يهـدي بـه من يشـاء أي ذلـك الكتـاب وسـيلة الوصـول الى المأمول الحق يهدي به بإرادتـه وتوفيقـه من يشـاء هدايتـه إلى صـراط مستقيم. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي يخلق الضلالة فيه بسـبب إعراضـه عن الإرشاد الحق ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهدينه ويخلصه من ورطة الضلال.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾ الذي هو أشرف أعضـائه ﴿سُـوءَ الْعَـذَابِ﴾ الـوارد عليه يوم القيامة وخبر الموصـول محـذوف أي كمن لا يعـذب بـل يتنعم في الجنة مع الأحباب وقوله ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ جملة مستقلة مسـتأنفة لبيان تعذيبهم بـالقول إضـافة الى تعـذيبهم بالنـار، أي وقيـل للظـالمين وهم المتقون بالوجوه سوء العذاب: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وبال وجـزاء مـا كنتم في الـدنيا تكسـبونه من السـيئات. ﴿كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المشـركين ﴿فَأَتَـاهُمُ الْعَـذَابُ﴾ المقـرر لهم في الـدنيا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يحتسبون مجيئه منه كالبركان والـريح والسـيل وما شاكلها ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِـزْيَ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا﴾ من وجـوه كثـيرة منها الوجوه المذكورة ﴿وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وأشد وأفـزع وأفظـع من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَـلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ (27)
قُرْآَنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِـوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُـونَ (28) ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيـهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْـدُ لِلَّهِ بَـلْ
أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُـونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَـوْمَ
الْقِيَامَـةِ عِنْـدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِـمُونَ (31) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَـذَبَ عَلَى اللَّهِ
وَكَذَّبَ بِالصِّـدْقِ إِذْ جَـاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْـوًى لِلْكَـافِرِينَ (32) وَالَّذِي
جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُـونَ (33) لَهُمْ مَـا يَشَـاءُونَ عِنْـدَ
رَبِّهِمْ ذَلِـكَ جَـزَاءُ الْمُحْسِـنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْـوَأَ الَّذِي عَمِلُـوا
وَيَجْـزِيَهُمْ أَجْـرَهُمْ بِأَحْسَـنِ الَّذِي كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (35) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَـافٍ
عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَـهُ مِنْ هَـادٍ (36)
وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (37)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ ضَـرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ أي ولقـد ذكرنـا للنـاس ﴿فِي هَـذَا الْقُرْآَنِ﴾ العظيم ﴿مِنْ كُـلِّ مَثَـلٍ﴾ يحتـاجون إليـه في الاتعـاظ والاعتبـار ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ﴾ بـه ويتقـون اللـه ويطيعونـه ورسـوله، حـالكون هـذا القرآن ﴿قُرْآَنًا عَرَبِيًّا﴾ في المفردات والمركبـات، مـراعى فيـه أسـلوب العرب العرباء من حيث المطابقة، لمقتضـى الحـال والمقـام ﴿غَيْـرَ ذِي عِـوَجٍ﴾ أي غـير ذي اختلال فيمـا ذكـر ولا في أصـل المعـنى والمفهـوم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي الناس ﴿يَتَّقُونَ﴾ أي يتقون مخالفة أحكام الله.

ومن جملة الأمثال المضروبة مـا يـأتي في قولـه الكـريم: ﴿ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي جعـل اللـه رجلا مثلا أي ذا قصـة بديعة يعتبر بها أعني ﴿رَجُلًا﴾ كان عبـدا ﴿فِيـهِ شُـرَكَاءُ مُتَشَاكِسُـونَ﴾ أي متعاكسون في الرأي وكل منهم يأمره بشيء وينهـاه عن شـيء لسـوء أخلاقهم واختلاق ميولهم

<511>

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أي ورجُلا خالصا مملوكا ﴿لِرَجُلٍ﴾ واحد يأمره وينهاه ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي هل يستويان في الحال والوضع؟ والجواب: كلا؛ فإن الأولى في عناء وحيرة وفي جفاء من عدم البصيرة، فإذا أطاع الكل عارضه جمع الضدين أو النقيضين، وإذا عصى الكل جعلوه في القيد والغل. والثاني إما في راحة مطلقا إن كان الرجل يأمر بالمستطاع وينهى عنه أو في راحة قلبية وعناء بدني إن كان المأمور به أو المنهي عنه ثقيلا لا يتحمل بسهولة، فالإنسان المشرك كرجل بين شركاء متشاكسين متعاكسين، والموحد كالإنسان الخادم لمولى واحد شريف ماجد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على فهم عدم الاستواء بين الجانبين فان ذلك من مقتضيات الفطرة السليمة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عدم الاستواء بينهما وإن كان من البديهيات، وذلك لاختلال عقله واعتلال نظره.

وإن لم ينتفعوا بضرب الأمثال وإن كانت من البديهيات فلا تهتم بالمشركين الغرقى في السيئات والضلالات ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ إن قريبا أو بعيدا ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم ويحتجون، تحتج بالتبليغ على وجه الأمانة، ويحتجون عليك بأكاذيب تافهة يردها عليهم الشهداء من أسماعهم وأبصارهم وأرجلهم وأيديهم، ومن الليل والنهار، ومن ملائكة الجبار ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بأن أضاف إليه اتخاذ الولد أو الشريك ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ أي وكذب بالأمر الذي هو الحق والصدق من التوحيد لرب العالمين ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ ذلك ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ وهو التوحيد أو القرآن المشتمل عليه ﴿وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ والموصول هو الرسول عليه الصلاة والسلام بالدرجة الأولى، وأصحابه بالدرجة الثانية والتابعون بالدرجة الثالثة.

وهكذا فإن كلا من الكل جاء أصالة أو وكالة في التبليغ بما ذكر وصدق به والحمد لله. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من المثوبة الحسنى وزيادة عليها ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين عبدوا ربهم كأنهم رأوه ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يحسن ما قاموا به ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ على فرض وجوده ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيأخذ الباري تعالى من عباداتهم أحسنها ويجزيهم على مستواه. وإذا خوفوك ببعض الأمور التي توجب القلق في النفس من قتلك أو قتل أتباعك، أو إيذائك أو إيذائهم فلا تهتم بهم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ لمعارضة الأعداء المتوعدين بالمخاوف والمهالك والجواب بلى؛ فإنه هو الكافي حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ على تقاليدهم الخرافية ﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي لوصول الأذى إليكم من الذين يدعونه من دونه ولكنه لا قيمة لتخويفهم ولا لتهديدهم ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ عن طريق الحق والاستنصار بالحق ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ إلى الطريق السليم وهو الاستنصار بالناصر الحق المبين ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ إلى التوكل عليه والرجوع إليه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه الضالين لأوليائه المهتدين.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (40) إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي خَلَقهن الله. وذلك لوجود الأدلة الواضحة من الآفاق والأنفس. على أن نوع الممكنات يحتاج إلى فاعل مؤثر فيها يرجح الوجود على العدم.

﴿قُلْ﴾ تبكيتا لهم ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ ويقدرن على منع تأثير قدرته أو إزالة ما أثبته على نفسي من المضار ﴿أَوْ أَرَادَنِي﴾ أي أرادني ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ من المال أو الأولاد أو الجاه أو القربة إليه ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ وفي واقع الحال الجواب نفي للمجال. فإذا آل الأمر إلى صاحب الخلق والأمر فـ ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ جاذب البلاء وجالب النعماء، حسبي الله خالق كل شيء من النور والفيء، حسبي الله وبه يؤمن المؤمنون ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإذا قررت هذا فتوجه إلى الناس و﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾ ما شئتم ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ وحالتكم التي أنتم عليها ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على حسب وحي العليم العلام الكامل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ولا شك أنه المنحرف عن الصراط المستقيم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ كافة عامة فإنه مناط سعادتهم في الدارين، وأنزلناه متلبسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهو العدل الشامل، أو أنزلنا بالحق وهو التوحيد لله الكامل ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ للعمل بما فيه ﴿فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن طريق العمل به ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي على خسارة نفسه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ لتجبرهم، وإنما أرسلت لتبلغهم وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)﴾

قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي يقبضها ويأخذها ويقطع فعلها وتصرفها عن الأبدان حين حلول أجل موتها فتستقر في عالم الأرواح مع بقاء علاقتها بأبدانها تعلقا برزخيا ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ يعني ويتوفى ويقبض الأنفس التي لم تمت في حال منامها أي يمنعها عن الفعل والتصرف الإعتيادي في الأبدان بالقيام والقعود والتكلم المنتظم والكتابة وغيرها مما هو المعتاد ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ إلى وقت البعث والنشور ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ أي المقبوضة عند المنام إلى البدن ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى منام آخر فيتوفاها أيضا، وهكذا إلى الأجل المحتوم للقبض النهائي بالموت ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القبض والإمساك والإرسال ﴿لَآيَاتٍ﴾ بينات على قدرته تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن الإنسان نفسه وأوصافه وأحواله كلها من الله سبحانه وتعالى.

لا شك أن الشارع أمسك عن بيان الروح، فنمسك عن تفاصـيلها، ولكن المعلوم بالأدلة أن الجسد الحيواني والإنساني لما كمل تركيبـه واعتـدل مزاجه تعلقت به الـروح وهـذه الـروح سـواء كـانت إنسـانية أو حيوانيـة جسم لطيف عند جمهور المسلمين، سار في البـدن سـريان المـاء في الورد، وعند بعض المحققين كالإمام الغزالي رحمه اللـه تعـالى: جـوهر مجرد متعلق بالبدن تعلـق التـدبير والتصـرف، وهي في كـل الحيوانـات كذلك. والبخار الناشئ من التجويف الأيسر من القلب من شروط تعلق الروح بالأبدان. ولكن الأرواح تختلف في القابليات الى درجات عديدة لا يعلمهـا إلا اللـه تعـالى. والأرواح على الإطلاق مشـغولة بتـدبير البـدن والتصرف، حالا ومآلا باستعمال الحواس والمشاعر وبالفكر والنظر في حال اليقظة والقوة، فإذا تعبت الحواس وما أنيط بها من الأبدان أراحها الله تعـالى بالاسـتيلاء على أرواحهـا وإغفالهـا عن تـدبير الأبـدان، وهـذا الإسـتيلاء توفيـة وقبض للأرواح، لكن لا قبضـاً إخراجيـا بقطـع العلاقـة، وإنمـا هـو قبض واسـتيلاء عليهـا بمنعهـا عن الاسـتفادة من الحـواس والمشاعر، فإذا تمت مدة الاستراحة أعادها الله إلى حالتها الأولى. وإذا جاء الأجل المسمى لحياة صاحبها توفاها وقبضـها قبضـاً نهائيـا إلى يـوم البعث والنشور.

ولكن أرواح الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصـلاة والسـلام طلقـاء في الكائنات في الأرض والسماوات والجنـة والعـرش أينمـا شـاءت لاحبس عليها، ومع ذلك لهـا تعلـق بالأبـدان تعلقـا فـوق تعلـق أرواح الصـديقين والشهداء والصالحين، فإذا زارهم الزائرون انتبهوا بأمر الله تعـالى لـرد السـلام، وإذا صـلى على الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم مسـلم في مشارق الأرض أو مغاربها أخبر بذلك وأجابه اجابة برزخية لائقة بمقامـه الرفيع. وكذلك أرواح من عـداهم على اختلاف درجـاتهم، فـالأموات في القبور

كالأحياء وراء الستور، فلهم إدراك للزائرين بأمر الله تعالى، لأن للـروح علاقـة بهم، والـروح خالـدة لا تفـنى أبـدا. ويكفي في صـدق ذلـك قـول الرسول صلى الله عليه وسلم لعمـر عنـدما قـال لـه كيـف تتكلم معهم (أي قتلى بدر من المشركين) وهم جيف؟؟ « والذي نفسـي بيـده إنكم لستم بِأَسْمَعَ منهم ولكن لا يطيقون الجواب».

﴿أَمِ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُـفَعَاءَ﴾ أي أبـل اتخـذ قـريش من دون اللـه تعالى شفعاء تشفع لهم عند الله تعالى لدفع العذاب عنهم يوم القيامــة ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني قل لهم أو يتخــذونهم شفعاء إذا علموا أنهم لا يملكون شيئا من المنفعة ولا يعقلون شـيئا من المعقولات؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا حبيبي: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي كل شفاعة سواء في الدنيا والآخرة ولا علاقة لها بأحد مطلقا إلا بإذن الله ولا يـأذن لأحــد يشــفع إلا لعبــد مطيــع مخلص صــرف حياتــه في مرضــاته، لأن الشفاعة صفة تحدث في الكائنات و﴿لَهُ مُلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومـا فيهما ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فتطلعون على حقيقة كلام رب العالمين.

ثم ذكر الله تعالى بعض أوصافهم الذميمة فقـال ﴿وَإِذَا ذُكِـرَ اللَّهُ وَحْـدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾أي انقبضت قلوب الذين لا يؤمنون بـالآخرة ﴿وَإِذَا ذُكِـرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِــهِ﴾ وهم الأصــنام ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِــرُونَ﴾ لزيــادة محبتهم لهم وافتتانهم بهم.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَـالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أمر الله تعالى حبيبه بهذا الـدعاء تسلية لـه عن مقاسـاة شـدائد أقـوال المشـركين وأعمـالهم الفاسـدة، وعقائدهم الباطلـة فـإذا تعب الإنسـان وانقبض قلبـه فـاللجوء إلى اللـه دواؤه وشفاؤه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بيان لفظاعة العذاب الذي يرد عليهم يوم القيامة إذا حكم الباري تعالى بينهم. يعني ولو أن للذين ظلموا أنفسهم بالإشراك به تعالى ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب السيء الشديد ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ظهر لهم من صنوف العقوبات ما لم يكن في حسابهم زيادة في الوعيد.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ حين اطلعوا على الحقيقة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وأحاط بهم جزاؤه ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ لكشفه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أي أعطيناه ﴿نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي على ما كسبته بمقتضى علمي بالأمور وشئون التصرف في

المكاسب والأعمال ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي بل ذلك امتحان وبلـوى من رجح الحـق على الباطـل نجح، ومن عكس الأمـر افتضـح ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمـر كـذلك. ﴿قَـدْ قَالَهَـا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي قـد أضـاف النعمة الى علمه بعض من سبق في جهله وحلمه ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَـا كَسَبُوا﴾ أي أصابهم جزاء ما قالوا وما فعلوا ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْ هَـؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب السابقين ﴿وَمَـا هُمْ بِمُعْجِـزِينَ﴾ العزيـزَ المنتقم أبـدا ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ﴾ بيـده مقاليـد السـموات والأرض، وأن الله يبسط ﴿الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ﴾ أن يبسـط لـه ﴿وَيَقْـدِرُ﴾ لمن يشـاء أن يقـدر لـه، ولا دخـل لأي شـخص وأيّ شـيء في ذلـك إلا بالتسبب المعتاد وأن الله هـو المسـبب لهـا ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآَيَـاتٍ﴾ تـدل على أن الحـوادث كلهـا من اللـه وتلـك الآيـات حجـة نافعـة ﴿لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُـوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْـلِمُوا لَـهُ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَـأْتِيَكُمُ الْعَـذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَـرُونَ (54) وَاتَّبِعُـوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَـةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَـا فَـرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّـاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُـولَ لَـوْ أَنَّ اللَّهَ هَـدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُـولَ حِينَ تَـرَى الْعَـذَابَ لَـوْ أَنَّ لِي كَـرَّةً فَـأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آَيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْـتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59)﴾

قوله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ أي قل لهم على لساني يا عبادي الذين أفرطوا في المعاصي جانين عليها ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ولا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي لا تقنطوا فتظنوا أنه لا تقبل توبتكم وأنيبوا إليه تعالى ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ وانقادوا وأطيعوه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾. أخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول: لا يقبل الله تعالى من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوا، فنزلت هذه الآيات، وكان عمر رضي الله عنه كاتبا فكتبها بيده، ثم كتب بها إلى عياش والى الوليد والى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا. واخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآيات الثلاث ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ الى ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بالمدينة في وحشي وأصحابه وتخلل قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بين المتعاطفين تعليلا للجزء الأول قبل الوصول الى الثاني للدلالة على سعة رحمته تعالى، وأن مثله حقيق بأن يرجى وإن عظم الذنب لاسيما وقد عقب بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾... الآية الدال على انحصار الغفران والرحمة على الوجه الأبلغ، فالوجه أن يجري على عمومه ليناسب عموم الصدر، ولا يقيد بالتوبة لئلا ينافي غرض التخلل مع أنه جمع محلى باللام وقد أكد بما صار نصا في العموم والاستغراق.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إذا كان الخطاب للجنس على خلاف الظاهر فالمراد بما أنزل الكتب السماوية، وبأحسنه القرآن، وإن كان الخطاب للمخاطبين في أول الآية فالمراد بما أنزل هو القرآن، وأحسنه

ما تضمن الإرشاد إلى التوحيد والإخلاص في الطاعة والتخلـق بـالأخلاق الحسنة. وذلك الاتبـاع ﴿مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَـأْتِيَكُمُ الْعَـذَابُ بَغْتَـةً﴾ أي مفاجـأة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْــعُرُونَ﴾ بمجيئــه. وقولــه ﴿أَنْ تَقُــولَ نَفْسٌ﴾ في موضــع المفعول له بتقدير مضاف وهو كراهة مثلا، وهو منصوب بفعل محذوف أي أنذركم بأحسن ما أنـزل إليكم من ربكم كراهـة أن تقـول نفس ﴿يَـا حَسْرَتَا﴾ بالألف بدل ياء الإضافة ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾أي بسـبب تفـريطي وقصـــوري ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي في جهتـــه ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾أي وإني كنت ﴿لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي المسخرين، أي المستهزئين بكتاب اللـه ورسـوله ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصــي ﴿أَوْ تَقُــولَ حِينَ تَـرَى الْعَــذَابَ لَـوْ أَنَّ لِي كَـرَّةً﴾ أي رجوعـا إلى الـدنيا ﴿فَــأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِــنِينَ (58) بَلَى قَــدْ جَاءَتْــكَ آَيَــاتِي فَكَـذَّبْتَ بِهَــا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾أي عن قبولها ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَـرَى الَّذِينَ كَـذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُـوهُهُمْ مُسْـوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْـــوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَـــوْا بِمَفَــــازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَـلِ اللَّهَ فَاعْبُـدْ وَكُنْ مِنَ الشَّـاكِرِينَ (66) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)﴾

قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عـود على سـنته القويمـة من مـزج الوعـد بالوعيد والثواب بالعقاب ليتخذ المعتبرون طريق السعادة ويتوجهوا إلى هدف الطاعة فيقول: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ باتخاذ الولد والشريك حالكونهم ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْـوَدَّةٌ﴾ سـوادا واقعيـا من جـزاء تبديل لون الصورة في مقابلة تبديلهم الفطرة السـليمة بسـوء السـيرة أو سوادا عارضا مثل مـا قـال ﴿خَاشِـعَةً أَبْصَـارُهُمْ تَـرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وقـال ﴿وَوُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَـا غَبَـرَةٌ (40) تَرْهَقُهَـا قَتَـرَةٌ﴾ فيقـال مسـتنكرا من جـانب البـاري أو الملـك المـأمور ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْـوًى﴾ أي مقـام ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن طاعة الله العلام؟ والجواب الحق ﴿بَلَى﴾.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَـوْا﴾ عن الكـذب على اللـه ﴿بِمَفَـازَتِهِمْ﴾ بسـبب فوزهم برضاء الله تعالى فيخلصـون عن السـواد والغـبرة على الوجـوه ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي العذاب أيّـاً كـان ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ﴾ على عمـل فاسد لأنهم لم يرتكبوا المفاسد.

﴿اللَّهُ﴾ الذي نجاهم هو ﴿خَالِقُ﴾ كـل شـيء وحـده فهـو المعبـود وحـده ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ وَكِيـلٌ﴾ متـول وكفيـل بيـده ﴿مَقَالِيـدُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مفاتيحهما، والمقاليـد جمـع لا واحـد لـه من لفظـه، وقيـل جمـع مقلاد من التقليـد بمعـنى الإلـزام، وجعـل اسـما للآلـة المعروفـة للإلزام بمعنى الحفظ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِـرُونَ﴾ من حيث الاطمئنان النفسي في الدنيا والراحة في الآخرة.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَـأْمُرُونِّي أَعْبُـدُ أَيُّهَـا الْجَـاهِلُونَ﴾ بالآيـات البينـات الدالـة على وحدة المعبود ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والمرســلين ﴿لَئِنْ أَشْــرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُــكَ﴾ ولئن أشــركتم ليحبطن أعمالكم ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذا الإيحاء حق في ذاتـه وتعـريض للمشركين به تعالى ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ والفاء جزائيـة لشـرط مقـدر، أي إن كنت عابدا فاعبد الله فحذف الشرط وجعل تقـديم المفعـول عوضـا عنه ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّـاكِرِينَ﴾ لإنعامـه عليـك بمـا لا يعـد ولا يحصـى ﴿وَمَـا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ومـا عظمـوه حـق تعظيمـه ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًـا قَبْضَـتُهُ﴾ والجملـة حاليـة أي مـا عظمـوه والحـال إنـه كـذلك. أي لـه السلطان الباهر بحيث أن الأرض جميعها بطبقاتها القشـرية والصـخرية وغيرها مادة حقيرة صغيرة في كف قدرته الجبارة القوية ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ من غير سقوط ما في قبضته عنهـا ﴿سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم بذات صـاحب سـلطان كـذلك. والطي باليمين مفسر باللف والإمحاء بقدرته تعالى.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَـاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيـهِ أُخْـرَى فَـإِذَا هُمْ قِيَـامٌ يَنْظُـرُونَ (68) وَأَشْـرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَـابُ وَجِيءَ بِـالنَّبِيِّينَ وَالشُّـهَدَاءِ وَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِمَـا يَفْعَلُونَ (70)﴾

قوله تعـالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ﴾ المشـهور أن النـافخ فيـه ملـك واحـد. واسـمه إسـرافيل عليـه السـلام، بـل حكى القرطـبي الإجمـاع عليـه ﴿فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ في الأسـاس صـعق الرجل إذا

غشي عليه، وقد نقلنا سـابقا الحـديث الشـريف حـول الموضـوع، وأنـه عندما سمع الصوت يغشـي على النـاس فيموتـون اينمـا كـانوا ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وهم الأربعة المقربون، وحملة العرش ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي في الصور ﴿أُخْرَى﴾ أي نفخة أخرى بعد مدة أربعين سـنة ﴿فَـإِذَا هُمْ قِيَـامٌ﴾ من أماكن دفنهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ بعضهم إلى بعض أو ينتظرون ما يؤمرون، أو ينتظرون ماذا يفعل بهم ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ أي أرض المحشــر وهي الأرض المصفاة عن الجبال والأوهاد والتلال الصافية جـدا، كمـا يسـتفاد من قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِـفُهَا رَبِّي نَسْـفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ وحينئذ يجوز أن تكون أرض المحشر نفس الأرض السابقة، ولكنها بدلت بأن أحدث فيها صورة أخرى، وتكون بحيث تسع الخلائـق المحشـورة. ويجـوز أن تبـدل بأرض أخرى ذاتا وصـفة وصـورة، وتكـون أوسـع من ارض الـدنيا بمـا لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ وعلى هــذا تكون المغايرة ذاتـا وصـفة، وعلى الأول تكـون المغـامرة وصـفا فقـط. والله تعالى قادر على كـل شـيء، وقـد أضـاءت هـذه الأرض وأشـرقت ﴿بِنُـورِ رَبِّهَـا﴾ أي بنـور حـادث من أمـر ربهـا لا بالشـمس والقمـر، لأن الشمس كورت والنجوم انتشرت، وهذا النور حادث من الأمر الإبـداعي لله تعالى، وروي أن العالم يكـون كمـا بين الطلـوعين في وقت الربيـع الصحو الصافي عن الغبار ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي كتـاب حسـاب المكلفين وهي صحائف أعمالهم ونسخة منها سلمت لأصحابها إمــا من اليمين إن كـان صـاحبها أمينـا، أو من الظهـر أو اليسـار إذا كـان من أهـل الخيانـة ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ فيؤتي بالنبيين لا للمحاسبة بل ليسـئلوا عن أحوال الأمم التي بلغوها أحكام الله تعالى كما قال تعـالى ﴿يَـوْمَ يَجْمَـعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

وليشهدوا للأنبياء الآخرين على أممهم بالتبليغات أو ليحضروا محاسبة أممهم حتى إذا كان منها إنكار رده الأنبياء الأبرار. والمراد بالشهداء إما شهداء للناس على الناس من الملائكة والناس، أو الشهداء المتوفون في الحرب، ومجيئهم للتشريف، وقد يكون للشهادة على من قتلهم غيلة أو قتلهم ظلما، أو قتلهم في ميدان الجهاد. ويحتمل احتمالا قريبا أن يكون المجيء بالشهداء للشهادة على الأمم الكافرة المكذبة بالدين والله أعلم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي بين العباد بالحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيء لا يعلمه لكن لجريان سنته بالمحاكمة بين الناس حسب شريعته المحكمة.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)﴾

قوله تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ﴾ تفصيل لقوله الكريم ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾وتوفية ذلك بأنه سيق أي يساق الذين كفروا إلى جهنم بسوق ملائكة العذاب، وتفصيل كيفية السوق وزمانه ومكانه عند الملك العلام. وقوله ﴿زُمَرًا﴾ أي زمرة زمرة وفوجا فوجا، ومجمله أنهم يساقون إليها بالعنف والإهانة أفواجا متفرقة بعضها إثر بعض، والأفواج تحتمل الترتيب على إنكار الذات الواجب أو الإقرار به مع الإشراك به، أو إنكار الرسل أو سائر أركان الإيمان، أو بحسب فظاعة الإجرام والمعاصي من القتل والتعذيب للأبرياء أو ارتكاب الفواحش أو نهب الأموال أو البهتان وهكذا. ويمكن أن تكون الأفواج مرتبة على ترتيب الرسل ثم يرتب كل أمة على ما ذكرنا. والزمر جمع زمرة بمعنى الجماعة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي وصلوا إلى الجنة ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ أي الملائكة البوابون أو خزنة جهنم وزبانيتها على سبيل التوبيخ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي من جنسكم ونوعكم وبني عشيرتكم يعرفكم وتعرفونه ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي وقتكم هذا ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أي الحكم الرباني بالشقاء الموجب للعذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي علينا نحن لكفرنا والعياذ بالله ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي فليدخل كل منكم من بابها الذي اختص به حسب مراتب الإجرام ﴿خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي وبئس مثواهم جهنم.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي جماعات مرتبة حسب درجات فضلهم، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة، ثم هم بعد ذلك منازل))

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ والجملة حال أي جاءوها وقد فتحت أبوابها لهم كقوله تعالى جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي من جميع المكاره والآلام، وهو يحتمل الإخبار والإنشاء ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي مقدرين الخلود ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي الحمد لله الذي صدقنا وعده بالبعث والحساب اليسير والدخول في الجنة وأورثنا أرض الجنة نتبوأ حيث شئنا منها ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ وهذا من كلام الداخلين ذكروها في مقام التحدث بنعمة قبول العمل فضلا ورحمة واعتبارهم عاملين ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ أي محدقين أي محيطين مصطفين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ بجوانبه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يسبحونه ويحمدونه لأن الباء للملابسة، ولا يمكن الملابسة بالحمد في آن التسبيح فمعناه متلبسين بالحمد بعد التسبيح فوراً فيئول الأمر إلى معنى يسبحونه ويحمدونه بلا فصل. أي يقولون سبحان الله والحمد لله ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين العباد المختلفين في الدنيا ﴿بِالْحَقِّ﴾ وقال بعض بين الملائكة فإنهم وإن كانوا معصومين لكن لهم درجات مختلفة في الفضل والثواب، والمعنى أعطي كل واحد منهم ما يناسب مقامه من الفضل الروحي والثواب المناسب. وقيل من جانب العباد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما قضي بينهم بالحق وأوصل كلا إلى مقامه المناسب.

فهرس الكتاب

اذ قال موسى لاهله اني انست نارا ساتيكم منها بخبر.	181
ولقد اتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله.	184
وحشر لسليمان جنود من الجن والانس والطير.	186
وتفقد الطير فقال مالي لا ارى الهدد.	187
قال سننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين.	189
فلما جاء سليمان قال اتمدونني بمال.	191
قال سننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين.	192
المراد بالرجل الذي جاء بعرش ملكة سبأ.	193
وصدهم ما كنت تعبد.	195
ولقد ارسلنا الى ثمود اخاهم صالحا.	197
وكان في الدينة تسعة رهط.	198
ومكروا مكرا.	199
ولوطا اذا قال لقومه اتأتون الفاحشة.	200
الجزء العشرون.	201
فما كان جواب قومه الا ان قالوا.	203
امن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء.	204
امن يبدأ الخلق.	206
اعلال عمون.	207
وقال الذين كفروا ااذا كنا ترابا واباؤنا ائنا لمخرجون.	208
ويقولون متى هذه الوعد.	209
واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض	210
ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات.	213
سورة القصص.	216
طسم تلك ايات الكتاب المبين.	216
واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه.	218
ولما بلغ اشده واستوى واتيناه حكما وعلما.	220
ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها.	222
فاصبح في المدينة خائفا يترقب.	223
ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل.	225